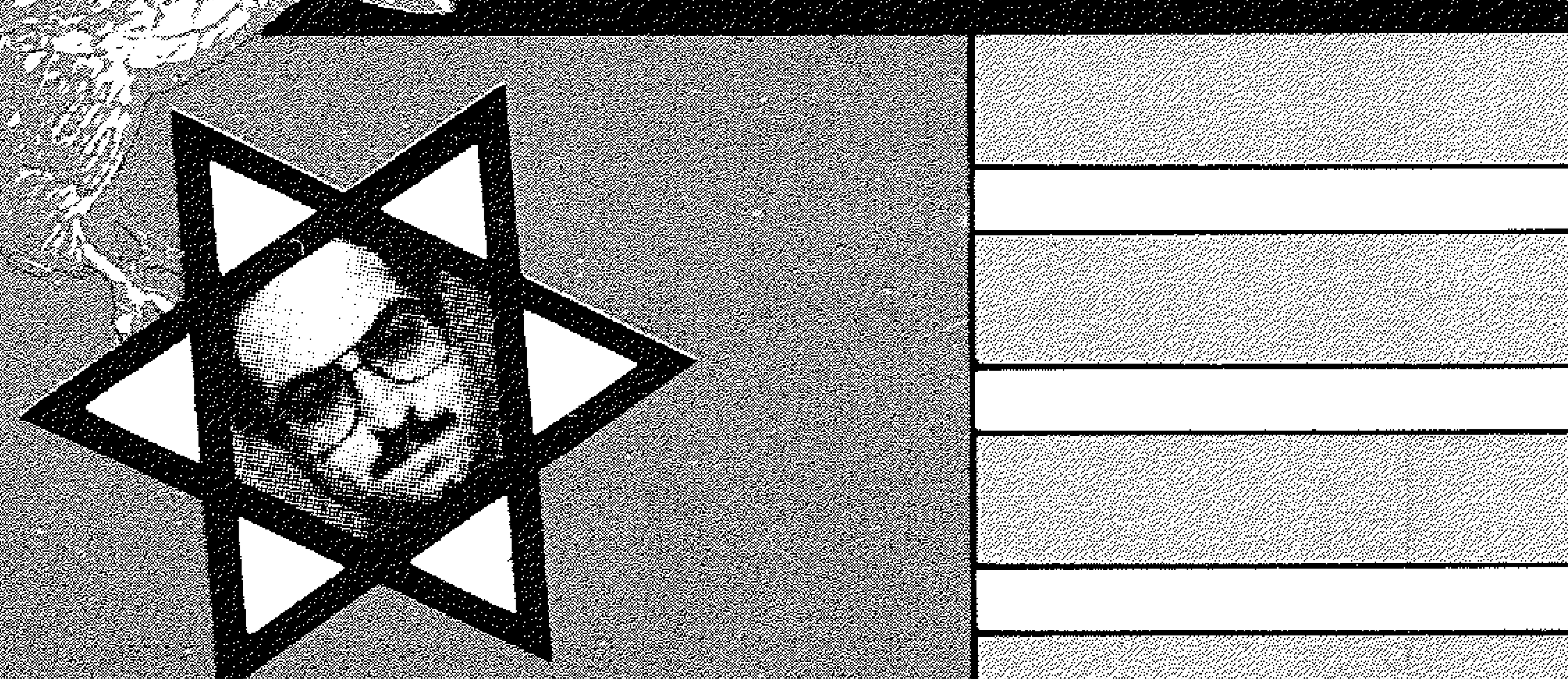
TERRITORY OF LIES
THE EXCLUSIVE STORY OF JONATHAN JAY POLLARD: THE AMERICAN WHO SPIED ON HIS COUNTRY FOR ISRAEL AND HOW HE WAS BETRAYED
BY WOLF BLITZER

أرض الأكاذيب

القصة المثيرة لجاسوس اسرائيل (الأميركي اليهودي)
يوناثان جي بولارد



دار المؤلف

ارض الأكاذيب



القصة المثيرة لجاسوس اسرائيل (الأميركي اليهودي)
يوناثان جي بولارد



للنشر والطباعة والتوزيع ش.م.م



للنشر والطباعة والتوزيع ش.م.م

المركز الرئيسي : بيروت، شارع مار الياس ـ بناية القصر، ط ٥ ـ هاتف: ٣٠٨٠٥٢ ـ ٣١٣٦٨١ ـ ص.ب ٥٤٦٠ ـ ١١ بيروت.

التوزيع في بيروت : مكتبة الحكيم، الحمراء، شارع المقدسي بناية بخعازي مقابل مستشفى خالدي هاتف ٣٥٤٨٤١.

مكتبة الحكيم الجديدة، المصيطبة، شارع بزيك بناية تويتز.

الطبعة الأولى

١٩٩٢

مقدمة
نظرة إلى الهاوية

قابلت يوناثان جاي بولارد أول مرة في تشرين الأول/ نوفمبر ١٩٨٠ في الإصلاحية الاتحادية في بطرسبورغ، فرجينيا، حيث كان في انتظار محاكمته بتهم التجسس. كانت قصة مثيـرة هزت العلاقات الأميركية الإسرائيلية. وزير الدفاع كاسبار واينبرغر أفاد: «يتعذر علي حتى في ما يسمى «سنة الجاسوس» أن أتصور أذى أشد للأمن القومي من الأذى الذي سببه المدعى عليه، نظراً لاتساع المعلومات المباعة لإسرائيل وأهميتها الخطيرة للولايات المتحدة وحساسيتها البالغة». أما بالنسبة للطائفة اليهودية فقد كان كابوساً تحقق ـ تجسس يهودي أميركي لصالح إسرائيل.

كانت الدلائل لا تعد ولا تحصى. قمت بتغطية القصة منذ اليوم الأول لإذاعتها، الخميس ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٥. وأذكر التفاصيل جيداً.

مساء ذلك اليوم في واشنطن تلقيت مكالمة هاتفية من شـارلز وولفسـون وهو مخـرج كبير «للأخبار المسائية في محطة سي بي أس» وصديق. وسبق له أن عمل في المكتب الرئيسي لِـ CBS في تل أبيب. ذكر أن ريتا بريقر مراسلة دائرة العدل في CBS كانت على وشك إذاعة قصة غريبة حول محاولة فاشلة قام بها في ساعة مبكرة من ذلك اليوم محلل المخابـرات البحريـة للولايات المتحدة لدخول السفارة الإسرائيلية في واشنـطن كلاجىء سيـاسي. إلا أن وكالـة الاستخبارات الأميركية اعتقلته وأخرجته من السفارة. وأراد وولفسون معرفة ما إذا كان لدي تفاصيل إضـافية. أخبرته بأني لم أسمع بالحادث. كان أول رد فعل لي أن القصة تبدو مدعاة للسخرية. وأظن أنني قهقهت. ومن السنوات التي أمضيتها في واشنطن كنت أعلم أن السفارة لا تخلو غالباً من المعتوهين على اختلاف أنواعهم. منهم من لديه اقتراحات سلام حسنة النية ولكن غريبة. وآخرون من قدامى محاربي حرب فييتنام ويرغبون في التطوع للخدمة في الجيش الإسرائيلي. وكان لدى موظفي الأمن الإسرائيليين تعليمات ثابتة بإبعاد هؤلاء الأشخاص بلباقة مشوبة بالصرامة.

أكد لي وولفسون أن القصة خطيرة. وقال إن محطة CBS تعتزم إذاعتها خلال التسعين دقيقة

القادمة. ولكني استشففت من صوته أنه هو أيضاً لا يزال مرتاباً. أخبرته أنني سأتبصّر في القصة وأعود إليه.

كانت جريدتي أنا، جيروزاليم بوست، تقارب الموعد الأخير. لذا لم يكن لدي متسع من الوقت. ناديت موظفاً في السفارة الإسرائيلية. وسرعان ما أكد لي أن شخصاً يدعى يوناثان جاي بولارد جاء فعلاً إلى السفارة ذلك الصباح طالباً اللجوء السياسي. كان يقود سيارة موستانغ خضراء. ادعى أنه جاسوس إسرائيلي. وكيهودي ذكر «قانون عودة» إسرائيل الذي يمنح تلقائياً المواطنية لليهود لدى وصولهم إلى إسرائيل. كان معه زوجته آن هندرسون بولارد والقطة دستي. قال الدبلوماسي إنه لم يكن يعرف شيئاً آخر عن المسألة، وأصر على أن الأمر مجرد «خبل» على ما يبدو. وفكّر أن الشخص قد يكون مخبولاً. ولكنه أكد لي أن السفارة تولي الأمر اهتماماً شديداً، وأسرّ أن البعثة الدبلوماسية لإسرائيل في عاصمة الولايات المتحدة كانت في هياج.

رغم الشك الذي كان لا يزال يساورني بادرت لمكالمة المحرر الليلي في جريدة «البوست». كانت الساعة متأخرة، تجاوزت منتصف الليل في إسرائيل.

سارعنا لنشر القصة في الجريدة. ضحك هو أيضاً عند سماع ما قلت. شرحت أن أخبار محطة CBS تنقل القصة، وأن الموظفين الإسرائيليين في واشنطن يولون المسألة اهتماماً شديداً. عندها وافق بتردد على حشرها في الجريدة. وأردف بحدة «ابقها متراصة».

كان رأسي فريسة الاضطراب عندما أمليت بضع فقرات ذاكراً أن المصدر الذي استقيت منه معلوماتي هو «أخبار محطة CBS». واستناداً إلى سني خبرتي ارتبت في أن المراقب العسكري الإسرائيلي قد يحذف قصة كهذه ما لم تُنسب إلى وكالة أخبار أجنبية. فليس باستطاعة المراقب حذف قصص سبق أن ظهرت في الخارج. وبعد عدة أيام عندما وصلتني نسختي المرسلة جواً من الجريدة سرني أن أرى القصة في الصفحة الأولى رغم ارتباكي لأن اسم الجاسوس ورد: «يوناثان جاي بولارد» إذ إن كتابتي للحرف «ب» أضحت «ت» أثناء الإملاء عبر الأطلسي. باختصار كان ذاك تقديمي المنحوس لفضيحة بولارد.

في العام الأول بعد الاعتقال لزم بولارد وزوجته الصمت علانية في وجه سيل الاتهامات ضدهما في وسائل الأخبار. إذ أشار عليهما محاموهما بعدم التحدث إلى الصحافة. وقالوا إن على بولارد وزوجته التعاون مع السلطات وإبداء الندامة العظيمة على جرائمهما. وما عليهما إلا التماس الرأفة معترفين بجرائمهما. تلك استراتيجيتهما القانونية المطلوبة. ومع أن عشرات وكالات الأخبار طلبت مقابلات إلا إنها قوبلت كلها بالرفض الروتيني. وباءت بالفشل محاولاتي الهاتفية المتعددة للاتصال بمحامي بولارد وزوجته.

كما كان الإسرائيليون مرتبكين ومتلهفين للحد من الضرر اللاحق بسمعتهم وعلاقتهم بالولايات المتحدة، كانوا مرتاحين لهذه الاستراتيجية إذ أرادوا أيضاً زوال الفضيحة بكاملها من

العناوين الرئيسية. كانوا مبتهجين علماً منهم أن بولارد سيبرر الاتهام. ويمكن تجنب محاكمة محلفين مطولة وواسعة الإعلان والانتشار. افترضوا ـ مخطئين ـ أنه إذا برر بولارد الاتهام فإن كافة التفاصيل الخطرة للعملية ستظل سراً. وما دروا أنه لا بد لحكومة الولايات المتحدة أن تقدم أوراقها مطولة إلى القاضي قبل إصدار الحكم.

بدا أن القصة آخذة في التلاشي، بينما انتظر بولارد وزوجته الحكم برباطة جأش. ولكن فجأة إذا بالأمور تتفاعل من جديد.

بعد اعتقال بولارد بما يقارب العام في أوائل تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٦ اتصل بي في مكتبي بواشنطن برنارد هندرسون والد آن هندرسون وسأل إذا كان يستطيع القيام بزيارة خاطفة لي، فلديه بعض المعلومات لينقلها إلي.

الذي أراد أن يقوله لي إن بولارد شعر بغدر إسرائيل له. وفضلاً عن ذلك كان من ناحيته موظفاً مخلصاً إلا أنه نُبذ لسبب نجهله. ما الداعي لحرمانه من اللجوء إلى السفارة الإسرائيلية في واشنطن بعد أمره بالتوجه إليها؟ ما السبب في تعاون إسرائيل مع تحقيق وزارة العدل؟ لماذا انقلبت إسرائيل عليه؟ كثير من التفاصيل التي ذكرها هندرسون لا تُصدق وتحتاج إلى إثبات. لقد أمضى معي ثلاث ساعات في مكتبي المغلق في قطاع جورجتاون العلوي في واشنطن. جلس قبالة مقعدي يدخن السجاير بصورة متلاحقة. كنت في الواقع مشمئزاً من الدخان ولكني لم أتذمر.

أخبرني هندرسون فيما بعد أنه لم يأت إلى مكتبي إلا بعد مباحثات مطولة مع ابنته وبولارد. كانا قلقين بأن المدعين لم يطبقوا اتفاقيات مشارطة دفع الدعوى التي وقعت في حزيران/ يونيه، وقال هندرسون: «لقد بدأوا بمعاقبة جاي. وشرعوا بتوقيف أناس آخرين. صاروا يلفقون القصص ويحشون بها الأوراق. إنها قصص مزورة. لقد كشفوا ما كانوا يفعلونه سابقاً واستعاد قول ابنته: «أنا لا أبالي بأقوال المحامين. الوضع غير مناسب هنا. إذا عدت إلى السجن فسيُقضَى عليّ دون أن يعلم أحد بأمري». وقال هندرسون إنه رد عليها «أنت حتماً على حق».

خلال الأيام القلائل التالية قرروا التوجه إلى مراسل صحفي، لم يستشيروا محاميهما. قال لي: «حررنا قائمة. وكان اسمك أحدها. لقد استعرضنا عدة أسماء».

توجهت آن بالسيارة من واشنطن إلى بطرسبورغ. لبحث الموضوع مع بولارد. عرضت عليه القائمة. قال هندرسون: «أراد جاي القيام بذلك بهدوء وحذر منذ اليوم الأول. كان الأكثر تردداً لفتحها. واضطرت آن عدة مرات للصياح عليه للقيام بما يجب».

بعد بضعة أيام من اجتماعنا الأول عاد هندرسون لزيارتي. ويبدو أنني أعجبته من حيث كوني ودوداً. طوال الواقت كان لا يزال يجهل ما أكتبه. ولكنه سأل عما إذا كنت أود مقابلة بولارد. سارعت للرد إيجاباً. كنت أعرف أن الاجتماع الأول سيكون مصدراً لأخبار جديدة عالمية الانتشار، وسيكون لها وقع كبير دون ريب في إسرائيل، والطائفة اليهودية الأميركية.

قال هندرسون: «لماذا لا تتصل بآمر السجن في بطرسبورغ؟ يجب أن تحاول على ما أعتقد».

شكرته على نصيحته. واتصلت بالسجن الاتحادي في بطرسبورغ فرجينيا ثم قدمت طلبي الخطي.

كنت لا أزال أشك في فرص النجاح. ولكني ذهلت عندما رد عليّ آمر السجن خلال بضعة أيام يخبرني أن طلبي حظي بالموافقة. لم أعرف السبب بالضبط، ولكني لم أطرح أسئلة.

في الاجتماع صُدمت كيف أن حياة السجن بدلت المحلل المدني السابق لمخابرات بحرية الولايات المتحدة منذ مثوله الأول تكراراً أمام المحكمة قبل عام بالضبط. كان يضع نظارات ذات إطار معدني. شعره الأسمر كان خفيفاً للغاية وقد اتسعت بقعة الصلعة في أعلى رأسه. ونما شاربه فوق فمه. إلا أن أكثر الظواهر إثارة أنه في العام الذي مضى على اعتقاله فقد وزنه أكثر من ٥٠ رطلاً انكليزياً في ما يصفه بحمية «غذاء الحياة». النقانق والفول المعاد قليه الذي حضره الطباخون السود للمساجين ومعظمهم أيضاً من السود. والواقع أنه لم يكن باستطاعة بولارد تنقيص الغذاء. وعندما علمت أنه لم يكن ينام لم أستغرب ولكني ارتجفت للسبب: في كل ليلة كان صوت السجناء يشحذون ملاعقهم بالأرضية الإسمنت يصل إلى مسمعه في زنزانته في الحبس الانفرادي الذي وضع فيه بولارد حفاظاً على سلامته. أخبرني أنه كان مهدداً بالموت: «سنقبض عليك أيها اليهودي الخائن». كان الصراخ ينبعث من كلا الأخوين الآريين البيض والسجناء المسلمين السود. مجموعتان لم يتفقا عادة على شيء. كان يخشى دوماً على حياته. وذكر لي أنه في بطرسبورغ لم يكن يثق حتى بالحرس.

سمح لي الحرس بأن أحضر معي آلة التصوير وجهاز التسجيل الخاصين بي. أقبل بولارد من زنزانته يرتدي قميصاً كاكياً من تقديم السجن. جلسنا معاً على كراسي بلاستيكية في غرفة رحبة قليلة الأثاث حيث يجتمع الزوار (محامون، وأقارب، وأصدقاء) مع السجناء. وعلى مقربة وقف حارس يراقبنا، ووُضع جهاز تلفزيون في مكان مرتفع من جدار من الإسمنت. وطوال الساعات الثلاث التي أمضيتها مع بولارد في ذلك اليوم لم تنقطع أصوات استحسان مشاهدي الألعاب في الخلفية. لا أظن أنه كان باستطاعة الحارس سماع محادثتنا مع أني افترضت أنه ربما وُصلت الطاولة ـ أو بولارد لذاك الغرض ـ بأسلاك. لم أعرف ماذا كان يدور حولي. إلا أن ريبتي كانت في ازدياد. ومثل هذا الازدياد كان ضرورياً لي كمراسل صحفي. فهل طُبق علي هذا الإجراء أو استُخدمت لتحقيقه؟

بدأ بولارد الحديث بكلام مقتضب. وبدا شعوره بالمرارة بعد عام من العزلة المادية. ولكن ما انفك يحاول جعل اجتماعنا محتملاً ومريحاً نسبياً، هنأته على تخلصه من الوزن. كان معتدل القامة وبديناً عندما رأيته أول مرة في المحكمة إثر اعتقاله.

قال: «لقد توقفت أيضاً عن التدخين. كنت أدخن حوالى علبتي مارلبورو يومياً. قررت أنني بذلك أساهم في القضاء على حياتي وبمعدل غير مقبول».

سألته: «هل تشعر الآن بتحسن»؟

أجاب: «نعم، رغم أني كنت مصاباً بذات الجنب مرض رئوي».

سألت بولارد كيف انتهى إلى هذه الورطة. استشهد برواية، غراهام غرين، الأميركي الهادىء. قال إنه تعلق بقصص التجسس. «لا أدري إذا كنت قرأت أياً من مؤلفاته. ولكنه بالنسبة لي أحد المؤلفين المفضلين ثمة شخصية، مراسل دولي، يصف أحد معارفه ـ دبلوماسي أميركي ـ بقوله: «لم أقابل أبداً رجلاً ذا بواعث أفضل لجميع المشاكل التي سببها. وأنا أظن أن هذا بالذات خير ما يصور دوافعي وما أعقبه من تورط في هذه الفضيحة على حدٍ سواء».

قال لي إن حياة السجن كانت فظيعة. وأضاف أن العزلة تشبه نوعاً من التجربة التي يمر بها مسابقو اليخوت الفرادية للمسافات البعيدة ـ مع أني أرضى بسرور بمقايضة بيئتي بالبيئة التي ينعمون فيها. فسمك القرش يمثل على الأقل خطراً معروفاً لبحّار بينما التهديدات في حالتي متعددة كنسمة هواء.

بدا على بولارد فزع شديد. قال: «إن خير وصف لوضعي هو أنني في الهاوية. إنها محبطة للعزم ومرعبة للغاية». وأكثر من العزلة كان يخشى فكرة إطلاقه بين نزلاء سجن عام. وتساءل: «ماذا سيحصل هناك؟ لا أدري ماذا سيحدث إذا رموا بي للذئاب».

قارن مصيره بمصير ملاح في السلاح الجوي الإسرائيلي أسقط مؤخراً فوق لبنان وأسره الشيعة اللبنانيون. إنني أقدر ما يلاقيه ذلك الملاح الآن. فنحن من حيث الوضع نكاد نكون صنوين». وأضاف: «إن حياة السجن تصبح مجرد معركة لتبرير بقاء الإنسان».

كان متلهفاً لتوجيه خطاب بواسطتي إلى الطائفة اليهودية الأميركية. قال: «أعتقد أن اليهود الأميركيين لا يُقدرون وضعية يهودي في السجن بغض النظر عما إذا كان حسن الدوافع أو مجرد محتال». أما النفر القليل من السجناء اليهود الآخرين في بطرسبورغ فقد كانوا يبدون نحوه بعض التعاطف. وقد نعتهم بولارد بالأشراف، وهي كلمة عبرية، بمعنى طاهر، الناس الأشراف. لم يتلق بولارد حتى ذلك الوقت أي تعاطف من جالية يهودية أميركية، اتضح أنها أصيبت بالارتباك واستثيرت بفعل الفضيحة برمتها. قال «مما يدعو إلى السخرية أن لا أجد التأييد المعنوي الذي كنت أتوقعه من أعضاء محترمين في الجالية اليهودية الأميركية إلا عند الزملاء المساجين». وأردف: «ربما انتهك السجناء اليهود القانون. إلا أن كثيرين منهم احتفظوا بشعور من الشفقة ويقظة عرقية جديرة بالثناء».

سألت بولارد عما كان يدور بخلده في السجن بحيث إن تفكيره لم يكن بنشاطه المعهود. قال إنه أمضى ردحاً طويلاً من الزمن يفكر حول مستقبل إسرائيل الاقتصادي. فهو لا يزال يحب البلاد

رغم شعوره بتخليها عنه. كان أمله الكبير أن يعيش ذات يوم في إسرائيل ويساهم شخصياً بمسيرة إسرائيل نحو الاكتفاء الذاتي الاقتصادي. وقال: «من حسنات العزلة أنها تساعد على تركيز الذهن. شاغلي الأكبر هو حياة ما بعد السجن وما يمكنني عمله عند خروجي. أريد أن أصبح عضواً منتجاً في المجتمع». وأضاف أنه وزوجته يرغبان «بلا تردد» في العيش في إسرائيل.

إلا أن بولارد كان في الوقت ذاته في كفاح يومي لقد شبع قراءة ونوماً ـ «إنه أسلوب تهربي». كان وضعه مؤلماً. «ثمة حدود، وأنا أقترب بسرعة من تلك الحدود. كف واحد لا يصفق. لقد تعبت. إنني مُحبَط. وفزعي فوق التصور على نفسي وزوجتي كل ما أريده نهاية لهذا الكابوس».

كتب نيتشه «عندما تنظر إلى الهاوية تنظر الهاوية أيضاً إلى أعماقك». رأيت في بولارد إنساناً يتعذب. محلل مخابرات شاب ذو إمكانيات باهرة ونجم في حقل نشاطه ـ نزيل السجن الآن. كان التباين الفجائي كلياً في أسلوب معيشته، وهو تبدل تام لهذا اليهودي العالمي وابن الطبقة الوسطى. وشتان بين وضعه الآن وبين جامعة ستانفورد أو كلية نوتردام للحقوق أو جامعة أنديانا أو كلية فلتشر للحقوق والدبلوماسية في جامعة تافتس حيث كان بولارد يدرس قبل سنوات قلائل.

جابهت العديد من الأسئلة المقلقة للغاية حول هذه القضية التي هزت الجالية اليهودية الأميركية. وسمعت الاتهامات الغاضبة للولايات المتحدة الأميركية بأن بولارد كان مستأجَراً شريراً وجشعاً، وخائناً خطراً، على استعداد لخيانة بلاده لقاء المال. كما سمعت التفسيرات الواهية والمشوشة بجلاء والتي قدمتها الحكومة الإسرائيلية عن انتماء بولارد إلى وحدة محتالة وغير مصرح بها لجمع المخابرات. بيد أنني سمعت الآن الرواية المختلفة كلياً للأحداث التي جعلت منه «محط الأنظار» ومتطوعاً في شبكة تجسس فائقة السرية لإسرائيل. لقد نفى بمرارة أنه تجسس من أجل المال ـ لم يكن المال همه. كل ما أراده نشر تلك الرسالة. وهذا سبب تلهفه لمقابلتي.

قبل اجتماعي به حسبت أن بولارد كان غريباً أو مخبولاً. كان ثمة قصص صحفية عن تبجحه في الكلية بأنه عمل للموساد، مصلحة الاستخبارات الإسرائيلية. وأفادت روايات أخرى أنه كان يتعاطى المخدرات. ولكن عندما تحدثنا بدأت أظن أنه ليس مخبولاً. بدا عليه أنه جم الذكاء ومقنع، يروي قصة بنبرات تتسم بالروية والاتزان. كان واضحاً ومؤثراً للغاية. وعندما تحدثنا عن الأدب والموسيقى ـ تبين لي فيما بعد أنه في المدرسة العالية كان رابح جائزة الفيولونسيل ـ أظهر حساسية حقيقية.

لقد أثر فيّ بولارد إلى حدٍ ما، كابن لمتهور من الجالية اليهودية الاميركية. أحسست أن يهود أميركا مسؤولون جزئياً في تكوينه. لقد نشأ مؤمناً بمركزية إسرائيل للشعب اليهودي. كان رائده تقديم مساعدته الشخصية.

في ذلك اليوم في بطرسبورغ ذكّرني بولارد كثيراً بغيره من الشبان اليهود النجباء الذين لم تكن اليهودية بالضرورة مِلّتهم، إنما إسرائيل ـ عاطفة أيديولوجية نحو البلاد كحق موروث لجميع اليهود.

تصوُرهم لإسرائيل غالباً ما يكون موضع مغالاة وغير واقعي، قلت في نفسي: ولكن سبحان الله، باستطاعة أي منهم أن ينتهي إلى ما أقدم عليه بولارد في ظروف مماثلة. وهذا ما ضايقني.

قبل الانصراف سألت بولارد عن سبب موافقته على مقابلتي. أجاب بولارد: «استند قراري باديء ذي بدء على اعتقادي بأنك تتحلى بدرجة عالية من الاختصاص لطمس قضيتي، وهذا أمر خطير بالنسبة لي. لأنه أكثر ما أساء لي هو طيش الصحافة». لقد شعر بأن وسائل الأخبار لم تلتزم جانب الدقة في تصويره. وقال إنه رغب في شرح دوافعه شخصياً للتجسس لإسرائيل.

قال: ثابرت سنوات على قراءة سطرك الرأسي. ذاك في الحقيقة السطر الرئيسي.

إلا أن بولارد أوضح أيضاً أنه اختارني من أجل الجمهور الذي أكتب له. كان مهتماً بوجه خاص في الوصول إلى شعب إسرائيل وكذلك الجالية اليهودية الأميركية. وقال: «سأكون أول من يقر بانتهاك القانون. ولكن الطفل بحاجة إلى شيء من التعاطف. خِلت أني أفيد إسرائيل والولايات المتحدة».

جئت حاملاً في جعبتي عدة توقعات يبدو أنها لم تتحقق. وغادرت وأنا في غاية البلبلة. إذ إن العديد من الأسئلة ظلت دون جواب. ما الداعي لإقدام الإسرائيليين على هذا العمل؟ أما كانوا يحصلون على قدر كاف من المعلومات رسمياً من الولايات المتحدة؟ لم المجازفة بمجمل العلاقة الأميركية ـ الإسرائيلية؟ هل كان لتجسسه لإسرائيل ما يبرره؟ هل كانت الولايات المتحدة تمنع عن إسرائيل معلومات حيوية ضرورية لمجرد بقائها؟ هل كان بولارد جزءاً من عملية احتيال أو كان لديه تفويض رفيع المستوى؟ وما مدى رفعة ذلك التفويض؟ هل كان ثمة تغطية إسرائيلية رسمية؟ هل كان يعمل بمفرده ضمن مجموعة استخبارات الولايات المتحدة أو كان هنالك شخص «مجهول» خفي، جاسوس إسرائيلي آخر لا يزال طليقاً؟ وما علاقة قضية بولارد بمفهوم الولاء المزدوج لليهود الأميركيين؟

ابتعدت بسيارتي عن السجن، تاركاً خلفي برج مراقبة ضخم ولفات لا تنتهي من الأسلاك الشائكة. كان البرد قارصاً والطقس ماطراً ـ ملائماً، كما تراءى لي، للتأمل فيما شاهدت وسمعت. كنت مصمماً على معرفة ما إذا كان بولارد حقاً جاسوساً هداماً وخطيراً أو مجرد شاب ذي نبوغ يعيش حياة زاخرة بالأحلام تركزت حول أن يصبح بطلاً أسطورياً للبلد الذي يؤله.

توقفت عند أول هاتف عمومي صادف وجوده خارج مبنى شاهق. لم أخبر محرريّ شيئاً عن المقابلة سلفاً لأني لم أكن على تمام اليقين من أنها ستتحقق. وإلى أن واجهت بولارد فعلاً، كان يتنازعني خوف من أن يعتذر الحرس في آخر لحظة، فلا داعي لاستثارة كل محرريّ والجعبة خالية.

كان الزمان مساء الخميس والمكان القدس عندما وصل داڤيد لانداو مساعد المحرر الإداري في جريدة «البوست». وهو ليس سريع الانفعال عادة، ولكن سرعان ما بدا تلهفه لسماع ما لدي من

أخبار. سألته كيف سيُخرج القصة؟ الواقع أنني استحسنت فكرة الانتظار بضعة أيام لأحضر مقالاً مطولاً بروية وتمهل. وكان بولارد قد أكد لي أنه لا ينوي مقابلة أي من المراسلين الصحفيين الآخرين، وبذا أنفرد أنا في الحصول على قصته ـ على الأقل في الوقت الحاضر. أما لانداو فقد أصرّ من جانبه على أن أصوغ المقابلة فوراً، اليوم التالي، ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر، صادف الذكرى السنوية الأولى لاعتقال بولارد. كما كان يوم جمعة تنشر فيه الصحف الإسرائيلية أطول طبعاتها.

جلست ساعتين في سيارتي أتلو مذكراتي وأصغي إلى تسجيل الشريط وأسجل القصة على جهازي الذي يضم كمبيوتر ومذياع علوي.

كان بولارد قد أخبرني أنه سجل كلامه وترك لي حرية التصرف بالتسجيل، قال لي: «إن لي ملء الثقة فيك. قررت التعاطي مع صحفي واحد، هو أنت. تصرّف بالشريط كما تشاء».

في جريدة الجمعة كانت الرأسية:

«المخبول». بولارد: «لماذا تخلت إسرائيل عني؟»

نقلَت قصتي عن بولارد قوله: «إني منسحق القلب... يتملكني ذات الشعور الذي يعتري أحد طياري إسرائيل إذ لم يتقدم أحد لسحبه عند إسقاطه ـ حتى ولا بنقلة إصبع. بل استجواب عن قدراته ودوافعه».

أثارت القصة ضجة في إسرائيل. فلأول مرة عُرض على الملأ موقف بولارد من القِصّة. لقد تصرف بدافع من حبه لإسرائيل ـ وليس من أجل المال التقطتها جميع المصالح البرقية ونُقلت حول العالم وطلبت مني الواشنطون بوست كتابة مقال خاص حول المقابلة لقسم «أوت لوك» من عدد الأحد. وأعيد طبعها في العديد من الصحف الأخرى. ودُعيت لبحث الموضوع في برامج مقابلات التلفزيون والإذاعة الأميركيين. وبدأت الإذاعة البريطانية تكثر في دعوتي لمقابلات هاتفية. وبين عشية وضحاها أصبحت الخبير في فضيحة بولارد.

في هذه الأثناء ثابرت على ملاحقة مختلف نواحي القضية. ولم ألبث أن قررت طلب مقابلة أخرى مع بولارد. أُعطيت إذناً ولكن بعد وقت أطول هذه المرة. كتبت إلى الحارس، وردّ عليّ أحد مساعديه بأن ثمة قيوداً أصولية على مقابلات السجن. قال «هذا ضروري لحسن سير الأعمال النظامية وتأمين الموظفين اللازمين للإشراف على تلك المقابلات ومنح كل الوسطاء بالتساوي حرية الوصول إلى النزيل».

في أوائل كانون الثاني/ يناير ١٩٨٧ سافرت بالطائرة إلى إسرائيل حيث قابلت بعض كبار المسؤولين الإسرائيليين من ذوي الاطلاع العميق على قضية بولارد. علمت وتثبتّ من بعض التفاصيل التي لا تصدق. وأخبرني موظف استخبارات إسرائيلي أن بعض المعلومات التي قدمها

بولارد كانت «مثيرة» بحيث بررت المخاطرة التي أقدمت عليها إسرائيل بتشغيل عميل في واشنطون. كما أن مسؤولاً إسرائيلياً آخر أكد لي معظم ما ذكره بولارد لي.

عدت إلى واشنطون حيث ألحقت كتابي إلى سلطات السجن بمكالمة هاتفية. كان همي تأكيد اهتمامي المستمر بالمقابلة. كنت لطيفاً ولكن متشبثاً. وقد أثمر هذا التوافق. فخلال أيام قلائل تلقيت المصادقة على المجيء إلى بطرسبورغ في ٢٩ كانون الثاني / يناير الذي تحوّل إلى يوم آخر شديد البرودة والإرباك.

في غضون هذه الجلسة الثانية كان بولارد أكثر اكتئاباً منه في مقابلتنا الأولى. كان أكثر عصبية وانفعالاً. أخبرني أنه الآن أكثر اقتناعاً بأنه سيحكم عليه بالسجن المؤبد مع أن الادعاء كان قد وعد، كجزء من اتفاق المشارطة بعد المطالبة بالمؤبد وقد شعر بأنه غُرر به. وألقى معظم اللوم مباشرة على وزير الدفاع كاسبار واينبرغر. في ذلك الوقت تسنى له الاطلاع على مذكرة واينبرغر المبوبة إلى القاضي قبل الحكم تُجمل الضرر ـ الذي سببته تصرفاته لأمن الولايات المتحدة القومي.

يوم الأحد، ١٥ شباط/ فبراير نشرت مقالاً ظهر في آن واحد في جيروزاليم بوست والواشنطون بوست. ولأول مرة دُعم المقال بالوثائق الطبيعية الحقيقية لبعض المعلومات التي قدمها بولارد إلى إسرائيل. مثلاً رويت أنه زود الإسرائيليين بصور استطلاع الولايات المتحدة لمقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس. بما في ذلك وصف للأبنية هناك. هذه المعلومات وغيرها مما يمت لها بصلة مكنت سلاح الجو الإسرائيلي من تجنب الانكشاف وإلقاء القنابل على المقر في ١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٥. وذكرت أنه رغم ادعاء إسرائيل بأن بولارد كان جزءاً من عملية احتيال، «فإن المسؤولين الإسرائيليين يتحدثون عنه بلهجة يشتم فيها أنه قد يكون واحداً من أهم الجواسيس في تاريخ إسرائيل».

لقد تساءلت، لماذا لم تعط الولايات المتحدة لإسرائيل هذا النوع من المعلومات الهامة؟

من وجهة نظر إسرائيل، فإن المعلومات التي حصل عليها بولارد كانت خطيرة ـ «فائقة الأهمية» وهو الوصف الذي تردد في سمعي من أعلى الزعماء الإسرائيليين.

لقد اتضح أنه كان للمقابلات تأثير مهم ولكن غير متوقع إطلاقاً على حيوية كل منها. فنظراً للقصص التي حررتُ رأى البعض أنني كنت كثير التعاطف مع جاسوس معترف. إلا أن آخرين اعتبروني أحد جلادي بولارد بسبب إفشاءاتي. تلك التهم المنسوبة لي وشعور الامتعاض الذي أثارته كانت عوامل ساعدتني على معرفة أكبر قدر ممكن عن القضية.

في مذكرة الحكومة قبل الحكم أورد المدعون المقابلة الأولى لبولارد معي كأحد الأسباب التي تبرر تلقّيه حكماً قاسياً. قالت الحكومة إن بولارد «انتهك شرطاً صريحاً في اتفاقه الخطي لدفع الدعوى». ومع أن المعلومات التي أعطانيها بولارد لم تكن منسقة، فقد انتهك الإجراءات بمجرد التحدث إلي.

ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن المدعى عليه سيقوم بمزيد من إفشاءات المعلومات المنسقة لإسرائيل فيما لو أتيحت له الفرصة. ففي بيانه الخاص كما نسب إلى مراسل الجيروزاليم بوست يعتبر المدعى عليه إسرائيل «وطنه» ويعتزم العيش فيها عند إطلاق سراحه. ويدعي المدعى عليه أنه «يشعر بالولاء نحو ذلك البلد كأي من أبنائه». والعذر الوحيد الذي يقدمه المدعى عليه أن نشاطه التجسسي «لم يكن الأشد فعالية من وجهة نظر طويلة الأمد».

في مذكرة منفصلة غير منسقة وجهها وزير الدفاع أشار واينبرغر أيضاً إلى مقابلة بولارد معي مدعياً أنه «ولاء بولارد لإسرائيل يفوق ولاءه للولايات المتحدة».

أشار واينبرغر إلى مقالي بتاريخ ١٥ شباط/ فبراير في الجيروزاليم بوست والواشنطون بوست. كتب قائلاً:

«لقد احتوى ذلك المقال على معلومات تُوهم أنها تعكس مساعي استخبارات الولايات المتحدة. وبينما لا أعتزم أن أؤكد أو أنفي علانية صحة هذه البيانات إلا أن عدم كشفها بالمرة للرأي العام، في حال صحتها، كان مغالطة كبرى. لقد نفى المتهم مبدئياً أن يكون مصدر المعلومات، ولكن عندما جوبه بفحص مكشاف الكذب في ٢٥ شباط/ فبراير أقرّ بأنه إما قدم بعض المعلومات الواردة في المقال أو أثبتها، بالتحدث إلى صحفي. ولا يمكنني معرفة ما إذا كان قد قدم معلومات إضافية لم تنشر في ذلك المقال ولكني أعتقد أن باستطاعته دون ريب، وسيواصل إفشاء أسرار الولايات المتحدة دون اعتبار التأثير الذي قد تتعرض له سياسة الولايات المتحدة الخارجية للدفاع القومي».

لقد أُصبت بصدمة، فعلى حين غفلة وفي حالة من الاكتئاب أُقحمت في القصة. إلا أنني لم أتسلل إلى السجن. وقعت نماذج دائرة عدل الولايات المتحدة في كلتا المناسبتين مبيناً بوضوح غايتي من الاجتماع ببولارد ـ طبعاً عرّفت بنفسي كمراسل صحفي للجيروزاليم بوست. ولو لم تحظ تلكما المقابلتان بالمصادقة، لماذا سُمح لي بزيارة السجن؟

توجهت بذلك السؤال إلى نائب عام الولايات المتحدة لمقاطعة كولومبيا، جوزيف أي، دي جينوڤا، المدعي العام في القضية، في ٤ آذار/ مارس، بعد ساعتين فقط من الحكم على بولارد وكنا قد ظهرنا معاً في ساعة أخبار ماكنيل/ ليرر لمناقشة القضية. وفي تجوالنا خارج الاستديو أعربت لِدي جينوڤا عن رأيي في أن مذكرات الحكومة قبل الحكم كان يجب أن تبين أنني تلقيت إذناً من دائرة العدل لمقابلة بولارد.

أجابني دي جينوڤا أن الحكومة لم تلمني على شيء. «نحن ندرك ذلك». إلا أنه أصرّ على أنه وفقاً لاتفاقية مشارطة دفع الدعوى من اختصاص بولارد أولاً أن يرخص أية مقابلات صحفية مع مدير المخابرات البحرية. وشدّد دِي جينوڤا على أنه «لم يكن من اختصاص الحارس اتخاذ قرار من هذا القبيل. إنه مسؤولية بولارد».

وإذا كنت أفكر في كلمات دِي جينوڤا حول خطة الأسابيع التالية بدأ الظن يراودني في أن المدعين سمحوا لي بمقابلة بولارد لمعرفة حقيقة ما سيقوله. لقد افترضوا على الأرجح أنه سيقوض دفاعه الخاص بالإكثار من الكلام. كما ظننت أنهم أرادوا من بولارد بعض الانتهاك لاتفاقه لمشارطة دفع الدعوى. وهذا ما يمكّن القاضي من فرض حكم أشد. والواقع أن القاضي، في سياق حكم المؤبد الذي أصدره أورد بين أشياء أخرى مقابلات بولارد معي مظهرة أنه لم يندم على جريمته، وأنه لا زال عاجزاً عن الدفاع عن معلومات منسقة. وقد أُرفقت نسخة من مقابلتي لبولارد بمذكرة الحكومة قبل الحكم كمستند «١». ولم يكن ثمة مستندات أخرى. فهل كان هذا جزءاً من مؤامرة؟ أو كان ظاهرة للخوف في الولايات المتحدة بأن بولارد لم يكن سوى واحد من زمرة جواسيس إسرائيليين ناشطة الآن؟

كان ذلك في آذار/ مارس ١٩٨٧. منذ ذلك الحين جوبهت بأسئلة حول ما إذا كنت قد استخدمت لضرب بولارد. وقد أخبرني محاميه، ريتشارد هيبي بصراحة أن المقابلات أساءت إلى وكيله إساءة كبرى. وخلال زيارة إلى إسرائيل في تموز/يوليه ١٩٨٧ قال عدة مسؤولين إسرائيليين كبار عسكريين وفي المخابرات إنهم على يقين بأنني استُخدمت من قبل الادعاء. وكلما ازداد هذا القول ازددت تحفزاً لتقديم قصة ربما شوشتها دون قصد بتورطي.

لم أشعر بالذنب قط، لإدراكي أني قد تصرفت تصرف صحفي محترف في ظروف مماثلة. هل كان مراسل آخر يرفض مقابلة بولارد؟ لقد أراد بجلاء مقابلتي وأراد توضيح وجهة نظره من القضية. تحدث أمام المسجل. وصرحت الولايات المتحدة بدخولي إلى السجن.

في قضايا التجسس قلما تعرف حقيقة ما يدور. ومن تعاملي مع مصالح الاستخبارات تعلمت أن الضوء الذي يلمحه المرء في نهاية نفق ما هو إلا بداية لنفق جديد. ومع ذلك أردت التوصل إلى الحقيقة. ولذا ألّفت هذا الكتاب.

لقد شجعني كثيرون للقيام بهذه المهمة. هارييت روبن المحررة في هاربر اندرو كانت حاضرة الإنتاج. استوثقت من أن هذا الكتاب سيشق طريقه. وللإعراب عن غبطتها في المساهمة قدمت مواضيع ممتازة توليت إدخالها. كما كان أرثر هـ. صموئيل صن محرري لدى هاربراندرو حازماً وواقعياً فأرغمني لحسن الحظ على إعادة التحرير والنظر في مقاطع عدة. كان محترفاً جم المواهب وأبدى حماساً ونشاطاً في مساعدتي وسأظل على الدوام ممتناً لتقديماته القيمة. وكانت مساعدته سنثيا باريت مفيدة جداً لي وكذلك جيم فوكس وماغي مولڤي هيل ولورا ستاريت.

كان محرراي في الجيروزاليم بوست آري راث وأروين فرنكل كريمين بمنحي إجازة للغياب. وكغيرهما من الإسرائيليين شددا علي لتأليف هذا الكتاب رغم أن فضيحة الجاسوس بولارد ليست إحدى المراحل الفضلى لإسرائيل.

لقد لمسا حرصي على تقديم القصة بمنظورها الصحيح. والواقع أنه لم يحاول أي زعيم

إسرائيلي تثبيط همتي ـ من رئيس الدولة ورئيس الوزراء فنازلاً. وغالباً ما كانت تنعكس الآية تماماً. وقالا من جانبهما إن كان لزاماً علي أن أشرح للرأي العام الإسرائيلي المبلبل مواطن الأخطاء بالضبط لتتمكن إسرائيل من تلافي تكرارها.

أجل، لدي مشاعري الشخصية حول القضية، ولكني حاولت وضعها جانباً في بحثي وتأليفي، وسعيت لأكون محترماً وأميناً ومسؤولاً ومنصفاً ما أمكن.

أسعدني النفاذ إلى كل الجهات. لقد هيأ لي كبار المسؤولين في حكومتي الولايات المتحدة وإسرائيل على حد سواء معلومات بالغة الدقة. ولم يبخل علي المحققون الإسرائيليون والأميركيون بأوقاتهم. شعروا أيضاً أن للرأي العام الحق في معرفة ما حدث، وفي حصولي على هذا التعاون لم أبرم أية صفقات. ولكن نظراً لطبيعة الموضوع ـ مخابرات ـ طالبوني بما يشبه الإجماع بعدم ذكر أسمائهم، لئلا يتعرض كثيرون منهم لفقد أعمالهم. فلولا مساعدتهم ما استطعت تأليف هذا الكتاب.

طبعاً قابلت يوناثان بولارد وآن هندرسون بولارد. وكذلك عائلاتهما وأصدقاءهما ومحاميهما. إنني ممتن لهم على تعاونهم الذي قُدم أيضاً دون شروط. لم أبرم أية اتفاقات مالية معهم. ثم قابلت أيضاً الدكتور موريس بولارد والسيدة قرينته وابنتهما كارول وبرنارد هندرسون اللذين أبدوا لطفاً باستقبالي بوجه خاص. إنهم أناس حميمون ولطفاء قاسوا مأساة شخصية مبكرة.

راجعت آلاف الصفحات من مستندات المحكمة وكذلك العديد من المستندات الأخرى غير المنسقة التي قدمت لي لأول مرة بموجب قانون حرية المعلومات. وأخص بالشكر الدكتور جيوفري ريتشلسون من دار محفوظات الأمن القومي في واشنطون لمساعدتي في شق طريقي طوال هذه القضية.

كما أني مدين جداً لوكيلي ألكس شفتيل ولمحاميّ ڤكتور أ. كوڤنر لمثابرتهما على مساعدتي. إنهما سيدان لطيفان.

وأخيراً، أرى أني مديناً بالكثير لعموم عائلتي وأصدقائي الذين كانوا دوماً مصدر تشجيع لي.

الجزء الأول

الجاسـوس



الفصل الأول

بائع السنـد

في مطلع سنة ١٩٨٤ علم يوناثان جاي بولارد، وهو محلل مدني مرح في المخابرات البحرية للولايات المتحدة في التاسعة والعشرين من العمر، من ستيفن أي. شتيرن وهو وكيل صرف مثرٍ وصديق قديم للعائلة في نيويورك عن محاضرة خلابة سمعها مؤخراً. كان المتحدث أفييم سيللا وهو عقيد في سلاح الجو الإسرائيلي كان حينئذٍ في إجازة لمتابعة الدكتوراة في علوم الكمبيوتر في جامعة نيويورك.

وسيللا هو مخطط هجوم إسرائيل الناجح جداً ضد الطائرات العسكرية السورية أثناء حرب ١٩٨٢ في لبنان ـ في معركة من الجو إلى الجو ـ كان قد أرسل إلى الولايات المتحدة لتأمين تفوقه في الكمبيوتر الذي أضحى جزءاً حيوياً للقوات المسلحة ذات التقنية العالية.

في ذلك اليوم البارد على غير عادته في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣ عقد الاجتماع في غرفة المؤتمرات الكائنة في الطابق السادس من مكتب شتيرن للسيـدات في برودواي بعيـداً من وول ستريت. وحضره إثنا عشر وكيلاً من وكلاء الصـرف والمحللين الماليين وهم من يهـود نيويـورك المتشددين والملحدين جاءوا رأساً من مكاتبهم الخاصـة بعد إنهـاء عملهم في ذلك اليـوم. أما شتيرن، الذي زار إسرائيل في عدة مناسبات وكان موفور الحيوية في النشاطات الطائفية فقد قدم لهم المشروبات غير الروحية والبسكويت المملّح (العقدية).

كانت منظمة سندات إسرائيل قد طلبت من شتيرن عقد الجلسة على أمل بيع السنـدات. والمعروف تاريخياً أن وكلاء نيويورك كانوا ينفرون من سندات إسرائيل، وقد يستطيع سيللا تنشيط بعض المبيعات.

كان سيللا ضابطاً ممشوقاً ووسيماً ذا ابتسامة ساحرة. وصار يثابر على حضور محاضرة سندات إسرائيل بانتظام. كما كان ذا شعبية واسعة يقابل بترحاب شديد من قبل المستمعين. وكانت لغة

سيللا الإنكليزية طلقة رغم لكنتها. وبدا لوكلاء صرف نيويورك اليهود وبشكل سافر ـ ذاك الطيار المقاتل الألمعي والحازم.

كان خطاب سيللا مثيراً وانتهى بعدما يزيد على التسعين دقيقة إلى شرح دوره في إلقاء القنابل على المفاعل النووي العراقي في أوسيراك في حزيران/ يونيه ١٩٨١. كان قائد عمليات السلاح الجوي والطيار الرئيسي وأحد كبار مخططي العملية التي صممت للقضاء على برنامج العراق للتطوير النووي المهدد. وسرعان ما أُخِذ الحضور بشرح سيللا للكيفية التي خطط بها سلاح الجو الإسرائيلي العملية وتدريب طياريها لاحتمال الضغوط الجسدية والنفسية الشريرة أثناء تحليقهم بسرعة ٥٠٠ ميل في الساعة بمستويات منخفضة إلى علو الأشجار فوق مناطق معادية لتجنب كشف الرادار.

قال: «إن المجهود لا يصدق. اندفاع الطيار كالمسعور». في ذلك الارتفاع المنخفض والسرعة الفائقة يتعرض الطيار للموت إذا فقد التركيز ثانية واحدة. لقد شاهد زملاءه الطيارين يتهشمون خلال تمارين التدريب القاسية والتحليق المنخفض.

كان سيللا واضحاً للغاية بشرح تفاصيل العملية. جعل الوكلاء يدركون أن ما سمعوه كان القصة الحقيقية الموثوقة. وهي معلومات لا تتوافر لهم في النيويورك تايمس. وأردف قائلاً: إن الطائرة المقاتلة الإسرائيلية أقلعت من قاعدة جوية في الصحراء على مقربة من إيلات الميناء البحري الجنوبي لإسرائيل. وتأكد السلاح الجوي في الأسابيع التي سبقت الغارة على أوسيراك أن عدد الطائرات ذاته وبالتشكيل الصحيح عينه أقلعت بانتظام من القاعدة فيما قُصِد أنه يعني أنها تمارين تدريب روتينية، وتراءى للأقمار الصناعية الأميركية والسوفيتية التي كانت تراقب القاعدة الجوية الإسرائيلية في ذلك اليوم أن الطائرات كانت تقوم بتمارين أخرى.

ولد آفي أم سيللا في حيفا سنة ١٩٤٦ وكان رجلاً لافتاً للنظر ـ أحد نجوم سلاح الجو الإسرائيلي. في ذلك اليوم كان سيللا بعيداً عن مدارك وكلاء الصرف بُعد النجم. واستعرض سيرته مجمل إحيائي منسق سنة ١٩٨٦ لوكالة استخبارات دفاع الولايات المتحدة استُحصل بموجب قانون حرية المعلومات كما يلي:

ـ «التحق الكولونيل سيللا بسلاح الجو الإسرائيلي سنة ١٩٦٤ وأتم تدريبه على الطيران سنة ١٩٦٦. ومن سنة ١٩٦٥ لسنة ١٩٦٦ كان طياراً في سرب نفاثات أورافان. ومن سنة ١٩٦٣ إلى سنة ١٩٦٩ قاد طائرة ميستير مشتركاً بالمعركة خلال حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧. وخلال حرب ١٩٦٧ وبعدها كان مدرساً في كلية طيران سلاح الجو الإسرائيلي. والتحق بكلية الطيران بأجهزة القياس في بيأوفلتون، المملكة المتحدة سنة ١٩٦٨. ومن سنة ١٩٦٩ إلى سنة ١٩٧١ قاد الطائرة كوكيل أدنى لقائد سرب طائرات الفانتوم ف ـ ٤، مشتركاً مرة أخرى في عدة مهام قتالية أثناء حرب الإنهاك سنة ١٩٧٠ ضد مصر. وفي سنة ١٩٧١ حاز على شهادة بكالوريوس في الاقتصاد من جامعة

القدس. ثم انتقل سيللا لطائرة الميراج يقودها مع السرب ٦١ من قاعدة رامات داود الجوية حوالى سنة ١٩٧٢. ومن سنة ١٩٧٢ إلى سنة ١٩٧٤ كان نائباً أولاً لقائد سرب فانتوم واشترك في مهمات قتالية متعددة خلال حرب ١٩٧٣. ومن سنة ١٩٧٤ إلى سنة ١٩٧٦ عمل في مركز قيادة سلاح الجو كضابط أركان مسؤول عن تطوير أساليب القتال الجوي المتقدمة. وفي سنة ١٩٧٦ تولى قيادة السرب ٢٠١ لقاذفة القنابل المقاتلة (ف ـ ٤ أي) في قاعدة هاتسور الجوية وظل قائداً فترة غير عادية طويلة. وخلال توليه كان السرب ٢٠١ هو الوحيد في سلاح الجو الإسرائيلي الذي لم يخسر طائرة واحدة خلال الحوادث. واستقال سنة ١٩٧٩ ليتابع دراساته الجامعية وحصل على شهادة أستاذ فنون في إدارة الأعمال من جامعة تل أبيب. ومن سنة ١٩٨٠ إلى سنة ١٩٨٣ كان قائد عمليات السلاح الجوي. وفي سنة ١٩٨٤ كاد أن يكمل المتطلبات لشهادة دكتوراة الفلسفة في علم الكمبيوتر من جامعة نيويورك».

واستطرد التقرير: «يتحلى سيللا بحسن الفهم ويعتبر على درجة عالية من الإبداع. . . أسمر الشعر والعينين. يدخن السجاير وهو شخص نشيط ومن هواة الغوص والتنفس تحت الماء ولاعب تنس متعطش». وأضاف: «يتعاطى المشروب في المناسبات الاجتماعية ويلتذ به».

تزوج سيللا من يهوديت سنة ١٩٦٩ وهي محامية في تل أبيب «قابل سيللا زوجته خلال حرب الأيام الستة بينما كانت ضابطاً في سلاح الجو الإسرائيلي». لهما ولدان أنجبا سنة١٩٧١ و١٩٧٨. وماتت أم سيللا سنة ١٩٦٠ وهو في الرابعة عشرة من العمر.

حتى دون معرفة أي من هذه التفاصيل فإن زمرة وكلاء الصرف في نيويورك كانوا جد متأثرين.

فوق ذلك، لو قرر سيللا المجيء إلى الولايات المتحدة بدلاً من فلسطين لكان سيللا الآن جالساً في مقاعدهم. كان جداه قد ذبحا في معسكرات الإبادة النازية، وقد أطلق عليه اسم أڤي أَمْ تخليداً لهما ـ «أڤي في العبرية تعني «أبي» و«أَمْ» تعني «أم». ومع أن سيللا كان شرقياً إلا أنه كان من حيث العقلية داهية. وكغيره من اليهود من جيل ما بعد الحرب كان متأثراً ـ لا بل خجلاً ـ لانحلال اليهود خلال الحرب. بيد أنه بقيام إسرائيل لن تتكرر مأساة كتلك إطلاقاً. إن إسرائيل ستظل حامية اليهود إلى الأبد. وكان سيللا ملتزماً شخصياً بتلك القضية.

ما كاد ذلك الاجتماع ينتهي حتى قص شتيرن المتحمس تلك التفاصيل على صديقه يوناثان جاي بولارد. وقال النيويوركي المثري إنها كانت أكثر المحاضرات التي سمعها في حياته سحراً.

أما بولارد الذي أسرته إسرائيل منذ نعومة أظفاره وطالما تخيل العيش فيها فقد ذكر لشتيرن أنه مهتم جداً بالاجتماع بسيللا في أقرب وقت ممكن وهو راغب في المجيء إلى نيويورك لهذه الغاية. وقد وافق شتيرن على ترتيب ذلك. وهو يقدر مبلغ تلهف بولارد لإجراء اتصال مع الإسرائيلي.

وسيقول فيما بعد إنه لم يدر في خلده أن القصد الحقيقي لبولارد من مقابلة سيللا كان التطوع كجاسوس لإسرائيل.

كانت أواصر الصداقة القديمة تربط بين عائلتي شتيرن وبولارد. وكان والد شتيرن، غوستاف شتيرن متبرعاً مالياً سخياً لبرامج أبحاث الدكتور موريس بولارد في نوتردام. ولا تزال صورته معلقة على جدار الإسمنت القوي في المكتب البسيط للدكتور بولارد. في ساوث بند، أنديانا. وقد ألفها بولارد منذ صباه(*).

اعتاد ستيفن شتيرن مقابلة يوناثان بولارد في الندوات العلمية السنوية التي كان ينظمها ويرئسها الدكتور بولارد ويمولها غوستاف شتيرن. وفي السبعينات توطدت أواصر الصداقة بين شتيرن وبولارد. وعندما بدأ بولارد عمله في المخابرات البحرية في واشنطون دي. بي. كان شتيرن يبحث معه على الهاتف الوضع الدولي للنفط والأزمة في الخليج الفارسي وغيرها من الأمور التي تؤثر على أسعار الأسهم المالية. وقد وجد تحليلات بولارد ممتعة وبالأحرى مثقِفة. والواقع أنه رأى في بولارد ذي العقل القادر على الاحتفاظ بانطباعات حية، دائرة معارف بشرية.

بعد تلك المقابلة الأولى في حفل سندات إسرائيل صار سيللا يتردد من حين لآخر على مكتب شتيرن لمحادثته. وهكذا نمت صداقة متواضعة بينهما. وكما طُلِب من شتيرن، أخبر هذا سيللا برغبة بولارد الجامحة لمقابلته. وذكر لسيللا أن بولارد كان يهودياً يعمل لدى المخابرات البحرية للولايات المتحدة. وهو نصير قوي لإسرائيل.

ثار فضول الطيار منذ البداية عن حقيقة ما كان يدور في خلد بولارد؟

كان سلاح الجو الإسرائيلي في الأساس مجرد قوة جوهرية صغيرة ومتماسكة وجيدة التنظيم للغاية. ولا يستطيع طيار أعلى على مسؤوليته الاجتماع بموظف مخابرات أميركي. ولا يتسنى ذلك لسيللا إلا إذا حصل على مصادقة قادة وحدته.

لذا قرر سيللا القيام بالإجراءات اللازمة. وقد سبق له أن قابل يوسف ياغور مستشار العلم الطاقي في القنصلية الإسرائيلية في نيويورك الذي عمل مرة لدى صناعات الطيران الإسرائيلية. كان ياغور مهندساً بالتدريب وكان مألوفاً ومعروفاً جيداً لدى الإسرائيليين «الرسميين» المقيمين في نيويورك.

(*) كان غوستاف شتيرن وأخوه ماكس لاجئين يهوديين ألمانيين فرا إلى الولايات المتحدة في الثلاثينات حيث أنشأ مؤسسة «جيل هارتس» الكبرى للأطعمة المفضلة. وقد ازدهر العمل رغم النزاع المرير الذي دب بين الأخوين في آخر الأمر. وفي سنة ١٩٥٥ قررا الانفصال. وسرعان ما اشترى ماكس كامل أسهم غوستاف. وصار يدير الشركة اليوم ابن العم البكر لستيفن شتيرن ويدعى ليونارد شتيرن، من نيويورك، وهو أحد أغنى الأشخاص في الولايات المتحدة. إلى جانب ذلك يملك ليونارد أيضاً كثيراً من العقارات «وصوت القرية».

كان ياغور قصير القامة وانفعالياً، ومسؤولاً مباشرة لدى وحدة خاصة لجمع المخابرات العلمية في وزارة الدفاع ومكتب الارتباط العلمي الذي يشتهر باللفظة الأوائلية العبرية «لاكام» (لشكالشري مادا)(*). ثم إن سيللا، المطلع جيداً على وضع لاكام وعملها، أخبر ياغور باقتراح شتيرن. وسأل سيللا :

«هل ترى لزاماً علي مقابلته؟»

أجاب ياغـور إن لاكام تـريدأن تتحق أولاً من أمـر بولارد قبـل ترتيب أي اجتمـاع. لا بد للإسرائيليين من التأكد من أن سيللا لم يُغرّر به.

المفهوم أن الإسرائيليين كانوا في بادىء الأمر جد شكيين. «فالعابرون» موضع شك دائم. والموظفون المتمرسون يخشون إمكانية تعرضهم للابتزاز التهديدي أو الشبهة. لذا يتوجب عليهم اتخاذ أقصى درجات الحذر في التعامل مع هؤلاء الناس. ومع ذلك ليس من الضروري أن تنبذ أية مصلحة استخبارات «العابرين» تلقائياً. إذ يثبت في النهاية أحياناً أن الفائدة من ورائهم كبيرة.

بيد أن ثمة احتياطات دقيقة لا بد من اتخاذها ـ وهي الاحتياطات التي اتخذها الإسرائيليون. إن أعضاء لجنة تحقيق الكنيست والعديد من المصادر الأخرى يُظهرون في آخر الأمر أنه جرى فعلاً الاتصال بالموساد ـ المنظمة الرئيسية في إسرائيل لجمع الاستخبارات الخارجية. وأظهر الفحص الدقيق لملفاتها أن بولارد نقل بهدوء بعض المعلومات إلى إسرائيل عند اشتراكه رسمياً في عمليتي تبادل معلومات شكلية مع إسرائيل سنة ١٩٨٢. وشعر أنه من الواجب تقاسم معلومات حيـوية ـ مرخص فعلاً بتسريبها لإسرائيل وانـزعج جـداً لعدم تحقق ذلـك. وظن أعضاء آخـرون في وفد الولايات المتحدة أنه يمكن استخدام المعلومات كأداة مقايضة لانتزاع بعض المعلومات المماثلة من إسرائيل في جلسة لاحقة. تلك هي طبيعة مقايضة معلومات كهذه بين أقطار صديقة.

مهما يكن فقد غضب بولارد. إذ شعر أن إسرائيل احتاجت المعلومات حالاً وكان مقتنعاً أنها لم تزوَّد لأن موظفي الولايات المتحدة الآخرين كانوا مناهضين لإسرائيل ـ إن لم يكونوا لاساميين. فعمل على إبلاغ المعلومات إلى موظف إسرائيلي مذعور خلال استراحة في أحد الاجتماعات.

قال بولارد للإسرائيلي: «أنا يهودي. وأريد مساعدتك».

كما ظهر من ملفات الموساد أن بولارد كان في سنة ١٩٨١ قد تقدم بطلب شكلي للعمل مع لجنة العلاقات العامة الأميركية الإسرائيلية (أيباك)، منظمة اللوبي الرسمية الموالية لإسرائيل في واشنطون. إلا أن طلبه رفض إذ اعتبر «غريباً». وروى قصة جد مطولة حول مراقبة دائـرة العدل «لايباك» مؤكداً أن تليفوناتها كانت قد عُطلت. وهذه المعلومات أفزعت موظفي ايباك رغم ترجيحهم

(*) اللفظة الأوائلية العبرية «لاكام» غالباً ما تُكتب «لِيكم» بالرغم من أن اللفظ العبري الصحيح هو «لاكام».

لكونه معتوهاً. فقد ارتابوا بأنه قد يكون بمثابة شرك للإيقاع بهم فشكروا بولارد بلطف على المعلومات قبل التخلص منه. وقد ذهلوا فيما بعد إذ علموا إن يوناثان جي بولارد كان حقيقة يعمل للاستخبارات البحرية.

بعد أن علمت الموساد باتصال شتيرن لسيللا قررت عدم التعامل مع بولارد. وجاء في تقرير الموساد «لا مصلحة لنا في مقابلته».

كان ثمة أسباب وجيهة للابتعاد عن بولارد ـ أهم من حادثة ايباك. والواقع أن الموساد ذاتها لم تقم بعمليات خفية «ضد» ـ وهو أمر ممنوع في ـ الولايات المتحدة لسنوات عدة تمشياً مع سياسة مكرسة. ونظراً لعلاقة الموساد الوثقى وتعاونها العملي مع وكالة الاستخبارات المركزية فإنها لم توجه بالفعل جواسيس ضد الولايات المتحدة. ونظراً لارتباط المنظمة الوثيق بوكالة الاستخبارات المركزية في واشنطون وتل أبيب على حدٍ سواء بتبادل قسط وافر من المعلومات بشكل روتيني، لم تشأ انتهاك تلك السياسة لأن ذلك محفوف بمخاطر جمة.

من جهة أخرى لم يكن في عقد لاكام تحريات معينة كهذه ولا ريب أن الموظفين الإسرائيليين سيُظهرون فيما بعد أن الوحدة انشئت قبل حوالى عشرين عاماً خصيصاً لجمع المعلومات العلمية الوفيرة خلف الحدود الودية في الغرب حيث يتوافر أفضل المعلومات العلمية. كان الهدف الرئيسي وفائق الحساسية تعزيز برنامج التطوير النووي لإسرائيل. ويأتي كثير من تلك المعلومات عن طريق مصادر عامة ـ صحف وندوات واجتماعات مع العلماء. وفي مطلع الستينات اشتركت لاكام في سائر أنواع العمليات في الولايات المتحدة وأماكن أخرى. وقد جمع بعض المعلومات سراً.

كانت لاكام في الواقع مسؤولة جزئياً عن سرقة الطبعات الزرقاء لمقاتلة ميراج النفاثة والفرنسية الصنع سنة ١٩٦٨. وقد تورطت لاكام في تجنيد مهندس سويسري يدعى ألفرد فراون كنجنت لسرقة الوثائق. لقد دفعت له أتعابه عن العملية التي انكشفت في النهاية. أما المهندس وهو غير يهودي قد أمضى خمس سنوات في سجن سويسري قبل إطلاق سراحه. إلا أن إسرائيل استعانت بالخرائط بنجاح لتطوير طائرتها النفاثة كفير.

وهكذا فإن أية علاقة مع بولارد ليست المرة الأولى لتورط لاكام في عملية مقنعة.

رغم قرار الموساد بعدم الظهور فإن رافائيل «رافي» إيتان الرأس الخفي للاكام وذا الاتصالات السياسية الجيدة والجاسوس الرئيسي الأسطوري والأصيل قرر إيلاء الأمر اهتمام ومعرفة ما كان يدور في خلد بولارد.

إن إيتان الذي انقطع عن الموساد سنوات خلت، بعد أن اتضح له أنه لن يصبح رئيساً لها أمر ياغور بالترخيص بلقاء تمهيدي بين سيللا ومحلل الاستخبارات البحرية للولايات المتحدة. ونظراً لأن لإيتان حساباً خاصاً مع الموساد يتوجب تسديده، فإنه لم يكن على استعداد لنبذ «طارق» يهودي

أميركي وقد اقتنع ـ استناداً إلى تجاربه الفعلية الخاصة في الولايات المتحدة وأماكن أخرى ـ أن معالم مهمة لاكام تجيز إقامة اتصال مع بولارد.

كان إيتان قصير القامة، أصلع، وبديناً، ضعيف النظر والسمع. أمضى فعلاً مجمل حياته الحرفية في التجسس لإسرائيل. وقام بعدة مغامرات لا تصدق للإفلات معرّضاً حياته في كل مرة للخطر. ولد سنة ١٩٢٦ على مقربة من تل أبيب. وانضم سنة ١٩٤٤ إلى البالماخ وهي صفوة الجيش المقاتل في الحركة السرية اليهودية في فلسطين. أصيب بجروح بليغة أثناء حرب إسرائيل للاستقلال سنة ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩، ولكنه طلب الالتحاق بالموساد سنة ١٩٥١ وقُبل طلبه. وظل في مجموعة المخابرات حتى سنة ١٩٧٢ حين شق طريقه ليصبح نائب رئيس للعمليات.

في شباط/ فبراير ١٩٦٠ طلب منه رئيس الموساد، أَصِيرهارل، الاشتراك في خطة لاعتقال أدولف أنجمان، مجرم الحرب النازي الذي كان يعيش آنئذٍ في الأرجنتين باسم ريكاردو كليمنت. وقبل مغادرته إسرائيل تدرب إيتان ورجاله على عملية تستهدف مؤلف موساد زميل لاختطافه في تل أبيب. إن وحدات الشرطة العسكرية والمخابرات في إسرائيل تحاول دائماً تجربة العمل ما أمكن. وذكر إيتان ذات مرة لمجلة إسرائيلية «لقد اخترنا واحداً من رجال الأمن لدينا، كنا نعلم أنه يسلك شارع ديزنكوف إلى بيته جيئة وذهاباً كل يوم الطريق ذاتها وفي الوقت ذاته. وذات يوم مشرقٍ اعتقلناه (في الشارع) دون أن يعلم أحد بأمره. هل كان عرضة لنوبة قلبية؟ أجل، ولكنه لم يصب بها. ولهذا فهو منخرط في سلك الأمن».

لقد ترك إيتان الموساد. كان يأمل أن يعينه رئيس الوزراء رئيساً لمصلحة الاستخبارات المحلية «شين بيث»، ولكن ذلك أيضاً لم يتحقق. كان إيتان يعتبر رجل ميدان ممتاز ويتصف بالشجاعة، كان مديراً. ولكنه كان يعتبر غير مدرب على النظام فلا يصلح لرئاسة الموساد أو شين بيث. لم يكن جيد التنظيم ولم يكن مقبولاً جسمانياً واجتماعياً. والواقع أنه كان يُكنى «رافي هاما سرياخ» أو «رافي النتن»، كما عُرف في الجيش لأنه على ما يظن كان يرتدي دوماً ذات الجوارب.

وفي النتيجة، انصرف إيتان إلى العمل الخاص وكله مرارة وغضب. إلا أن زملاءه يتناقلون قوله: «إنه سيسوي حساباته مع زملائه السابقين في الموساد وأماكن أخرى في جهاز الاستخبارات الإسرائيلية. وسيعرفهم من كان أفضل جاسوس متفوق رغم كل شيء.

كان أحد شركائه في المشروع الوحيد للتنقيب في سيناء والناجح نسبياً خلال تلك السنوات العجاف في المتاهة الحكومية الجنرال أرييل شارون الذي كان هو أيضاً خارج السلك الحكومي مؤقتاً. وشارون الذي هو أعز أصدقاء إيتان سيلعب دوراً رئيسياً فيما بعد في إعادة إيتان إلى جهاز المخابرات.

بعد تولي مناحيم بيغن والليكود زمام السلطة في سنة ١٩٧٧ عين شارون الجسيم وزيراً للزراعة في مجلس الوزراء. وقد أوصى بشدة بتعيين إيتان مستشاراً لرئيس الوزراء الجديد في

مكافحة الإرهاب ـ المنصب الذي تولاه شارون بالذات لدى رئيس الوزراء اسحق رابين. وقد وافق بيغن على ذلك وبعد بضع سنوات، وبعد أن اصبح شارون وزيراً للدفاع طالب بأن يعمل إيتان في آن واحد رئيساً للاكام في وزارة الدفاع. وقد وافق بيغن أيضاً على ذلك. لقد لعب شارون وإيتان ـ مع حفنة من موظفي المخابرات والدفاع الإسرائيلية الآخرين ـ أدواراً حاسمة في إعداد المسرح للغزو الإسرائيلي للبنان خلال صيف ١٩٨٢. وكان إيتان على سبيل المثال ضابط اتصال رئيسي لبشير الجميل زعيم الكتائب اللبنانية.

بيد أن تلك الحرب، كما ثبت، كانت كارثة على إسرائيل وكذلك على شارون الذي أرغم على الاستقالة من وزارة الدفاع بعد تقرير لجنة تحقيق كاهان سنة ١٩٨٣ ومسؤوليته المباشرة عن مذبحة الفلسطينيين سنة ١٩٨٢ على يد المسيحيين اللبنانيين في مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين خارج بيروت. وكان وزير الدفاع الجديد موشى أرينز، غير الملطخ، الذي عاد من واشنطون، حيث كان يعمل سفيراً لإسرائيل، لممارسة عمله الجديد. بقي إيتان واحُتفظ به في لاكام. كذلك احتفظ اسحق شامير رئيس الوزراء بإيتان كمستشاره لمكافحة الإرهاب بعد أن خلف مناحيم بيغن في أيلول سنة١٩٨٣.

طوال السنين انتهج كبار ضباط الجيش الإسرائيلي تقليداً للقيام أحياناً «بمهام خاصة» أثناء غيابهم في إجازة عن عملهم النظامي، إلا أنه كان لزاماً التحديد الدقيق لأي نشاط لا روتيني كهذا والترخيص به رسمياً. وهكذا أدرك إيتان أن سيللا يحتاج أولاً للمصادقة المباشرة من قائد سلاح الجو اللواء آموس لابِيرُوت للاجتماع ـ حتى بشكل غير رسمي ـ بموظف مخابرات أميركي.

أوضح العديد من الموظفين الرسميين الإسرائيليين فيما بعد أن سيللا تلقى مثل هذا التصريح لا من لابيروت فحسب بل أيضاً من الفريق موشي ليڤي. وكان حينئذٍ رئيس أركان IDF. وأُعلم ليڤي ولابِيرُوت كلاهما أن رافي إيتان مكلف بمهمة خاصة بالنسبة لسيللا فوافقا على السماح للطيار بالقيام بها. في ذلك الوقت لم يعرف الجنرال حقيقة ما كان يدور في خلد إيتان. وطبعاً لم يعلم أحد ما كان مخبئاً بالنسبة لبولارد. افترض الجنرالات حصول صفقة متواضعة هبة واحدة. لم يكثروا السؤال. وظنوا أن إيتان يعرف ولا بد ما يفعل.

كان إيتان يعرف سيللا شخصياً. وقد حاول الجاسوس الإسرائيلي المتفوق في السنوات الماضية مراراً الحصول على إذن من رئيس الوزراء بيغن للقيام بعملية على غرار عملية أنجمان لاختطاف الدكتور جوزيف منجيل «ملاك الموت» النازي ذي السمعة السيئة والذي كان يختبىء على ما يُعتقد في الباراغواي. وكان لدى إيتان، بصفته مستشار بيغن لمكافحة الإرهاب، مشروع مفصل لاعتقال منجيل ـ يستخدم فيه أيضاً سيللا كطيار للنقل. إلا أن ڤيتو الزعامة الإسرائيلية (بما فيها بيغن) أحبط خططه لأنها سياسياً شديدة المخاطر. إذ إن إسرائيل في غنى عن تفجر أزمة دبلوماسية

أخرى في حال فشل العملية. وقد قيل إن إيتان لن يغفر لبيغن أبدا ضياع تلك الفرصة لاعتقال منجيل.

بعد وقت قصير من تلقي سيللا إذناً خطياً من رؤسائه، طلب من شتيرن إعلام بولارد عن إمكانية ترتيب اجتماع في واشنطون. ثم إن شتيرن الذي كان بولارد يحثه باستمرار لخوض المعركة عاد وطلب من سيللا التشديد لعقد الاجتماع.

كان بولارد متلهفاً جداً، فبعد سنين من التردد والتأخير شعر أن الحلم الذي راوده مدى الحياة أصبح تحقيقه قاب قوسين أو أدنى.

الفصل الثاني

«الشاعر الأندياني»

ولد يوناثان جاي بولارد في غالفستون، تكساس في ٧ آب/ أغسطس سنة ١٩٥٤. كان أبوه الدكتور موريس بولارد آنئذٍ في بدء سيرة نيرة في علم الجراثيم ـ سيرة سرعان ما توصله إلى الحرم الخيالي الفسيح في جامعة نوتردام في ساوث بند، انديانا. وكانت أمه موللي مشغولة بتربية ثلاثة أبناء على قدر وافر من الذكاء والنشاط ـ هارڤي، الأكبر، الذي أصبح فيما بعد طبيباً متخصصاً في أبحاث السرطان في معاهد الصحة الوطنية في بيشد، ماريلاند. وكارول الأخت الوسطى التي تعمل في إدارة مستشفى في نيوهافن، كونكتيكت، ويوناثان الذي عرفه الجميع باسم جاي. وتذكرت أمه قائلة: «لقد أحببت اسم يوناثان. إنه سمي باسم خالي. كان خالاً عزيزاً. ولكن بعد انقضاء أسابيع على ولادته حتى صاروا ينادونه جاي».

في ساوث بند بَنَت العائلة بيتاً على نسق مربى الماشية في نهاية طريق مسدود وهادىء غير بعيد عن حرم الجامعة. وكان فيه ساحة خلفية واسعة ومنسقة للعب الأولاد. وسرعان ما أصبحت العائلة جزءاً نشيطاً لا يتجزأ من الوسط الأكاديمي لجامعة نوتردام. أنشأوا علاقة حميمة خاصة مع الأب ثيودور هيسبورغ، الرئيس مدى الحياة والمحبوب للجامعة، قال الدكتور بولارد إنه لم تثر أية مشكلة ألبتة لكونه يهودياً. والواقع أنه شعر برغبة تامة لمصادقته وجعله يحس بالطمأنينة في حرم الجامعة الكاثوليكي.

بدأ جاي بولارد حياته طفلاً جذاباً مبكر النضج ومدللاً من أمه. تحدث فيما بعد عن نشأته: «من كافة الوجوه شببت وكأنني الطفل الوحيد بكل ما في هذا التعبير من حسنات ومشاكل. مع العلم أن أخويه كانا يكبرانه بفارق ملموس».

لقد أيدت أخته ذلك. وأضافت: كان لجاي فعلاً منشآن: كنا، أخوه الأكبر وأنا طاقماً، وأبواه

الطاقم الآخر. كان يرتع وسط محيط لا ينفكون يتجاذبون معه الحديث ـ يستمعون إليه ويرافقونه أنّى ذهبوا. كان مميزاً من هذه الناحية».

قالت إنه كان لأخيها الصغير في صباه أتراب صغار شب بينهم ولكنه أمضى ردحاً طويلاً من الزمن إما وحيداً أو مع عائلته. وقالت إنها تشعر دائماً نحوه بمحبة فائقة. «كنت آخذه معي أينما ذهبت وكنت مسرورة بذلك. كان حبوباً فعلاً»، كانت شديدة الميل إليه. وقالت «رغم الثماني سنوات، فارق السن بيننا إلا أن روابط عاطفية متينة تجمع بيننا بسبب التشابه الشديد عقلياً بيننا».

أما الوضع بين الأخوين فكان مختلفاً، وفارق السن بينهما أحد عشر عاماً، قالت كارول: «أُدخل هارڤي إلى المدرسة في الوقت الذي كان جاي في شرخ صباه، وقد شق ذلك على جاي لمبلغ تعلقه بهارڤي. لم يكن راغباً في ذهابه إلى الكلية. أذكر أننا أدخلنا هارڤي إلى المدرسة بينما كان جاي يبكي».

كذلك تذكرت السيدة بولارد العلاقة الخاصة التي تمت بين جاي وكارول. كان مطيعاً لها ويستجيب لما تشير به. كانت تحبه لدرجة العبادة.

تذكر كارول، كغيرها، أن أخاها الأصغر كان فضولياً ودؤوباً ذهنياً. كان منذ حداثته يتطلع إلى آفاق أرحب وأبعد من غالڤستون وساوث بند. كما ذكرت كارول أنه كان مستعداً دوماً للانفتاح. كان غيوراً ورقيق الشعور. وكنت أظن دوماً أن المرأة التي ستحظى به زوجاً ستوفق بغنيمة مثلى.

رغم فارق السن صارت تعتمد عليه لتوسيع مداركها. وقالت إنه «هو الذي علقني بالموسيقى». وفي دراسته العالية نال عدة جوائز في الڤيولونسيل. المقتطفات الصحفية المصفرّة في سجل القصاصات ظلت معروضة سنوات في غرفة طعام عائلة بولارد. وكانت أمه تستعيد قراءتها باعتزاز.

إحدى الصور لخمسة طلاب في ساوث بند تريبيون بتاريخ ١٦ أيار/ مايو ١٩٦٨ تُظهر جاي في سن تناهز الرابعة عشرة وهو يحمل ڤيولونسيله وقوسه وبقربه الطلاب الآخرون يجرون تجربة لحفلة الربيع الموسيقية المقرر تقديمها يوم الأحد التالي في كلية ستانلي كلارك.

تذكرت أمه: «كان ذا موهبة مرموقة». ولا يزال ڤيولونسيل جاي حتى هذا اليوم في زاوية غرفة الطعام تذكرة «للماضي».

سنة ١٩٥٦ اصطحب الدكتور بولارد العائلة بأجمعها إلى انكلترا مدة سنة. وقد عين عضواً في عمدة ماكلافلين في جامعة كمبردج. وذكر أنه كان لجاي ـ وكان عمره لا يزيد عن ثمانية عشر شهراً: مربية إيرلندية لم يكن لها أولاد، وكانت تعتبره كابن لها. وعندما سافرنا راحت تركض خلف القطار باكية.

قبل أن يبلغ جاي الخامسة من العمر انضم إلى أبويه في باريس وستوكهولم ومكسيكو سيتي

وغيرها من الأماكن. والواقع أنه احتفل بميلاده الرابع في المؤتمر الدولي لعلم الجرائيم في ستوكهولم. قال الدكتور بولارد إنه كان هناك على الأقل أربعة عشر رابحاً لجائزة نوبل في حفل عيد ميلاده بما فيهم واكسمان وسابين، وكلهم ينشد عيد ميلاد سعيد له. وبدأ يبكي. لم يُرد كل هؤلاء المسنين حوله أراد شباباً. صاح جاي «أريد أولاداً».

في ذلك المؤتمر تذكر بولارد ضاحكاً تلك المشاجرة بين الطفل البالغ من العمر أربع سنوات وعالم في الاتحاد السوفياتي. قال الدكتور بولارد «كان ثمة غرفة عامة لمشاهدة التلفزيون. وكرسي صغير للأطفال حيث جلس جاي. اضطر للذهاب إلى غرفة الحمام. وعندما عاد وجد أن المندوب الروسي أخذ الكرسي ووضعه في غرفة أخرى. واجه جاي الرجل قائلاً: «أريد إعادة الكرسي لي». وكانت تلك حادثة شبه دولية.

قالت السيدة بولارد إنه في مؤتمر آخر في ألمانيا تفرّس جاي في عيني رئيس جامعة ألمانية كبرى وسأله بصوت مرتفع: «هل أنت نازي؟».

حتى في تلك السن المبكرة كان جاي مدركاً للمجزرة البشرية. وفي مكان آخر خلال تلك الزيارة سأل جاي: «هل نحن في ألمانيا؟ وعندما رد عليه الدكتور بولارد بالإيجاب أشار بأصبعه على شكل بندقية صارخاً: «إطلاق نار، والكل موتى، موتى».

لما عاد جاي إلى البيت في أنديانا، كان طالباً جم الذكاء. قالت كارول: «لقد نمى الولوع بآفاق واسعة من المعرفة. فهو الذي علقني بعلم الأثار. وكذلك التاريخ. كأنه نوع من السحر. إنه أصغر مني بثماني سنوات ولكن حبه الذهني للاستطلاع كان يبعث بي روح ممارسة أشياء في الحياة ربما لم أكن لأمارسها لولاه». حتى إنهما كانا يصعدان الجبل سوية.

كانت جدران غرفة نوم جاي مغطاة بالكتب. فكان مفتوناً بأسماء مثل: «شخصيات وأحداث في التاريخ الروماني». و«رواد علم الأثار يروون قصتهم» و«بانوراما الحياة في الألف سنة الثاني ق.م». وغير ذلك كثير. كان له ولع خاص بالتاريخ العسكري إلا أن عاطفته المطلقة تمثلت في إسرائيل والواقع أنه كان ثمة العديد من المؤلفات عن إسرائيل والشعب اليهودي مع تشديد على المجزرة البشرية، وكثيراً ما روى لجاي أبواه أن العائلة فقدت مايفوق على السبعين قريباً أوروبياً خلال المجزرة البشرية.

قال بولارد: وهو ينتقي الكلمات بدقة: «أبواي هما جيل جديد. لقد مرا بما يصح تسميته بالاضطهاد المعتدل أيام ما قبل الحرب العالمية الثانية. وكلاهما من غلاة الموالين لأميركا لدرجة فوق التصور».

بيد أنه شبّ بتصور مختلف. من جهة، كان شديد الرغبة في العيش في إسرائيل. ولكنهما لم يشاركاه حاجته الماسة للاستيطان فيها. أراد تقوية الدولة شخصياً ومباشرة. لقد اعتبرا نفسيهما

يهوديين مخلصين وصهيونيين ملتزمين. أحبا إسرائيل حباً جماً. غرسا في ابنهما الأصغر أعظم شعور نحو البلاد، وتراثهما اليهودي. ولكن أميركا بالنسبة لهما كانت هي الوطن.

«لم يكف أبواي عن تصوير هذه الأرض كنعمة من الله على اليهود الذين طوال سنوات التشتت التي مرت من تاريخنا المتعرج لم يهتدوا إلى بلد كهذا زاخر بالفرص».

أردف قائلاً: «لقد نشأت تنشئة يهودية. ومع ذلك توازنت هذه النظرية للمسؤولية المواطنية مع مركزية إسرائيل، ظلت تراودني مع كل طرفة عين ويقظة ضمير. وأول راية ارتسمت في ذاكرتي العلم الإسرائيلي. وهو أول ما تبينت شرعت بتعلم العبرية بسن مبكرة قديمها وحديثها ـ في مدرسة عبرية. كان أبواي بعيدين عن التعصب الديني. وفي جالية يهودية صغيرة يتوزع تأييد المرء للمعهدين».

شيئاً فشيئاً أصبحت إسرائيل معتقد بولارد. وأكد قائلاً: لقد برزت إسرائيل في حياتي التزاماً دينياً ووسيلة للقوة الذاتية. وأقرّ بأن الوطن أصبح هاجسه. لم يفارق مخيلته أبداً. وكان يتحدث باعتزاز عن مساهمة عائلته شخصياً في الكفاح لخلق الدولة سنة ١٩٤٨، قبل ولادته بست سنوات.

ثم تذكر خاله إيزيدور كلاين الذي كان ضابطاً كبيراً في القسم الطبي العسكري الأميركي في باريس. وقال: إن كلاين تمكن من تحويل كميات كبيرة من الإمدادات ـ دواء، وملاءات وسوقيات طبية ـ إلى إسرائيل. «ظلّت عائلتي سنوات تباهي بقرار خالي تزويد الجيش الإسرائيلي الناهض سنة ١٩٤٨ بجزمات عسكرية وإمدادات طبية «محررة» من المستشفى الأميركي في باريس والذي كان تحت إمرته في ذلك الحين.

أصبح كلاين بالنسبة لبولارد بطلاً شخصياً، كما كان غيره. «كانت تمر بي السنون وتتردد في مسمعي قصص أفراد ـ مقربين جداً منا ـ ومن معارفنا أدوا ما أسميّه واجبهم العنصري نحو إسرائيل. وهو تعبير كان ينمو معي».

استطرد قائلاً: «تمثل ذلك في بعض الأحيان بشكل إطلاق نار على حمولة قطار من الديناميت المحظور عبر سان أنطونيو وتحميل وتفريغ أسلحة إسرائيلية سرية ليلاً بعيداً من غالفستون وخطف طائرة من حظيرة احتياطي سلاح الجو في الصحراء ـ وهكذا دواليك. لقد ربيت على اعتقاد أن عملاً كهذا لا يخرق القانون بل كما قلت تأدية لواجب عنصري. وعلى هذا الأساس لا خلاف بين أميركي صالح وصهيوني صالح، وهو اعتقاد لا زال في مخيلتي حتى اليوم. وكلا الحالين قائم على أسس التعددية والديمقراطية.

أضاف: زد على ذلك أن كثيراً من وجهاء الجالية اليهودية المحلية الذين قابلتهم في نشأتي في تكساس عُرفوا بنشاطات أخرى ذات أهمية حاسمة لإسرائيل خلال حرب الاستقلال تراوحت بين تنظيم شحنات الذخيرة وشراء الفائض من قاذفات القنابل. وقال إن هذه المغامرة تركت أثراً دائماً وهاماً في نهاية الأمر.

كان أصدقاء عائلته يعتزون خاصة بالعقيد داڤيد «ميكي» ماركوس وهو خريج أكاديمية وست بوينت العسكرية وحامل العديد من الأوسمة الذي قتل أثناء الحرب في ضواحي القدس مع الجيش الإسرائيلي الناهض سنة ١٩٤٨. قال بولارد. «إنه قدوة تشعر يهود أميركا بمدى مسؤولياتهم الشخصية من أجل أمن إسرائيل». وهو المثال الذي آلى بولارد على نفسه الاقتداء به.

كان بولارد في حداثته وذكائه الجم ورقة شعوره غير راضٍ عن «الصور الأكثر مراعاة للتقاليد في دعم إسرائيل من خلال الأنظمة الشرعية كالتبرعات المالية أو تنشيط الهجرة أو المساهمة في مساعي اللوبي السياسية نيابة عن الدولة اليهودية في واشنطون».

وقد أورد في سياق المستندات القضائية «أن الصهيوني الحقيقي هو الذي يدرك أيضاً إمكانية مجابهة موقف يتطلب منه عملاً أقل انكشافاً وربما ذا طبيعة سرية». ولكن هذا العمل لم يجر أبداً بحث ماهيته بشكل علني.

مثلاً، كان المأمول أن تكون البيوت اليهودية متوفرة للزوار الإسرائيليين بدلاً من إزعاجهم أياماً متتالية، بينما اعتاد رجال الأعمال اليهود وسماسرتهم تحويل المواد أو العمليات الحساسة والتي تحتاجها صناعة الأسلحة الإسرائيلية. ورغم الانطباع التآمري الذي تتركه هذه الأصناف إلا أن يهود أميركا لم يجرأو أو يلجأوا إلى خيانة الولايات المتحدة أو القيام بما من شأنه الإضرار بهذا البلد إطلاقاً، لأن يهود أميركا كانوا مدركين الفوائد التي لا تقبل الجدل والتي تعود عليهم من حيوية التقاليد التعددية والقوة العسكرية العالمية لأميركا.

والآن لنضع السياسة جانباً لم يكن جاي سعيداً في طفولته. ففي سنة ١٩٦١ انتقل أبواه إلى ساوث بند، أنديانا، وكان تأثير ذلك مدمراً على الطفل البالغ سبع سنوات من العمر.

لم يكن مألوفاً في المدرسة. كان قصير القامة وجد أنيق ويضع نظارات على عينيه، كان في نظر بعض الأولاد واسع المعرفة. وآخرون اعتبروه مغروراً ـ متعالماً.

جاء في دراسة هذه الفترة من حياته أنه بعد سنوات كان وجهه يتجهم ألماً وهو يصف حياته في ساوث بند خلال دراسته العالية بأنها «صراع يومي» يتميز «بلا سامية سافرة». كان دائم الشعور بأن الأولاد الآخرين ينظرون إليه نظرة مختلفة لكونه يهودياً وهذا ما ناقض تجربة والده الإيجابية في حرم نوتردام الجامعي.

قال: «كنت اليهودي الوحيد في المدرسة. وكان في المدرسة العالية يهوديان آخران. وفي المدرسة الابتدائية واحد واثنان بكادان يتواريان خجلاً. كان صراعاً يومياً. ولو كنت في مدارس أخرى في المدينة لهان الوضع لوجود عدد أكبر من السكان اليهود. ولكن الأمر مختلف في مكان إقامتنا وطريقي إلى المدرسة».

تعرضت ساوث بند في الستينات لكساد اقتصادي شديد من جراء إغلاق مصنع ستودبيكر

الذي ازدهر ذات يوم، وعند حصول اضطراب اقتصادي بهذه الضخامة لا بد أن يصبح بعض العناصر في المجتمع كبش الفداء. ويحدث ذلك دوماً حيثما يوجد يهود.

استطرد بولارد: «كانت جمعية الكوكلوكس كلات جيدة التنظيم في المدينة لتوفر المناخ والتربة الخصبة لمداوراتها المتطرفة إثر كساد اقتصادي إقليمي شديد في مطلع الستينات».

كان يطل على الساحة الخلفية لبيت بولارد تلة. وفي أعلى تلك التلة كان الأولاد الآخرون ينتظرون بولارد الصغير لتعييره ومهاجمته جسدياً. وكثيراً ما كان يخشى السير في الخارج.

في مدرسة مارشال الابتدائية كان بولارد يتعرض دوماً للضرب. وفي الصف الخامس طلب المجيء إلى البيت يومياً لتناول الغداء لأن الأولاد الآخرين كانوا يتقاسمون الأشياء التي سلبوها. قال بولارد: «لا أريد أن أكون في زمرتهم وعلى مقربة منهم».

ولكن في سيره عبر ساحته الخلفية إلى المدرسة ذهاباً وإياباً كان الأولاد الآخرون في الانتظار للتهكم عليه. وقالت السيدة بولارد «الطريقة التي كانوا يتبعونها كانت في الصعود إليه ولكمه ثم يعربون عن الأسف».

في إحدى المناسبات تملكه رعب شديد. «ثمانية من تلامذة الصف تأبطوا أذرعة بعض ونزلوا التلة في عرض للقوة ضده». وأوصى معلم بولارد بنقله إلى مدرسة أخرى. وأشار قائلاً: «اخرجوه من هنا. إنهم يتلاعبون به».

سجّل آل بولارد ابنهم في مدرسة خاصة للصفين السابع والثامن ولوحظ تحسن هام. قالت السيدة بولارد: «بدأ أوركسترا هناك. وكان فيما مضى عازف فيولونسيل» ؛ كذلك كان جاي نشيطاً في الركض عبر الضواحي ولعبة كرة القدم. وشرع أكاديمياً بالتفوق لا سيما في اللغة الإنكليزية. ونمّى موهبته في التأليف. والواقع أن جاي كان يكتب مقالة كلما عاد إلى ساوث بند من إحدى رحلاته العائلية عبر البحار.

كان قارئاً نهماً. وقال الدكتور بولارد: «لقد حظّر علينا جاي نزع غلاف أي كتاب، إذ كان يجل الكتب». وكانت السيدة بولارد تشجعه بشدة على القراءة. «كنت أقول له: قد لا يكون لك أصدقاء كثيرون. وهناك أصدقاء مزعجون. ولكن لا تنس الصديق الذي ينتظرك لدى عودتك إلى البيت، وأعني الكتب التي هي في انتظارك».

ولكنه ثابر على الذهاب إلى مدرسة ريلي العالية. وهي مدرسة عامة. وقد وصف بولارد فيما بعد تلك الأيام الشنيعة. وسط المميزات الرديئة لهذه البيئة لم أستطع أبداً تنمية صداقات مع من حولي. واضطررت إلى قضاء معظم وقتي حول مدرسة اليوم العبري في المدينة حيث أحسست على الأقل بالأمان جسمانياً والحِمى عاطفياً. دام هذا المعشر ستة أيام في الأسبوع طيلة عشر سنوات

تخلله نهج ديني عالي التركيز وتثقيف صهيوني كان يشدد بانتظام على صوابية «عاليا» أو الهجرة إلى إسرائيل.

أضاف: «في ذلك الحين كان السلام الوحيد الذي عرفت عندما ذهبت إلى مدرسة «هدر». هناك وجدت الأمان الجسدي الوحيد».

تذكرت السيدة بولارد مبلغ السعادة التي غمرت جاي في المدرسة العبرية. كان في راحة تامة هناك، حوله معلمة جميلة تفيض همة وعزيمة وحيوية، جعلت التعليم متعة. وكانت المعلمة قد زارت إسرائيل في مناسبات عدة. ووفقاً لوصف السيدة بولارد: «لقد غمرت الأولاد بالقصص والرقص. كان يستمتع بكل دقيقة تمر».

قلت له: «ها قد حصلت على الراحة حيث لا يضربك أحد. هذه ملتك والعلم في متناول يدك». لقد أحب ذلك. كان يقف في الباب ليقول: «ماما، لقد تأخرت». أنا التي دفعته إلى هناك. «تأخرت. اسرعي». وهو كلام لا يُعهد من ولد مثله.

في إحدى المناسبات أراد جاي تقديم عرض عن ناحية في إسرائيل، اختار «الموسادا» وهو حصن قمة جبل في النقب. حيث آثر متعصبون يهود قبل ألفي عام الانتحار الجماعي على الاستسلام للرومان. لم يسبق له أن زار إسرائيل ولكنه كتب مقالة حوت من التفاصيل ما جعل المعلمة تستفسر من السيدة بولارد متى زارت العائلة إسرائيل أجابت: «لم نزرها أبداً».

قالت المعلمة منذهلة: «لقد قدم أفضل الأحاديث التي سمعتها في حياتي - بتفصيل لا يصدق».

وعندما كان جاي في الكلية في بدء دراسته أكدت كارول أنه كان دائم الاشتراك في مشاجرات، وقالت إن وحدة العائلة جَنَّبته الكثير. «كان يضطر للذهاب إلى المدرسة ماراً بهولاء الأولاد الذين كانوا في انتظاره. وفي تلك المنطقة التي ترعرع فيها كان أشرار جمعية الكوكلوكس كلات والمناهضون للسود. ثم إن المدرسة العالية التي التحق بها لم تخل من حوادث شغب. فكثيراً ما كان السود يقومون بأعمال مخلة بالأمن. كانت دراسته العالية ذات تجارب مريرة».

قال بولارد: «إن كثيراً من الأولاد اليهود الآخرين في ساوث بند وجدوا أنفسهم أيضاً منجذبين نحو إسرائيل، فمن بين الخمسين ولداً الذين عرفهم في المدرسة اليهودية المسائية نصفهم على وجه التقريب سافروا إلى إسرائيل. وهي نسبة أعلى بكثير من المعدل القومي ولكن لها ما يبررها في محيط طائفة اعتبرتنا مسؤولين إجمالاً عن نسبة البطالة التي لم نتسبب بها».

لقد رسم بولارد صورة قاتمة جداً لأصدقائه الصغار اليهود «إن الأولاد اليهود الذين التقيت بهم شبوا ناقمين ومنبوذين لا ينشدون سوى الرحيل وعدم العودة أبداً. ومهما كانت الاستنتاجات السياسية التي كونتها آنئذٍ بلغة اعتمادنا على دولة إسرائيل من أجل البقاء العنصري فقد كانت تتثبت وتتضخم

باعتمادي المادي على تلك المؤسسات والجماهير اليهودية المحلية التي كانت موجودة.

كان مجرد الذهاب إلى المدرسة محنة. وكان الألم يزيد من تعلقه بإسرائيل.

كان الأولاد يضربونه باستمرار. وقال: «لا أريد أن أجعل من هذه القصة قميص يوسف. ولكن لو كان لي أولاد لكنت أعطيت كل واحد منهم بندقية ـ أو كما أشار أحد مدراء مدرستي ـ أعطيه كلب حراسة، الأمر الذي يحبذون ـ أو تعليمه في البيت».

قال بولارد فيما بعد: «وهكذا إلى جانب هذه الحاجة للتسلية كان لا بد من ذهابي إلى إسرائيل وهناك الظروف المادية التي كانت تغرس في ذهني أن على اليهود الاعتماد على أنفسهم في آخر الأمر».

إن التغيير الحقيقي في حياته من حيث علاقته بإسرائيل ـ فقد حدث خلال حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧. كان بولارد حينئذٍ في الثالثة عشرة من عمره، حساساً، ويستعد للاحتفال ببلوغه سن الرشد في ساوث بند. أما بالنسبة لي فقد بدأ سنة ١٩٦٧ وكان نقطة تحول لي كما لكثير من الناس.

تذكرت والدته مبلغ فزعه من احتمال تدمير إسرائيل. قالت: «قبل حرب الأيام الستة وصلنا بتسفيلد، ماسوشوستس حيث كنا في زيارة والدتي، كان جاي يبكي. وقال: «إنهم يريدون القضاء على إسرائيل وبذا أحرم إلى الأبد من التوجه لمشاهدتها». قلت: «صدقني يا جاي، لن يحدث لإسرائيل شيء». قال: «وكيف عرفتِ؟»

أجبته: «إن الله تعالى لن يقدّر ذلك».

وهكذا آوى إلى فراشه بعد أن طمأنته. وفي اليوم التالي أخبرته أن سلاح الجو الإسرائيلي هزم العرب وأن الحرب انتهت كلياً. لا تتصور مبلغ ابتهاجه وانذهاله. إذ قال: «إذن سأمضي لرؤية إسرائيل!»

وتذكّر فيما بعد: إنها المرة الأولى التي تنجح فيها «دولة يهودية قوية» في الدفاع عن نفسها. لن يصبح اليهود الضحية مرة أخرى.

خلال الأيام التي سبقت اندلاع الحرب رغم أن طائفتنا الصغيرة كانت تتملكها الكآبة خوفاً من أن يكون حظ إسرائيل هذه المرة كغيرها من العديد من المجموعات الأخرى المشتتة، إلا أنها اتخذت أخيراً مجراها الطبيعي. ومع أنها وقفت على شفا الإبادة إلا أنها انطلقت فجأة عبر حدودها المهددة في ما بدا لنا وكأنه وميض خاطف لحسم توارتي. كانت النتيجة مذهلة لنا جميعاً. فنظر الدبابات اليهودية معسكرة على ضفاف قناة السويس، والمظليين يصلون عند السور الغربي في القدس المحرر حديثاً، مما يثير النشوة والحماس وخاصة من الذين يعتبرون الهجرة وسيلة حية لتثبيت مكانتنا.

هكذا أخذت إسرائيل خلال الحرب تستحوذ على تفكير بولارد فأصبح يقرأ أخبار ذلك البلد بنهم شديد.

كل الشقاء الذي كان يكابده زاده إعجاباً بإسرائيل: «وكما قلت، عندما يكون لك ولد صغير يشب في مثل تلك البيئة ينزع إلى توثيق روابطه العاطفية مع بلد قصيّ، وفي ما يبدو إلهي أوسع مدى من الحياة، يوفر في الواقع احترام الذات ـ الأمن الجسماني ـ الذي لم تكن أنت قادراً على تأمينه».

لقد أعجبه في إسرائيل عدة مميزات يفتقر إليها. قال: «لقد ضُربت، ولكن عرفت على الأقل أن الإسرائيليين تغلبوا على بضعة أقطار عربية. كما أن انتصار إسرائيل سنة ١٩٦٧ أكد في مخيلتي صوابية السفر إلى إسرائيل حيث أتخلص من مذلات مراهقتي».

كانت هذه المعضلة آنئذ لا تنفك تتنامى في نفسي شيئاً فشيئاً وبتؤدة إنما دون هوادة. ولكن كيف السبيل لهجرة غلام في الثالثة عشرة من العمر وحيداً إلى إسرائيل؟

ذكر والد جاي حادثة قبل الاحتفال ببلوغه سن الرشد كان لها تأثير هام عليه. كانت العائلة تنتسب إلى هيكل الإصلاح في ساوث بند. وقد أحضر حاخام جديد إلى الحشد من توليدو. وهو تابع لما يسمى بحركة الإصلاح العلمي. قال الدكتور بولارد: «لقد سار على تقليد تأدية صلاة الأحد الصباحية لليهود».

كان جاي يعمل منذ أسابيع على إعداد خطابه في احتفال بلوغه سن الرشد. وقد استشهد بما جاء في رسالة أشعيا: إن إسرائيل ستكون الزعيمة بين الأمم. إلا أن الحاخام الذي لم يكن صهيونياً لم يشأ أن يتطرق جاي إلى هذه القضية. قال الدكتور بولارد: أراد أن يعيد جاي تحرير ما كتب برمته. وذهب جاي إلى مولي قائلاً: «إن هذا الرجل لا يعجبني». وكان أن انتقلت العائلة إلى الكنيس الشرقي في المدينة حيث جرى لجاي الطقس الديني لبلوغه سن الرشد.

في سنة ١٩٦٨ وفي ظل حرب الأيام الستة صحب بولارد أبويه إلى أوروبا حيث قتل ستة ملايين يهودي قبل خمسة عشر عاماً فقط قال: «وهذا ما دق المسمار الأخير فيما يتعلق بموقفي تجاه إسرائيل. كان جاي آنئذٍ في الرابعة عشرة من العمر.

في ذلك الوقت برز الدكتور بولارد كعالم عالمي عُين لرئاسة مختبر لوباند المهيب في نوتردام. وحضر مؤتمرات في سائر أرجاء العالم. وغالباً ما اصطحب ولده معه. وقال جاي فيما بعد: «قصارى القول لقد شببت في البيت. كانت المكتبة دُنياي. وفي تسع رحلات من أصل عشر كنت عبر البحار في أوروبا بصحبة والدي».

وصف رحلة جانبية «أليمة لدرجة لا تصدق». إلى داخاو ذلك الصيف مع أبويه. «لقد ترعرعت في عائلة لا أقول إنها أخذت بهول المجزرة البشرية. ولكن الانطباع ظل قائماً ويجب أن لا

ننسى أبداً، لقد كانت تربيتي فكرية أكثر منها جسمانية على يد والديّ».

«على كل كانت هذه الرحلة إلى داخاو ذات آثار بعيدة المدى. إذ لقنت اليهود الدروس الواضحة عما ينتظرهم إذا ما تُرك أمر بقائهم للقضاء والقدر. وفي ظني، أنها أحدثت بي يقظة فكرية أكثر من تأثيرها العميق. وأنا رجل يسير عقله دوماً عاطفته. وهذه الظاهرة ذاتها تجلت في هذه القضية».

كان هنالك الأسلاك الشائكة والمحارق والمداخن وصفوف الثكنات الخشبية والمعرض المفصل بدقة والمكتمل بصور الأطباء النازيين يجرون عمليات «علمية» على المساكين اليهود بما فيهم الأطفال.

قال: لقد تركني والداي أتجول وأسبح في بحر من التفكير وحدي. حتى ذلك الوقت كنت قد قرأت بريمو ليڤي وأندريه شوارتز بارت وأيلي ڤيزيل. قرأت الكثير بما في ذلك «العدالة في القدس» للمؤلف حنا أرندت. قرأت كل شيء. إلا أن الفكر راودني آنئذٍ بسذاجة وبراءة أن ما حصل لن يتكرر بوجود إسرائيل. ولكنه قائم فعلاً. هنا كانت طائفة (يهودية) ألمانية ذات صولة سياسياً وقوية اقتصادياً. وخلال عشر سنوات قصار طارت وتبخرت وهذا ما أفزعني وأفقدني صوابي.

بدأ يتساءل عن إمكانية حدوث ذلك في الولايات المتحدة. فضلاً عن ذلك، كان اليهود مستوعبين ثقافياً وذوي نفوذ سياسياً وآمنين مالياً كما هو حال الطائفة اليهودية الأميركية ظاهراً. إلا أنهم تلاشوا في غضون عشر سنوات... وإذا وقفت بين أطلال المحارق اتضح لي بروية أن على كل يهودي، شاء أم أبى، مسؤولية لا بل واجب التثبت من زوال هذا الكابوس دون رجعة إطلاقاً.

استخلص بولارد دروساً قاسية ومحزنة من زيارة داخاو وتذكر قائلاً: كنت مضطرباً آنئذٍ وأنا خارج من المعسكر. أدركت فجأة أنه إذا قُيض لإسرائيل أن تزول ـ تتلاشى ـ فمعنى ذلك في ضوء المجزرة البشرية خراب الملة المشتتة بالمعنى الروحي ولربما بالمعنى المادي. لقد استمر التشتت عدة آلاف من السنين في الجنس البشري بدون إسرائيل. أما وقد أصبح متوقفاً عليها منذ المجزرة البشرية ـ كملاذ روحي ومادي ـ فقد أدركت أنه لم يكن باستطاعتنا كشعب أبعد من التجربة. وبالمناسبة، قد تكون المجزرة البشرية روحية ـ كالتي نعانيها الآن في روسيا التي أسميها استيعاباً قسرياً، أو استيعاباً متساهلاً في الولايات المتحدة. وقد تكون جسدية كحجرات الغاز وساحات الإبادة.

منذ ذلك الحين سرعان ما أدركت معنى اصطلاح الزعامة الصهيونية الأميركية ـ مركزية إسرائيل ـ بالنسبة لي كفرد وهو مفهوم كان من السهل علي التسليم به بسبب الطريقة التي ترعرت بها.

إن ترابط حرب سنة ١٩٦٧ وداخاو كان ذا أثر شديد على بولارد. وقال «لو لم أتوصل إلى

استنتاج مؤقت على الأقل فيما يتعلق بالعبر المتناقضة بين داخاو وحرب الأيام الستة لخرجت من داخاو مبلبلاً ومتردداً حول المستقبل. والطريقة الوحيدة الجلية لمنع الأولى هي في ضمان الثانية».

في ذلك الصيف أخذه والده أيضاً إلى تشيكوسلوفاكيا بُعيد الغزو الروسي. كانت تلك، كما وصفها أرثور كلارك، نهاية الطفولة بالنسبة لي. شاهدت فعلاً ولأول مرة وضع دولة محتلة. رأيت ما تستطيع القوة العسكرية فعله لتقييد بلد كان معرّضاً وسائباً، واستغلاله إلى أقصى حد. وكان لذلك تأثير بالغ علي من حيث اختيار مستقبل نهج حياتي.

قال، «لقد أكدت التهديد الحقيقي لأمن إسرائيل». لم تكن آنئذٍ بالفكرة الغامضة. فقد رأيت فعلاً الدبابات في الشوراع. وتحققتُ كيف يُجْتاح مجتمع ويُحتل بأسره روحياً ومادياً. واستطعت استخلاص استنتاجاتي الذاتية عما سيحصل في حال انتصار عربي في الشرق الأوسط.

كذلك استنتج أنه إذا نجح الروس ذات يوم في أن يخلفوا أميركا كقوة عالمية رئيسية، لن يكون ثمة مستقبل لا لإسرائيل ولا لجاليتنا المشتتة. ولما صار لدي تفهم أوسع عالمياً وأقل عنصرية مبنية على قصر النظر تبين لي بجلاء أن أمن إسرائيل الأساسي يتوقف على الدور الفعال الـذي تستطيع الولايات المتحدة لعبه في موازنة لعبة القوى مع السوفييت.

في صيف ١٩٧٠ بينما كان بولارد يتابع دراسته العالية توجه إلى إسرائيل للمرة الأولى. وبدأ حلمه يتحقق بعد تلك السنوات الطوال. وكان على لوحة النشرات في مدرسته العبرية في ساوث بند إعلان عن مخيم علمي للطلاب الموهوبين من سائر أرجاء العالم في معهد وايزمن المشهور للعلوم في رحوبوت. سأل أبويه بلهفة: «ترى، هل سأتمكن من الذهاب؟»

الدكتور بولارد المدرك لمكانة وايزمن المرموقة بادر للموافقة. وأضاف: لم نكن لنحلم أنه سيتمكن من الالتحاق وأنهم سيقبلونه بسبب تقاتل الأولاد على الالتحاق. ولكن سرعان ما عرفنا أنه قُبل لقاء ١٢٠٠ دولار.

كان الصيف الذي سبق سنته في مدرسة الأحداث العالية وذكرت السيدة بولارد: «كنا قلقين». وهذا ما دعاهم فيما بعد للقيام برحلتهم الأولى إلى إسرائيل في ذلك الصيف. أرادوا مراقبة دراسته.

عندما وصلوا كان جاي يمضي وقتاً رائعاً. قالت أمه: «كان في غاية السعادة». وهذا ما أيده بولارد. «كانت تلك التجربة واحدة من أكثر التجارب التي مررت بها تحرراً في حياتي». وأبدى ملاحظة أنه أخذ يرى تجربة يهودية أكثر انتظاماً.

ذكر فيما بعد «رأيت أشياء كبنت الهوى اليهودية. رأيت أشياء لم يسبق أن رأيتها أبداً. والأهم من كل شيء أناساً تخلصوا من مظاهر التشتت ووصمة عاره. كانوا بمعنى آخر أناساً مترابطين».

إلا أنه في ذلك الصيف وجد نفسه يتقاتل مع أولاد آخرين. والواقع أن الدكتور هاري. ج. لبكين وهو عالم في معهد وايزمن كتب بعد سنوات للجيروزاليم بوست يشكو من سلوك بولارد في

ذلك الصيف في المخيم. ويقول لبكين إن الشاب الأميركي خلّف وراءه صيتاً بأنه مشاغب ومتقلب وهو أسوأ وضع من نوعه في تاريخ المخيم الصيفي. ففي إحدى المشادات أصيب في شجار واقتضى نقله إلى المستشفى وهي المرة الوحيدة التي حصلت فيها حالة كهذه في المخيم.

أكد والداه الحادث وذكرا أن طالباً غير يهودي من انكلترا كان يعيّر أحد العلماء اليهود في الزمرة وقالت السيدة بولارد: «حاول جاي حماية هذا الفتى. لم يكن ما حدث قتالاً. الطالب الآخر الذي كان يلعب كرة القدم ركل جاي في المعدة. وفتق طحاله. وقد ظل جاي عدة أيام في المستشفى قيد المعالجة.

كان الوالدان قد عادا إلى ساوث بند عندما وصلتهما مكالمة الهاتف المفزعة من معهد وايزمن عن حالة جاي، وقالت السيدة بولارد إنه سبق لها أن تلقت تحذيراً، وذكرت أنها قالت لزوجها قبل تركهما إسرائيل «لنأخذه معنا. إنه لوضع سيء». وقالت إنها «رجت وتوسلت. ولكننا تركنا جاي في إسرائيل».

بيد أن جاي لديه ذكريات مختلفة عن ذلك الصيف في إسرائيل. أصرّ على أن الأمر لا يتعدى اشتراكه في حرب بالونات مائية مع بعض الأولاد الآخرين. «كان هناك بعض العنف. وإصابتي كانت الوحيدة».

قال إن أكثر تجاربه لفتاً للنظر مشاهدة أسوار القدس. «يقول كثيرون إنهم عندما يرون السور الغربي لأول مرة يغمرهم فيض من الأحاسيس. لست لأقلل من ذلك فمشاهدتي له كانت جد رائعة».

إلا أن الأسوار المحيطة بالمدينة القديمة كان لها وقع أعظم. «في رأيي إن تلك المدينة تمثل كل ما أعتز به فيما يتعلق بذلك البلد. تلك الأسوار تروي تاريخنا الاجتماعي أكثر مما يرويه السور الغربي. وفي تقديري أن السور الغربي صوّر الصلة مع الله. بينما صورت أسوار المدينة ارتقاءنا وانحطاطنا الاجتماعي في الوقت ذاته».

عاد بولارد من إسرائيل أكثر اقتناعاً بأن لا بديل له سوى الاستيطان آخر الأمر في ذلك البلد. أراد أن ينضم إلى الجيش الإسرائيلي ويصبح مقاتلاً يهودياً. لقد صمم على أن يغدو يهودياً «نظامياً» ويقيم في دولة يهودية. أراد التخلص من قيود الفيتو اليهودي. وذكر والده أن ما أراده فعلاً مجرد البقاء في إسرائيل بعد تجربة مخيم وايزمن. وقال الدكتور بولارد: لقد حاولنا جاهدين إعادته إلى البيت ولكنه «أراد البقاء حيث هو. واقترحنا عليه الرجوع إلى البيت وإتمام تعليمه ثم العودة كمراسل».

أطاع الغلام والديه، وعاد إلى البيت ممتلئاً نشاطاً وحماساً. كان في رأسه آنئذٍ خطة تمحورت حول إعداد نفسه للانتقال إلى إسرائيل. إلا أن تلك الخطط المتهورة سرعان ما حبطت لدى عودته

إلى مجتمع ساوث بند الواقعي. استمر العراك مع الطلاب الآخرين في المدرسة العليا. قال الدكتور بولارد: «إن الفاشست البيض جعلوا الحياة شاقة فعلاً للراغبين في العلم. كما كان هناك المناضلون السود». وذكرت السيدة بولارد: «كانوا يعطلون الصفوف في الدخول والخروج. إنه لأمر مرعب».

رغم تلك المحنة حصل جاي على علامات مدرسية ممتازة. وأجاد في امتحاناته الخطية. قام بنشاطات جيدة خارج نهجه الدراسي وحصل على توصيات مشرفة من معلميه ومرشديه. كما نال جائزة وطنية على إنشاء أعده خلال سنة تخرجه، والواقع أن ساوث بند تربيون نشرت له صورة أخرى يوم الأحد في ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧١ مع تعليق:

«يوناثان جاي بولارد ـ المركز: مدرسة ريلي التخريجية العالية، اختير أحد تلامذة الإنكليزية البارزين في البلاد من قبل المجلس الوطني لمعلمي الإنكليزية».

أما جامعة بول ستيت في مونسي، أنديانا، فقد نشرت بحثه القصير الفائز بالجائزة بعنوان. «النظام في الوطن» في أذار ١٩٧٢. وقالت أمه: «كان نموذجاً لأسلوبه الساخر الغالب على كتابته».

يجب أن يكون النظام في الوطن أهم انجازات المجتمع في المدى البعيد. لا بالاكتفاء بإيماءة الرؤوس والقول بصواب هذا المنطق فحسب، بل لا بد أن نتخذ جميعاً وبعزم موقفاً ثابتاً حول هذا الموضوع. وعندما ندعى لتأييده، ندعمه بجد ونشاط، ويمكن القول إن مستقبل بلدنا هو في بعض الأحيان في أيدي الوالدين.

إذا قلبنا صفحات التاريخ نجد أن طاعة الأب والأم امتثل لها الابن وعادت عليه بالخير. مثلاً فريتز بن ويليام تل في برن. عندما طلب إليه ويليام الوقوف دون حركة وعلى رأسه تفاحة، هل أحجم؟ بالطبع لا. ويتضح لها أن نتيجة لذلك نشأت دولة سويسرا الحالية، وأصبح فريتز الاسم الشائع لكل ويليام تل مزيف في البلاد.

إلا أن السؤال الصعب هو هل فريتز هذا العصر يمتثل للأمر ويهدأ؟ الجواب لا لسوء الحظ.

إن فريتز هذا العصر، المراهق العادي (مع أن أي ولد يضع اليوم على رأسه تفاحة ليطلق عليها النار أبوه الأعور تعتبر أمراً مختلفاً نوعاً ما) يبدأ بالاستفسار عن صلاحية التفاحة الموجودة على الرأس. قبل كل شيء، لماذا لا توضع على رأس الأب؟ ثم لا بد من الحديث عن التفاحة. «إنها مستديرة و/ أو شديدة الاحمرار». (قد يكون للإفادة الثانية ما يبررها نظراً لأن اللون يثير في مخيلة الولد أفكاراً شريرة). طبعاً لا نستطيع أن نُسقِط وصلة شباب اليوم: ـ سداد. يتساءل فريتز: «أولاً، لماذا هي موضوعة على رأسي؟ أليس مكانها على الشجرة التي جاءت منها؟ من هذا نفهم أن تكوين سويسرا كان سيتأخر عاماً على الأقل بالوقاحة التي أبداها غلام نحو والده الذي كان همه الوحيد رعاية ابنه.

أخيراً أمامنا قضية يوليوس قيصر في روما. والفضل يعود لاكتشاف حديث توصل إليه العالم

اللاتيني المشهور وسيء الطالع، اليفانتو كاندور، إذ تبين لنا أن العراف لم يكن سوى أبي يوليوس المفقود منذ زمن بعيد وعاد منذ قليل من الحروب الدينية في إيرلندا الشمالية (طبعاً كان مع الجانب الروماني). أما يوليوس الذي كان ابناً باراً فقد تجاوز نبوءة أبيه المسن مع عبارة متقضبة

(الشيء الوحيد الذي لا أحتملة هو الأب المتعالم).

والمفجع بالنسبة لقيصر أن كلمات أبيه تحققت،مسكين قيصر. الحروب انتهت، كما انتهت الانتصارات. ليته امتثل لأبيه. وحتى عندما انحاز بروتوس إلى جانب أبيه انتهره قيصر بعنف بعبارته الجارحة: «وأنت يا بروتوس؟» وبالنتيجة ساد روما الذعر والتزاحم على المصارف (وليس ضفاف التيبر)، وهستيريا عامة. وأخيراً اضطرت روما لإعداد كومة ضخمة من الحطب لإحراق جثة قيصر. مروا جميعاً بجانبها باكين مولولين باستثناء شخص لم يشاطرهم البكاء ـ ألا وهو والد قيصر. فقد جثم في زاوية يضحك مقهقهاً ويتمتم كلمات على نغم: («أنبأتُه ذلك! أنبأتُه ذلك!»).

وهكذا نرى أن على جميع الأبناء الامتثال لأوامر الكبار. فالعصيان لا يؤدي إلا إلى الكارثة كما أظهرت القصة المذكورة أعلاه. وما حدث لقيصر عبرة لمن يعتبر من شباب اليوم.

قبل تخرج جاي في ربيع ١٩٧٢ سُمي طالب الدراسات الاجتماعية التخرجي البارز في المدرسة العليا. وسمته حَوْلِية الصف «الشاعر الأندياني» ووصل إلى جمعية الشرف الوطنية. ونتيجة لجوائزه وعلامات فحوصه ورتبه ونشاطاته خارج النهج الدراسي قُبل في جامعة ستانفورد في بالو آلتو كاليفورنيا. كان بإمكانه الالتحاق مجاناً بنوتردام بصفته ابن أستاذ ولكن هذا يقتضي بقاءه في البيت ـ بينما لا بد من فراره. كما قُبل جاي في جامعة وسكونسن وجامعة شيكاغو إلا أنه ووالده اختارا ستانفورد في النهاية.

الفصل الثالث

ثقافة جاسوس

بدأ بولارد سنته الابتدائية في ستانفورد بتلقي حلقات في الطب الإعدادي بغية السير على خطى أخيه الأكبر هارفي. إلا أنه سرعان ما بدل رأيه وأضحى طالباً متخصصاً في العلوم السياسية. وقد ذكرت أم جاي تذمره من المنافسة القاسية بين طلاب الطب الإعدادي. وروت عن جاي قوله «كانوا يقومون بأعمال تخريب للتأكد من أن هذا الطالب يحصل على صفر أو يسقط إلى حد ما. لا أريد هذه الطريقة. فعلاً لا أريدها مطلقاً».

إن المشقات التي جابهها بولارد في طفولته لم تتلاش عند دخوله الكلية. فرانكلين واينشتاين مرشد كلية بولارد في ستانفورد ذكر بعد ذلك بسنوات للواشنطون بوست أن بولارد كان طالباً جم الذكاء ومنظماً للغاية، ينزع ليكون مغامراً إلى حد بعيد وأحياناً لمقاومة أو تنفير الطلاب في أبحاث الندوات. وذكر واينشتاين أن بولارد كان يميل إلى المبالغة في الأشياء. فإذا عهدت إليه بمهمة لكتابة بحث يؤديها بشكل أروع ولكن أطول بكثير مما هو مطلوب.

ذكر ستيڤن لابوانت، من واشنطون دي. سي. أحد رفقاء بولارد في الحجرة في ستانفورد أن بولارد كان شديد الاهتمام بالتاريخ العسكري وعمليات الاستخبارات. وأخبر صحيفة ستانفورد اليومية بعد اعتقال بولارد بقليل أن جاي بولارد كان يباهي بحصوله على مواطنية مزدوجة وأنه كان زعيماً في الجيش الإسرائيلي.

وصف لابوانت بولارد مداعباً فطرياً سمجاً. قال: «كان ميالاً لتوجيه نكات بذيئة إلى الناس». وذكر «إن بولارد كان يربط أضواء الغرفة بأسلاك موصولة بمفرقعات استعراضية بحيث تنفجر عند إدارتها ويختبىء في مخادع الناس ويداهمهم عند دخولهم إلى غرفهم». وهذا غيض من فيض من الأعمال الحقيرة التي كان يقوم بها.

أضاف أنه كان يمضي وقتاً طويلاً في ممارسة لعبتي «الدبلوماسية» و «المدرعة الخاطفة» اللتين

تركزان على الاستراتيجية العسكرية الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية. وكان يقود معارك الغذاء كما لو كانت حملات عسكرية. وفعلاً، ذكرت أمه فيما بعد: «كان له صديق يبقى معه أحياناً حتى الثانية صباحاً يمارسان هذه الألعاب الحربية».

ذكر طالب آخر في ستانفورد، يوناثان مارشال من أوكلاند، كاليفورنيا، أنه كان يسمع قصصاً عن مباهاة بولارد بأنه على جدول مرتبات الموساد. وفي مقابلة مع النيويورك تايمس استطرد مارشال قائلاً: إن بولارد كان فذاً واسع الاطلاع وفي غاية التنظيم. والكثير من المزاعم التي تبدو خلافاً لذلك غريبة جعلها مقنعة. وقال إن بولارد كان صهيونياً متعصباً ولكنه متحرراً معتدلاً في بعض قضايا الشرق الأوسط السياسية. أضاف مارشال: لقد وصف نفسه بأنه عضو في مجموعة ضباط إسرائيليين تحبذ قنوات اتصال منفتحة مع مصر.

بعد سنوات وفي مقال لميخائيل ساتشيل أوردت أيضاً نيوز إندوورلدريبورت الأميركية أن بولارد تظاهر كجاسوس إسرائيلي خلال دراسته في الكلية «سبق أن تعاطى المخدرات والكحول بكثرة ودحض معاودتها عندما تقدم بطلب لعمله في الاستخبارات الأميركية. وجاء في بيان لمارشال وكان حينئذٍ محرراً في «أوكلاند تربيون» قوله: لقد افترضت أن بعد أن ترك جاي ستانفورد سيستمر في العمل لإسرائيل. وُوصف بولارد بأنه رجل مشهود له الخيال الخصب والذكاء الحاد والتبجح الظاهر. وقد صدّق رفاقه في الكلية حكاياته غير القابلة للتصديق. لم يرتد عباءة ولا حمل خنجراً إلا أنه شوهد في بعض الأحيان في حرم الجامعة يحشو مسدساً كبيراً. وسُجل في صورة حولية تخرجه من ستانفورد باسم «الزعيم» بولارد. وقد أقنع معظم المتصلين به بأن الموساد كانت تسدد رسوم تعليمه.

أجاب بولارد في السجن «لا لم أكن عضواً في الموساد. لم أنمق الكلمات أبداً فيما يتعلق بمشاعري نحو إسرائيل لا في الجامعة ولا في مدرسة التخرج. ولو طلبت من أي كان آنئذٍ أن يصفني لقيل لك «إنني صهيوني متحمس». ولوصفني بعض الذين لا يحبونني بأنني صهيوني مطواع. وقد يكون هذا صحيحاً إلى حدٍ بعيد. إن أمن إسرائيل قبل كل شيء. هذا واجب».

ذكر أنه كان ورفقاؤه في اللعبة الحربية يعطون أنفسهم ألقاباً كان لقبه «الزعيم». وصديق آخر لقب نفسه «وديا» رائد حامل وسام من رتبة فارس. وثالث لُقب «بالقائد». قال بولارد: كل ذلك على سبيل المزاح والتسلية. لم يأخذها أحد على محمل الجد.

بعد نشر مقال نيوزاند وورلدتربيون الأميركية عاد بولارد لشرح تعلقه أيام دراسته في الكلية بالشؤون العسكرية. فطلاب مثل مارشال ـ ليسوا من أصدقائه الحميمين ـ أساءوا فهم ما جرى، وزاد بقاؤه في السجن من اعتقاده بوجود مؤامرة لقتله. وقال «فيما يتعلق بمقال «الأخبار» الأميركية علمت بصراحة في سياق استجوابي أن سمعتي ستلطخ دون علمي لرفضي توريط اليهود الآخرين فيما اعتبر مؤامرة تتناول أعلى تشكيلات المؤسسة الصهيونية الأميركية، لقد نسب لي عدة «اعترافات» من قبل

مصلحة الاستقصاء البحرية حول هذا الموضوع ظهر فيما بعد أنها من قبيل الدعاية. وقد أعلمت محاميّ تكراراً بهذا الأمر ولكنه وجده غير ذي أهمية. واستطرد بولارد قائلاً: إن المزاعم التي تضمنها المقال مجرد مثل «للاختلاق من العدم». أيعقل أن أكون مدمناً على المخدرات بينما كانت تُجرى لي فحوص الدم والبول بصورة دورية؟

واستطرد: فيما يتعلق بإدماني المزعوم على المسكرات، إلامَ يستند هذا الادعاء؟ هل سبق أُدخلت في قائمة السكيرين المجهولين أو إلى عيادة إزالة التسمم؟ وهل ألقي القبض علي ذات يوم بتهمة DWI كما جرى لكثيرين في المكتب، أو دعيت للمقاضاة لذهابي إلى العمل في حالة سكر؟ هل رآني أحد يوماً أتناول المشروب في فترة الغداء كما كان يفعل كثيرون من زملائي السابقين؟

فضلاً عن ذلك، لدى مجابهة صديقي الحميم المزعوم من أوكلاند ادعى بأنه لم يكن يعرفني بالمرة في المدرسة. . . إنني أقر بتدخين البوتقة في الكلية ومدرسة التخرج، ولم أحاول أبداً إخفاء هذه الحقيقة لا بل ذكرت ذلك في طلبي لأول منصب في الاستخبارات البحرية ويبدو أنه لم يؤخذ علي كممسك.

إن الفِرية هي أصعب ما يستوجب التفنيد لأنك إن قابلتها بالسكوت كان ذلك بمثابة إثبات للادعاء، بينما إذا أفرطت في التصنع يُظن أنك تحاول إخفاء شيء ما. أي «الاحتجاج مع رفع العقيرة» «كل ما يمكنني قوله لمن يحاول الإساءة إليّ هو مراجعة السجل».

يقول أبواه إنهما لم يكونا مدركين لأية نزعات كانت تراوده خلال سنيه في الكلية. قالت السيدة بولارد: «لا نعرف شيئاً من هذا القبيل. لم يُظهر شيئاً من ذلك بحضورنا». بيد أن الدكتور بولارد لام نفسه على مخيلة جاي.

ذكر بولارد أن ابنه كان عارفاً بارتباطه هو بوكالة الاستخبارات المركزية. وقال الأب: بالطبع كان جاي شاهداً على الكثير الكثير من الأمور التي كانت تحصل معي. لم أشتغل أبداً لوكالة الاستخبارات المركزية ولكني لم أتوانَ عن إعلام هذه الوكالة بأي أمر منطقي فيه دعم لقضية الولايات المتحدة. كنت أُستجوَب فعلاً حول كل رحلة أقوم بها.

كانت وكالة الاستخبارات المركزية توفد عادة عملاء إلى مكتبه في نوتردام لمقابلته. قال: «كنت أعرف ما يريدون» وجاي كان يعرف تطفلي، لأنه سمع مثلاً بالرحلة التي قمت بها إلى ألمانيا الشرقية. كان في ذلك الحين في الكلية، وكنا نعد العدة لاجتماع حول أمراض المرء في نيويورك برعاية مؤسسة شتيرن. في جبل هارتس، كان ذلك حول أمراض القدم والفم، وكنت الرئيس العام لهذا الاجتماع برمته. وكنا قد قررنا دعوة أناس من سائر أنحاء العالم لبحث هذا الموضوع ـ وعليه اتصلت بأناس في ألمانيا الشرقية وأعلمتهم عن رغبتي في التوجه إلى هناك، وقد اتخذت بعض الترتيبات لمجيئهم على حسابنا لهذه الندوة التي كانت برعاية مؤسسات خاصة. وهكذا ذهبنا إلى فرنسا، ثم إلى ألمانيا فهولندا ـ وهي مناطق ينتشر فيها أمراض القدم والفم».

في مناسبة أخرى قال الدكتور بولارد إن مسؤولاً في وكالة الاستخبارات المركزية جاء إلى ساوث بند لإعلامه بأن الوكالة كانت تبحث عنه منذ عشر سنين. وكانوا راضين عما اكتشفوه. وسأل المسؤول عما إذا كان الدكتور بولارد يود الذهاب إلى مؤتمر علمي في الاتحاد السوڤييتي لبحث بعض المسائل ذات الصبغة العسكرية. وذكر المسؤول أن الدكتور بولارد كان لا يزال مقدماً في احتياطي الجيش الأميركي. والواقع إنه خلال الحرب العالمية الثانية كان الدكتور بولارد يعمل في مختبر بروك في المركز الطبي التابع للجيش الأميركي في فورت سام هيوستون، تكساس. وقد كان رائداً لأبحاث المناعة ضد الأمراض الاستوائية التي كان ينقلها الجنود الأميركيون بشكل روتيني من المحيط الهادىء. وقد حصل على مدالية إطراء الجيش والتنويه الرئاسي. إلا أنه رفض الطلب بالسفر إلى موسكو والسبب الرئيسي هو فزع السيدة بولارد. قالت: «لقد رفضت الذهاب إلى روسيا». قال الدكتور بولارد: «كان جاي شاهداً على ذلك. كان شعلة من الرومانتيكية منذ وُلِد».

وقال الدكتور بولارد إن ابنه شهد في الواقع مجابهة واحدة جرت له مع موظف في وكالة الاستخبارات المركزية ـ «ربما كان لها تأثير عليه». وذكر الدكتور بولارد أن موظف وكالة الاستخبارات المركزية سأل إذا كان يرغب في طرح أسئلة على مندوبين روس في مؤتمر علمي دولي حول الأمراض ذات الأهمية العسكرية. قدموا له قائمة بأسماء علماء سوڤييت والأبحاث التي يقومون بها. قالوا: «اقرأها واحرقها». وقال الدكتور بولارد: «وهكذا رجعت بها إلى الغرفة حيث ألقيت نظرة على الأسماء ـ أسماء بارزة ومطولة. وبالتالي أبقيت القائمة في جيبي الأمامي وعندما أصل إلى واحد كنت أنظر إلى لوحة الاسم».

«أوه! الدكتور شمولكوف»، وافترضت أنهم نظروا أيضاً إلى قائمتهم وهو شيء مضحك للغاية.

جيل ليند‌او وهو محام في روكڤيل، ماريلاند، كان أيضاً طالباً مع بولارد في ستانفورد. قال إنه «نبذ» فحوصه لمنتصف الفصل في خريف ١٩٧٣ عند نشوب حرب يوم الغفران. قالت السيدة بولارد: «لقد أخبرني أنه ذاهب إلى إسرائيل للخدمة في الجيش». وشددت على أن بولارد كان يتباهى بكونه عضواً في لواء جولاني وهو وحدة مشاة مختارة.

وصف بولارد تلك الأيام خلال الحرب بالأزمة الحقيقية في حياته. قال «كانت واحدة من أكثر التجارب تثبيطاً لي، لأن كل همي كان التقدم والتوجه إلى هناك. كنت في الصف الثاني في الكلية وشعرت بالإثم لعدم كوني هناك». ولكنه عمل فقط على الوصول إلى مطار لوس انجلوس. وقال: «خلافاً لتجارب ١٩٦٧ كل ما بلغ أسماعنا من الأخبار هو الفوز الإسرائيلي غير المستقر. وإن قائمة الإصابات كانت في ارتفاع إلى حدود مفزعة. وصدرت دعوة المتطوعين القادرين جسدياً للانتقال من المزرعة الجماعية إلى الجبهات. إلا أن المجموعة التي كنت أنتسب إليها أمضت خمسة أيام مخيبة في انتظار طائرة العال في لوس أنجلوس قبل إعلامنا أنه لم يعد ثمة حاجة لنا بعد اجتياز الجنرال أرييل شارون قناة السويس. ورغم انتصارنا إلا أن الثمن كان مفزعاً. وأمضيت كل الوقت

جالساً في باحة مطار يبعد ١٥,٠٠٠ ميل عن إسرائيل عاجزاً عن القيام بأي شيء ما خلا التفكير.

أضاف: «إنه خلال تلك الأمسية قررت أن مجال المخابرات سيمدني بالمهارة التي ستلقى الترحاب في إسرائيل إذا ما هاجرت إليها. وكما فعل الزعيم ماركوس، كنت على استعداد لخدمة الولايات المتحدة بإخلاص ثم بعد مساهمتي بقسط من الجهد للدفاع القومي أسافر إلى إسرائيل».

أما مشكلة الخطط طويلة الأمد فهي أن الأحداث كثيراً ما تتجاوزها وتبطلها. وبالنسبة لي. بدأت أنعم بالعيش في الولايات المتحدة إلى درجة أنني كدت أؤثر البقاء هنا.

خلال الصيف ما بين الصفين الأول والثاني من سني الكلية كان بولارد في البيت في ساوث بند، وذكرت أمه أنه سُجل في حلقة دراسية يومية في نوتردام في التاريخ الإفريقي. وتذكرت قوله: «إنني على الأقل أقوم بشيء بناء». واستمر اهتمامه بإفريقيا طيلة السنوات التالية.

بعد ذلك ذكر والش وهو أستاذ في نوتردام في مقابلة مع الواشنطون بوست أنه كان يعلم في تلك الحلقة الدراسية الصيفية. ووصف بولارد كواحد من أفضل طلابه «كان ذا دافع لتفهم عمل السياسة الباطني في سائر أبعادها المكيافيلية وكان مأخوذاً بممارسة السلطان». وأضاف أن بولارد كان مهتماً بوجه خاص بمصلحتي جمع الاستخبارات والأمن. كان مهتماً بشبكة الأمن في جنوبي إفريقيا وطريقة عمل وكالة المخابرات المركزية في هذا البلد. وكان مهتماً بقدرة إسرائيل على الدفاع عن نفسها بتلك الطريقة.

خلال صيف آخر ذهب جاي مع والديه إلى اليابان حيث دعي الدكتور بولارد إلى مؤتمر علمي. قال الدكتور بولارد إنه أثناء وجوده هناك ذهب إلى وزارة الخارجية حيث قدم نفسه. وقال له أحد الزملاء «تعال معي. أنا خريج ستانفورد». خلال تلك الزيارة اجتمعنا فيما بعد مع رئيس تحرير صحيفة يابانية. تم الاجتماع بواسطة أصدقاء. كان جاي يتحدث عن روسيا وتهديد الحضارة كما عرفناه. المحرر الذي كان في الثمانينات، نظر إلى جاي وقال: «عم تتكلم؟ إنهم يفزعون منكم حتى الموت. وتتصرفون كأنكم تخشونهم». كانت تلك مفاجأة لجاي لأنه كان يدرك أن روسيا اعتزمت القضاء علينا. ثم تباحث المحرر وجاي مطولاً عن تاريخ القوات البحرية اليابانية وكيف دمرت الأسطول الروسي. سمى جاي جميع السفن وذكر كيفية ومكان إغراقها. نظر إليه الرجل وسأله مذهولاً:

«كيف عرفت كل ذلك؟».

في مناسبة أخرى طلبت إدارة الولاية من الدكتور بولارد استضافة عالم سوفييتي زائر للولايات المتحدة. كان جاي عائداً إلى البيت من المدرسة. وأثناء العشاء قالت السيدة بولارد: إن الروسي وجاي تباحثاً مطولاً حول معركة ستالنغراد. «وتطرق جاي لمختلف الجوانب والوقائع». أما الروسي (وطوله ٥ أقدام و٣ بوصات) فقد تأثر كثيراً. سأل: «كيف تسنى لك معرفة كل ذلك؟» جاءني

الجواب من السيدة بولارد: «كان بالطبع يمارس تلك الألعاب الحربية ليلاً». وقد أصيب ذلك الروسي القزم بالذهول.

ازداد اهتمام بولارد بالشؤون الدولية عندما ذهب إلى باريس خلال الصيف بين سنتي التخرج وما قبلها في ستانفورد. عمل كطبيب مقيم في المعهد الأطلسي وهو خلية فكرية خاصة سماها لي فيما بعد «جبهة وكالة المخابرات المركزية»(*). ومن الأساتذة الذين تصادق معهم الدكتور بنيامين كوهين، من مدرسة فلتشر للقانون والدبلوماسية. والدكتور فرنسوا سوزي من اللجنة الثلاثية في نيويورك. وعندما سأله أبواه فيما بعد عن نوع العمل الذي مارسه هناك أجاب بسؤالهم عما إذا شاهدوا فيلم «ثلاثة أيام الكوندور ـ رواية جاسوسية مثيرة عن وحدة جمع استخبارات وكالة المخابرات المركزية التي حللت قصص الجاسوسية بحثاً عن الأساليب الجديدة للاستخبارات المضادة وروت أمه قوله: لقد كنت هناك. «كنت في أعلى دار للكتب».

كان ذلك بالطبع مبالغة. وقال أبوه إن جاي جال بالفعل في باريس يقابل الدبلوماسيين الأجانب. «وتعلم كيف يقرأ ويكتب الإفريقية». لم يكن ذلك بالأمر اليسير إذ سبق لجاي أن درس الألمانية في ساوث بند أثناء دراسته العالية. كما قابل وصادق بعض البيض من جنوب إفريقيا ذلك الصيف في باريس مما أذكى اهتمامه في نظام التمييز العنصري. والواقع أنه بعد ذلك بسنتين، عندما كان بولارد لا يزال يعمل في المخابرات البحرية أوقف اهتمامه بجنوب إفريقيا في بعض المشاكل البالغة الخطورة.

لدى عودته إلى كاليفورنيا، درس سلسلة كبيرة من مواضيع علم السياسة وكانت الاستراتيجية العسكرية هي المفضلة عنده. وقد نشرت «ستانفورد أوبزرفر في عددها شباط/ فبراير ١٩٦٧ صورة لاثني عشر طالباً في غرفة تدريس مع التعليق: «اللامتخرجون يساهمون في مفاوضات مصطنعة لتحديد الأسلحة». وكان بولارد خليق الوجه يرتدي سترة وأربة كالطلاب الآخرين في الصورة جالساً في الزاوية يتأمل الوثائق. وجاء في المقال المرافق أنه «برنامج التدريب المهني الذي يعد بعض الرفاق لدراسة التخرج ويضم أطباء مقيمين مع أقسام إدارية حكومية، يستهدف تطوير جيل جديد من الحرفيين لمعالجة قضايا مراقبة الأسلحة».

الغريب أنه خلال السنوات الأربع التي قضاها بولارد في ستانفورد لم يكن ذا نشاط في المنظمات اليهودية. فمثلاً لم يكن عضواً في هليل، زمرة الطلاب اليهود. كما لم يكن له أصدقاء كثيرون. كان ثمة منظمات يهودية. ولكني على ما أظن كنت انعزالياً، لم أشعر بالراحة أبداً في المنظمات. وقال إن سبب ذلك كان معقداً أكثر من توفر الوقت لدينا لبحثه.

(*) مع أن كثيراً من الموظفين السابقين في المخابرات والجيش الأميركيين إلى المعهد الأطلسي. إلا أنني لم أعثر على دليل يؤيد زعم بولارد.

كان على الأرجح يؤثر البقاء بعيداً على الانضمام إلى بعض تلك المنظمات كما اعترف فيما بعد. «وفي ظني أني كنت أحرق مزيداً من الطاقة بهذه المناظرة الباطنية التي كانت تحتدم فيّ والتي لا تدع متسعاً من الوقت لإضاعته على المنظمات. ولو انضممت إلى منظمات لأمكنني تبرير هذا البقاء المشتت. ولكني لم أجد حاجة على ما أظن للقيام بذلك. كان أهم شيء في نظري مساعدة الدولة مباشرة بطريقة ما. وزدت يقيناً منذ نشأتي بأن الاشتراك الشخصي سمة الفرد المسؤول». لقد شعر بأن المنظمات لا تستطيع إشباع تلك الحاجة.

أضاف «فضلاً عن ذلك فإن هذا الجو الخانق ظل سائداً حيثما ذهبت».

رغم حياة بولارد الملأى بالخيال فقد ازداد عجزه عن التقدم حول التزامه لإسرائيل، إلا أنه دأب أيضاً على إيجاد مبررات أخرى للبقاء في مكانه. «أدركت ذهنياً على الأقل أن الجهد ذاته الذي بذلته لمحاربة الروس يساعد إسرائيل أيضاً بصورة غير مباشرة».

مع ذلك كان يقاسي عذابه الروحي. «لقد تُهت عاطفياً إذ كنت أعددت نفسي منذ أمد بعيد للهجرة، حتى أن فكرة البقاء وعدم ارتباطي جسدياً بالدولة كانت تجرحني في الصميم. لذا بقيت في معضلة معنوية حول ما يتوجب علي فعله لمساعدة إسرائيل مباشرة».

استمر والداه في تثبيط همته بعدم الهجرة. روى قولهما له: لا تفعل. ستكون ذا قيمة أكبر للدولة إذا أتممت تعليمك وبدأت هنا حياتك العملية ثم تعود إلى الدولة ومعك شيء نافع ـ ذو مسؤولية فعلية. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، ففي إبقائي هنا بعض الإثرة. يدفعني إلى ذلك الرغبة في إسداء نصيحة قيّمة وقويمة لإسرائيل ولي على حد سواء.

قَبِلَ بنصيحتهما متردداً. «أظن أن الرفض من جهتي كان مادياً فقط. وتعلمان أن من السهل على الآتين من مجتمعات ديكتاتورية الإقدام على الهجرة. فلا بديل لهم عن ذلك. بيد أن الأمر طوعي وعلى جانب كبير من الصعوبة بالنسبة للمقيمين منا في الغرب. فقيود المادية قد يكون جد إدمانية ـ وربما أكثر مما نود نحن اليهود التسليم به. ورغم تلك القيود مادية أو ما شابه ـ ناهيك المقولبات ـ فقد أخذت العاطفية وضرورة الهجرة تزعجانني».

ظنت أخته كارول أنه لم يكن باستطاعته هو أيضاً السفر لشدة تعلقه بعائلته. «ربما رام الرحيل، ولكن لا تنس أنك بصدد شخص شديد التعلق بعائلته: أما أن تكون كل عائلته هنا وهو بعيد هناك. . .».

طالما حاول حثها على زيارة إسرائيل. وروت عنه قوله: «ستحبين الحياة هناك. ما أن تذهبي حتى تتحققي مما أقول».

بعد إدراك مؤخر أضافت كارول باكتئاب: «يبدو أنه من الأفضل لجاي انتقاله إلى إسرئيل بعد إكمال دراسته في ستانفورد. وهذا ما يشغل فكري».

في حزيران ١٩٧٦ تخرج بولارد من ستانفورد وحصـل على شهادة بكـالوريـوس في علم السياسة وعاد إلى ساوث بند للالتحاق بكلية الحقوق في نوتردام بإلحاح شديد من والده. وذكرت كارول أنه تركها بعد مرور بضعة أشهر فقط رغم أن الأساتذة وجدوه ممتعاً جداً في الصفوف. قالت: لم يُطق ذلك. كان يتذمر من زملائه الطلاب. «كلهم مهتم بجمع المال، لا بتغيير أي شيء».

ذكر والداه أنه شعر بالخيبة لانعدام الأساتذة في القانون الدولي في نوتردام. وقال لهما: «لا أريد أن أكون محامي شركة».

بعد انفصاله أمضى فصلاً في دراسة علم السياسة في جامعة أنديانا في بلومنفتون قبل قبوله في كلية فلتشر للحقوق والدبلوماسيين في جامعة تافتس، بوسطن، وقبل تركه أنديانا حصل على منحة دراسية كاملة لنيل الدكتوراه في الفلسفة في الدراسات الإفريقية، ولكنه اختار فلتشر.

في مطلع خريف ١٩٧٧ درس هناك عامين إلا أنه لم يحصل على شهادته العلمية. وقال سنة ١٩٨٦. «إني آسف لذلك. وبصراحة لا زلت راغباً في نيلها».

قال بولارد: إنه خلال عامه الثاني في فلتشر عمل «مساعد أبحاث بـدون راتب» للأستـاذ روبرت بفالتز غراف في معهد تحليل السياسة الخارجية في كامبردج ماساشوستس. مع أنه قد يتردد في الاعتراف صراحة بذلك نظراً لأنه يتلقى معظم تمويل المعهـد من وزارة الدفـاع. وقد أنكـر بفالتزغراف مراراً أنه سبق لبولارد أن عمل هناك بأية صفة كانت.

بوجه عام، قال بولارد إنه وجد البيئة في فلتشر جد مناهضة لليهود. وقد سئل بعد ذلك بسنين عما إذا كان هو أيضاً قد تحاشى المنظمات اليهودية في فلتشر، فأجاب: «إن وجود تنظيم يهودي في فلتشر بعيد الاحتمال كانعدام الجمعية الوطنية لتقدم الملونين في اجتماع للكوكلوكس كلات. وقلما تُستوعَب الكلية في التجربة الاجتماعية لما بعد الحرب العالمية الثانية».

مع ذلك كان معه، طيلة فصل، رفيق حجرة يهودي يدعى ريتشارد فين ـ وهو الذي لعب بعد ذلك بسنوات دوراً معقداً في مشاكل بولارد.

كما كان ثمة أستاذ يهودي في الكلية أُعجِب به بولارد كثيراً. وقال إنه في الواقع كان للأستاذ أوري رعنان، وهو سوفييتي مشهور، تأثير عميق عليه. كان رعنان «ذخراً حقيقياً للجالية اليهودية وكذلك للولايات المتحدة». وأضاف بولارد: إن رعنان كانُ «تجربتي اليهودية فى فلتشر».

غير أن رعنان علمني أن باستطاعتك أن تطلق النار وتناقش في آن واحد. وإن السلام ما هو إلا استمرار للحرب بوسائل أخرى. وأظن أن هذا هو الدرس الكبير الذي تلقيته ـ ليس من الضروري أن تركب المخاطر في سبيل السلام، بل أن تكون من البراعة بحيث تستغل السلام لتحسين وضعك العسكري. يجب أن لا تضحي بشيء خلال عمليةِ السلام. فما هي إلا سهم نافع في جعبة خيارات السياسة. لقد أزالت السذاجة من حول السراب الذي يكتنف إمكانيةِ الوصول إلى سلام حقيقي ـ إثر

الانتصارات العربية المزعومة سنة ١٩٧٣ ـ الانتصار المصري سنة ١٩٧٣، وما جرى في الجولان لم يكن في رأيي موضع تساؤل.

استطرد قائلاً: لقد صقل رعنان إدراكي السياسي والاستراتيجي للجهد الذي بذل بغية الحفاظ على تلك الدولة. كما كان ذا فائدة جلى في حل تعقيدات القضية الفلسطينية التي هي أكثر تشابكاً من تقديم التشتت الذي تدفعك تلك الظاهرة للإيمان به. وهذا أيضاً ليس تصلباً. فلسنا في مجال إعطائه (شكلاً) محدداً ولكن إدراك التصدعات الناجمة عن الخلافات في الحركة الفلسطينية من الأمور التي تتطلب التعرف إليها واستغلالها ـ أسوة بالخلافات في العالم الشيوعي من وجهة نظر الشرق ـ الغرب. هذا لُب ما أعطانيه. وهو بالغ الأهمية. لقد أكمل ما أسميه تعلقي العاطفي الصرف بالبلاد.

بعد اعتقال بولارد، تلفن رعنان للدكتور بولارد ملتمساً بعض المعلومات عن علاج جديد يمكن استعماله لابنه الذي كان على وشك الموت من السرطان. وذكر الدكتور بولارد أنه أعطى رعنان المعلومات إلا أنه استاء جداً في نهاية المكالمة الطويلة لأن رعنان لم يستفسر عن جاي.

خلال الصيف بين سنتيه الأولى والثانية في فلتشر التحق بولارد بالكلية الحربية البحرية في نيوبورت، جزيرة رود. وذكر أبوه أنه مر على ما يبدو بتجربة مثيرة للغاية تمتع بها كثيراً.

ولكن بينما أحس بتقدم فكري، إلا أنه لم يزل محطماً عاطفياً بسبب قراره البقاء في الولايات المتحدة. وقال: «مع مرور الزمن وجدتني أغوص أكثر فأكثر في فراغ روحي. وكما هو حال سائر الحواجز سواء كانت روحية أو فكرية، فإن الشعور بولاءين متضاربين هو الذي يؤدي لبلبلة المرء الذي يرى نفسه وكأنه عائش تحت وطأة قانون مزدوج».

قال: إنه لا يزال في عذاب مطبق من جراء عواطفه المتباينة. كانت السمة النفسية للولاءات المجزأة ماثلة بجلاء: ضمير قلق وشعور بالإخفاق الشخصي. تحولت إلى رجل ضعيف، سليم النوايا وشجي الكبرياء. وهي حالة أكثر تعلقاً على الأرجح بالمأساة الكلاسيكية منها بالميلودراما اليهودية.

حاول نبذ الشعور بالأسف إنقاذاً لنفسه. كان الرثاء للذات «شيئاً لم أعهده لأن فيه رفضاً لإمكانية حل ضائقتي. ومع ذلك كان اليأس هو الثمن الذي دفعته لأنني حددت لنفسي هدفاً مستحيلاً. إنها، كما أُخبرت ذات مرة، الخطيئة التي لا تغتفر. ولكنها خطيئة لا يرتكبها على ما أعتقد، الرجل الفاسق أو الشرير. إما أن يكون ذا أمل أو ذاكرة ضعيفة للغاية».

بيد أن بولارد أكد التزامه للولايات المتحدة: «إنهما ليسا هدفين متنافرين فيما يتعلق بي. لا بقاء لأحدهما بدون الآخر. إن إسرائيل تنمو ـ تصطلي في ضوء الشمس ـ المنبعث من الشمس الأميركية. هذا الكلام قد يبدو تعبيراً مبتذلاً إلا أنه صحيح بالمعنى المادي والعملي. وفي رأيي أن ما من أحد يستطيع المجادلة في هذه النقطة في ضوء الميزان العسكري أو الميزان الاقتصادي».

في فلتشر تعرض بولارد لبيئة طلابية مختلفة. وقال: «كان ثمة كثيرون من العالم الثالث، والكثير من مناصري العرب، ثم أناس عديدون من الذين لا يزالون يجادلون في قرار الأمم المتحدة حول التقسيم (الذي دعا إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين) سنة ١٩٤٧. في بيئة كتلك يميل المرء إلى اتخاذ مواقف متطرفة - على سبيل الحاجة لإسماع الصوت ومواجهة هؤلاء الناس بتناقضاتهم أكثر من كونه للإقناع».

لقد ذهب بولارد إلى إسرائيل مرة فقط - أثناء الدراسة العالية «بيد أن الوقت الذي أمضيت والمتعلق بإسرائيل كان شاقاً للغاية أكاديمياً وعاطفياً. لا يمكنك التغاضي عن ذلك». كان دائم القراءة عن إسرائيل.

إن قرار بقائه في الولايات المتحدة كان مبعث قلق دائم له. وقال: «إن مجرد إدراكي لتقارب المصالح بين وطننا والولايات المتحدة لم يكن كافياً لتهدئة الشكوك في مخيلتي حول ملاءمة العيش بأمان في الغرب الميسور مادياً بينما كان الإسرائيليون يضحون بمكاسبهم الاقتصادية التي غنموها بشق الأنفس على مذبح الحرب. ما زلت أضمر الرغبات للهجرة فوراً، ولكن لم أشأ أن أترك بقسوة والديّ اللذين حاولا جاهدين تهيئة منظور بديل في تشردي. لقد اتخذت معضلتي شكل هاجس كلما عنفت محاولتي لحله ازداد الحل استعصاء. هذا القلق الباطني تغلغل في حياتي الاجتماعية والأكاديمية إلى حد أنني كنت أحياناً أعتزم حزم أمتعتي والرحيل إلى إسرائيل».

والواقع أنه غالباً ما كان يفعل ذلك في مناسبات عدة «إلا أن التفكير بأثره على والديّ كان في النهاية يمنعني من ذلك. وكانت نتائج هذا الموقف غير المستقر دراسات ناقصة، ونزوات، وفسخ خطبة، واعتقاد لا مبرر له بأن والديّ يتحملان بعض المسؤولية عن مشاكلي لعدم تشجيعهما الهجرة. ووجدتني في حيرة بين عاطفتي نحو إسرائيل وحبي الحقيقي لهذا البلد اللذين برزا كعقيدتين مُطلقتين بالتبادل».

كانت الخطبة لطالبة رفيقة في فلتشر من ولمنغتون، ديلاوير. ذكرت السيدة بولارد أنها «كانت إبنة دكتور ويهودية». جاءوا في مناسبة إلى ساوث بند لمقابلة عائلة بولارد. كانت فتاة جميلة ولكنها غير مكتملة النضوج، الأمر الذي أفزعنا. توطدت العلائق إلى حد أن والدي الطرفين تحادثا في الموضوع. قالت السيدة بولارد، مشيرة إلى الأنسباء المنظورين: «كانوا في تمام البهجة ويهوداً ظرفاء» إلا أن الخطبة لم تلبث أن أخفقت.

ذكر آل بولارد أن جاي جاء إلى البيت في مناسبة سابقة بفتاة أخرى من ستانفورد. وقالت السيدة بولارد «إنها كانت تحبه حقاً». وعلقت: إن تلك الفتاة أتت إلى واشنطون فيما بعد بينما كان يعمل للمخابرات البحرية ويقطن مع آن. كانت الرفيقة التي من ستانفورد مديرة لخيروكس. وقالت السيدة بولارد «أظن أنها جاءت لترى كيفية سير الأمور»، مشيرة إلى العلاقة بين جاي وآن.

ذكر بولارد أنه في فلتشر ولج لأول مرة دنيا المخابرات ومما قاله: إنه أصبح «عاملاً طليقاً»

لوكالة المخابرات المركزية. وقال إنه كان يقدم تقارير بانتظام لشخص ما عن نشاطات مختلف طلاب العالم الثالث. كما كان العديد من الطلاب الأميركيين الآخرين في فلتشر مرتبطين ببرنامج سري غير رسمي لوكالة المخابرات المركزية. ووفقاً لبولارد فإن هؤلاء الطلاب كانوا يعتبرون أن تعاونهم مع وكالة المخابرات المركزية أثناء دراستهم الجامعية سيساعدهم فيما بعد على الالتحاق بأعمال داخلية بل أعمال حقيقية في الوكالة. وقال بولارد إنه أصبح بالتالي يقدم تقارير بشكل روتيني لوكالة المخابرات المركزية عن العديد من الطلاب العرب في فلتشر بما فيهم شخص وُصف بأنه أمير سعودي.

إلا أن طلبه اللاحق لعمل في وكالة المخابرات المركزية رفض ـ وكان فشلاً رئيسياً في حياته. أكد أبوه أنه تقدم فعلاً بطلب إلى وكالة المخابرات المركزية. وعلى أثر اعتقال بولارد قال موظفو الوكالة إن سبب رفض طلب بولارد كان استعماله الحيني للمخدرات في الكلية ـ اكتشف ذلك أثناء فحص مكشاف الكذب.

مع ذلك ظل في حالة من العذاب الدائم. ففكرة السفر إلى إسرائيل لم تجد لها حلاً على الإطلاق في مخيلته. حتى وهو يؤدي قسم الولاء لحكومة الولايات المتحدة. فلم يكن المقصود بقاؤه إلى الأبد في الولايات المتحدة. وقال: إنها مسألة وقت. بل كانت كجدل تلمودي. ولنضع السؤال بشكل آخر: «لماذا لا أسافر؟» أو «لماذا لا أبقى؟».

كان من السهل عليه أن يسافر. لم يكن متزوجاً، وهو ملم بعض الشيء بالعبرية. وعند وصوله إلى إسرائيل يحصل على مواطنية فورية بموجب قانون العودة. ويحقق رغبته في الانخراط في الجيش الإسرائيلي. إلا أنه في قرارة نفسه كان يخشى ما يخبئه له القدر في إسرائيل. هل هو لائق فعلاً ليصبح جندياً إسرائيلياً؟ هل يستطيع حقاً إجادة اللغة العبرية؟ وما العمل إذا ظهر عجزه في إسرائيل؟ وبدلاً من التعلق بهذه الأسئلة آثر إلقاء اللوم على أبويه لقراره البقاء في الولايات المتحدة. كما خطرت له أسباب أخرى.

قال: «كان بإمكاني أن أشد الرحال وأسافر. ولكنني شعرت آنئذٍ أنها ستكون أيضاً تجربة ناقصة. ولا ريب أن هجرتي ستكون جد عملية وفي مصلحة الدولة. وعلق بأن مجال مخابرات الأمن القومي كان حقاً مفيداً للدولة الإسرائيلية. إنها مهنة نافعة وعملية وهي الشيء الأهم ـ أن أتمكن من تسجيل مأثرة».

الفصل الرابع

الشريف المتعصب

في ١٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٩ وهو يوم رطب حار في واشنطون استُخدم يوناثان جاي بولارد المتحمس كأخصائي أبحاث مخابرات من قبل المجال العملي لمخابرات القوات البحرية للولايات المتحدة في سويتلاند، ماريلاند وهي ضاحية جنوبية للطبقة الوسطى من عاصمة الدولة. قدم إلى واشنطون دون حصوله على درجة ماجستير من كلية فلتشر للحقوق والدبلوماسية في جامعة تافتس. إلا أنه كان واثقاً في النهاية من إكمال المتطلبات. وخلال عامه الثاني في فلتشر أصبح بولارد، باعترافه هو، كسولاً إلى حد ما في دراسته الأكاديمية. انخفضت علاماته الدراسية وأخفق في إنجاز بعض أبحاث الحلقة لانشغال باله حول مستقبل نهجه الحياتي.

حاول الانخراط في وكالة المخابرات المركزية ولكنه رُفِض فاستقر في المخابرات البحرية. وقيل إن وكالة المخابرات المركزية كانت مهتمة بتعاطيه الحيني للمخدرات في الكلية. إلا أن المسؤولين فيها، لأي سبب بيروقراطي كان، لم يشاركوا القوات البحرية هذا الاهتمام(*). وكان ذلك مثالاً قياسياً على أن اليد اليسرى في حكومة الولايات المتحدة لم تكن تعرف شيئاً عن شؤون اليد اليمنى. وقال موظف سابق في مخابرات القوات البحرية إن وكالة المخابرات المركزية قلما تشاركنا المعلومات.

ما إن تجاوز سن الخامسة والعشرين حتى تلقى بولارد باعتزاز بطاقة هوية حكومة الولايات المتحدة، شملت صورة له مرتدياً سترة خضراء دون أكمام وأربة بحرية مقلمة بالأحمر. وكثيراً ما كان يخرجها من حقيبة ويكتفي بتأملها. كانت في رأيه مثيرة للغاية. في تلك الأيام لم يكن ثمة شارب

(*) قال موظف في المصلحة الاستقصائية للدفاع فيما بعد أن محققيها كانوا قد قابلوا والد بولارد وأحد عشر شخصاً آخرين كانوا يعرفونه في فلتشر وأماكن أخرى كجزء من بحثهم الروتيني عن ماضيه.

أو لحية. وجاء في هويته أنه أسمر الشعر والعينين. كان طوله ٥ أقدام و٨ بوصات، ووزنه ١٦٥ رطلاً إنكليزياً. وعند اعتقاله بعد ذلك بست سنوات كان وزنه ٢٢٠ رطلاً.

كان من أولى مهامه دراسة الأنظمة السطحية للسفن في الأقطار غير الشيوعية. وعلى مر السنين طالع عدة مؤلفات تتناول هذا الموضوع. وقد أفاد من تجربة ألعابه الحربية في الكلية، وشعر أنه يتحلى بالمؤهلات الضرورية.

لم تكن أخته سعيدة أبداً حول التغيير في منهاج حياته. وذكرت أنها ناشدته أن يظل في منأى عن الحكومة قائلة: إنني لا أحبها بأي حال. إلا أنه كان عاقد العزم.

قال ذات ليلة أثناء الحديث في شقتها في نيوهاڤن: أريد حقاً الإقدام على ذلك. وقد طلب مساندتها. قالت: يمكنني إعطاؤك مساندتي العاطفية. ولكننا لن نتكلم في السياسة لأنها في رأيي ستطير عقلك.

قلما كانت تدرك كم كانت ملاحظاتها نبوئية.

من بين الأمور التي جابهها بولارد في مناسبات عدة في حياته الفتية ما وصفه باللاسامية البالغة الخطورة في القوات البحرية. «ورغم التحذير الذي وجهه لي العديد من أصدقائي اليهود حول الجو الخطر الذي رُوي أنه ساد المكتب، لم أكن متوقعاً مستوى ومدى اللاسامية المجازة داخل المنظمة. وقد حاولت عدة مرات تفهم خلفيات التعليقات المستنكِرة والمقولبات المتحيزة ولكن انتهى بي المطاف لاستنتاج أن القوات البحرية للولايات المتحدة، كالعديد من المؤسسات البحرية الأخرى حول العالم، كانت الملاذ الأخير للشريف المتعصب».

وقال: «كان الناس المنهمكون في أعمالهم، يعربون بشكل روتيني عن مواقف تجاه إسرائيل تتميز بصراحة عما كنت أسمعه عن اليهود في غضون نشأتي في أنديانا دون أن يوجه لي لوم أو حتى تحذير».

ذكرت آن بولارد فيما بعد أن زوجها لم يعلن على نطاق واسع كونه يهودياً بين زملائه. كما شددت هي أيضاً على انتشار اللاسامية في مكتب بولارد. وقالت «كنت أرافق جاي في حفلات مع أناس في مكتبه، وكنت أسمع دوماً شتى ألوان التعليقات اللاسامية».

قالت إن كثيراً من ضباط البحرية غالباً ما كانوا يثيرون قضية إغراق إسرائيل سفينة الولايات المتحدة «ليبرتي» خلال حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧. كانت تلك السفينة الأميركية لجمع الاستخبارات في المياه الدولية على بعد من ساحل إسرائيل على البحر الأبيض المتوسط عندما هاجمتها الطائرات الحربية الإسرائيلية في ٨ حزيران/يونيه. قُتِلَ ٣٤ بحاراً أميركياً. وأصرت إسرائيل على أن الهجوم حصل خطأ. ظن الطيارون الإسرائيليون أنهم كانوا يقصفون سفينة مصرية وقد قبلت

الولايات المتحدة رسمياً اعتذار إسرائيل وتعليلها. ودفعت إسرائيل تعويضاً لأسر الضحايا، إلا أن كثيراً من مسؤولي البحرية الأميركية لم يقبلوا رواية إسرائيل لما حدث.

علاوة على ذلك، كانت القوات البحرية على الدوام تاريخياً أقل القوات المسلحة للولايات المتحدة تعاطفاً مع إسرائيل. وكان للقوات البحرية وسلاح الجو والجيش علاقة عملية أوثق مع نظائرها في إسرائيل، إلا أن القوات البحرية كانت، كما هو مفهوم، أكثر اهتماماً بالحصول على تسهيلات مُرضية على طول مرافىء العالم العربي وفي الخليج الفارسي. أما إسرائيل فقلما كان لديها ما تقدمه على مر السنين. وكانت قواتها البحرية معتدلة في الحجم والمقدرة.

ومهما يكن فإن الموقف في القوات البحرية تغير بوضوح خلال إدارة ريغان وخاصة أثناء ولاية جون ليمان كوزير للبحرية. وأصبح مرفآ حيفا وأسدود على البحر الأبيض المتوسط مرفقين هامين للأسطول السادس الأميركي. وأمضى ما ينوف على ثلاثين ألف بحار أميركي إجازاتهم على شاطىء إسرائيل سنة ١٩٨٦ وحدها. . وبدأ الأسطول شراء طائرة الاستطلاع «دون طيار» ومعدات أخرى إسرائيلية الصنع. كما أن سرباً من المقاتلات النفاثة كفير الإسرائيلية الصنع أُجِّر الى القوات البحرية للولايات المتحدة التي استخدمتها لمحاكاة طائرات الميغ السوڤييتية في تمرينات التدريب.

وهذا ما ينطبق في الواقع على مجمل العلاقات الأميركية الإسرائيلية. وفيما مضى كانت وكالة المخابرات في عهد المدير ويليام كيسي، تشارك باستخبارات محددة مع إسرائيل بشكل شبه روتيني.

إلا أن بولارد لم ينظر إلى الأمور بهذا المنظار الأوسع. إذ ركز فقط على ما لم يكن الأسطول يقدم لإسرائيل. وفي غضون عمله مر بما وصفه فيما بعد بالتهديدات «المريعة» التي تواجه إسرائيل. قال إنه كان ثمة «سيل حقيقي» من المعدات العسكرية السوڤييتية «تدخل المنطقة بهدوء دون معرفة الإسرائيليين الذين كانوا يعتمدون على جماعة مخابرات الولايات المتحدة للتحذير من ذلك النشاط».

ونظراً للإحباط الذي لاقاه سنة ١٩٨١ في عمله في مخابرات الأسطول شرع في البحث عن عمل في أماكن أخرى. وأثناء المجابهة الساخطة تلك السنة بين إدارة ريغان والكونغرس حول بيع طائرات الاستطلاع أواكس للعربية السعودية توجه بولارد فعلاً إلى مكاتب لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (ايباك)، منظمة اللوبي الرسمية الموالية لإسرائيل في واشنطون، طالباً العمل كمحلل دفاع للمجموعة.

ذكر فيما بعد موظف ايباك أنه «جاء إلى مكتبنا وعرف عن نفسه بأنه يعمل لمخابرات الأسطول. وبدأ بتقديم عرض غريب. لقد حذر بولارد من أن جماعة الاستخبارات الأميركية كانت تتنصت على الايباك. قال المسؤول: «بعد خروج بولارد ضحكنا لأن هذا الشخص على ما يبدو في واد آخر». وقال موظف آخر في ايباك: «إن بولارد بدا غريباً جداً». ووفقاً لهذا المسؤول الثاني، فقد

ذكر أن بولارد روى قصة مفزعة من أخطار جسيمة تواجه إسرائيل. وقال المسؤول: «تكلم أيضاً عن حصوله الذي لا يصدق على معلومات في منتهى السرية. كنت أظن أن إيباك أنشئت كجزء من عملية «حث». بدت قصة غير قابلة للتصديق في الواقع. لذا تخلصت منه».

اشتكى بولارد فيما بعد بمرارة من قرار ايباك قائلًا: «كانوا حمقى بشكل يصعب تصديقه».

قابل بولارد في آب/ أغسطس ١٩٨١ آن هندرسون وهي فتاة جميلة في الحادية والعشرين من العمر ذات شعر أحمر وعينين زرقاوين واسعتين. كانت تعمل سكرتيرة في المعهد الأميركي للمهندسين المعماريين. وملتحقة ليلًا بجامعة ماريلاند. تعارفا بواسطة أحد رفاقها في الحجرة وسرعان ما تحابا.

ذكرت فيما بعد «فوراً صرنا أعز الأصدقاء. لقد كان حباً من أول نظرة».

فموعد فلقاء. «لم نفترق منذ ذلك اليوم ـ إلى أن حدثت المحنة».

قال محاميها فيما بعد، جيمس هيبي، إن الشابين أصبحا يتساندان. كل منهما يلبي حاجات الآخر. وقد أيد ذلك معارفهما الآخرون. وبدا عليهما وكأنما خلقا أحدهما للآخر.

قال برنارد هندرسون، والد آن، لقد فتنت بدماثة جاي كما بذكائه. وكان الاثنان يمضيان عدة ساعات في حديث حول الأحوال الوطنية والعالمية الراهنة. وعلاوة على ذلك، كان جاي يبدي لآن مزيداً من الإعجاب وتفهم أصلها اليهودي.

عرفت آن من جهتها منذ البداية أن جاي كان حسب تعبيرها «صهيونيا متحمساً». قالت «إنه كان صريحاً جداً معها حول التزامه لإسرائيل». لم يُخف ذلك ألبتة. كنت أعرف حبه العميق لإسرائيل. وإذ كانا يبحثان الموضوع كانت شيئاً فشيئاً تشاركه مشاعره والتزامه. قالت: بادلته الشعور ذاته. كان جاي معلماً ممتازاً.

تطورت العلاقة. وقررا العيش معاً في السنة التالية. وعندما انتهت مدة إيجار آن، انتقلت إلى شقة بولارد في ارلنغتون، فرجينيا عبر نهر بوتوماك من مقاطعة كولومبيا. في ذلك الوقت كانت قد قابلت والديه اللذين كانا يترددان غالباً على واشنطن. وقد ابتهجت للسرعة التي نمت فيها صداقتهما الخيّرة. ونظراً لطلاق والدي آن عندما كانت مراهقة، كان تأثرها بالغاً بمحيط عائلة بولارد التي غمرتها بالحنان والمودة. كانت عائلته حقاً ما تتمنى.

أخيراً انتقل الاثنان إلى شقة بسيطة ذات سريرين في الشارع العشرين ـ ١٧٣٣، قرب دائرة دوبون في أواسط واشنطون. كانت العمارة ذات الطوب الرمادي وتدعى النلسون. عبارة عن مجمع على بعد من جادة كونكتيكوت حول زاوية فندق واشنطون هيلتون. كانا يدفعان إيجاراً شهرياً قدره ٧٥٠ دولاراً. وأبرز ما في الشقة الجدران: ذات صفوف من رفوف لمئات الكتب التي جمعها جاي على مر السنين.

كانا يحبان المنطقة بما فيها من مقاهي ومكتبات وحوانيت أخرى. على بُعد سهل الوصول مشياً. كان هنالك مشكلة وحيدة ـ المرآب. ولكنهما كانا راغبين في دفع الثمن لقاء العيش هناك. وكثيراً ما كانا يتجولان في الشوارع في الأمسيات.

قال أبوها: «برواتب مشتركة قدرها ٥٠,٠٠٠ دولار في السنة استطاع الشابان تأمين مستوى معيشة متوسط ومعقول. ومما ساعد على ذلك بوجه خاص أن أمي قدمت لآن معظم المال ثمناً لسيارة وكان والد جاي يسدد فواتير البنزين المطلوبة».

ذكر هندرسون أنه قابل بولارد لأول مرة خلال رحلة عمل إلى واشنطون. قال: «لقد أخذت بذكائه ومقدرته على الخوض في مختلف المواضيع، كما أحببت فيه حسه».

كان قلقاً نوعاً ما لعمل بولارد الذي لا يخلو من «بعض الخطر». ولكنه سرعان ما استنتج أن عمله كان مكتبياً في منأى عن جمع المعلومات الميداني.

وذكر أن اهتمامه الشديد تركز على صحة آن المتدهورة التي كانت تشكو من آلام بطنية حادة وغامضة. وقال: «لقد خضعت لعدة معالجات لدى مختلف الأطباء، وأدخلت المستشفى في ثلاث مناسبات». إلى أن اكتشف الدكتور هربرت أ. موسكوڤيتش في واشنطون أنها تعاني من اضطرابات نادرة في المعدة. وكتب الطبيب فيما بعد «إن لديها شذوذاً حركياً في المعدة». مما يعني عدم قدرتها على هضم الطعام تماماً. وقال: ينجم عن ذلك أن بقايا الطعام غير المهضومة تتراكم وتتخثر مع مخاط وصفراء وتشكل كتلاً رخوة تعرف بالحصى. وهذه تتطلب إزالتها أو تقطيعها جوفياً ليتسنى مرورها عبر الجهاز الهضمي. قال إنها تحتاج لمداومة استعمال العقاقير التي تحفز المعدة على التفريغ.

لقد أجرت آن كافة أنواع العلاج ولكن رغم زوال الآلام دورياً إلا أن المشكلة إجمالاً ظلت قائمة.

مع ذلك استطاعت المضي قدماً في الحياة، وانتقلت من أعمال السكرتارية إلى علاقات التحرير والصحافة. مثلاً، عملت في أيلول ١٩٧٩ في اتحاد مصانع الاختصاصات الكيماوية، وهو اتحاد تجاري حيث طورت مهاراتها في العلاقات العامة. وكتب فيما بعد ناظرها جوان غيرسون من روكفيلد، ماريلاند أنه «رغم صبا آن آنئذٍ، فقد أثبتت أنها سكرتيرة ذات مؤهلات وضمير حي وكفاءة. وأنها كانت تمتاز بالقدرة على الاتصال برحابة مع أعضائنا ثم مهاراتها الجيدة في العلاقات العامة...».

في سنة ١٩٨٢ بدأت العمل في دائرة العلاقات العامة من الجمعية الوطنية للبنادق في واشنطون. ووفقاً لزملائها هناك، أبدت مقدرة فائقة في العمل. لقد تعلمت بعض المهارات من والدها الذي كان يعمل في العلاقات العامة في معظم حياته المهنية.

والواقع أنها صقلت مهاراتها المهنية في الجمعية الوطنية للبنادق. وذكرت فيما بعد رئيستها لورا و. ستروب من سلڤر سبرنغ، ماريلاند «مع أن ماضي آن كان كتابياً بشكل رئيسي، إلا أن رغبتها في الانتقال إلى إدارة المشروع، إلى جانب حماسها وإخلاصها وآرائها الخلاقة، كان مبعث تقدير» وأضافت: «إن آن أصبحت واحدة من أكثر موظفيّ مقدرة وموضع ثقة».

إلا أن رغم مشاكل آن الصحية كانت مهتمة بالإحباط الذي كان يلاقيه زوجها. وحتى في ذلك الحين كانت تعرف أنه بصدد اتخاذ قرار للمساهمة في معلومات منسقة مع الإسرائيليين. وأوضح والدها «إن آن أحست بأن جاي كان في محيط عملي يسبب له كرباً شخصياً وحثته على تركه». لقد استحثت التفكير الذي كان يعتوره غالباً بأن من الأفضل العمل أو التأثير لصالح شركة دفاع أو شخص مرتبط بصناعة الأسلحة الإسرائيلية. واقترحت أن يصبح مستشاراً لمؤسسة إسرائيلية.

كان هذا سبباً لتحوله قبل ذلك إلى ايباك. بيد أن ذلك التحول في المنهاج الحياتي لم يكن في الحسبان.

ظل بولارد في مخابرات الأسطول حيث استمر، ويا للسخرية، في الصعود على الرغم من حدوث أزمة رئيسية سنة١٩٨١ كلفته رؤاه الأمنية وكادت تفقده عمله.

خلال دراسات بولارد التخرجية ذكر أنه نمّى صداقة شخصية وطيدة مع ضابط بحرية جنوب إفريقي، عاد فيما بعد إلى جنوبي إفريقيا. قال: كنا مجرد أصدقاء ولم نتعدّ ذلك.

وخلال السنة الأخيرة من إدارة كارتر توتر بشكل حاد التعاون المخابراتي بين الولايات المتحدة وجنوبي افريقيا. فالأفارقة الجنوبيون طردوا كولونيلاً في سلاح الجو الأميركي بتهمة التجسس. وقابلتهم الولايات المتحدة بالمثل. وقد أضر تدهور مستوى التعاون بجهازي مخابرات كلا البلدين.

قال بولارد: لقد جابهنا مشكلة مع مجموعة المخابرات في الأطلسي الجنوبي وأوضح أن ذلك كان عصيباً للولايات المتحدة لأن كثيراً من سفن الولايات المتحدة ـ مع وجود الغواصات والسفن الروسية تتجول حولها ـ كانت تدور حول رأس الرجاء الصالح وجنوبي إفريقيا من وإلى المحيط الهندي والخليج الفارسي. في ذلك الوقت كان الأميركي لا يزال يؤخذ رهينة في إيران. وكان بولارد يعمل حينئذٍ في المكتب الأطلسي للمركز البحري لمعلومات مراقبة المحيط.

في الوقت ذاته جاء إلى الولايات المتحدة سراً الفريق ب. و. ڤانرد وستهويزن رئيس المخابرات العسكرية لجنوبي إفريقيا مع وفد عسكري خماسي. وقد خلق وجودهم إرباكاً لإدارة الولاية وآخرين في الحكومة.

رغم حداثة عهد بولارد آنئذٍ في مخابرات الأسطول، فقد ذكر أنه فاتح ناظره وأعلمه أنه كان على اتصال شخصي بالأفارقة الجنوبيين ـ مستعيداً أيامه في فلتشر. قال إنه كان له صديق أصبح

الآن نائب رئيس أمن الدولة في جنوبي إفريقيا وقال بولارد سألت إذا كان في مقدوري إقامة علاقة خلفية معه.

وفقاً لبولارد، فقد تلقى إذناً للقيام بذلك بعد استجواب مطول من قبل وكالة المخابرات المركزية. أكد أنه بدأت علاقة جد مثمرة. فقدمت جنوبي إفريقيا صوراً ومعلومات تعين مواقع السفن الحربية السوفييتية بما فيها الصورة الأولى لصاروخ سام هام وقصير المدى.

ادعى بولارد أنه نتيجة لنشاطه السري شرع مسؤولو القوات البحرية في الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا في التحادث «للمرة الأولى خلال عامين»، كانت العلاقة جيدة إلى أن تدخلت مصلحة الاستخبارات البحرية.

ولكن ما إن نُشِرت العملية حتى كثر التساؤل حول شرعيتها. وادعى أن مرد ذلك يعود لكونه طولب بإخفاء بعض الوثائق المُدِينة بحق بعض الأفارقة الجنوبيين ـ قال إنه رفض هذا الطلب لاعتبارات أدبية معتبراً ذلك لا أخلاقياً. وهذا على ما يظن ما أغضب ناظريه البحريين.

ادعى بولارد أيضاً أنه ألقي القبض عليه في نزاع على السلطة بين مصلحة الاستخبارات البحرية ووكالة المخابرات المركزية. وشدد على أن وكالة المخابرات المركزية أرادت بالفعل نقله لمراقبتها. وما أن انقشعت غيوم معركة التسابق حتى أصبح واضحاً أن مصلحة الاستخبارات البحرية أرادت من بولارد أن يستقيل. واتهمه بعض المسؤولين بكونه متقلباً. وقد علقت أوراق اعتماده.

قال مسؤولو القوات البحرية إنهم صدقوا في بادىء الأمر مباهاة بولارد حول علاقته الشخصية مع ڤاندرهويزن وآخرين في مخابرات جنوب افريقيا. والواقع أنهم وجدوا الفرصة سانحة للإفادة من تلك العلاقة بارباك ڤاندرهويزن. وروى فيما بعد مراسل نيوز أندووورلدريبورت الأميركية أن مصدراً بحرياً قال: إن الرأي في الأفريقي الجنوبي: إنه يستحق الإحراق.

ولكن بينما كانت القوات البحرية تحاول جاهدة انتزاع مزيد من المعلومات منه عن علاقته بالأفارقة الجنوبيين، بدأت قصته تتكشف. ووفقاً لرواية نيوز اندووورلدريبورت الأميركية، ذكر بولارد «أقاصيص خيالية» عن حياته في جنوب افريقيا وعمل والده رئيس مركز في وكالة المخابرات المركزية هناك. وقال مسؤول كبير في الاستخبارات البحرية: «لقد اتضح أن هذا الشخص كان متقلباً. لم يعجب أحداً وهذا ما ألّب الجهاز ضده».

أكد بولارد فيما بعد أنه طُلِب منه التماس مساعدة طبيب نفسي بعد إبطال أوراق اعتماده. ونصح والده بمراجعة الدكتور نيل باركر الذي كان ملتحقاً آنئذ بمستشفى جامعة جون هوبكنز في بلتيمور. وخلص الدكتور باركر فيما بعد إلى القول إن بولارد لم يكن مريض العقل ـ وعند هذه النقطة تقدم بولارد بشكوى رسمية لاسترداد أوراق اعتماده وعمله. وقد أعاد أوراق اعتماده مساعد

وكيل أمير البحر جون ل. باتس. «وفقاً للاجراءات الرسمية»(*).

ونظراً للهوس الذي كان مستحوذاً على بولارد من جراء اللاسامية في القوات البحرية. ذكر فيما بعد أنه قرر أن يصبح جاسوساً لإسرائيل في أوائل سنة ١٩٨٢ إثر اجتماعين مرخصين مع ممثلي الجيش الإسرائيلي الذين كانوا في زيارة لواشنطون. وحضر تلك الجلسات مع محللين آخرين في مخابرات الولايات المتحدة واستنتج ـ وفقاً للمستندات الحكومية ـ أن الولايات المتحدة لم تكن تزود إسرائيل بمعلومات مستوفية التنسيق لتمكينها من تعزيز قدراتها العسكرية.

قال بولارد فيما بعد في السجن: «الذي علمته أنه كان ثمة معلومات لأمن الدولة، وفي النهاية للولايات المتحدة أيضاً، لم تكن قد أنجزت. وعندما لا يطالب الجانب الآخر بالمعلومات فمن الواضح أنه لا يحصل عليها بأي شكل كان لأنه في كل مقايضة لا بد من بدل. فأنت لن تعطي شيئاً طوعاً فقط حتى بين الأصدقاء. إنك لن تضحي بشيء طوعاً أبداً ما لم تكن والحالة هذه مرغماً. وإذا كانت هذه المعلومات في متناول يدك لا داعي للتنازل عن جنيهات قيّمة للحصول على المعلومات من مصدر آخر».

إن الولايات المتحدة تشترك بقدر وافر من المعلومات مع إسرائيل والعكس بالعكس. إلا أنهما لا تتشاركان في كل شيء، فالولايات المتحدة مثلاً لا تقدم لإسرائيل معلومات بالغة الدقة عن الأقطار العربية «الصديقة» وعلى الخصوص الأردن، والعربية السعودية ومصر. إنها مسألة سياسية. وثمة معلومات حساسة للغاية غير مشتركة خشية إقدام إسرائيل على اتخاذ إجراء معاكس قد يفيد منها الاتحاد السوفييتي أو أي بلد عربي معادٍ في حال تسربها.
كما نخشى نفاذ السوفييت إلى جهاز مخابرات إسرائيل. فصيانة مصادر المخابرات وأساليب جمعها هي القاعدة الأساسية في مهنة التجسس.

كان بولارد مطلعاً جيداً على القيود على إفشاء هذا النوع من المعلومات المنسقة للحكومات الأجنبية بما فيها الحلفاء. لقد أعطيت له تعليمات وافية حول هذه القضية ووقع على عدة نماذج أقسم فيها على أن لا يقوم بأية إفشاءات غير مرخصة. ونص الشرط القانوني على ما يلي:

«لقد أُعلِمت بأن إفشائي المباشر أو غير المباشر أو استبقائي غير المرخص أو تناولي المهمل (للمعلومات المنسقة الحساسة) يمكن أن يسبب ضرراً يتعذر إصلاحه للولايات المتحدة أو تفيد منه دولة أجنبية. وإنني بهذا أوافق على عدم إفشاء تلك المعلومات لأي شخص غير مخول بتلقيها دون

(*) غير أن القصة لم تقف عند هذا الحد. فبعد اعتقال بولارد بقليل سنة ١٩٨٥ طالع الدكتور باركر ملفات مرضاه. واكتشف أن ملف بولارد اختفى ـ وهو الملف الوحيد المفقود بين سائر محفوظاته. وقد ارتاب بولارد في أن الاستخبارات البحرية سرقت المستند، وهي تهمة تعذر عليّ إثباتها.

ترخيص خطي مسبق من الدائرة أو الوكالة لحكومة الولايات المتحدة التي أذنت مؤخراً وصولي إلى المعلومات المنسقة الحساسة. كما أعلم أنني ملزم شرعاً وقانوناً بعدم إفشاء أية معلومات منسقة بأي شكل غير مرخص».

إلا أن بولارد شعر بمسؤوليته تجاه سلطة أعلى. لقد استنتج أخيراً، مورداً أسساً افتراضية، أن تلك القيود كانت غير ملائمة لإسرائيل. لقد احتفظ بآرائه لنفسه، ولكنه أخذ بالتفكير الجدي في الاتصال بإسرائيل. طالما كانت مساعدة إسرائيل معقد خياله. والآن بعد تلك السنين الطوال أصبح خياله على وشك التحقق.

بعد ذلك بسنوات وصف بشكل مثير قلقه الشديد لاقتناعه بقرار الولايات المتحدة المتعمد عدم تزويد إسرائيل بمعلومات كافية. قال إن القوات البحرية للولايات المتحدة كانت تخفي عن إسرائيل تفاصيل حيوية.

على كلٍ، رغم الاعتقاد السائد بأن الولايات المتحدة تزود الإسرائيليين بكل شيء، إلا أن مبادلة المعلومات من القوات البحرية ليس فيها شيء من «الإنصاف».

ذكر بولارد مساهمته في المبادلتين الرسميتين للمعلومات مع الإسرائيليين: «لقد اشتركت في مؤتمري استخبارات رسميين مع الإسرائيليين وقد أدهشني أن أوامر عالية المستوى بإعطاء أصناف معينة من المعلومات إلى القدس وضعت على الرف بشكل روتيني من قِبَل الرجال في الاستحكامات الذين اعتقدوا أن «اليهود» ليسوا بحاجة لمعرفة أي شيء».

أفاد أنه خلال إحدى المبادلات، وعندما طلب محلل أميركي معلومات ممكنة التسييب حول العملاء السوفييت في الحرب الكيماوية التفت إلي ضاحكاً وقال: «في اعتقادي أن اليهود كانوا بالغي الحساسية حول الغاز بسبب تجاربهم خلال الحرب العالمية الثانية. واقترح وجوب اخلادهم قليلاً إلى السكينة».

وفقاً لبولارد فإن الموقف الضمني «لكثير من الأميركيين المشتركين في هذه الاجتماعات كان عرقياً بشكل سافر. مما أثار قدراً مقابلاً من السخط والريبة لدى الإسرائيليين الذين اعتقد معظمهم أن الشؤون الأمنية لبلدهم أُغْفلت تماماً».

ازداد سخط بولارد لدى مشاهدة هذه الاتجاهات. والتعليم الرئيسي الذي تلقيته من ناظري هو أنه يتوجب علينا فقط أن نتأهب لإعطاء الإسرائيليين معلومات تكفي لإثارة هوسهم ولكن لا تكفي مثلاً لاكتشاف إجراء مضاد لنظام سلاح روسي معروف حديثاً. وعندما سألت باهتمام كيف سيتغلبون على جميع التجهيزات الروسية المتطورة والمتدفقة على المنطقة، أجاب أن ما عليهم سوى خسارة بضع طائرات وعندها يعرفون على أية ترددات رادارية يشوشون.

هذا الموقف لم يكن مقبولاً بالمرة من بولارد. إذ قال: «كان من العسير علي، كما تصورت، العمل في جو كهذا دون أن أشعر بالإحباط لما أعتبره رأياً تهكمياً لدرجة لا يمكن تصديقها، حول بقاء إسرائيل».

قال إن الإسرائيليين كانوا يزودون الولايات المتحدة بكل ما اكتسبوه معرضين العديد من عملائهم لمخاطر شخصية جسيمة دون أن يتنازل بيروقراطيو القوات البحرية فيبادلوهم بكرم وبشكل مماثل حسب توصياتهم.

ختم بولارد قائلاً: «في عودة إلى الماضي، لو اكتفيت بنقل ما رأيت لمفتش عام القوات البحرية ربما استقام هذا الوضع الشاذ بالطرق المألوفة دون أن أضطر لتولي الأمر بنفسي. ورغم ذلك راقبت تزايد التهديدات لبقاء إسرائيل، وشيئاً فشيئاً وصلت إلى النتيجة بوجوب الإقدام على عمل ما».

حدثت نقطة تحول أخرى لبولارد سنة ١٩٨٣ عندما نسف مقر قيادة القوة البحرية للولايات المتحدة في بيروت من قبل إرهابيين أصوليين شيعة. وقال إنه كان للمأساة تأثير كبير على قراره النهائي بالتجسس لصالح إسرائيل. «بينما وقفت في مؤخرة الكاتدرائية الوطنية (في واشنطون) مصغياً للصلاة التذكارية للجنود الصرعى، . بدا كل ذلك لا معنى له ـ ما ينوف على مائتي قتيل، وكل ما استطاعت حكومة الولايات المتحدة فعله هو الرد بغارة غير مؤثرة أدت إلى مزيد من القتلى الأميركيين».

كان للحادثة في مخيلة بولارد تشعبات جد مباشرة بالنسبة لإسرائيل. وقال: «لقد طرأ في ذهني أنه إذا كانت الحكومة غير راغبة في الدفاع عن مصالحها الخاصة في الشرق الأوسط ضد نوع من التهديد يمكن توجيهه بتأييد علني، فمن غير المعقول الظن بإمكانية طمأنة الإسرائيليين بعون كافٍ في حال امتداد لهيب المعركة إليهم. لقد رأيت فيما مضى كيف أن شعبة من جهاز المخابرات دأبت على إضعاف قدرة إسرائيل على التأهب للحرب، بينما كانت مختلف القوى العربية تتلقى على ما يبدو سيلاً لا ينقطع من المعدات الحربية من الكتلة السوفييتية وأوروبا الغربية والمعلومات المخابراتية عن إسرائيل. إن الوضع يتميز من كافة نواحيه بطابع الخيانة إذ تُركت إسرائيل وحيدة لمجابهة القوى المشتركة من أعدائها الكثيرين دون مساعدة حتى من حليف موثوق».

خرج من القداس التذكاري آخذاً على نفسه العهد بالقيام بعمل من شأن ضمان أمن إسرائيل حتى لو كان في ذلك ركوب خطر محتمل وتضحية شخصية. «كنت على علم من أن ما يعتمل في فكري خطأ ولكن كل ما ساورني طوال الوقت هو أن الغاية تبرر الوسيلة. وكما هو حال العديد من الفلسفات الأدبية الواقعية، فإن أصعب العوائق التي يجابهها المرء هي التسليم بحقيقة أن العمل الذي يفكر في الإقدام عليه بينما هو في الظاهر نتيجة قوة «قاهرة» خارجة عن سيطرته، إلا أنه يظل

أمراً يتحمل مسؤوليته شخصياً. فما من مبرر على الإطلاق يُحله من جرمه. اللهم إلا تفسيرات قد تقدم موجهاً حافزاً لجريمته».

هذا القرار بالتجسس لإسرائيل ساعد على حل ضائقة بولارد المستمرة حول عدم انتقاله إلى هناك. كما أنه خرج بتعليل محرف للجاسوسية نيابة عن دولة صديقة. وأقنع نفسه بأن الولايات المتحدة لن تتعرض للضرر، لا بل قد يكون في ذلك مساعدة في الواقع للولايات المتحدة إذ يكون لها حليف ـ شارك أميركا مخاوفها من ناحية الاتحاد السوفييتي ـ وفي هذه العملية تقوية له.

وقال: «باتخاذي هذا القرار أستطيع أن أقر بخداعه الصارخ إنما ليس خيانته على الإطلاق. ما فعلته كان في رأيي حل معضلتي بطريقة يتسنى لي معها العمل في الشتات ضد التهديد الروسي في الوقت الذي أساعد فيه إسرائيل».

الفصل الخامس
الطارق

في حزيران/ يونيه ١٩٨٤ نُقل بولارد إلى مركز الإنذار لمكافحة الإرهاب (أتاك) الذي أنشىء حديثاً في قسم تحليل التهديد بمصلحة الاستقصاء البحري. رأى أن هذه المهمة ممتازة لأنها تضعه في غمرة النشاط بحيث يتسنى له جمع المعلومات الحيوية للإسرائيليين.

كان جيري آجي آمر الوحدة، وهو ضابط بحري صلب الشكيمة، ذو حنكة عشرين عاماً في المخابرات، طويل القامة، أصلع وآثار شعر أحمر في أعلى رأسه. وقد عُين منذ شهر رئيساً لِ آتاك. جاء مباشرة من الخدمة البحرية حيث كان يعمل مسؤولاً تنفيذياً لدى أميرال على متن سفينة تابعة للاسطول السادس الأميركي شرقي البحر الأبيض المتوسط على بعد من الشاطىء اللبناني خلال غارات القصف الأميركي ضد الأهداف الإرهابية سنة ١٩٨٣. وذكر آجي فيما بعد «كان هذا سبب اختياري لتسلم تلك المهمة لمكافحة الإرهاب. كما قمت فيما مضى ببعض المهام الأخرى التي كانت تلائمني بالإضافة إلى تجربتي الأخيرة في الشرق الأوسط. سئلتُ عما إذا كنت أقبل ذلك العمل. أجبت بالإيجاب».

شُكلت أتاك سنة ١٩٨٣. وعند التحاق جيري كانت الوحدة في المرحلة الأولى لتكوينها، كان ثمة العديد من المهام المؤقتة لموظفيها ولكن اتضح أن القوات البحرية أرادت أن تصبح أتاك منظمة مخابرات دائمة مهمتها النظر في قضايا الإرهاب التي هددت اسطول الولايات المتحدة وسلاحها البحري. قال آجي: «كانت عنصراً جديداً في جهاز مخابرات القوات البحرية. وقد أنشئت حديثاً. وكان هناك قلة ضئيلة من الموظفين ذوي المهام الدائمة».

إن الأشخاص المؤقتين الذين ألحقوا بِ أتاك أخذوا من قيادات أخرى في القوات البحرية. وكان آجي أول موظف دائم أُلحق بأتاك. قال: «وهكذا عندما وصلت هناك في أيار كان معظم

الأشخاص العاملين مؤقتين، وتُرك لي حرية نقل المؤقتين إلى وضع دائم. كان بمقدوري استخدام الموظفين المؤقتين طالما دعت الضرورة إنما يُستحسن أقصرَ وقت ممكن.

أُمِرت كل قيادة بحرية إفرادية في سويتلاند، ماريلانـد، باختيـار عدد معين من المـوظفين المدنيين والعسكريين لأتاك. وذكر آجي أن جاي كان بين المجموعة الثانية من الأشخاص الذين دخلوا أتاك. وقد توافدوا في أيار/ مايو وحزيران/ يونيه.

عندما تشكل وحدة جديدة مثل أتاك ويطلب من مؤسسات أخرى إمدادها بالموظفين كثيراً ما يطلبون نقل الأشخاص الذين يعتبرون مشاغبين أو غير منتجين. وفي أتاك قُبِل بولارد في أول الأمر بارتياب بسبب مشاجراته السابقة مع رؤسائه في مركز إسناد مخابرات القوات البحرية، وهو قيادة منفصلة في سويتلاند.

في ذلك الحين لم يكن آجي يعرف شيئاً عن بولارد أو ماضيه. لقد انتصب على درجة الباب ذات صباح وقال: «أنا ذا فتاك الجديد».

كانت أولى مهام بولارد في أتاك العمل في المراقبة طوال أربع وعشرين ساعة يومياً، حيث يعمل شخصان في المكتب في آن واحد. وهما مسؤولان عن تلقي المخابرات الواردة إلى أتاك. مهمتهما المحددة فرز رُزم المعلومات ومحاولة تحديد ما قد تفيد للاسطول وسلاح البحرية. وقال آجي: «عُهد إلى بولارد القيام بتلك المراقبة، وفي بادىء الأمر تلقى بضعة أسابيع من التدريب في القيادة. كان تدريباً ضمن العمل. وفي حزيران/ يونيه أصبح على ما أظن مؤهلاً للقيام بالمراقبة برفقة شخص آخر أكثر خبرة. كان أساس عمله آنذاك الاطلاع على كافة معلومات المخابرات ونقل الأخبار الصحفية العامة ـ رويتر، اسوشييتد برس أو ما شاكل ـ حسب ورودها. ثم فرزها مع تحليل سريع. هل تشكل تهديداً لوحدة الأسطول في مكان ما؟ وفي هذه الحال، هل هو تهديد فوري؟ إذا كان الأمر كذلك حذرهم منه، وإلا حوّلها إلى شخص آخر كان يعمل في النهار ليتسنى له إجراء تحليل أوفى لها»

في هذا المنصب الجديد عهد إلى بولارد مهام شملت بحث وتحليل معلومات المخابرات المتعلقة بتهديدات إرهابية محتملة. كان في بادىء الأمر مسؤولاً عن مراقبة حركة الرسائل اليومية المنسقة الواردة لأتاك لمعلومات تتعلق بالنشاطات الإرهابية وتحويل المعلومات للمحلل المسؤول عن المنطقة الجغرافية التي يحدث فيها النشاط. كان بولارد يحتسي عدة فناجين من القهوة ويدخن علباً من السجائر ويعمل اثنتي عشرة ساعة مناوبة ـ إما من ٦ ب. ظ. حتى ٦ صباحاً أو من ٦ ص. حتى ٦ مساءً.

قال آجي إن بولارد بدا في أول الأمر كمحلل آخر، إلا أنه أثبت مقدرة في عمله. وقال: «كان ابن بجدته، وبدا أنه يؤدي عملاً مرضياً. كان باستطاعته إجراء تحليل سريع إلى حد ما. وتراءى لي

أن تحليله للأمور التي اتخذت شكل تهديد كان فوق المعدل. وكان باستطاعته كتابة المقالات الصغيرة باتقان وسرعة. كان المطلوب أداء كثير من الأمور بسرعة واتقان نسبي دونما حاجة إلى تنظيم عقلي أو شخصي ـ الانهماك بأمر لفترة طويلة. وهكذا كان يجيد معالجة المسائل قصيرة المدى من قضايا المخابرات.

كان بولارد يحمل تصاريح وقائية للحصول على المعلومات الخصوصية والسرية والسرية للغاية والمعلومات المبوبة الخاصة واستلامها واستخدامها.

وفقاً لأنظمة حكومة الولايات المتحدة تصنف المعلومات على أنها «خصوصية» إذا كان إفشاؤها غير المرخص قد يؤدي إلى «الإضرار» بالأمن القومي. «وسرية» إذا كان إفشاؤها غير المرخص يسبب إضراراً خطيراً بالأمن القومي، «وسرية للغاية» إذا كان إفشاؤها غير المرخص يؤدي إلى إضرار خطير بشكل استثنائي. «والمعلومات المنسقة الخاصة» تعبير يطلق على معلومات مبوبة حساسة بوجه خاص يكون نشرها موضع رقابة دقيقة ويقتصر على نخبة من الأفراد ضمن أجهزة الجيش والمخابرات لديهم تصاريح وقائية خاصة.

إن مدلولات المعلومات المنسقة الخاصة، وفقاً لمستندات المحاكم، تشمل بشكل رئيسي معلومات حول الأجهزة التقنية المعقدة لجمع المخابرات وكذلك نتاج المخابرات الذي تجمعه الأجهزة. فنشاطات المخابرات العادية تستخدم الوسائل البشرية، وجمع المعلومات المنسقة الخاصة يستخدم بشكل رئيسي الأجهزة التقنية. ومخابرات الاتصالات هي المثل النموذجي للمعلومات المنسقة الخاصة، إذ إنها مستمدة عادة بواسطة جهاز تقني يعترض الاتصالات.

نظراً للطبيعة الهشة للغاية للمعلومات المنسقة الخاصة ـ تسليم جهاز تقني يكاد يعادل فقد شبكة من العملاء ـ فقد أقيمت قواعد وقائية صارمة للوصول إليها. وفي تقديمها اللاحق إلى المحكمة قال مدعو الحكومة إن نسبة مئوية صغيرة نسبياً فقط من الأفراد الذين منحوا تصاريح «سرية للغاية» ووفق أيضاً على وصولهم إلى المعلومات المنسقة الخاصة. ويقتصر الوصول إلى المعلومات المنسقة الخاصة على الأشخاص الذين هم بحاجة رسمية واضحة للمعلومات المنسقة الخاصة والذين يواجهون هيئة فياصل وقاية أشد صرامة.

إن المعلومات المصنفة سرية للغاية و/ أو المعلومات المنسقة الحساسة تحفظ في عدة مكتبات ومستودعات مأمونة في سائر أنحاء منطقة واشنطون. وقالت الحكومة إن بعض هذه المعلومات يُستوعَب في نظام كمبيوتر مُحكم يمكن الوصول إليه من خلال معابر تقع في تلك المراكز كمكان أشغال أتاك في سويتلاند، ماريلاند. وكان باستطاعة بولارد وغيره من محللي أتاك وحَمَلَة تصاريح «سري للغاية/ معلومات منسقة حساسة وشيفرات العبور الملائمة، الدخول بسهولة إلى هذه المكتبات والمستودعات ومعابر الكمبيوتر للحصول على المعلومات لأداء مهامهم المحددة.

إلا أن محللي أتاك كانوا يعملون في ما سمته الحكومة «نظام شرف». كان المفـروض أن يقصروا وصولهم فقط إلى تلك المعلومات التي هم «بحاجة رسمية لمعرفتها». ومع ذلك، إذا ما وصل محلل أتاك الحامل لشيفرات عبور ملائمة إلى هذه المباني المُحكمة يكون أيضاً بمقدوره أو بمقدورها الوصول والحصول على معلومات عالية التنسيق لا صلة لمهامهم بها.

مثلاً، كان في عهدة بولارد «مكتب الولايات المتحدة الكاريبي/ الأوروبي في أتاك» وكان ما «يحتاج معرفته» من المعلومات المنسقة تقتصر على المعلومات التي تتعلق بالنشاطات أو التطورات الإرهابية في تلك المناطق. إلا أنه وفقاً للأوراق الحكومية، كان باستطاعته ـ ومنذ أوائل حزيران/ يونيه ١٩٨٤ ـ الوصول بشكل روتيني والحصول على معلومات منسقة متعلقة بالشرق الأوسط وغيره من المناطق الجغرافية البعيدة عن نطاق المسؤولية المعهودة إليه.

ذكر آجي أن بولارد كان ذا إلمام واسع بشؤون الشرق الأوسط وإفريقيا، إلا أن بولارد كان يحتفظ لنفسه بآرائه السياسية المناصرة لإسرائيل. وقال آجي: بقيت مدة طويلة لا أعرف حتى كونه يهودياً. . . فلم يفصح أبداً عن ذلك. وقلة هم الذين عرفوا ذلك ممن كانوا على معرفة شخصية به أكثر مني. لم يُظهر أبداً أنه يهودي. لم يظهر أبداً أنه يهودي ممارس. لم يكن هذا موضع بحث على الإطلاق. . . لم يحدث أن انبرى قائلاً: أنا يهودي، ولكن بعد فترة من الزمن استنتجت من الوقائع أنه كان كذلك من قبيل الافتراض. لم يسبق أن سألته إذا كان يهودياً. والواقع أنه سيان عندي أكان أم لم يكن.

ذكر آجي أنه بينما عُين بولارد في مركز مساندة المخابرات البحرية، فقد «أبدى ملاحظات بأنه كان يعمل للمخابرات الإسرائيلية». غير أن بولارد كان يُعرف في ذلك المنصب بـ «مهاجم الثيران». كان دوماً يروي حكايات طويلة وكاد أن يصبح أضحـوكة في المكتب. «أمـا سمعت القصة عن بولارد؟ ما أكثر قصص بولارد».

قال آجي: «إنه ما من أحد روى رسمياً بيان بولارد المزعوم عن عمله للمخابرات الإسرائيلية. حسب معرفتي، لم يُوضّح أبداً رسمياً أنه أدلى بهذا البيان. لم يبلغ أبداً. وأعتقد أن ما عُرف عن كونه راوياً لحكايات مطولة جعل أي شيء قاله في سياق محادثته موضع شك».

إلا أن آجي اعترف بأن «جميع قصصه التبجحية وحكاياته الطويلة كانت في جوهرها لا تخلو من الحقيقة. وهكذا فإن قصة عمله للموساد ـ سواء أكانت صحيحة أم لا ـ قد تكون في معرض تفكيره.

ما لم يعرفه آجي هو أن بولارد كان في ذلك الحين يعرض أمن الولايات المتحدة للخطر أولاً بتهريب وثائق للتأثير على أصدقائه، ثم محاولة تطويع صديق آخر في حلقة تجسس كانت تتبلور في مخيلته.

إن مستندات المحكمة التي أذنت الحكومة فيما بعد بنشرها أظهرت في الواقع أنه في سنة ١٩٨٢ سبق لبولارد أن قدم «لبعض معارفه المقربين وثائق منسقة خاصة بالولايات المتحدة». وكان اثنان من هؤلاء الأصدقاء مستشاري استثمار محترفين. وجاء في أوراق المحكمة، أن الوثائق تضمنت «تحليلات اقتصادية وسياسية منسقة» اعتقد بولارد أنها قد تساعد أصدقاءه لتقديم منشورة لزبائنهم. وفي مناسبة ثالثة، وفقاً لشهادة الحكومة الخطية بقسم قدم بولارد وثائق منسقة إلى شخص آخر من «معارفه المقربين» عرف إن باستطاعته استخدام المعلومات لتعزيز منهاجه الحياتي.

أخبر بولارد محققي الولايات المتحدة أنه رغم عدم تَلَقِيِّه مقابلاً للمعلومات فقد أَمِل في أن يكافأ في النهاية من خلال فرص تجارية يهيئها له هؤلاء الأشخاص عند تركه المخابرات البحرية. وجاء في مذكرة الحكومة قبيل الحكم. إن المتهم اشترك في الواقع في مشروع تجاري نامٍ مع اثنين من هؤلاء المعارف حين زودهما بهذه المعلومات المنسقة. واعترف بولارد أن تصرفاته «عكست رغبة منكودة» للتأثير على أصدقائه بأهمية عمله ومعرفته للمناطق التي تهمهم. والواقع أن عدم اطمئنان دفعه إلى التباهي لأصدقائه(*).

إن فكرة إعادة تطويع صديق لمساعدته في نقل وثائق إلى الإسرائيليين نشأت بعد تلقي بولارد المخابرة الهاتفية التي طال انتظارها من ستيفن شتيرن، سمسار الأسهم المالية في نيويورك الذي سبق له أن قابل سيللا. وأخيراً ها هو بولارد على أهبة التعرف إلى سيللا بطل الحرب. وفي عملية تسريب الوثائق لأصدقائه اكتشف بولارد أنه من السهل عليه تهريب ملفات من مكتبه. والآن سنحت له فرصة القيام بعمل هام من أجل إسرائيل. أخذت تتبلور في مخيلته الخطة لحلقة تجسس. لذا فهو بحاجة إلى المساعدة.

وفقاً للمستندات الحكومية «حتى قبل اجتماعات بولارد الأولى مع سيللا سعى لتطويع صديق قديم ورفيق حجرة من فلتشر، ريتشارد فين، كناقل محتمل لأخذ وثائق إلى الإسرائيليين في نيويورك. وقال مدعو الولايات المتحدة (بدون تسمية فين) إنه بعد اعتقال بولارد «روى لوكالة الاستخبارات الأميركية صديق للمدعى عليه أن المدعى عليه جَدّ ذات مرة لتطويع الصديق في مسعى غير واضح لمساعدة إسرائيل».

قام بولارد بصحبة آن بزيارة لفين الذي أُعلِم بأنه باستطاعته كسب بعض المال بمساعدته بولارد لتسليم بعض المعلومات غير المحددة للإسرائيليين.

ذكرت الحكومة فيما بعد «أنه في مسعى أخرق لإثارة اهتمام الصديق بهذه المحاولة أبدى المدعى عليه وآن هندرسون بولارد انتقاداً لأسلوب حياة الصديق وذكرا أنه بالإمكان تحسينه فعلياً

(*) كشفت هويات هؤلاء الأشخاص الثلاثة في المحكمة فيما بعد وهم كورت لوهبيك وجو هارمون ولورا كارو. لم يكن في حوزة أي منهم تصاريح أمنية. وقد رووا تعاملهم مع بولارد بعد اعتقاله.

بزيادة الدخل. وكان الصديق مدركاً لطبيعة عمل المدعى عليه وظن أن المدعى عليه كان يعرض تسليم المعلومات المنسقة إلى إسرائيل. رفض الصديق بشدة عرض المدعى عليه ولم يُثِر الموضوع بعد ذلك قط. بيد أنه حوالى الوقت نفسه من صيف ١٩٨٤ أخبر المدعى عليه صديقه أنه (المدعى عليه) كان من المقرر أن يجتمع مع الطيار الإسرائيلي الذي شن سنة ١٩٨٣ الغارة الجوية على منشآت المفاعل الذري العراقي».

اعترف الزوجان بولارد فيما بعد أن بولارد حاول التماس تعاون صديقه في ما سيتمخض عنه الاتصال مع سيللا إلا أنهما شددا على عدم تأكدهما في الواقع آنئذٍ من حقيقة ما سيسفر عنه هذا الاتصال. واعتقد بولارد أن فين قد يكون مستعداً للسفر إلى نيويورك إذا لزم. ولكن وفقاً لبولارد لم يُبحث موضوع الدفع، وافترض بولارد أن إسرائيل ستدفع لفين مصاريف سفره(*).

(*) أذاعت الحكومة فيما بعد مقاطع من جلسة آن في مكشاف الكذب بعيد مشارطة دفع الدعوى في ٢٩ تموز/ يوليه ١٩٨٦ مع وكيل خاص وكالة الاستخبارات الأميركية باري د. كولفرت التي وصفت خلالها مفصلاً الأمسية التي حاولت فيها هي وزوجها «تنصيب» فين دعامة خلفية لعملية التجسس.

ذكرت آن هندرسون بولارد أن الصديق من واشنطون نما في ديترويت في منطقة يغلب فيها السود وأن «يهوديته» كانت عائقاً له أثناء ترعرعه وفي حياته التالية في البحث عن عمل. وصفت المدعى عليها آن هندرسون بولارد الصديق من واشنطون بأنه «يهودي» صميم. وتبادر لذهنها في بادىء الأمر أنه يضاهي زوجها يوناثان ج. بولارد من حيث كونه نصيراً «للصهيونية»، ووصفت الصديق من واشنطن بأنه شديد «العداء للعرب»، ويعتنق، على الأقل سراً، ذات الآراء كزوجها يوناثان ج. بولارد فيما يتعلق بالحاجة لأمن دولة إسرائيل. وذكرت آن هندرسون بولارد أنه خلال ربيع سنة ١٩٨٤ جرت عدة حوادث إرهابية في أنحاء شتى من العالم وُجهت إلى مواطنين إسرائيليين ويهود أميركيين. تلك الحوادث المتصاعدة أزعجت كثيراً يوناثان ج. بولارد وآن هندرسون بولارد على حد سواء. وقد أقلقت يوناثان ج. بولارد لعدم استطاعته في الواقع تقديم أية مساعدة لدولة إسرائيل.

لقد عرف يوناثان ج. بولارد أن صديقاً من نيويورك كان جم النشاط في العمل مع الإسرائيليين. كما عرف أن الصديق النيويوركي كرّس نفسه لمساعدة الإسرائيليين. وذكرت آن هندرسون بولارد أنها علمت بأن الصديق النيويوركي، علاوة على المساعدة لجمع الأموال لدولة إسرائيل كان ذا أثر في الحصول على تحويلات تقنية عالية لدولة إسرائيل.

في محادثة مع الصديق النيويوركي عرض يوناثان ج. بولارد قدراته في الأبحاث التحليلية. وأخبرها (آن) يوناثان جي بولارد أنه خلال هذه المحادثات مع الصديق النيويوركي علم أن شخصاً ما «سيتصل» به في المستقبل القريب. ويبدو أن يوناثان ج. بولارد لم يعطِ اسماً أو تاريخاً محدداً لهذا الاتصال. ورأت آن هندرسون بولارد أن أية مساعدة يقدمها ستقتضيه السفر إلى نيويورك للحصول على التفويضات أو نوع من «تحديد الواجبات»، وأن في حال تعذر قيامه بهذه الرحلات فسيحتاج إلى شخص ما للقيام بها بدلاً منه. وشعر أنه في غاية الأهمية أن يكون الشخص ملتزماً لدولة إسرائيل بقدر ما كان التزامه هو، يوناثان ج. بولارد. بهذه المسحة أعتقد أن الصديق من واشنطون سيكون مرشحاً ممتازاً لهذا «السند الخلفي». واعتبر يوناثان ج. بولارد وآن هندرسون بولارد أن هذا الصديق من واشنطون موضع ثقة ومتقد الذهن «وحاضر البديهة»، وأنه لا يقل عنهما مناصرة للصهيونية.

ذكرت آن هندرسون بولارد أن اتصالهما بصدد هذا العرض أو «التنصيب» حدث في نيسان/ ابريل ومطلع أيار/ مايو ⌧

تلقى أڤييم سيللا ترخيصاً رسمياً من رؤسائه لمقابلة بولارد في واشنطون. واستنتج رافي إيتان أن بولارد لم يقل غير الحقيقة عن نفسه، إلا أن سيللا ظل ملتزماً جانب الحذر الشديد.

في غضون بضعة أيام وجد نفسه على متن طائرة شرق أوسطية متجهة إلى واشنطون. أما سيللا وهو قائد مقاتلة من الدرجة العليا فقد أرغم على الجلوس في مقعد متوسط بين رجلي أعمال بدينين ومُتعَبين ومبتلين بالعرق. قال في نفسه «ما هكذا يسافر الإنسان». بينما كانت الطائرة تدور بانتظار الأذن بهبوطها في المطار الوطني. لقد كان يفضل بالطبع غرفة طيار في مقاتلة نفاثة ف - ١٦.

أما توقيت الاجتماع الذي طال انتظاره فقد لاءم سيللا كثيراً. إذ صادف أنه دعي لإلقاء محاضرة سندات إسرائيل في عاصمة الولايات المتحدة. ولكن كان ثمة أيضاً هدف آخر.

جاء فيما بعد في تقرير استقصائي للكنيست برئاسة أبا إيبان أن الجنرالين موشي ليڤي وآموس لابيدوت «قدّما رأياً خاطئاً في هذه المسألة. لقد قبلا طلب العقيد أڤييم سيللا دون إجراء تدقيق ذاتي شامل للتثبت من أن موظفاً كبيراً لم يُستخدم لمهمة تتجاوز نطاق سلطته». وأوصى التقرير أنه يجب عدم إعطاء المصادقة في المستقبل لاستخدام ضابط قديم في الجيش في نطاق المخابرات خارج قوة دائرة الاستخبارات دون الاذن المسبق من وزير الدفاع. ومما يدعو إلى الأسف أن رئيس الأركان السابق موشي ليڤي لم يعمل على هذا الأساس في هذه المسألة. إلا أن ذلك كان إدراكاً مؤخراً ٢٠/٢٠.

= ١٩٨٤. وقالت إنها ذهبت إلى شقة الصديق من واشنطون في المساء لتطلب مساعدته. وقالت آن هـ. بولارد إنه خلال بحث حول الوضع في إسرائيل وأعمال الإرهاب المتعاظمة أخذ يوناثان ج. بولارد بإلقاء أسئلة على الصديق من واشنطون في محاولة لتجديد «يهوديته». وعندما طلب يوناثان ج. بولارد من الصديق من واشنطون في النهاية مساعدته كان من المتعذر عليه إعطاء أية تفاصيل حقيقية لطبيعة هذه المساعدة واكتفى بالإعراب عن الحاجة لمساعدته. أما جواب الصديق من واشنطون، وفقاً لآن هـ. بولارد فكان يتأرجح بين الإيجابية والسلبية. وذكرت آن هـ. بولارد أنه ساورتها «أحاسيس» جد سلبية نتيجة هذه المحادثة إذ إن الصديق من واشنطون لم يبد أي حماس للفكرة التي قدمها يوناثان ج. بولارد. لم تلاحظ شيئاً من التعاطف وسرعان ما تمنت لو أن يوناثان ج. بولارد لم يثر هذا الموضوع بالمرة مع الصديق من واشنطون.

في آخر المساء أثناء عودتهما بالسيارة إلى البيت ذكرت آن هـ. بولارد أنها في الواقع قالت: «إنها فكرة سيئة. أعتقد بوجوب نسيانك هذه المحادثة».. وذكرت آن. هـ. بولارد أنها تذكر جواب يوناثان. ج. بولارد بالضبط ولكنها تعتقد أنه تردد لما قالت...

قالت آن هـ. بولارد إن هذا كل ما جرى على ما تعتقد في تلك الأمسية التي «نُصبَ» فيها الصديق من واشنطون.

أما فين فقد رفض فيما بعد بحث الحادث معي واكتفى بتأكيد أنه كان رفيق بولارد في الحجرة نصف عام دراسي في فليتشر.

شدد فيما بعد داڤيد ماغين عضو الليكود في لجنة إيبان في التقرير الرسمي أن إيتان تصرف من ناحيته بتفويض بالحث على الاتصال المبدئي ببولارد. وقال ماغين «إن اللجنة بحكم طبيعة الأشياء كانت غير قادرة على أن تعين في هذا التقرير ـ بسبب نشره ـ عدة تفصيلات تثبت بنية المجموعة التي رئسها إيتان. والاستنتاج الواضح المنبثق من هذه التفاصيل هو أنه تطويع بولارد وطريقة عمله تمّا بتفويض. ويوافق أعضاء اللجنة على أن رفائيل إيتان لم يتجاوز الصلاحية الممنوحة له». قال الطيار تبياناً للواقع وبلهجة الأمر ولكن ودية: «هذا آڤي سيللا».

أجاب بولارد: «شلوم» وهو يقفز من مقعده ويقف في وضع انتباه وسماعة الهاتف في يده. وقد أثاره سماع صوت سيللا المنخفض والسار.

سأل سيللا: «أنتناول طعام الغداء؟»

أجاب بولارد: «بكل تأكيد. ما برنامجك؟»

واتفقا على التقابل في المقهى المجدد في فندق واشنطون هيلتون في ٢٩ أيار/ مايو ١٩٨٤ بعد خمسة أشهر من أول اجتماع لسيللا مع شتيرن. كان سيللا يقيم في الهيلتون الذي كان يغص بالمؤتمرين. وكانت المسافة قصيرة سيراً على الأقدام من شقة بولارد عبر الشارع العشرين إلى جادة فلوريدا.

كان ذلك الاجتماع الأول شيقاً بالمواضيع التي تطرق إليها. جلسا في مقصورة منعزلة بعيدة عن الرواد الآخرين. وكان الرجلان يحاذران استراق السمع: يتمثلان بحادث وقع قبل بضع سنوات عندما كان ستيڤن براين، وكان حينئذٍ عضواً كبيراً في لجنة العلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ يتناول طعام الإفطار في مقهى فندق ماديسون مع مسؤولين إسرائيليين. قدم ميخائيل سابا، من الجمعية الوطنية للأميركيين العرب فيما بعد شهادة خطية بقسم إلى وكالة الاستخبارات الأميركية متهماً بأن براين ينقل معلومات منسقة إلى الإسرائيليين ـ وهي تهمة أنكرها براين. وبعد تحقيق مطول لم توجه أي تهم أخرى ضد براين الذي حصل أخيراً على منصب رفيع في البنتاغون خلال إدارة ريغان ـ تصاريحه الأمنية السرية للغاية على حالها.

شعر بولارد بميل فوري نحو الطيار. لقد صح كل ما قاله شتيرن عنه ـ ذكي ومخلص وحساس وواسع المعرفة. وسرعان ما اعتقد بولارد أن باستطاعته ائتمان سيللا تماماً. بدأ يغمره بفيض من المعلومات التي لا تصدق، بغية التأثير نوعاً ما على سيللا.

كان بولارد في ذلك اليوم متبلد الذهن ـ لدرجة سببت لسيللا في الواقع شيئاً من الفزع. أخبر سيللا بتعابير ليست موضع شك أنه أراد أن يكون عميلاً للحكومة الإسرائيلية. واندفع قائلاً: أعلم أن باستطاعتي مساعدتك. لا يمكنك أن تتصور مقدار المعلومات الحيوية التي تُمسكها الولايات المتحدة عن إسرائيل.

قال إنه أراد تقديم وثائق ومعلومات منسقة. وصف المركز الذي شغله ونوع المعلومات

والوثائق المخابراتية المنسقة التي استطاع تقديمها، بما في ذلك «المخابرات الإشارية والمعلومات التقنية التي أمكن لإسرائيل استخدامها لتعزيز قدرتها الدفاعية».

صَعُب على سيللا تصديق ما سمع. كان قلقاً. هل غُرر به؟ هل إن بولارد مطوق بالأسلاك؟

ولكن كلما طال اصغاؤه لبولارد كلما ازداد ثقة به.

قال بولارد إنه بينما اعتزم في النهاية الهجرة إلى إسرائيل، كان راغباً في البقاء في مركزه الحالي ليكشف، نيابة عن إسرائيل، بعض «الثقوب» في جهاز مخابرات الولايات المتحدة. ولكنه لم يجلب أية وثائق واقعية لذلك الاجتماع الأول.

إن سيللا المزود بتعليمات وافية مسبقاً عن تلك الجلسة كان على استعداد لإعطاء بولارد ضوءاً أخضر حذراً شريطة أن يكون على اقتناع تام بإخلاص الأميركي. وقال سيللا، وفقاً لنشرات حكومية لاحقة، إنه بينما لم يكن راغباً في المعلومات عن القدرات العسكرية للولايات المتحدة، إلا أنه كان مهتماً للغاية بالحصول على المعلومات التي جمعتها الولايات المتحدة عن القدرات العربية والسوفييتية. وقال سيللا إن هذا يساعد على تعزيز القدرات الدفاعية لإسرائيل دون إلحاق الضرر بالولايات المتحدة.

أخبر سيللا بولارد بشكل قاطع إن الإسرائيليين أرادوا التفريق بين التجسس «في» الولايات المتحدة والتجسس «على» الولايات المتحدة. فالأول كان صحيحاً. أما الثاني فلا. وهذا ما أراح بالتأكيد ضمير بولارد، إذ إن الإسرائيليين يدركون ذلك.

لزم بولارد فيما بعد الموقف ذاته. قال: «منذ بدء هذه المسألة لم أقصد أو أوافق مطلقاً على التجسس على الولايات المتحدة. ومراجعة الوثائق المجموعة وكذلك مكشافات الكذب لوكالة الاستخبارات الأميركية تدعم هذا البيان. إن الانطباع بأني كنت خائناً أو أعمل ما من شأنه إيقاع الأذى بالولايات المتحدة ليس قائماً. إذ إن القواعد الإجرائية المتفق عليها للعملية اشترطت أن لا أطالَب ألبتة بتزويد مادة تجعل ولائي لهذا البلد موضع تساؤل».

تناول بولارد وسيللا طعام غداء مطول في اللقاء في واشنطون هيلتون. وبينما كان الطيار لا يزال قلقاً لاحتمال التغرير به كجزء من عملية «غش» طلب أن يقدم بولارد نموذجاً للمعلومات التي يستطيع الحصول عليها، واقترح لقاء آخر لهذا الغرض.

لتسهيل اللقاءات السرية اللاحقة طلب سيللا أيضاً أن يقدم بولارد لائحة بأرقام التلفونات العامة القريبة من شقته. وحالما يقدم بولارد اللائحة يعين سيللا حرفاً عبرياً ـ ألف، بيت، غيمل، دالد، هاي، ڤوف، زيون إلخ . . . لكل رقم. عندئذٍ أوضح سيللا أنه سيطلب بولارد في البيت. ويذكر حرفاً عبرياً، وبذا يرشده لتلفون أجرة خاص لانتظار مكالمة سيللا. كان ذلك أسلوباً بسيطاً

للاتصال السري. وقد سر بولارد لأنه أصبح يجيد الألفباء العبرية خلال سنيه في المدرسة العبرية في ساوث بند.

شعر بولارد وسيلا بالعلاقة الوطيدة التي نشأت بينهما وقد سُرا بها.

ثم عاد سيلا وأخبر ياغور باللقاء. أعد ياغور فوراً تقريراً كاملاً إلى رئيسه المتلهف في تل أبيب.

بعد استلام إيتان تقرير ياغور طار فوراً إلى نيويورك من تل أبيب. أراد الاجتماع شخصياً بياغور وسيلا كليهما للتأكد من أن بولارد سيعامل كما ينبغي. عرف بأنه لم يكن لأي من الإسرائيليين خبرة هامة كعميلي ميدان. وهذا اختصاص إيتان. على كلٍ، كان إيتان يستمتع بالسفر إلى نيويورك حيث جودة التسوق والطعام.

في ١٨ حزيران/ يونيه أخبر ياغور أنه يجب أن يرتب سيلا لقاء آخر مع بولارد. وفي اليوم التالي اجتمع إيتان وياغور بسيلا لإعداده لذلك الاجتماع الثاني، كان طيار سلاح الجو لا يزال غير خبير بمسالك التجسس المعتمة. ولكنه كان متلهفاً وراغباً في التعلم إذ شعر بأن المعلومات المزودة ستعزز دفاع إسرائيل، وقد برهن على أنه حاضر البديهة.

بعد بضعة أيام اتصل سيلا ببولارد لترتيب لقاء آخر في واشنطون في ٧ تموز/ يوليه، على أن يعقد في موقع خلوي منعزل في دومبارتون أوكس وهي المنتزه القديم الجميل في جورجتاون حيث يتوافد عليها الناس في أوقات الفراغ. ففي دومبارتون أوكس فكر الحلفاء بالأمم المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية. والدلالة على إمكانيات المحادثات رغم كونها في الخارج كما أخبر إيتان سيلا، أقل بلا ريب منها داخل غرفة.

كان الجو حاراً ورطباً في ذلك اللقاء الثاني وهو يوم نموذجي من أيام تموز/ يوليه في عاصمة الدولة. أوقف بولارد سيارته الموستانغ في الشارع ٣٢ حول الزاوية من المدخل الرئيسي للشارع «ر» المؤدي إلى العقار، يحيط بها جدار من الطوب الأحمر. قرأ البيان المنقوش في الخرسانة على أحد الجدران والمنسوب إلى ميلوريد بلس الذي وهب العقار لجامعة هارڤارد سنة ١٩٤٠.

> يجب على المسؤولين عن التلميذة أن يذكروا أن الصفات البشرية لا يمكن تنميتها بالخلط بين التهذيب والتعليم. تلك كانت رغبة زوجي كما هي رغبتي في أن يسود التأويل المتوسط للنظم الإنسانية، وأن يكون للحدائق مكانها في نسق الحياة البشري، وأن الأشجار عناصر كريمة يتوجب على الأجيال المتعاقبة صيانتها دونما إهمال أو إتلاف بلا تروٍ.

وصل الشاب الأميركي باكراً، وتجول على رصيف المنتزه ذي البلاط المكسر، مستعرضاً التاريخ المثير لدمبارتون أوكس. مثلاً في سنة ١٧٠٢ منحت الملكة آن

«صخرة دومبارتون» للكولونيل نينيان بيال. وفي سنة ١٧١٧ اشترى ابنه الكولـونيل جورج بيال أرضاً إضافية للعقار. وباع ابنه توماس بيال العقار في سنة ١٩٨٠ إلى ويليام دورسيه. وظل سند الملكية في تحول ـ حتى سنة ١٩٤٠.

كانت الأشجار والحدائق مورقة تُشْتَم فيها رائحة النظافة. ومر بولارد بالرؤوس المطلية بالذهب في السنوات الرئيسية. وإلى فوق، صخرة مهشمة وطريق عربـات النفايات حتى المبنى الرئيسي على التلة المطلة على المنتزه. انتظر الطيار بلهفة. وحدث نفسه قائلاً: سيللا لم يكن ليفشل.

أحضر بولارد معه في ذلك اليوم محفظة أوراق جلدية بنية اللون ملأى بالوثائق العالية التنسيق، إظهاراً لقدرته ورغبته في مساعدة إسرائيل. وكـان بين الثماني والأربعين وثيقة نشرات مخابرات رسمية وصور أقمار صناعية.

كان من أكثر الأشياء إثارة صورة جوية مفصلة لا تصدق للمفـاعل الـذري العراقي المدمر في أوزيراك ـ وهي صورة مـأخوذة بعـد ساعـات فقط من الهجوم الجـوي الإسرائيلي الذي قاده سيللا قبل ثلاث سنوات. كانت المرة الأولى التي رأى فيهـا سيللا تلك الصورة.

أخيراً شاهد بولارد سيللا يسير صُعداً في طريق العربات. وصل الطيار بتكسي قديم دون مكيف هواء. كان يرتدي قميصاً قصير الكم ـ دون أوربة لهذا الإسرائيلي ـ وكان لا يزال يسح عرقاً.

قبل تبادل التحيات، أدارا الطرف حولهما للتأكد من أنهما لم يُلاحَقا. اعتبرها بولارد لازمة التجسس إلى أن اتصلا معاً وانتحيا ركناً قصياً من العقار.

قال بولارد بشيء من الحدة: «قد يهمك هذا على مـا أعتقد». وراقب وجـه سيللا تتفتح أساريره لرؤية صور المفاعل العراقي. إلا أن الطيار سرعان مـا بدا عليـه الغضب لأن الولايـات المتحدة لم تشرك إسرائيل رسمياً بهذه الصورة. سأل بولارد: «لماذا لم تعـرض علينا الـولايات المتحدة هذه الصورة»؟.

أجاب بولارد: «هناك سيل من المعلومات لا تعرض الولايات المتحدة على إسرائيل. تأمل هذه».

بدأا بفحص الوثائق الأخرى.

ظل سيللا على رفضه استلام الوثائق. لقد حذره إيتان وياغور بشدة بعدم قبول أية وثائق إذ مازالا يرتابان بشرك محتمل. بيد أن سيللا، عملاً بالتعليمات، لم يأتِ على وصف معلومات تقنية خاصة أخرى قد تكون ذات أهمية رئيسية لإسرائيل. وشدد على وجوب حصول بولارد على مادة «سرية للغاية». وهكذا أخبر سيللا بولارد بالتحديد أن إسرائيل لم تكن بحاجة إلى معلومات تتعلق

بالإرهاب. فلديها من المعلومات حول هذا الموضوع ما فيه الكفاية. كما أنه من الضروري عدم تعرض بولارد نفسه لخطر الافتضاح المحتمل بجمع الكثير من الوثائق لا سيما غير المهمة منها.

كذلك سبق لإيتان أن أعلم سيللا أنه حالما يقتنعان بأن بولارد هو الشخص الصادق عليهما اتباع إجراءات عملية مثلى للتأكد من أن السطو لا ينفرط عقده، والخطوة الأهم عادة هي جعل الجاسوس المأمول يقبل المال. عندها يتعرض للفضيحة الدائمة حيث لا مخرج ألبتة. لا شك أن زملاءه يكونون ممتنين للمعلومات ويرغبون في إظهار التقدير. ولكنهم يستهدفون أيضاً إفساده. يريدون أن يتعلق بالمال الإضافي والرحلات والهدايا. يريدون أن يألف نسق حياة أكثر رفاهية. هكذا تتعامل جميع أجهزة المخابرات في العالم مع العملاء وهي الطريقة التي يريد الإسرائيليون التعامل بها مع بولارد.

وهكذا أثار سيللا كما أُمر، موضوع المال في ذلك اليوم الحار ـ في دومبارتون أوكس. قال إنه سيتخذ الترتيبات اللازمة كي يدفع لبولارد لقاء أية معلومات منسقة إضافية لإسرائيل. وبحث إمكانية «التغطية» بقصة توضح حيازته مبالغ كبيرة من المال غير مرتبة من حكومة الولايات المتحدة. كما بحث في ذلك الاجتماع بعض الأساليب البديلة مكافأة لبولارد.

بيد أن بولارد أوضح أن المال لم يكن رائده من الاشتراك في التجسس. وقال فيما بعد: «عندما اتصلت أول مرة بالكولونيل سيللا وعرضت عليه خدماتي للإسرائيليين لم يدر في خلدي أبداً إقامة علاقة تجارية معهم. كان هدفي الأوحد تزويد قوات الدفاع الإسرائيلية بمعلومات كافية استعداداً للدور التالي من التقنية السوفييتية العسكرية المعدة للتصدير إلى الشرق الأوسط».

قال إنه كان «راضياً» للعمل للإسرائيليين دون أي تعويض مالي «إلى أن أثار الكولونيل سيللا مسألة الراتب». وقال بولارد: «إنني لم أعرف في بادىء الأمر كيف أجبت لأنه لم يكن في حسباني دفع مقابل لمساعدتي».

جل ما كان يأمله بولارد أنه في حال نجاح العملية «فإن نقل معلومات المخابرات إلى الإسرائيليين سيمكنني من العمل لإحدى صناعات الدفاع في الولايات المتحدة أو أوروبا، كصناعات إسرائيل العسكرية، تاديران أو صناعات الطائرات الإسرائيلي ـ حيث أستمر في مساعدة الدولة كاستراتيجية لتسويق الأسلحة».

ولكن وفقاً لبولارد ذكر سيللا أن رافي إيتان كان مصمماً على إيجاد طريقة لمكافأة محلل الولايات المتحدة على جهوده. ومرة أخرى لم يعرف بولارد كيف يجيب. «لقد جرى مبدئياً بحث مبالغ زهيدة، إلى أن فهمت أن إيتان اعتزم أن يدفع لي كما لو كنت عميلاً نظامياً أعمل في «بلد صديق»».

شرح سيللا لبولارد تفكير إيتان على الوجه التالي: «ما من أحد يرتاب في أن رجل مباحث

وكالة الاستخبارات المركزية يعيش على مرتبين بينما هو موظف عبر البحار لدى مؤسسة مجهولة من قبيل التغطية».

وقال بولارد فيما بعد: «المنطق ذاته انطبق علي باعتباري رجل مخابرات إسرائيلي».

ذكر فيما بعد ريتشارد هيبي أن بولارد وسيللا بحثا الأتعاب لأن سيللا أشار إلى أن الإجراء القياسي يستوجب أن يتلقى كل العملاء أتعاباً لنشاطاتهم. وهـذه السياسـة عكست على الأرجح عتقاد الإسرائيليين بأن من يقدم المعلومات لاعتبارات إيديولوجية يكون أقل احتمالاً لمتابعة العمل ممن يعمل لقاء المال.

قد يكون بولارد من ناحيته جم الذكاء. ربما قرأ الكثير من قصص الجاسوسية. إلا أنه كان في الأساس ساذجاً فيما يتعلق بعالم الجاسوسية الواقعية الذي قد يكون شنيعاً. فالتجسس عمل شاق. ولا يقل العملاء الإسرائيليون قساوة عن أي من أمثالهم في العالم.

هكذا مع إصرار سيللا في ذلك اللقاء في المنتزه على عامل المال، بدأ الرجلان بحث عدد من الخيارات. وعلى أثر قول بولارد إنـه يفكر في الانتقـال إلى نيويـورك لتحسين منهاج آن في العلاقات العامة، سرعان ما أثار ذلك اهتمام سيللا لأن هذا الانتقال سيحرم إسرائيل من الحصول على المعلومات الحيوية. عندئذٍ بادر سيللا لعرض مساعدة آن بالحصول على عمل مفيد في منطقة واشنطون.

كتب محامي بولارد فيما بعد أن المشكلة في هذا العرض هي أنه يرغم بولارد بصورة غير مباشرة على إقحام زوجته في نشاطاته وهو أمر غير مرغوب لا منه ولا من الإسرائيليين.

مع ذلك عرض سيللا عندئذ أن يدفع لبولارد مبلغاً تعويضاً له عن الدخل الذي يخسره من جراء بقاء زوجته في واشنطون. وهذا أقرب إلى المنطق. إلا أنه لم تُتخذ في ذلك اليوم قرارات نهائية حول المال.

كان سيللا دائم الحذر والقلق خشية الأغراب. كان يرتاب من كل شخص بما فيهم النساء اللواتي يجررن عربات الأطفال.

قال لبولارد في نهاية لقائهما: «المدهش محافظتهم على نظافة المكان».

في ختام هذا اللقاء الثاني اتفق الاثنان على الاجتماع ثانية. وبناء لتعليمات سابقة، قـدم بولارد لسيللا قائمة بأرقام التلفونات العامة قرب شقته. وخصص لكل رقم حرفاً عبرياً. وقال سيللا إنه في اجتماعهما الثالث يمكن لبولارد الشروع في تسليم المعلومات.

الفصل السادس

إفســاد
يوناثان جي بولارد

بعد بضعة أيام جاءت المكالمة. وإذ استعمل سيللا شيفرة الألفباء العبرية. أرشد بولارد إلى هاتف عمومي عند ملتقى جادتي فلوريدا وكونكتيكت. كان بولارد في غاية الإثارة عندما خرج مسرعاً من بناية الشقة. انتظر بفارغ الصبر جرس الهاتف. وكأنه انتظار لا ينتهي. أخذ يتلهى بقراءة ما خُط حول الهاتف لتمضية الوقت.

أخيراً رن الجرس، ورُفعت السماعة في لحظة إذ تلقفتها يد بولارد. وتسارعت دقات قلبه. لم يهدأ إلا عندما سمع الصوت الودي والمطمئن والموثوق من الجانب الآخر. كان قائده سيللا بمزاج مرح.

خلال المحادثة طُلب من بولارد إحضار وثائق معينة في ١٩ تموز/يوليه إلى عنوان في بوتوماك، ماريلاند وهي ضاحية عامرة من واشنطون. وما لبث أن أدرك أن العنوان كان منزل إيلان راڤيد، المستشار العلمي في السفارة الإسرائيلية في واشنطون. لم يخبر سيللا بولارد أن راڤيد كان يقطن هناك أو حتى من هو. ولكن إيتان وياغور، وكلاهما متلهف لإمكانيات العمل مع بولارد، عرفا أن بيت راڤيد سيكون «مقراً مأموناً» للنقل الأوّلي للوثائق. ونظراً لعزلة البيت كان من السهل جداً التأكد مما إذا كان قيد المراقبة. على كل، كانا على أتم يقين آنئذٍ بأن بولارد لم يكن طرفاً في أي شرك.

في تلك المناسبة زود سيللا بولارد بعدة وثائق ومعلومات منسقة بما فيها الوثائق الواقعية التي عرضها عليه في اللقاء الثاني في دومبارتون أوكس. كما أحضر مجملات ومراسلات عالية التنسيق للنقل والاستخبارات حول أحدث كميات الأسلحة السوفييتية التي وصلت سوريا. كان مزهواً جداً بنفسه.

بعد أن راجع سيللا وبولارد الوثائق، نقل المواد إسرائيلي ـ لا يعرفه بولارد ـ إلى الطابق

الثاني من البيت المنعزل في الضاحية لنسخها. جلسا في غرفة الجلوس البسيطة الفرش على أريكة مستندين إلى طاولة زجاجية كبيرة للقهوة. وكان على الجدران عدة لوحات زيتية جذابة من الفن الإسرائيلي الحديث. كان كلا الرجلين قلقاً رغم محاولتهما إخفاء ذلك. وبولارد يدخن دون انقطاع.

بينما كان سيللا في انتظار أن يعيد بولارد النسخ قال عرضاً وكان لكلامه وقع القنبلة: إن على بولارد السفر إلى الخارج لمقابلة «الرجل المسن» ـ إشارة إلى رافي إيتان. إلا أن سيللا، حسب التعليمات، لم يكشف هوية إيتان. فهذا سيتم فيما بعد. كان بولارد لا يزال حتى ذلك الحين في غير حاجة لمعرفة أسماء الإسرائيليين الآخرين المشتركين في الموضوع.

أوضح الطيار أنه سيكون من الخطر الجسيم أن يقابل بولارد «الرجل المسن» في الولايات المتحدة، لأنه قد يتعرف أحد ما في الولايات المتحدة على إيتان أو بولارد. فلمَ المجازفة حتى ولو كانت بسيطة؟ وأضاف سيللا أن أستاذ الجاسوسية الإسرائيلي الغريب في باريس سيُجمل أولويات المجموعة ويقرر القيمة الفعلية لأتعاب بولارد.

لقد عزز الغموض. دون ريب، الاعتداد بالنفس المتزايد لدى بولارد. كان منفعلاً وعلى استعداد لاتخاذ الخطوة التالية.

كما أثار سيللا لبولارد، حسب التعليمات، شتى الأساليب الممكنة لتبرير المال الجديد المُنزل عليه. واتفق مثلاً على أن يعلل بولارد قدرته على السفر إلى الخارج بالقول إنها منحة شغل من عم غني، ولكن خيالي، في باريس ـ «العم جوفيشر». وعند أي تدقيق مخابراتي مضاد وجاد سرعان ما تنهار القصة. إلا أن بولارد حبذ الفكرة وبدت له بمثابة غطاء ملائم.

كان سيللا يتكلم برقة ويتأمل عيني بولارد عندما طلب إليه إجراء حجوزات للسفر إلى العاصمة الفرنسية برفقة آن في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٤. وقال سيللا إن حكومة إسرائيل ستدفع تكاليف هذه الرحلة. وأشار على بولارد باختيار لوازم معيشة من الدرجة الأولى في باريس هيلتون. فالإقامة في فنادق فخمة من الأهمية بمكان. والسبب هو أن البيروقراطيين الآخرين في حكومة الولايات المتحدة ـ زملاء بولارد ـ أقل احتمالاً للالتقاء بهم مصادفة على ما يظن في فندق غالٍ. وأُخبِر بولارد بأنه سيتلقى ١٠,٠٠٠ دولار لدفع تكاليف الفندق والرحلات الجوية والطعام وسيارة الأجرة والمصاريف الأخرى لرحلة باريس.

كذلك اتُفق على أن يأتي سيللا إلى واشنطون قبل الرحلة لتناول طعام العشاء مع بولارد وآن هندرسون. وقال سيللا إنه سيُقَدَّم على العشاء على أنه مجرد شريك عمل محتمل.

حتى في مقابلتهما الأولى في واشنطون هاملتون أخبر سيللا بولارد بوجوب عدم كشف طبيعة علاقتهما لآن إلا أن بولارد لم يمتثل لهذا الطلب إذ عرفت آن كل شيء عن تصرفاته منذ البداية.

إن سيللا الذي كان في الولايات المتحدة منذ شباط/ فبراير سنة ١٩٨٣ أعلم بولارد أنه سيعود قريباً إلى إسرائيل لتولي قيادة القاعدة الجوية المقامة حديثاً في النقب على يد الولايات المتحدة وبتمويلها. ثم إن بولارد سيلتقي «بمدربه» الجديد في باريس، كما أن سيللا سيأتي إلى باريس لإجراء التمهيدات.

وفي اعتقاد إيتان أنه سيكون من المحرج لبولارد العمل «كمحطم جليد» في ذلك الاجتماع القادم. فلا بد لبولارد من الشعور بالراحة والاطمئنان. إنه لم يعرف ياغور وإيتان. وقد عرف سيللا وأحبه والواقع أنه وثق به كل الثقة.

قال بولارد: «أهنئك بالمهمة الجديدة. ولكني سأفتقدك».

بحث سيللا مع بولارد، حسب التعليمات، بعض الإجراءات الأولية في حال تعرض العملية للشبهة أو الافتضاح. وأعطاه رقم هاتف للضرورة. وطُمئِن بولارد إلى أنـه سيُخَلَّص إذا وقع في مشكلة. وشدد سيللا قائلاً:

«اهدأ بالاً. فسنهتم بكل شيء».

كان إيتان على يقين من أن لديه الصلاحية الكاملة لتوجيه بولارد، ولكنه لم يشأ رسمياً الإقدام على أية مخاطرة، وبالتالي لم يثر الموضوع سواء مع رئيس الوزراء أو وزير الدفاع. وقد فهم أن ثمة بعض الأمور التي من الأفضل عدم تناولها بالبحث.

على كلٍ، ربما لديه برنامج خاص في اعتماد عملية بولارد، يجعله دون ريب يجيد المراقبة. والحصول على وثائق سرية للغاية من الولايات المتحـدة لم يكن بالأمـر اليسير. فهـو والقلة من الموظفين كانوا «يصححون» بعناية تلك الوثائق قبل توزيعها في كل مكان من مؤسسة الدفاع في إسرائيل. أراد أن يعرف أقل عدد ممكن من الناس أن لديه عميلاً ينشط في قلب جهاز مخابرات الولايات المتحدة. وفوق ذلك، فإن مصادر ووسائل الوقاية في أية عملية مخابرات تأتي في المرتبة الأولى من حيث الأهمية. وكلما قل عدد الإسرائيليين الذين عرفوا أمر بولارد كان ذلك أفضـل. والمفهوم أن إيتان كان يفضل أن يجعل كل واحد داخل الحكومة يفترض وجود عدة مصادر في سائر أرجاء الميدان وليس مجرد رجل واحد(*).

عاد سيللا، برفقة زوجته يهوديت، إلى واشنطون، في ٢١ تموز/ يوليه، لتناول طعام العشاء

(*) ادعت حكومة الولايات المتحدة فيما بعد أنه بعيد اللقاء في بوتوماك اجتمع سيللا و«شريك» مجهول مع شخص وُصف فقط «برفيق» بولارد وطلبا منه «تسهيل دفع الأموال» إلى بولارد نظراً للمساعدة القيمة التي قدمها بولارد إلى إسرائيل». وقال سيللا والرفيق إنه «من المفيد دفع هذه المبالغ» إلي بولارد «من خلال وسيط لإخفـاء المصدر الحقيقي للأموال». إلا أن هذه الخطة لم تتحقق أبداً لأن رفيق بولارد، وهو يهودي أميركي، حنث بوعده.

مع بولارد وآن في «الفوروايز» وهو مطعم فرنسي غالٍ يبعد قليلاً عن شقتهما. أخبر آن أنه كان صديقاً قديماً وصلة عمل محتمل. وقد انطلت هذه الذريعة على آن.

قالت آن فيما بعد: لقد شعرت بميل له. «وتراءى لي أنه ذكي، ولوذعي وآدمي ولطيف للغاية». وقالت إنها أحست بانجذاب فوري نحو سيللا وزوجته الأنيقة الملبس والتي كان الأميركيون ينادونها بمجرد جودي.

عند العشاء قالت آن: «إن كل شيء كان على ما يرام. لم نتطرق ألبتة إلى العمل».

تناول سيللا الشيك الذي سدد له ياغور قيمته فيما بعد.

بعد أربعة أيام تقابل بولارد وسيللا على انفراد في شقة بولارد. وخلال ذلك اللقاء أخبر المسؤولون الإسرائيليون لجنتي تحقيق إسرائيليتين مستقلتين أن سيللا دس لبولارد مغلفاً يحتوي على ٢,٠٠٠ دولار نقداً. وقد أنكر بولارد من جهته بإصرار استلام أي مبلغ حتى وصوله إلى باريس.

في ٢٨ تموز/ يوليه ١٩٨٤ عاد بولارد إلى منزل رافيد الريفي في بوتوماك لتسليم دفعة ثانية من الوثائق المنسقة ـ كما طُلب منه. لقد جمع المادة بعناية بعد التأكد من عدم إثارة أية شكوك. وصل سيللا من نيويورك متأخراً، إذ إن المكوك الشرقي تأخر مرة أخرى عن موعده وجلس بولارد في غرفة الجلوس على الأريكة يتحدث إلى بعض الإسرائيليين الذين لم يعرف أسماءهم.

أخيراً وصل سيللا وسلم بولارد الوثائق. وقد تأثر الإسرائيليون كثيراً بنوعية وكمية المادة التي جلبها بولارد. وسرعان ما أرسلت إلى إيتان ومجموعة لاكام الخاصة به في إسرائيل لإعدادها.

استمعت لجان التحقيق الإسرائيلية فيما بعد إلى شهادة فحواها أنه خلال هذا اللقاء تلقى بولارد من سيللا مغلفاً ثانياً يحتوي على ٢,٠٠٠ دولار نقداً. إلا أن بولارد ظل ثانية على إصراره ـ إن هذا لم يكن صحيحاً. إذ إن دفعته الأولى جاءت فقط من باريس ـ بعد نحو خمسة أشهر من اجتماعه الأولي مع سيللا.

في أيلول تشكلت حكومة الائتلاف الوطني الجديدة في القدس. وتولى شيمون بيريز. زعيم حزب العمل، منصبه مدة سنتين كرئيس للوزراء بينما تقلد إسحق شامير، زعيم الليكود وزارة الخارجية. وخلال العامين التاليين في الحكم يتبادل الرجلان المنصبين. وقد عين اسحق رابين من حزب العمل. وهو رئيس وزراء سابق، وسفير في واشنطون ورئيس أركان قوة الدفاع الإسرائيلية، وزيراً للدفاع لكامل السنوات الأربع خلفاً لموشى أرينز.

اعترف أرينز فيما بعد أنه كان وزير دفاع عندما بدأ بولارد بنقل الوثائق إلى إسرائيل ولكنه أكد أنه لم يمارس أي إشراف على إيتان إذ كان مشغول البال بالحرب في لبنان. وشدد أرينز على أنه فوجىء تماماً بتورط إيتان في عملية مخابرات بولارد. وقد خصصت اجتماعاته مع إيتان لقضية

الإرهاب الشيعي في لبنان. وقال أرينز إنه لم يُعطَ تعليمات حول نشاطات لاكام عندما أصبح وزيراً للدفاع رغم علمه بالطبع أن الوحدة كانت موجودة.

خلال مثول إيتان أمام اللجنة جاء برواية مختلفة. وفي آب قبيل تسلم رابين وزارة الدفاع قال إيتان بشكل خفي إن أرينز سمع رواية كان من الواجب أن تدفعه لزيادة حذره. وأكد أرينز فيما بعد أنه ليس لديه فكرة عما كان إيتان يشير إليه.

أما بيريز، رئيس الوزراء الجديد فقد طلب إلى إيتان التخلي عن مسؤلية مقاومة الإرهاب. وقد استبدل في مكتب رئيس الوزراء بأميرام نير وهو مراسل سابق للشؤون العسكرية في التلفزيون الإسرائيلي. وكان نشيطاً في مساندة حملة بيريز السياسية في العام الماضي. ونير هو الذي رافق فيما بعد المقدم أوليڤر نورث عضو مجلس الأمن القومي في تلك الرحلة المشؤومة في أيار/ مايو ١٩٨٦ إلى طهران في محاولة لإطلاق الرهائن الأميركيين في لبنان.

لم يطلب رابين من إيتان ترك لاكام. لقد عرفا بعضهما ما ينوف على أربعين عاماً منذ خدما معاً في البالماخ. وهذا مثل على التعاضد الفعال والمزمن في إسرائيل.

قال فيما بعد داڤيد ماغين وهو أحد مؤيدي إيتان في لجنة إيبان: «لقد بلغت لاكام ذروة إنجازاتها خلال هذه المدة التي كان فيها إيتان رئيساً لها».

شهد مسؤول أمن أمام اللجنة أن الوحدة ظلت تسمي لاكام حتى وصول إيتان إليها. «ولكن منذ وصول رافي صرنا نسميها مجرد «رافي». فالمادة التي خُلِق منها رافي إيتان وصفت أكثر من مرة بموجب أعلى تشكيل سُلمي بأنها «لا تقدر بثمن».

لاحظ ماغين أن إيتان، خلال الفترة الأولى من تجنيد بولارد، «فهم الحساسية الخاصة للقضية، وأخذ على عاتقه تحديد المخاطر المحتملة لإقحام بولارد في وثيقة مفصلة. في الوثيقة أصدر تعليمات حول القواعد والحذر الخاصين. وبنظرة إلى الماضي، يبدو أن تعليمات رافي إيتان لم تنفذ». وعلاوة على ذلك تلقى إيتان إذناً من سلاح الجو الإسرائيلي باستخدام سيللا في العملية. وأوضح ماغين أن سلاح الجو، «في كتاب إلى الكولونيل سيلا أعطى مصادقة لتعاونه مع لاكام».

في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٤ كان الوضع في ذلك النهار في آتاك قد تكشف لمحلل لديه بعض الخبرة في الإرهاب. وهذا بالضبط ما كان ينتظره بولارد. لقد مج مناوبة الليل، وكذلك آن، وسرعان ما أعرب بولارد عن رغبته في تلمس عمل.

كان ثمة سبب آخر لأن يُجري بولارد التحول. لقد خامره شعور أن ذلك يسهل جمعه الوثائق لإسرائيل. وبدا أن باستطاعة محلل طلب كافة أنواع المعلومات الحسابية اللازمة لبحث مشروع.

قال فيما بعد قائده آجي: «لقد تقدم بطلب. واستناداً لما شهدنا خلال الأشهر الأربعة أو الخمسة التي قضاها هناك أنه طالب موفق. ولذا جرت مقابلته وفي النهاية وقع الاختيار عليه».

هكذا بدأ بولارد عمله يومياً (٨,٠٠ صباحاً ـ ٥,٠٠ مساءً) كأخصائي في تقصي المخابرات في آتاك، كما عهد إليه ببعض مسؤوليات المخابرات المضادة في المصلحة الاستقصائية البحرية.

ذكر آجي: أنه كان يأمل أن ينصرف إليه في أمد قصير. لقد أراد الشرق الأوسط. كانت التعليقات التي أبديتها أنا وناظره «قم بهذا العمل جيداً». وعندما نجد فرصة ملائمة في مكتب الشرق الأوسط سننظر في نقلك إلى هناك. وشدد آجي على أن الوعد المعطى لبولارد أنهم «سينظرون» في نقله. لم يكن ثمة أي التزام ثابت إطلاقاً، رغم تأكيدات بولارد اللاحقة بأنه تلقى وعداً صريحاً بالنقل. وأصر بولارد على أنه أُعِد لتولي الشرق الأوسط.

في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤ طار بولارد، كما أُمِر، إلى باريس مع صاحبته آن هندرسون. لقد تشابكت أيديهما معظم الرحلة الجوية، أما آن التي كانت حديثة العهد بالطيران، فقد استمتعت بوجه خاص. إنها تشاهد العالم برفقة الرجل الذي أحبت. هل من شيء أبدع من عطلة في باريس؟ لقد أمضيا وقتاً رائعاً خلال أسبوعهما في جناح باريس هيلتون.

في ذلك الأسبوع رافق سيللا بولارد إلى بيت مأمون في قلب باريس حيث قابلا إيتان وياغور عدة مرات بقصد «العمل». وقُدم إيتان شكلياً إلى بولارد كرئيس للعملية. وكان ياغور حينئذٍ المستشار العلمي في القنصلية الإسرائيلية في نيويورك ـ وهو منصب تولاه منذ ١٩٨٠. أراد إيتان من سيللا أن يُحضر بولارد بنفسه، إذ إن بولارد سيشعر أكثر اطمئناناً في باريس بوجود شخص عرفه ووثق به.

طوال هذه الاجتماعات في باريس أخبر بولارد تكراراً أنه سيكون «موضع عناية» إذا اعتقلته سلطات الولايات المتحدة. وكما فعل سيللا في بوتوماك، أكد إيتان لبولارد أن أي إجراء ضده سيُكبح. قال إيتان «اطمئن».

كذلك أخبر إيتان بولارد بصراحة أنه كان إسرائيلياً، وطلب من بولارد تقديم بعض صور جواز السفر. لقد كانت مغامرة تقليدية لأستاذ الجاسوسية ـ جعل العميل يشعر بالأمان والطمأنينة. وفي الأصيل الأول توجه بولارد وآن إلى جهاز يُدار بالعملة لجوازات السفر، خارج الفندق من أجل الصور المطلوبة.

خلال الاجتماعات قدم سيللا وإيتان وياغور إلى بولارد «تكليفات» مفصلة بطلبات معينة للوثائق والمعلومات الحساسة التي عهد إلى بولارد بالحصول عليها. قال إيتان إن إسرائيل احتاجت هذه المعلومات لتحديد وتقييم التهديدات لأمنها. ووصف ياغور مفصلاً وبوجه خاص أنظمة الأسلحة الدقيقة وغيرها من المواضيع التي كُلف بولارد بالحصول على وثائق منسقة بشأنها. وعبّر الإسرائيليون مرة أخرى عن قلة اهتمامهم بمعلومات حول نشاطات الإرهاب أو مقاومة الإرهاب، معللين ذلك بوجود معلومات كافية لديهم سابقاً عن الموضوع. وطلبوا من بولارد تسليم الوثائق إلى بيت راڤيد في بوتوماك، ماريلاند.

كذلك بُحث موضوع المال ووُعد بولارد بمرتب شهري قدره ١,٥٠٠ دولار لتجسسه. والواقع أنه في ختام رحلة بولارد إلى فرنسا دفع له ياغور ١٠,٠٠٠ دولار نقداً تسديداً لمصاريفه. ومرة أخرى بحثوا كل أنواع قصص التغطية فيما يتعلق بالدخل الإضافي.

قال بولارد فيما بعد: «لا زلت غير راضٍ عن تطور الوضع، وبحثت صُوراً بديلة من التعويض مع سيللا وياغور وإيتان أثناء وجودي في باريس. وأظن أن خير طريقة لوصف حقيقة إحساسي آنئذٍ كانت بغيضة للغاية ولا تتفق مع الشعور الذي تخيلته نتيجة مساعدتي إسرائيل، كانت عملية إيديولوجية حَوَّلَها إيتان شيئاً فشيئاً إلى إرسال مصرفي».

قال بولارد إن ياغور وسيللا اتفقا معه على «أن الدفعات قد يساء تفسيرها وتبدو مفزعة إذا اعتُقِلت». واقترحا على إيتان توظيف آن في شركة علاقات عامة ودية إلا أن إيتان، وفقاً لبولارد، «استبق الأمر» و«بصلابة» رفض النظر في أي شيء خلاف مرتب. وأكد أنني بصفتي إسرائيلياً أعمل له، كان المفروض بي اتباع الأوامر والمضي في نشاط الجمع الذي أقوم به.

لدرجة ما، هذا ما فعله بولارد بالضبط. لقد قبل المال ولكن عندما طلب إيتان في باريس معلومات «اعتبرها هو متعارضة مع أهدافي ومقاصدي لم أزود المادة بكل بساطة».

ذكر بولارد فيما بعد أن إيتان ألح عليه من أجل معلومات تتعلق بنشاط وكالة الأمن القومي في إسرائيل وأسماء الإسرائيليين الذين كانوا يزودون الولايات المتحدة بالمادة المنسقة. وكان إيتان، مثل آرييل شارون، قلقاً لفكرة الجواسيس الأميركيين في إسرائيل. كان مقتنعاً بأن لسفارة الولايات المتحدة في إسرائيل شبكة كبيرة من الإسرائيليين العاملين في الظلام يغذونها بالمعلومات. وقد أمل إيتان من بولارد المساعدة على كشف هذا الطابور الخفي.

وفقاً لبولارد، طلب منه إيتان في إحدى الجلسات في باريس بوجه خاص «حشد ابتزاز تهديدي سياسي ضد أعضاء الوزارة (الإسرائيليين)» كجزء من محاولة «لتسريب تلك المعلومات المثيرة» لتشويه سمعتهم. ولكن بولارد شدد على أنه عصى أمر إيتان. «لم أزود قط هذا النوع من المعلومات. وقد أخبرني فيما بعد مدربي الكبير جوزيف ياغور، أن المادة التي أرادها إيتان تجاوزت الحدود وخارجة عن نطاق العملية. وإذا قُدمت ستكون مدعاة لإنهاء العلاقات فوراً؟».

ذكر بولارد أنه خلال إحدى المقايضات الغاضبة مع إيتان في باريس كان ياغور واقفاً مباشرة خلف إيتان يهز رأسه ويلوّح لبولارد بصمت بعدم الموافقة على تقديم ذلك النوع من المعلومات.

استطرد بولارد: لم أكن أعتزم إطلاقاً التجسس على الولايات المتحدة أو تقديم أية معلومات دفاع قومي محرجة إلى أية دولة محاربة. ولم يسبق لي أن فضحت أسماء أي من عملاء الولايات المتحدة العاملين في ما وراء البحار. ولا أفشيت أية شيفرات أو كودات أو أجهزة تحفيز أو تقنية عسكرية حساسة أو ترتيب وأنظمة قوات الولايات المتحدة والخطط القتالية والمبادرات الدبلوماسية

السرية ومخططات الكتابة التنظيمية المنسقة أو أدلة الهاتف أو مخزونات الاحتياطي النووي المعرضة للهجوم أو إجراءات أمن المواصلات.

قال بولارد إنه لم يجعل أي نشاط سري للولايات المتحدة في خطر مما قد يستخدم في حال افتضاحه إلى إرباك الإدارة أو يسبب قطع العلاقات مع دولة أجنبية. ولا يغربن عن البال أن هدفي الوحيد في هذه المسألة كان في الواقع تزويد إسرائيل بمعلومات تتعلق بتهديدات لبقائها ليست بصراحة صادرة عن الولايات المتحدة. كانت محاولة الجمع موجهة بوضوح ضد السوفييت وتلك الدول العربية التي تشكل خطراً جلياً وماثلاً لأمن إسرائيل.

أصرّ بولارد على أنه طوال العملية ظل مخلصاً «لمعتقداتي الأيديولوجية ـ مهما قد تكون خلفيتها ناقصة أو معيبة». وقال، في رأيه أن مساعدة إسرائيل لا تتضمن أو تستلزم خيانة الولايات المتحدة. لم يخطر على بالي قط أن الكسب الذي تحرزه إسرائيل سيؤدي بالضرورة إلى خسارة الولايات المتحدة. كيف ذا. وكلتا الدولتين تقفان في الجانب ذاته من الحاجز السياسي الجغرافي.

استضاف سيللا من ناحيته بولارد وآن إلى مآدب وضيافات مُكلفة طيلة إقامتهما في باريس. وسيللا هو الذي لاحظ اهتمام آن بخاتم الماس وصفّير أنيق شاهدته في متجر مجوهرات ـ ما بين ووب في ساحة ڤاندوم ـ واهتمت بشراء الخاتم. وقد سُلم إلى بولارد في ٨ كانون الأول/ديسمبر في واشنطون عندما كان من المقرر استئناف تسليم الوثائق إلى الإسرائيليين.

ذكرت آن فيما بعد أنه كان على الخاتم بطاقة ثمن قدره ١٠,٠٠٠ دولار، ولكنها استطاعت تخفيض السعر إلى ٧,٠٠٠ دولار. وأخبرها زوجها أن الإسرائيليين اشتروا الخاتم نقداً. وقال بولارد فيما بعد إن الخاتم كان جزءاً من قصة التغطية التي اختُلِقت لإقناع آن بشأن عمها الغني.

خلال إقامتهما في باريس انضمت آن إلى الزوجات الأخريات ـ يهوديت سيللا وڤاردا ياغور وميريام إيتان ـ في مشاهدة المناظر والتسوق. وأوضحت آن: «كما ترى، لم يكن من المفروض أن أعرف ما يدور حولنا».

بيد أنها بالطبع عرفت تقريباً كل ما كان يفعله زوجها، لقد بحث معها العملية من البداية إلى النهاية. وكما جاء في اتهام الحكومة فيما بعد في مذكرة ما قبل الحكم:

«من ترتيب يوناثان ج. بولارد مع الصديق النيويوركي من أجل أول لقاء مع أڤييم سيللا؛ إلى أبحاث يوناثان ج. بولارد مع مدربه الجديد بوسي ياغور ورئيس العملية رافي إيتان في باريس؛ إلى إدراكها انتظام سقطاته ومواقعها؛ إلى استعماله غير المشروع لشقتهما كمستودع غير شرعي للمعلومات المنسقة السرية للغاية ـ كانت المدعى عليها في وسطه مباشرة زوجة مطلعة والمتسلم الواعي لنتاج تجسس يوناثان ج. بولارد».

سافر بولارد وآن من باريس إلى عدة أماكن بما فيها مرسيليا وسانت تروبيز وكان ونيس ومونت

كارلو وبيزا وفلورنس وروما وفينيسيا وانسبروك وميونيخ. ودفعا نقداً ثمن كل شيء تقريباً.

بعد عودة الزوجين بولارد إلى الولايات المتحدة تقابل بولارد مع ياغور في بيت راڤيد في ٨ كانون الأول/ديسمبر وأُعطِي خاتم الماس والصفير في ذلك اللقاء الذي حضره أيضاً إسرائيلي آخر عُرف فقط باسم «أوزي» وسلّم بولارد واقعياً حقائب ملأى بالوثائق المنسقة التي كان يجمعها. وزود ياغور بولارد بمغلف تجاري بسيط يحتوي على خمس عشرة ورقة نقدية من فئة ١٠٠ دولار. ثم اجتماع آخر عُين في ٢٦ كانون الأول/ديسمبر في بيت راڤيد. حيث أُحضِر مزيد من الوثائق، وتلقى بولارد مغلفاً آخر يحتوي على مال.

ذكر بولارد فيما بعد: «في كل مرة كان ياغور ينقل لي مالاً كان الصمت يخيم على أبحاثنا ويرتسم الأسى على وجهه».

أورد بولارد مناسبةً «رفضت فيها المال ولكن ياغور أوضح أن ليس من واجبي أن أعطِ رجلاً كإيتان في الأخلاق ـ فما يشغلنا مسألة بالغة الأهمية لوطننا ولا يجوز التمرد في الميدان. ومع ذلك لا شك أن أيًّا منا غير مرتاح تماماً لناحية المرتب من عمليتنا المسلّطة فوق رأسي كسيف ديمقليس.

لقد أُعطِيت تعليمات إلى بولارد حول شتى الإجراءات الواجب اتباعها فيما بعد لتسليم الوثائق المنسقة بشكل روتيني إلى شقة أريت إيرب، سكرتيرة راڤيد الشابة والجذابة. كما أُخبِر بولارد عن إجراءات طوارىء لاستخدامها في حالة تطورات غير مرتقبة في عملية التجسس أو كشفها. وقالت الوثائق الحكومية فيما بعد إن بولارد زُود برقم هاتف للطوارىء وكلمات كود لاستخدامها في تنبيه الإسرائيليين إلى حوادث غير متوقعة أو في حالة كشف عملية التجسس. وأُخبِر بولارد أنه إذا أوقف للاستجواب عليه أن يؤخر بقدر الإمكان أية فحوص بمكشاف الكذب تثبت على الأغلب كذبه. والإسرائيليون، خلافاً لكثير من الأميركيين، يصدّقون بشكل أساسي مكشاف الكذب ويعتقدون دائماً بصحة الفحوص. كما كُلِف بولارد بالحصول على وثائق معينة.

في ٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨٥ أُجري لبولارد فحص روتيني لتصريح كفالة لم يتضمن مكشاف الكذب، ووقع عقد كفالة ذكر فيه: «لن أبحث أو أفشي أية معلومات حساسة إلا في أداء واجباتي الرسمية. وأقدم هذا التعهد بحرية دون أي تحفظ ذهني أو بقصد التهرب». وقد أُذِن له بالوصول إلى المعلومات المنسقة الحساسة التي تتضمن أو تستمد من مصادر المخابرات وأساليبها... «إنني أفهم وأقر أنه بمنحي إذن الوصول إلى المعلومات المنسقة الحساسة تكون حكومة الولايات المتحدة قد أولتني الثقة والائتمان الخاصين».

إلا أنه في الأشهر التي تلت، صار بولارد حوالى ثلاث مرات أسبوعياً ينقل الوثائق المنسقة من مكتبه. كان يأخذ هذه المواد إلى سيارته فيقودها إلى محطة غسيل السيارات شمالي حارة كونكتيكت ثم ينقلها إلى محفظة أوراق. كان يسلم كل أسبوعين تقريباً حقيبة تحتوي على الوثائق إلى شقة إيريت إيرب في مجمع ڤان نيس بعيداً من جادة كونكتيكت.

كان بولارد يسلم الوثائق مساء الجمعة، وتتولى سكرتيرة راڤيد نسخها وهو المسؤول عنها، كي يتمكن من إعادتها خلال بضعة أيام (عادة مساء الأحد التالي) إلى مستودعاتها. أما المواد التي لم يكن بولارد مسؤولاً عنها فتبقى مع إيريت إيرب.

كانت العملية تتم بسهولة أفضل مما تصور إيتان وياغور. وكانا مسرورين للغاية.

في آذار/مارس ١٩٨٥ قرر ياغور وإيتان حاجتهم إلى بيت مأمون آخر في واشنطون حيث يستطيع بولارد وياغور اللقاء بشكل روتيني يوم السبت الأخير من كل شهر، وحيث يمكن تركيب جهاز معقد لتصوير المستندات.

اتخذ إيتان، بواسطة وزارة الدفاع، للحصول على شقة ثانية في ذات البناية التي تسكنها إيريت إيرب. وقد طلب إلى هارولد كاتز، وهو محام إسرائيلي ـ أميركي عاش في إسرائيل منذ ١٩٧٢ وعمل لوزارة الدفاع الإسرائيلية عدة سنوات كمستشار قانوني، شراء هذه الشقة الثانية لقاء ٨٢,٥٠٠ دولار نقداً، وفقاً لسجلات عقارات مقاطعة كولومبيا. أما الشقة في الطابق الثامن، شارع ڤان نيس رقم ٢٩٣٩ ش.غ. فكانت بوضوح ملائمة لإيريت التي كانت تقوم بالنسخ الفعلي.

قال كاتز فيما بعد في بيان معد بعناية: «لم أشترك في عملية بولارد. لم أنقل أية أموال إلى الزوجين بولارد أو أي كان نيابة عنهما. كما لم أستلم أو أتناول أية وثائق. وذكر أنه بينما كانت شقته في واشنطون «شاغرة، بلغني أن بعض الأشخاص استخدموا تلك الشقة. فيما يتعلق بعملية بولارد. إذا صح ذلك، يكون قد تم بغير إذني أو معرفتي».

أثناء اجتماع ياغور وبولارد في شقة كاتز راجعا مفصلاً تلك الوثائق التي جلبها بولارد في الشهر الماضي. كما أنه في هذه الاجتماعات الشهرية دفع ياغور إلى بولارد نقداً. وفي ربيع ١٩٨٥ رُفع مرتب بولارد الشهري من ١٥٠٠ دولار إلى ٢,٥٠٠ دولار.

قال بولارد فيما بعد: في ذلك الوقت شعر إيتان أنه حان الوقت لتقدير نوعية المادة التي تُجمع ومنحني زيادة مرتب قبضتها دون بحث. وقد ناولني ياغور مغلفاً وتصافحنا واعتذر وشعرت كمعُهَّر.

استطرد بولارد: «رغم الناحية المقلقة من قضيتي فإني لم أعتبر نفسي قط مرتزقاً، مهما كانت الدفعات مضايقة لشعوري بالاستقامة الشخصية. ولحسن الحظ أن أيديولوجيتي حالت دون انحطاطي إلى مستوى استجيب فيه طوعاً إلى أوامر إيتان مثل كلب باڤلوڤي».

إن الوثائق التي حصل عليها بولارد كانت تقدم إلى رافي إيتان الذي حشد فريقاً ثلاثياً من الخبراء في تل أبيب لتحليل الوثائق وتوزيعها إلى المكاتب المختصة في الجيش الإسرائيلي. وقد جرى «تصحيح» كلي للتثبت من أن مصادر لاكام وأساليبها في الحصول عليها لم تُكشَف. وكان إيتان حريصاً على عدم كشف هوية بولارد. والواقع أن اثنين فقط من الأعضاء الثلاثة في فريق لاكام كانا عارفين بأمره فعلاً ـ أحدهما لم ينفك يحث إيتان على التخلي عنه لأن العملية كانت على جانب

كبير من الخطورة. أما إيتان فقد أدرك المخاطر، إلا أنه أضحى قلقاً للحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات. قال مسؤول إسرائيلي فيما بعد: «كان كالسكير ـ بحاجة إلى جرعة أخرى ـ ثم يتوقف».

أما لاكام، بالإضافة إلى توزيع الوثائق على مسؤولي الجيش وسلاح الجو والمخابرات البحرية، فقد تلقت أيضاً طلبات محددة لمزيد من المعلومات منها. مثلاً، إذا زودت الولايات المتحدة إسرائيل رسمياً بكُتيِّب مخابرات حول بعض أنظمة الأسلحة سوفييتية الصنع، ولكن طُمِست شتى الفقرات والصفحات لأي سبب كان، كان يطلب من لاكام الحصول على النسخ الأصلية. وهذا ما أصبح مهمة رئيسية لبولارد.

لقد عرف مختلف رؤساء مخابرات الجيش الإسرائيلي أن للاكام بعض المصادر الممتازة. لم يعرفوا شيئاً عن بولارد بذاته. ولم يسألوا إيتان كيف كان يجمع هذه المادة. لم يكن ثمة «حاجة لمعرفة ذلك» ـ كما أن إيتان لم يكن ليخبرهم في أي حال. كان متلهفاً لأن يعتقد موظفو المخابرات الإسرائيلية الآخرون أن لديه العديد من المصادر المختلفة لمعلوماته. لم يشأ أن يعرف أحد أن كل تلك المعلومات القيمة جاءت فعلاً من جاسوس واحد فقط.

لقد ارتاب بعض موظفي المخابرات الإسرائيلية بالطبع من أن لإيتان جاسوساً أو جواسيس في واشنطون. إلا أن آخرين لم يكونوا متأكدين إلى هذا الحد. على أية حال، حتى المطلعين على بعض الوثائق الأصلية التي حصل عليها بولارد لم يطرحوا أسئلة. والواقع أن وزير الدفاع اسحق رابين أخبر فيما بعد هيئة استقصاء إسرائيلية أنه ظن بأن إيتان استطاع الحصول على المعلومات من مصدر في بريطانيا أو حلفاء آخرين لأميركا في حلف شمال الأطلسي الذين كانوا، خلافاً لإسرائيل في وضع لتلقي بعض تلك الأنواع من الوثائق رسمياً من الولايات المتحدة.

في هذه الأثناء. شُجع بولارد في واشنطون على جمع أكبر قدر من الوثائق الحيوية. ووفقاً لحكومة الولايات المتحدة أبلغ ياغور بولارد خلال المراجعة الشهرية عن حالات معينة استخدمت فيها المعلومات من قبل شتى فروع الجيش الإسرائيلي. وفي كل اجتماع دأب ياغور على تكليف بولارد بالحصول على بعض الوثائق المنسقة.

جاء في المستندات الحكومية: «إن ياغور كان يقوم بالتكليف وفقاً لحاجات خاصة. و«باستثناء رحلة واحدة لم يشمل تكليف ياغور المفصل طلبات لمعلومات عن الإرهاب. والواقع أن بولارد، بمبادرة منه، جلب بعض المعلومات المنسقة المتعلقة بالإرهاب إلى أحد الاجتماعات الشهرية مع ياغور الذي أعلمه عندئذٍ، على وجه التحديد، بوجوب عدم تسليم معلومات أخرى من هذا القبيل». فعلام التعرض لخطر الانكشاف المحتمل من أجل معلومات هامشية.

في صيف ١٩٨٥ أخبر ياغور بولارد أن إيتان أراد الاجتماع به، وأن مصاريف رحلته لإسرائيل لهذه الغاية ستدفع كجزء من أتعاب بولارد. قَبِل بولارد هذا العرض حالاً لأن رحلة تمولها إسرائيل

ستمكنه وآن من الزواج ذلك الصيف في أوروبا لا في واشنطون كما كان مقرراً في الأصل. كان بولارد يأمل في بادىء الأمر الاقتران بآن في إسرائيل. إلا أن إيتان رفض ذلك الاقتراح. لم يرد أي تسجيل لزواج بولارد في إسرائيل. إذ إن ذلك محفوف جداً بالمخاطر.

أبلغ بولارد رؤساءه في المكتب أنه ذاهب للزواج في أوروبا. وذكر آجي فيما بعد: «بالنسبة لي، خيل لي أنها إحدى قصصه المعهودة. وقلت في نفسي آنئذٍ مَنْ الذي يذهب إلى البندقية للزواج؟ تستطيع إجراء ذلك هنا في واشنطون».

إلا أن آجي كان آنئذٍ مقتنعاً بأن بولارد في الأساس رجل غريب. وبالتالي فإن ذهابه إلى أوروبا لم يثر أية تساؤلات أخرى هامة في مخيلة آجي. لم يخبر بولارد رئيسه أنه سيزور أيضاً إسرائيل. وذكر آجي: «قال إنه متوجه إلى فرنسا وإيطاليا للزواج. لم يذكر قط أنه سيذهب إلى إسرائيل. وعند عودته لم يرد أي ذكر لوجوده هناك».

غير أن بولارد تحدث فعلاً عن عمه الغني في باريس الذي سيدفع له مصاريف شهر العسل في أوروبا.

كان التفكير بالذهاب إلى إسرائيل مثيراً لبولارد. لم يسبق لآن أن زارتها. وكان يتوق لاطلاعها على البلاد. كما أن بولارد ذاته لم يزرها منذ تجربته الصيفية في معهد وايزمن أثناء دراسته العالية.

لدى وصول بولارد وآن في أواخر تموز/يوليه دعيا إلى طعام العشاء في بيت أوزي في ضاحية تل أبيب. في ذلك الوقت علم بولارد أن أوزي أُعِد للحلول مكان ياغور كمدير له. وأُحيط علماً أن أوزي كان تاجر سلاح دولياً تخصص في المبيعات إلى إيران. لم يعرف بولارد بعد الاسم الثاني لأوزي.

حضر العشاء أيضاً ياغور وسيللا وزوجتاهما. وقال بولارد فيما بعد إنه نتيجة لهذا العشاء وكذلك لقاءاته اللاحقة مع إيتان بعد ذلك ببضعة أيام شُجِّع على مضاعفة جهوده في التجسس لإسرائيل.

تذكر قائلاً: «عندما جُلت في يادڤاشيم، النصب التذكاري للمجزرة البشرية في القدس، أنعمت النظر في تلك الوجوه المفقودة والتي لا تعد والتي تحدق عبر الصور الباهتة، وأدركت لأول وهلة أنني وفيت بوعدي لهم. وأنا على يقين من أنني بهذا الشعور لم أتحول إلى خائن».

خلال اجتماع بولارد مع إيتان الذي أدخل المستشفى للمعالجة لجراحة في العين آنئذٍ، طُمئِن ثانية إلى أن الإسرائيليين سيحمونه في حال انكشاف العملية. كما حضر ياغور تلك الاجتماعات بجانب سرير إيتان في مستشفى بايلنسون.

شهد إيتان فيما بعد أمام لجنة إيبان أنه في ذلك الوقت على وجه التقريب أخذت تتكون لديه بعض التحفظات الهامة حيال العملية برمتها. ولكن نظراً لمشاكل عينه واستشفائه وضع المسألة

جانباً. وقال عضو الكنيست دافيد ماغين: «أظن أنه في الأحوال العادية نجح في التثبت من أن أوامره لوقف الصلة مع بولارد قد استجيبت. وقد حال مرضه دون قيامه بهذا العمل. ولا يغيبن عن البال أنه حتى بعودته إلى العمل في تشرين الأول/أكتوبر ظل بصره محدوداً طبياً.

إن مسؤولاً كبيراً في لاكام عرف أحوال بولارد، حذر مرة أخرى لوجوب التخلي عنه نظراً لطبيعة العملية بالغة الخطورة. إلا أن إخطاره قوبل أيضاً بالرفض. كان إيتان متمسكاً ببولارد. كانت قدراته تشير عليه بوجوب التخلي عنه، فاحتمال الافتضاح يتزايد مع كل نقل. إلا أنه لم يستطع الأمر بمنع العملية. ما من امرىء يقضي حياته في جمع المخابرات ثم بجرة قلم يتخلى عن منجم ذهب كهذا.

الواقع أنه عندما كان بولارد في إسرائيل طلب منه إيتان وياغور حتى تقديم كميات أكبر من الوثائق المنسقة. وعندما أبدى بولارد بعض التردد، مشيراً إلى خطر الانكشاف، عرض عليه إيتان وياغور ٣٠,٠٠٠دولار إضافي يدفع له في حساب مصرف سويسري في كل من السنوات العشر التالية. كما أمر إيتان ياغور بإعطاء بولارد ٢,٠٠٠ دولار إضافي نقداً علاوة على العشرة آلاف دولار التي تلقاها بولارد سابقاً تغطية لمصاريف هذه الرحلة إلى إسرائيل وأوروبا. فوافق بولارد على جلب الوثائق.

خلال إقامتهما في إسرائيل طاب لبولارد أن يطوف بآن في أرجاء البلاد. وكان وقتهما في القدس الأكثر إثارة في الرحلة. قال بولارد فيما بعد: «الغريب أنه عندما وقفت على شرفة فندق الملك داود في صيف ١٩٨٥ مع زوجتي تأملت تلك الأسوار وانتابني إحساس غريب جداً. شعرت كما لو كنت أنا وزوجتي حجرين متباعدين. هذا ما تراءى لي حينئذٍ. أظن أن تلك الأسوار كانت تمثل نوعاً ما قوة شعبنا ومرونته. تلك الأسوار ذات الحجارة الرملية الجميلة حول المدينة هي القوة العسكرية والمادية والأمنية. هكذا نحن، حجران متباعدان عن ذلك السور ولكن لا نزال متميزين».

خلال رحلة الأسابيع الثلاثة إلى إسرائيل ثم أوروبا. أقام بولارد وآن في فنادق من الدرجة الأولى في تل أبيب والقدس وفيينا وزوريخ وباريس ولندن. وأظهر تحقيق قامت به حكومة الولايات المتحدة أن تكاليف الغرف الفندقية وحدها بلغت ٤,٥٠٠ دولار دُفعت كلها نقداً. كما دفع ثمن طعامهما نقداً.

لقد تزوجا في ٩ آب/أغسطس في احتفال مدني في مدينة البندقية.

في آب/أغسطس ١٩٨٥ طار ياغور إلى سويسرا لفتح حساب مصرفي لبولارد. وفي الخريف اللاحق عرض ياغور على بولارد جواز سفر إسرائيلي يحمل صورة بولارد مأخوذة في باريس باسم داني كوهين. ووفقاً لياغور فإن داني كوهين سيكون الاسم الجديد لبولارد عندما ينتقل آخر الأمر إلى إسرائيل. كان جواز سفر تعبيراً عن الامتنان للخدمات التي أداها. إذ أثبت هوية بولارد كمواطن من إسرائيل. وسينتحل بولارد ذلك الاسم عند هجرته النهائية.

كشف بولارد فيما بعد القصة الخلفية لاختيار الاسم الزائف. خلال محادثات تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤ في باريس عرض اسم إيلي كوهين. كان كوهين الجاسوس الإسرائيلي الغريب في دمشق في الستينات الذي حاول اختراق أعلى تشكيل سُلمي في النظام السوري قبل افتضاحه وشنقه آخر الأمر في ساحة المدينة سنة ١٩٦٦. وكان بولارد، وهو مراهق، قد قرأ كتاباً مشهوراً عن كوهين بعنوان: «رجلنا في دمشق». وقد أعجب بصراحة بالجاسوس الإسرائيلي وما أنجزه لإسرائيل.

بيد أن أثناء وجود بولارد وياغور في باريس ذهلا إذ سمعا إيتان يتهكم على كوهين ومنجزاته. ووفقاً لبولارد فإن إيتان ـ الذي كان في الموساد أثناء عملية كوهين وعرف كوهين جيداً ـ زعم أن كوهين كان بالفعل جاسوساً وضيعاً لا يحظى باحترام كبير لدى الموساد. واتهم كوهين بأنه تصرف بحماقة في دمشق. وكان يجب أن لا يعتقل أبداً. كما تحدث إيتان بازدراء عن نسب كوهين السفارادي.

قال بولارد إنه لا يفهم كيف يتكلم إيتان بهذا الشكل الساخر عن بطل إسرائيلي حقيقي ـ رجل ضحى بحياته من أجل بلاده. وقد أسر بولارد فيما بعد غضبه إلى ياغور الذي اتفق معه في الرأي، قال بولارد: «كانت فكرة ياغور إعطائي اسم كوهين». وهذا يعني أنه كان لإسرائيل ذات مرة إيلي كوهين في دمشق والآن لها داني كوهين في واشنطون. «لقد عرف ياغور أيضاً أن ذلك مما يضايق إيتان».

بالإضافة إلى جواز السفر أُعطي بولارد رقم حساب المصرف السويسري الذي فتح له باسم داني كوهين. لقد وقّع على بطاقات التوقيع. وأخبر ياغور بولارد أن ٣٠,٠٠٠ دولار ستودع في الحساب كل سنة على مدى السنوات التسع القادمة ـ عشر سنوات هي المدة المتصورة لعملية التجسس. وهذا المبلغ هو علاوة على الدفعات النقدية المباشرة التي تلقاها بولارد وبلغ مجموعها ما يقارب ٥٠,٠٠٠ دولار ـ القسم الكبير منها تغطية لمصاريف سفره.

عندما عاد بولارد إلى الولايات المتحدة زاد حجم الوثائق التي كان يزود بها إسرائيل.

وصف بولارد وضعه فيما بعد: «كان كل ما استطعت اطلاعهم عليه، كمن يضيف حجارة على رأس رجل يحاول يائساً البقاء عائماً في مياه ملأى بكلاب البحر. وكلما جوبهوا بمفاجأة جديدة تحمل في طياتها على ما يبدو مشاكل لا تذلل، حدثت أخرى لتحل مكانها. وبدا في بعض الأوقات أنني أصبحت الرسول التقليدي للأنباء السيئة أنثر معادلات المخابرات من أنياب التنين المشهور».

ولكن المفهوم أن حاجاتهم لا تشبع وطلباتهم المُلحة من النوع المُعدي. وبدا أن حياتي كلها أصبحت فريسة الخوف من إغفال شيء قد يثبت في النهاية أنه مفجع. والواقع أن كل ما عرضته عليهم كان بمثابة جرس إنذار لا سيما تلك المسائل المتعلقة بالتقدم في المجالات النووية والحرب الكيماوية في العالم العربي.

وجد بولارد نفسه ينفق مبالغ متزايدة من المال على المطاعم. فبين تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤ وتشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥، وفقاً لنتائج تدقيق الحسابات التالية لوكالة الاستخبارات الأميركية سدد بولارد وآن نقداً فواتير أميركان اكسبريس لحساب طعامهما حوالى ٢٠,٠٠٠ دولار. وشمل حساب أميركان أكسبريس لقوائم الطعام خلال هذه الفترة على وجه التقريب غداء وعشاء ومشروبات في شتى مطاعم واشنطون وتذاكر خطوط جوية للرحلتين إلى الخارج في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤ و٢٣٠٠ دولار ثمن مجوهرات مشتراة في إسرائيل في تموز/يوليو وآب/أغسطس ١٩٨٥.

لقد اشترى لآن مجوهرات في واشنطون أيضاً ـ في آذار/مارس ١٩٨٥ عقد وأقراط ذهبية لقاء ١٨٠٠ دولار وفي حزيران/يونيه أسوارة ذهب من ذات المتجر في جورجتاون بمبلغ ٣٠٠ دولار.

فبينما كان يوناثان ج. بولارد يتجسس لإسرائيل، إذا به قد أصبح مفسوداً.

في الوقت نفسه أخذ اهتمام آن يتضاءل بعملها لشركة البنادق الوطنية. لقد صقلت مهاراتها في العلاقات العامة خلال الثلاث سنوات ونصف السنة من العمل هناك. إلا أنها أرادت أن تستهل عملاً مستقلاً. وفي صيف ١٩٨٥ استقالت من شركة البنادق الوطنية. وبلغها أن إحدى معارف أبيها كارن برغ، وكانت تعمل سابقاً مع شركة العلاقات العامة هيل آند بولتون، أسست شركتها الخاصة كومكور في نيويورك. واستخدمت برغ آن لتمثيلها في واشنطون لقاء عمولة وعلى مسؤوليتها.

وإذا كانت كومكور تدرك سعي الصين لتحسين صورتها في الغرب، فقد اهتمت بالحصول على عقد لتدريب الوسطاء. طلبت برغ من آن محاولة ترتيب موعد مع مسؤولي السفارة الصينية في واشنطون. وقد نجحت آن في ذلك مستعينة بمعارف الدكتور بولارد ـ إذ سبق له أن قابل السفير الصيني. وقد قدمت عرضاً رسمياً بالاشتراك مع برغ وزميلات أخريات في ٣٠ أيلول سنة ١٩٨٥. شرحن فيه كيف يمكن للصين الإفادة من استخدام وسائل الأخبار الأميركية الأكثر تعقيداً.

كتب محاموها فيما بعد: في محاولة من السيدة بولارد لاكتساب السفارة كعميل قررت أن تعرف أكثر ما يمكن عن جمهورية الصين الشعبية وتجارتها وعلاقاتها الثقافية والدبلوماسية مع الولايات المتحدة بما فيها بالطبع السفارة في واشنطون. ولهذه الغاية سألت السيد بولارد إذا كان بإمكانه أن يُحضر إلى البيت من العمل بعض المقالات التي تحتوي على معلومات خلفية عامة عن الصين.

أما بولارد الذي كان ينقل بسهولة وثائق منسقة إلى إسرائيل، فقد أحضر إلى البيت خمس وثائق منفصلة مؤشر عليها «سري» عن الصين. كانت تعرّف الهيئة الدبلوماسية والعمليات الصينية في الولايات المتحدة بما في ذلك إمكانات جمع الاستخبارات الصينية. وكانت الوثائق الخمس:

١ ـ جمهورية الصين الشعبية، السفارة ـ واشنطون، دي. سي. ١٩٨٤ (٧٣ صفحة).

٢ ـ جمهورية الصين الشعبية، البعثة إلى الأمم المتحدة ـ نيويورك، ١٩٨٤ (٣٥ صفحة).

٣ ـ جمهورية الصين الشعبية، القنصلية ـ سان فرانسسكو، ١٩٨٤ (٤٧ صفحة).

٤ ـ جمهورية الصين الشعبية، القنصلية ـ نيويورك، ١٩٨٤ (٤٦ صفحة)

٥ ـ جمهورية الصين الشعبية، القنصلية ـ هيوستون، ١٩٨٤ (٦٢ صفحة).

قرأت آن الوثائق، وأخذت ملاحظات دقيقة ثم أعادتها إلى زوجها.

في صباح العرض أعطت تعليمات إلى زميلاتها عن السفارة الصينية دون أن تكشف المصدر الذي استقت منه بعض الخلفية. ومهما يكن، فإن كومكور لم تحصل على العقد في آخر الأمر. وأثبت تحقيق حكومي لاحق أن آن لم تفشِ أية وثائق أو معلومات منسقة إلى الصين.

الفصل السابع

الشبــهة

لم يكن يوناثان ج. بولارد على وجه العموم محبوباً جداً في «أتاك» لقد أقر زملاؤه بأنه موهوب وسلموا جدلاً بأنه يختزن في رأسه ثروة من المعلومات العسكرية الدقيقة والمتعلقة بالسياسة، إلا أنهم كانوا ممتعضين من غطرسته وتبجحه وموقفه المتعالم. لم يكن بيروقراطياً بحرياً مثالياً بل اعُتبر بغيضاً. لا سيما من قبل رئيسه جيري آجي الذي ارتاب في مناسبتين متباعدتين إذ لاحظ على بولارد الكذب.

الحادثة الأولى حصلت في ربيع ١٩٨٥. ووفقاً لآجي كان حادثاً غير ذي أهمية بالمرة. «لم يتعرض فيه لأحد إلا أنه أبلغني أمراً حققت فيه فيما بعد وحاولت تفسيره. إذ لم يكن على شيء من الحقيقة بل كان كذبة مفضوحة». وكانت الحادثة تتعلق بمعاملات «أتاك» مع وكالة حكومية أخرى. كان شأناً داخلياً تعامل فيه مع وكالة أخرى. وعاد بقصة لم تنطلِ علي. وقد لاحقت الموضوع فتبين لي أنها تتباين وما حصل تماماً. أول ما خطر لي آنئذٍ التساؤل عن السبب. «لماذا كذب علي في أمر قليل الأهمية كهذا يمكن كشفه بسهولة». قال آجي: «اعتبرتها شيئاً عابراً ومجرد كذبة».

اعتقد آجي أن بولارد بكذبه كان يحاول فقط إضفاء أهمية على شخصه أكبر مما هو عليه. وليس من تعليل آخر للحادث غير ما ذُكِر. إنه لم يُضِبر شكوى رسمية في ملف بولارد. وذكر فيما بعد. «كان أمراً غير مألوف في رأيي، بل أمراً مضحكاً. اعتقدت أنه ينم عن شيء من انعدام الثقة ولكن لا يستوجب صرفه».

حادثة أخرى بعد ذلك ببضعة أسابيع عندما روى لآجي قصة عن كورت لوبيك وهو صحافي يعمل على مسؤوليته، قام بعدة رحلات إلى أفغانستان للكتابة عن مقاتلي الحرية. وكان بولارد قد تصادق مع لوبيك. وقد اعترف فيما بعد أنه سرّب له بعض الوثائق المنسقة للتأثير عليه. وأخبر بولارد آجي أن لوبيك كان مشتركاً في عملية مكتومة للغاية كانت تجري مباشرة خارج مجلس الأمن

القومي في البيت الأبيض. ويُظن أن مستشار الأمن القومي روبرت مكفرلين كان يعالج موضوع لوبيك شخصياً.

قال آجي: «خيل لي أن هذه أيضاً أمراً عابراً وأنها كذبة أخرى».

وقال آجي: إن ذلك كان «كدغدغة في مؤخر يافوخك ـ «وإني أتساءل ما الذي يدفعه لاختلاق هذه القصص؟». لقد تغلغلت في مخيلتي حيث استقرت دون أن تتجاوز هذا الحد، إذ إن اسم لوبيك سيبرز ثانية فيما بعد في سيرة بولارد.

حوالى الوقت ذاته بدأ آجي التذمر من قلة انتاج بولارد على حد تعبيره. لقد كلف بولارد بعدة مشاريع أبحاث طويلة الأمد، تناول أحدها نشاطات مخابرات ألمانيا الشرقية في الكاريبي. وأخرى تركزت على التهديدات الإرهابية الأميركية الداخلية، بما في ذلك الجماعات المناهضة بعنف للنشاط النووي. والثالثة حول التهديدات الإرهابية للقوات البحرية الأميركية الوسطى، وقد طُلب من بولارد تحضير قائمة بالمنظمات الأميركية المحلية المعارضة لتدخل الولايات المتحدة في أميركا الوسطى والتي قد تكون على صلة بدول معادية بعضها استُهدِف فيما بعد المراقبة وزارة العدل وتغلغلها رغم عدم توجيه أية تهم. وقد أوقف التحقيق في آخر الأمر.

قال آجي: كانت هذه أمور تطلبت بعض الانضباط الشخصي للتوقف والقيام بالبحث مع وكالات أخرى. لقد اقتضت كثيراً من الكد ولكنها لم تكن شيئاً يستحيل عمله. طبعاً لم تكن شيئاً يوجب عليه المضي قُدماً ما دام قد أقدم عليه.

إن آجي، الذي كان يزداد شعوراً بالإحباط، لم ينفك يتصل بالناظر المباشر لبولارد، توم فيلكنز، وهو محلل مدني آخر، للاستفسار عن وثائق بولارد سأل آجي: «ما هو الوضع؟» أما فيلكنز، وهو بيروقراطي شديد التدقيق، فقد حقق مع بولارد الذي أكد أنه ما زال يعمل على المشاريع.

غير أن آجي شعر بأن العمل ما زال يسير ببطء شديد. قال: «كان هذا العمل قيد الإنجاز دونما نهاية. وما دمنا قد كلفناه بعمل قصير ـ يتوجب أداؤه بعد الظهر أو صباح غدٍ ـ عليه القيام به. سرعة في الانتاج وجودة في العمل بحيث يلبي الحاجة وينتهي الأمر. أما إذا طالبته بعمل يستغرق أسبوعين أو شهر ويستلزم قليلاً من النظام والمثابرة فهيهات أن ينجزه في حينه».

وهذا ما أزعج آجي كل الإزعاج. «لم أعد أرى أي انتاج. بدأت ألاحظ تزايد إضاعة وقت خارج المكتب. وتكررت هذه الأمور طوال أسابيع وأشهر وفي الوقت ذاته كان في الخارج يقوم بمزيد من البحث، وكنت أحدث نفسي: «إذا كان يقوم بكل هذه الأبحاث، أين إذن الانتاج؟» ما الذي نجنيه من وراء ذلك؟ «لا شيء. كل ما كان يعطينيه موجزاً لما كان يفعل، ولكن دون انتاج خطي فعلي».

لم تمضِ مدة على عودة بولارد للعمل في آب/أغسطس حتى لاحظ آجي بعض الأمور الأكثر غرابة تجرى في المركز الرئيسي لآتاك. مثلاً، كان ذات يوم يسير صدفة خلف المكتب المعدني البني لكاتب بسيط مسؤول عن استلام المادة المنسقة وتسجيلها.

ذكر آجي: في طريقي التقطت بعض المغلفات وألقيت مجرد نظرة على الوثائق، كان ثمة كومة كبيرة منها. سألته عن سبب كل هذا التأخير في إتمام العمل. تناولتها فإذا بها تعالج عدة مواضيع لا علاقة لنا بها نحن كمنظمة إطلاقاً ـ أو أنه لا يتوجب علينا الاهتمام بها.

كانت الوثائق السرية للغاية تتعلق بالمعدات العسكرية السوفييتية الأكثر تقدماً والتي يُزود بها العالم العربي.

سأل الكاتب بغضب «ما علاقتنا نحن بهذه الأشياء؟ لماذا حصلت عليها؟»

أجاب الكاتب: إن بولارد هو الذي طلب الوثائق.
فسأل آجي: «ما حاجته إليها؟»
اكتفى الكاتب بهز كتفيه وقال: «لا أدري».

توجه آجي فوراً إلى مكتب فيلكنز للاستفسار عن سبب طلب الوثائق. أجاب فيلكنز: «لا أدري. جاي أحضرها».

أمر آجي: «حسناً، اعرف السبب ثم تخلّص منها. أفهمني لماذا أحضرها. اتلفها أو رُدَّها مِن حيث جيء بها. لا نريد إبقاءها هنا».

واجه فيلكنز بولارد بسؤاله عن الوثائق المنسقة. إلا أن بولارد سرعان ما انتصب واقفاً وطلع بعذر خاله رئيسه معقولاً فعلاً. قال بولارد: «إنها خلفية مشروع أقوم بتحضيره عن التهديدات الإرهابية في الكاريبي». ووقفت المسألة عند هذا الحد.

كان لا بد من أن تنطلق نواقيس الخطر فوراً في مخيلة بولارد. وبإدراك مؤخر كان لا بد لاستفسار رئيسه عن الوثائق المنسقة أن ينهي ـ على الأقل مؤقتاً ـ العملية بأكملها. كان لزاماً أن تتراجع دراماتيكياً على الأقل. ولكن ذلك لم يحدث. إذ استمر الجميع على حاله.

السبب هو أن بولارد كان قد قرر حينئذٍ ترك المخابرات البحرية في نهاية السنة. كان مُحبَطاً وقلقاً. اعتزم في ذهنه القيام بمهمة أخرى من أجل إسرائيل، لقد أدرك أن تجسسه في واشنطون أصبح محفوفاً بالمخاطر المتزايدة. ولكن عوضاً عن تخفيف نشاطه زاده فعلاً. فلْيَغرف أكبر عدد ممكن من الوثائق الحيوية قبل الرحيل. والواقع أنه كان منطلقاً في مخيلته مرة أخرى نحو مهمة جديدة من أجل إسرائيل ـ هذه المرة تستهدف العربية السعودية.

كان بولارد قد صادق بعض السعوديين خلال أيامه الدراسية في فلتشر، ومنذ ذلك الحين أبقى

على تلك الاتصالات ووسعها. وكان بين أولئك المعارف سعودي ابن عائلة لم تُكشَف هويته قط. قال بولارد فيما بعد: «لقد استخدمت واضطررت حينئذٍ «لرشوة» بيروقراطي سعودي أنفق أطناناً من المال في عملية تخفيف جُرمه. وأكد بولارد أن كثيراً من المال الذي تلقاه من الإسرائيليين حُوِّل إلى هذه العملية السعودية.

استطرد بولارد: «كان أهم تأثير لأموالي الإضافية على حياتي أنها زودتني بمصادر لاختيار بيروقراطي سعودي. كانت فائدته المحتملة لمشروعي المرتقب لترك القوات البحرية وبدء التغلغل في وزارة الشؤون الخارجية السعودية تفوق الحصر. لقد أنفقت مبالغ طائلة من المال على المشروع الذي كان سيتيح لي فرصة هائلة للعمل كممثل خاص لهذا البيروقراطي في لندن وبروكسل. وعلاوة على القيمة الاستخباراتية الظاهرة لهذه العلاقة فقد كان سيمكنني من إنهاء عمليتي في هذا البلد التي أخبرني ياغور أنها زودت القوات المسلحة الإسرائيلية بمعلومات كافية لاحتمال كسب حرب الشرق الأوسط التالية. ومما يدعو إلى السخرية أن المال أُخِذ من عمولة جَنَيْتُها نتيجة وساطة للحصول على عقد نفطي نيابة عن السعودي وعزمت على أن أسدد بها للإسرائيليين كل الأموال التي تلقيتها منهم».

وأكد بولارد أن تسديد الإسرائيليين «لم يكن ليمحو كلياً وصمة العار التي شعرت بها بقبول المال منهم في المقام الأول. ولكنه يشكل الخطوة الأولى في درب انعتاقي الشخصي».

إن فكرة تجسسه لإسرائيل طمعاً بالمال غير مقبولة إطلاقاً. «والله لو كنت مرتزقاً لكنت بعت الأسرار الإسرائيلية للعرب الذين هم على أتم استعداد لدفع ثروة طائلة للحصول عليها. وما يستعصي على كثيرين فهمه هو أن هذه المسألة نسبياً على شيء من التعقيد، وأنني كنت مسؤولاً عن تسديد بعض الحسابات التي نجمت بشكل مباشر عن تورطي مع الإسرائيليين».

فيما يتعلق بآجي، استمر الموقف في تدهور مستمر. فبولارد غير جدير بالثقة بالمرة. لم يكن منتجاً ولكن هو عضو من المجموعة. كان تفكيره مركّزاً على شيء آخر.

في أواخر أيلول/سبتمبر سنة ١٩٥٨ طلب آجي من فيلكنز تحذير بولارد رسمياً أنه إذا لم ينتج تقريراً معيناً طال انتظاره فسيتلقى إنذاراً رسمياً بعدم امتثاله لواجباته. وذكر آجي فيما بعد أن هذه هي الخطوة الأولى لصرف شخص ما. عليك أن تدعم بالوثائق وبكثير من العناية ما هو مفروض بشخص عمله، وما لا يفعلون، وأنك حذرتهم من ذلك. وأخبرتهم بما يتوجب عليهم عمله لتحسين أدائهم وهلم جرا. فإذا تقاعسوا عندئذٍ يكون لديك مبرر للصرف.

حوالى الوقت ذاته تلقى آجي إشعاراً من القسم الإداري بأنه طُلب من بولارد قبل أربعة أشهر تعبئة نموذج روتيني يتضمن سيرته الشخصية من أجل خلفية حديثة وتحقيق تصريح ضامن. وكان بولارد قد ذكر مرتين بخصوص النموذج إلا أنه ظل دون تعبئة. ولدى معرفة آجي بذلك وجه إلى بولارد إنذاراً حاد اللهجة يعلمه أن لديه مهلة أسبوعين لتعبئته. وأكد بولارد لآجي أنه كان يعمل على

الرد على كافة الأسئلة ولكن نظراً لكثرة أسفاره في الخارج على مرّ السنين، لا يسمح له الوقت بتذكر كل التفاصيل.

وقد خلق ذلك لآجي مصدراً آخر للإثارة.

«لم يكن قائماً بعمله. والآن لم يقم بعمل آخر كان المفروض به أداؤه. كان يضيع كثيراً من الوقت خارج المكتب لإجراء أبحاث. ولكن لم نرَ له إنتاجاً منها. وتلك الأوراق المكدسة هناك كنت أظنها آنئذٍ نتيجة بحثه في المناطق التي يهمه أمرها. ولكنه لم يقم بشيء مما طُلب منه عمله».

إلا أن آجي ظل عند رأيه بأن هذا الاعوجاج المتمادي لا يمكن مجاراته. قال آجي: «إنها لحماقة مؤلمة. لم يكن منتجاً رغم ذكائه. وما دام قد عجز عن القيام بواجب بسيط. فعلام أحتفظ به إلى الأبد. إنه يخط مصيره بيده».

ارتكب بولارد غلطة جد طائشة ذات يوم جميل ومنعش على غير العادة في منتصف أيلول/سبتمبر. إذ ترك المكتب في الصباح الباكر ولم يعد حتى ساعة متأخرة بعد الظهر. وأياً كان السبب، كان آجي مشغول الفكر في بولارد ذلك اليوم. لقد أمضى معظم النهار في لف ودوران بحثاً عنه.

أخيراً عاد بولارد إلى المكتب متأخراً جداً بعد الظهر. سأل آجي بغضب ظاهر أين كان طيلة اليوم قال بولارد إنه كان يقوم ببعض البحث في دار كتب مخابرات أخرى. ولكن آجي اشتبه في أنه يكذب. قرر تحدي بولارد. قال واقعياً ومن قبيل التمويه: «هذا غير صحيح»

لدى الجواب ـ المفاجىء لآجي ـ سلّم بولارد بأنه قد كذب فعلاً، وقال بولارد: حسناً. لقد عرفت الحقيقة.

قال بولارد إنه ذهب لمقابلة عمل مع شركة غير حكومية في واشنطون تتعاطى الأشغال الاستشارية للسياسة الخارجية. وقال إنه كذب لأنه لم يشأ أن يظن آجي بأنه كان يفتش عن عمل وفي خلده ترك مخابرات القوات البحرية وخاصة في الوقت الحكومي.

بدا ذلك معقولاً نوعاً ما لآجي الذي سره أن يعلم أن بولارد يفكر بترك العمل من تلقاء ذاته. فصرف مستخدم مدني، لا سيما ماهر كبولارد، قد يكون من الصعوبة بمكان إن لم يكن مستحيلاً. وقد تنفس آجي الصعداء بهدوء.

الذي غاب عن علم آجي هو أن بولارد أمضى النهار في دار كتب مخابرات أخرى مأمونة يجمع بعض المعلومات المعينة والتي طلبها ياغور قبل بضعة أيام فقط.

تضمنت المعلومات كل ما عرفته الولايات المتحدة عن أنظمة الدفاع الجوي الليبية والتونسية والجزائرية. كانت إسرائيل آنئذٍ تفكر في القيام بضربة جوية ضد المركز الرئيسي لمنظمة التحرير

الفلسطينية في تونس. كانت مجرد خطة محتملة ـ هجوم ثأري لحادث إرهابي ضد إسرائيل. كان تأهباً من إسرائيل.

كما طُلِب من بولارد البدء بجمع معلومات عن تحركات السفن السوڤييتية والفرنسية والأميركية في البحر الأبيض المتوسط. ولم تشأ الطائرات الإسرائيلية أن تُكشَف في طريقها إلى تونس.

في ٢٥ أيلول/سبتمبر سنة ١٩٨٥ الذي صادف يوم التكفير بات ثلاثة إسرائيليين على متن يختهم المتواضع والراسي في حوض ميناء لارنكا، قبرص. لم يكونوا من المتدينين: ريوڤين وأستر بالترز من حيفا وأڤرهام أڤنيري من «أراد». جميعهم في الخمسينات من العمر. اغتنموا فرصة نهاية الأسبوع في إسرائيل للقيام برحلة قصيرة إلى الجزيرة المجاورة في البحر الأبيض المتوسط. كان الزوجان بالترز عضوين عريقين في نادي الكرمل لليخوت في حيفا، وأمضى السيد بالترز عدة سنوات في كشافة حيفا البحرية يعلم الأحداث الإبحار. أما أڤنيري، وهو مؤسس «أراد» في النقب فقد كان الدليل السياحي.

ولكن السرور المفترض انقلب إلى رعب عندما اقتحم اليخت ثلاثة إرهابيين في ذلك الصباح الباكر. كانوا من وحدة مغاوير القوة ١٧ المختارة والتابعة لياسر عرفات. كان اثنان منهم فلسطينيين في الرابعة والعشرين من العمر: الياس ناصيف ومحمود خالد عبد الله. والثالث بريطاني: أيان ميخائيل داڤيسون في السابعة والعشرين من العمر وهو بحار سابق التحق بمنظمة التحرير الفلسطينية، إثر مشاهدة صور مذبحة الفلسطينيين سنة ١٩٨٢ في مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين في بيروت. وقد ذكر فيما بعد. «إنها كانت نقطة تحول في حياتي».

أطلقوا النار فوراً وقتلوا السيدة بالترز، ثم أخذوا الرجلين رهينتين. وأعلموا السلطات القبرصية لدى وصولهم أن على إسرائيل إطلاق سراح عشرين أسيراً فلسطينياً. وانقضت تسع ساعات من المفاوضات المكثفة وقد ازداد الإرهابيون تململاً وفزعاً. وأخيراً استسلموا ولكن بعد إطلاق الرصاص على الرجلين ـ مقيدي الأيدي والأقدام بالحبال ـ في الرأس.

ذكر بلاغ الحكومة الإسرائيلي أن إسرائيل ستلجأ إلى كافة الوسائل لحماية مواطنيها. «وإن أعمال القتل لن تمر دون عقاب». لقد قررت إسرائيل الانتقام. وكان بولارد يعرف على ما يعتقد ما جال في خلدها.

١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٥ كان من أسعد الأيام في حياة بولارد. ففي ذلك اليوم قطعت ثماني مقاتلات ف ـ ١٦ أحادية المحرك من سلاح الجو الإسرائيلي ٤٨٠٠ كيلومتر ـ رحلة ذهاب وإياب ـ دون انكشافها عبر البحر الأبيض المتوسط لقصف المركز الرئيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية في تونس وتزودت الطائرات بالوقود في الجو. وكانت أطول مسافة إطلاقاً قطعها سلاح الجو الإسرائيلي في غارة جوية.

دمرت عدة أبنية لمنظمة التحرير الفلسطينية وقتل حوالى ستين شخصاً وكان بين القتلى محمد

ناطور قائد القوة ١٧ والعديد من رجاله. وهدم المقر السري لعرفات ولكنه سَلِم ولم يصب. لم يكن في المنطقة حين انقضّت الطائرات الإسرائيلية على الساحل التونسي. وقال شمعون بيريز رئيس الوزراء فيما بعد إنه لم يكن «متأكداً» من أنه كان لإسرائيل رغبة خاصة في قتل عرفات. وقال إن حرب إسرائيل «ضد منظمة الإرهاب ـ وليس شخص هذا الزعيم أوذاك».

كان قد خُطِط للضربة الجوية قبل مقتل الإسرائيليين الثلاثة في لارنكا. والواقع أنه كان أمام مخططي الجيش الإسرائيلي سلسلة كاملة من الخيارات الثأرية الأخرى إلى أن قرر مجلس الوزراء في النهاية الموافقة على هذا الاحتمال.

كان بولارد مسروراً لأن إسرائيل لجأت إلى الخيار الذي لعب فيه دوراً بارزاً. فالواقع أنه زود ياغور بمجموعة كبيرة من الوثائق محدداً بدقة الموقع الحقيقي للمركز الرئيسي لعرفات في بلاج الحمام وهو شاطئ في ضواحي تونس. وكان بولارد قد جمع استخبارات الولايات المتحدة عن النظام الدفاعي الجوي لتونس كما حصل على معلومات مماثلة عن قدرات ليبيا. مثلاً، ما المدى الذي يستطيع الرادار الليبي بلوغه في البحر الأبيض المتوسط؟ وبالطبع يتوجب على المقاتلات الإسرائيلية المرور بليبيا في الطريق إلى تونس جيئة وذهاباً.

كان بولارد، حسب التعليمات المعطاة له، قد حصل على المعلومات المتعلقة بالسفن البحرية الأميركية والسوفييتية والفرنسية في المنطقة. وقد أراد الإسرائيليون تجنب أية مواجهة معها.

عندما علم بولارد في تشرين الأول/أكتوبر أن العملية نجحت في تدمير المركز الرئيسي قرر مضاعفة مجموعته قبل ترك استخبارات القوات البحرية في نهاية السنة لمتابعة عملية سرية أخرى من أجل إسرائيل.

لقد أسر فيما بعد قائلاً: «بقيت طوال الليل في المكتب أراقب المعلومات حول الغارة. تملكني شعور رائع وأنا أحدق في طرف رويتر وأراقب سير التقارير الواردة. وابتهلت أن يكون عرفات قد قتل. كان مشهد الإسرائيليين القتلى في لارنكا لا يزال حياً في مخيلتي. اعتبرتُ الغارة حكماً مطلقاً للعدالة القضائية».

بعد بضعة أيام نشر بعض زملائه في «أتاك» صورة خدمة سلكية لرجال البحث الإسرائيلي القتلى مع تعليق خطي: «القوة ١٧ : ٣. الموساد: صفر». وقد تبسم بولارد في قرارة نفسه إذ كان يعرف أن العديد من إرهابيي القوة ١٧ قتلوا خلال الضربة الجوية الإسرائيلية. وقال: «شعرت بقسط لا يصدق من الرضا لأن مرتكبي هذا الاعتداء ضد شعبنا تناولتهم أخيراً يد العدالة».

دخل زملاؤه فيما بعد في نقاش طويل حول الغارة الإسرائيلية اتهم بعضهم إسرائيل بممارستها إرهاباً برعاية الدولة. وهي تهمة نبذها بولارد. ويبدو أنه لم يشأ إظهار الكثير من مشاعره الخاصة. قال: «تركتهم عند هذا الحد ومضيت إلى البيت. وضحكت في نفسي».

في الوقت ذاته، أخذ على نفسه عهداً بجمع أكبر قدر ممكن من الوثائق قبل ترك المخابرات البحرية.

ولكن حظه بدأ يخونه.

ازداد قلق آجي لأن بولارد لا يريد ترك العمل من تلقاء ذاته. وكل يوم يمر كان يجعله أكثر تصميماً على صرف بولارد لولا حاجته إلى مزيد من المبررات.

يوم الجمعة في ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر شاهد صدفة أحد زملائه في العمل ـ وهو محلل مدني آخر ـ يترك مكاتب آتاك ومعه على ما يبدو وثائق منسقة سرية للغاية. كان آجي لا يزال في مكتبه. وقد عرّج على زيارته من البيت هذا الزميل الذي لم يكن أيضاً يحب بولارد وأراد التزلف لرئيسه.

قال لآجي: جئت إلى البيت وشيء يضايقني. رأيت أن أمرَّ عليك وأخبرك. سأل آجي: «وماهو؟» «لا أعلم بالضبط ولكن حوالى الساعة الرابعة والربع شاهدت جاي يترك البناية وكانت زوجته في الخارج في انتظاره. خرج وتحت ذراعه رزمة تبدو كأنها صادرة عن مركز المواصلات.

إن مغلفات المركز جد مميزة تؤكد طبيعة الوثائق المنسقة التي تحتويها. فعليها بالعرض شريط أحمر. وذكر فيما بعد: إن وجود آن بانتظار بولارد ليس ما أقلقه. غير أن ما أثار اهتمامه وجود الرزمة مع بولارد خارج المبنى. ولم يكن ثمة ضرورة، بعد ظهر يوم الجمعة والساعة الرابعة والربع. لإخراج ذلك النوع من المواد الحساسة من البناية. قال آجي في نفسه: «ليس ثمة مكان للذهاب بها. وممنوع أن تأخذ المادة المنسقة إلى بيتك».

وهكذا فإن أخذ بولارد بعض الوثائق المنسقة إلى البيت أمر خاطىء ولا بد من جلب بولارد.

أدرك آجي نظرياً أن بولارد ربما كان يغادر الشارع في سويتلاند إلى مبنى آخر لتسليم الوثائق إلى مسؤول مفوض، ولكن هذا غير محتمل لأن معظم الموظفين ذهبوا آنئذٍ إلى بيوتهم. وفكر آجي أنه إذا أخذها إلى البيت ففي ذلك مخالفة خطيرة. وربما كان هذا بالضبط ما ينتظره آجي لصرف بولارد.

وسط حالة من الانفعال والغضب نزل آجي مسرعاً إلى مركز المواصلات للتأكد مما إذا كان بولارد استلم رزمة في ذلك اليوم. عرف أن بولارد أخذ حقاً رزمة ووقع باستلامها. وقد تضمنت الرزمة رسائل حساسة جداً من الوثائق المنسقة. توجه آجي إلى الحارس وسأل إذا كان بولارد الذي يحمل بطاقة جاسوس، قد أخرج الرزمة من المبنى. فأجاب الحارس بالإيجاب.

عاد آجي إلى حجيرة شغل بولارد الملبدة والتي أحيطت بجدران زجاجية عالية وأراد التأكد من وجود أية وثائق حساسة أخرى.

تألف مكان عمل بولارد من بعض الأثاث المكتبي الحكومي العادي وشبه العنصري بما فيه معبر حاسب. جال آجي بصره حول المكتب وأعالي الرفوف. ونظر داخل صفيحة القمامة القصدير وكيس الحرق البيج. لم يكن ثمة ما يدل على أنه أحضر الرزمة إلى فوق. كانت خزانة بولارد مقفلة ولم يكن لدى آجي توافقيتها. كما كان مكتبه مقفلاً. في أية حال فكر آجي في أنه غير مفوض لتفتيشها. أجال النظر عله يرى شيئاً ولكنه لم يعثر على شيء مريب.

كان آجي، الذي كان العرق يبلل راحتيه، جد قلق ولكنه لم يشأ أن يبدو كالأبله فقد يكون ثمة مبرر بسيط لتصرف بولارد. قرر الانتظار أسبوعاً آخر لمعرفة ما إذا كان بولارد يسطو بصورة منتظمة على هذه الوثائق المنسقة. ووسط قلقه المتصاعد اكتشف نمطاً بالفعل. فيوم الجمعة التالي، ١ تشرين الثاني/نوفمبر عاد بولارد فالتقط رزمة وثائق سرية للغاية عن أنظمة الأسلحة السوڤييتية.

صمم آجي على التعمق في الاستقصاء.

إلا أنه لم يكن مستعداً بعد لتحدي بولارد بشكل سافر. وذكر فيما بعد: «لم أشأ مواجهة مباشرة لأنه إذا أصبحت المسألة جدية إلى هذا الحد، أود انتهاج السبيل القويم بحيث لا يتمكن بولارد من تغطية أفعاله. أريد صرف هذا الرجل».

كذلك أدرك آجي أن أي خرق هام يتطلب أولاً أن تتيح مصلحة الاستقصاء البحري الفرصة رسمياً لإجراء تحقيق. «لذا لا أريد نسف التحقيق. بمجابهته مباشرة».

يوم الاثنين ٤ تشرين الثاني/نوفمبر، وكان يوماً خريفياً صافياً، توجه آجي إلى مركز المواصلات وبدأ بمطالعة جميع القيود. لم يخبر أحداً هناك بما كان يبحث عنه.

قال للكاتب: «أريد الاطلاع على بعض القيود».

جلس آجي على انفراد في زاوية وطالع مجموعة من الوثائق. أراد معرفة الأشخاص الذين كانوا يستلمون ويسلمون الوثائق ـ ومم كانت تتألف.

أعطاه الكاتب الوثائق.

صعق آجي لِمَا اكتشف. وبدا أن بولارد كان يُخرج العديد من المعلومات المنسقة للغاية والتي ليس لها أية صلة بعمله. كانت كل الوثائق تتعلق أساساً بالمواضيع ذاتها ـ أنظمة الأسلحة السوڤييتية والقدرات العسكرية العربية.

ذكر آجي فيما بعد: «تبين لي أنه كان يلتقط الرزم بشكل دوري. وخُيل لي أنه يجمعها كل يوم جمعة، وربما مرتين في الأسبوع في بعض الأحيان، ولكن مرة على الأقل في الأسبوع أيام الجمعة. وهذا ما دعاني للتساؤل: «لماذا أيام الجمعة؟». وتلك العينة هي ما جعلني أعتقد بأن شيئاً ما يحدث. كان يقوم بالعملية في ساعة متأخرة من بعد ظهر أيام الجمعة، وقد تساءلت بأن شيئاً ما يجري هنا ليس كما يجب».

عرف آجي أن مجمع سويتلاند كان يُفرغ تقريباً باكراً أيام الجمعة، فإذا كان بولارد ينقل الوثائق من بنايته في وقت متأخر من بعد الظهر، لا بد أنه كان يأخذها على الأغلب إلى البيت. وهذا أمر محظور. ومن غير المعتاد نقل الوثائق إلى محللي استخبارات آخرين في ذلك الوقت المتأخر من أيام الجمعة.

على هذا الأساس بدأ آجي تحقيقاً أوسع في نوعية المعلومات التي يلتقطها بولارد. وقد أخبر الكاتب المسؤول عن الأمن في مركز المواصلات أن لديه مشكلة خطيرة تتعلق ببولارد. ولكنه لم يكن متأكداً ما لم يتعمق أكثر في استقصائه. وطلب من الكاتب التعاون. وقال له آجي بتجهم «لا تخبر أحداً بشيء».

استطرد آجي: «أريد مراقبة كل ما يفعل. أريد أن أعرف إذا وصل هنا والتقط شيئاً. وفي اللحظة التي يجتاز فيها هذا الباب لا أريد أن يأخذ شيئاً بغير معرفتي. أريد أن أعود وأحاول تجديد كل ما جمع ـ كافة الرسائل القديمة. عد إلى الحاسب واخرجها واعرف حقيقتها».

في الأيام القلائل التالية قام كلا الرجلين بما اتفق عليه.

علق آجي فيما بعد: «مرة أخرى عرفنا أن ثمة نمطاً لنوع المعلومات المطلوبة ـ موضوع البحث ـ والأوقات التي يجمعها فيها. وما إن بدأت أفهم العينة حتى أخذت تتبلور كل الأشياء التافهة الأخرى.

كانت المعلومات تتعلق باستخبارات حساسة للغاية عن الشرق الأوسط ـ وهي معلومات لم يكن بولارد «بحاجة لمعرفتها» في مهمته الحالية.

ذكر آجي: «لذا فهي الآن موضع اهتمامي فضلاً عن الوقت الطويل الذي كان بولارد يقضيه خارج المكتب. كان ثمة الكثير من المواد المنسقة في مكان عمله وحوله ليس بحاجة للحصول عليها. وكان يجمعها بملء برميل. زد على ذلك مغادرته الغريبة للمبنى بعد ظهر الجمعة، ومعه على ما أعتقد معلومات حساسة جداً».

في صباح يوم الاثنين بالذات ٤ تشرين الثاني/نوفمبر حرص آجي على أن يكون على مقربة من منطقة عمل بولارد لمعرفة ما أعاد معه إلى العمل. لقد عرف أن بولارد أخذ إلى البيت يوم الجمعة الماضي وثائق منسقة، كما عرف أن بولارد لم يكن في المكتب في نهاية الأسبوع. وأراد آجي معرفة ما إذا كان بولارد قد أعاد الرزمة معه. ولكن آجي لخيبة أمله لم يرَ أية رزمة.

لم يشاهد آجي طيلة النهار أي دليل على أن بولارد أعادها. وبعد ذهاب بولارد إلى البيت ألقى نظرة أدق على صفيحة القمامة وكيس المحروقات. حقق فيما إذا كان بولارد قد أعاد الوثائق إلى مركز المواصلات. ولكنه لم يفعل. وهكذا أصبح آجي على أتم اقتناع بأن بولارد ترك البناية حاملاً الوثائق في ذلك اليوم الجمعة ولم يعد بها يوم الاثنين. وأقل ما يمكن قوله هو أن بولارد كان

يخل باجراءات الأمن الأساسية. ولكن ماذا كان يجري غير ذلك؟

قال آجي: في نفسه: «لدي مشكلة خطيرة هنا».

ولكن لم يكن أمامه سوى دليل استنتاجي ذي نفع مغاير. فآجي لم يعرف ما إذا كان بولارد يأخذ الوثائق للبيت لمجرد العمل أو أن ثمة ما هو أسوأ. وذكر «كان جاي من الغطرسة بحيث لا يأخذها للبيت للعمل بل بغية الاطلاح عليها».

ولكن بينما كان آجي مقتنعاً بأن بولارد كان منغمساً بأمر مخالف إلى حد بعيد، إلا أن التجسس لم يكن بعد في الحسبان. وبالتالي فإن آجي لم يُطلع بعد ماك كولا على شكوكه. كان ماك كولا مقاوم تجسس واقعي التفكير ومحنكاً، مسؤولاً عن مقاومة الجاسوسية في قيادة الاستقصاء والأمن البحري في سويتلاند.

قال آجي: «أصبحت في شبه ورطة لأنني جمعت العديد من الأدلة دون أن أخبره بأمرها حتى الآن بينما الحال يتدهور بسرعة».

يوم الجمعة ٨ تشرين الثاني/نوفمبر عاد آجي فطلب من مركز المواصلات أن يكون يقظاً لأية وثائق يطلبها بولارد. ومرة أخرى طلب بولارد. رزمة وثائق رسمية للغاية. سئل آجي عما إذا كان مسموحاً لبولارد استلامها. أجاب آجي بالإيجاب لأن الوثائق هذه المرة ذات علاقة ضئيلة بعمله النظامي. وفي أي حال، لم يشأ أن يجعل بولارد في ريبة من أنه أصبح شاعراً به.

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر عندما أخذ بولارد الوثائق والابتسامة تعلو شفتيه. ثم عاد إلى مكتبه حيث بقي حتى حوالى الرابعة والنصف. كان آجي في انتظار على مقربة ويراقب بسرية. قال آجي في نفسه: «الحمد لله لقد أعادها إلى المكتب. ولم يأخذها إلى خارج البناية».

بعد أن ترك بولارد البناية للذهاب إلى البيت، تقدم آجي إلى منطقة عمل بولارد بحثاً عن الرزمة. قال: «لم أجدها. فتشت في صفائح قمامته وكيس محروقاته. بحثت في جميع الأشياء الموجودة على مكتبه وتحته».

خلال البحث وجد آجي مجموعة أخرى من الوثائق الحساسة جداً حول شحنات الأسلحة والأسلحة السوفييتية إلى الشرق الأوسط مخبأة تحت مكتب بولارد. كما اكتشف أن خزانة بولارد كانت مفتوحة. إلا أن آجي لم يعثر على شيء داخلها.

أوضح آجي، مشيراً إلى أن موظف مركز المواصلات أخبره عن طبيعة الوثائق التي أخذها بولارد في ذلك اليوم: «لقد عرفت عَمّ أنا أبحث. عرفت شكلها ونوع ورقها. لم أستطع العثور على أي دليل لها في مكتبه أو حوله».

الواقع أن آجي قلب نطاق عمل بولارد رأساً على عقب بحثاً عن الوثائق. ثم أعاد كل شيء كما كان عليه.

فكر آجي: «ربما أعطاها إلى المحلل الشرق أوسطي».

ثم انتقل إلى مكان عمل المحلل وأعمل فيه يد البحث. «فتشت في الأدراج والمكاتب والخزائن الحديدية وخزائن الملفات وفي المكان الذي لا يليق ذكره».

بيد أن الساعة قاربت الثامنة مساءً دون أن يهتدي آجي للوثائق. وذكر «وفجأة خطر ببالي ما أفزعني، لقد تكونت في رأسي فكرة غريبة لا تدور في خلدك كل يوم وأعني التجسس. حاولت التعلق بمبررات أخرى كالخطأ مثلاً. وتعقدت الأمور في رأسي وطغت على ما كنت أبحث عنه».

قاد آجي السيارة إلى بيته في أنابوليس مسافة ثلاثين دقيقة. كان دماغه يلف ورأسه في طرق مستمر. بدا منهكاً» وانهار على كرسي مما أفزع زوجته كارن التي بادرته بالسؤال عما أصابه. أجاب برقة:

«لا أدري. أعتقد أنني إزاء مشكلة جد خطيرة».

«ماذا تعني؟».

قال: «إنها تتعلق بجاي بولارد». وكانت كارن قد قابلت بولارد في بضع مناسبات.

وانطلق قائلاً: «لم أكن أتأمل أن يتجسس».

قالت مذعورة: «ماذا! «عمّ تتحدث؟».

«لقد سمعت ما قلت».

«كيف ستتصرف؟».

«لا أدري. لست متأكداً إذا كنت مصيباً أو مخطئاً. إنني أمقت أن أحمل عليه من جراء ذلك أو أتهمه به إذا لم يكن صحيحاً».

لم يقل آجي لزوجته أنه ظن بأن بولارد كان يتجسس لصالح إسرائيل.

عندئذٍ، ولدى تأمل المادة، بدأت أظن أن إسرائيل قد تكون متورطة. ولكن هذا لم يكن شأني. الذي همني هو إقدامه على ذلك. كان يخرج بالوثائق من البناية وكنت أعرف أنها كانت تُنقل إلى مكان ما. ونقلها إلى ذلك المكان لم يكن مرخصاً.

أصبح آجي محطم الأعصاب.

وأشارت عليه زوجته بتعقل: «الأفضل أن لا ننتظر حتى الإثنين».

وقد وافق على ذلك. ولم يذق طعم النوم تلك الليلة.

كان الظلام لا يزال مخيماً والجو بارداً حوالى الساعة الخامسة من صباح السبت في ٩ تشرين الثاني/نوفمبر عندما قاد آجي السيارة عائداً إلى مكتبه. وكان طريق جون هانسن المؤدي إلى الطريق المطوقة خلواً تقريباً من حركة المرور. وقف عند مطعم خفيف لتناول قهوة وقطعة معجنات.

استغرب الحرس وموظفا المراقبة رؤيته في المكتب في ذلك الوقت المبكر من صباح السبت.

دخل آجي إلى غرفته وعلق سترته. ثم اتجه عبر الغرفة الرئيسية نحو مكان بولارد.

مرة أخرى فتش في مكان عمل بولارد بحثاً عن الوثائق التي أُخرجت من مركز المواصلات في اليوم السابق. «أردت التأكد من أنني لم أغفل أي شيء ـ مخبأ ـ مطمورة سرية للملاحظات ربما أخفاها، قد تلقي ضوءاً على المكان الذي تنقل إليه كل هذه المواد. ولكني لم أتمكن من الاهتداء إليه».

بعد عدة ساعات في المكتب كف عن البحث. والوقت متأخر صبحاً. كان آجي منهكاً. توقف وقال في نفسه: «عندي جاسوس منحوس هنا».

كانت يداه ترتعشان. عندما تحدث هاتفياً إلى ماك كولا الموظف الكبير في مقاومة تجسس القوات البحرية والذي كان في البيت يَدُمّ مَرْجَتَه.

سأل: «هل أنت باق في البيت إلى حين؟»

«أجل».

«أود أن أمر للتحدث إليك، أعتقد أن لدينا قضية خطيرة».

«حسناً! تفضل».

قاد آجي سيارته من المجمع البحري في سويتلاند، ماريلاند إلى بيت ماك كولا في سيرنغ فيلد، فرجينيا وهي ضاحية أخرى في واشنطون. استغرق ذلك ثلاثين دقيقة بدا كأنها أطول بكثير.

جلسا في مخدع ماك كولا أمام جهاز التلفزيون يتتبعان لعبة كرة القدم في الكلية. وقدم ماك كولا بضع علب من البيرة. وأخذ آجي يُفصح له شيئاً فشيئاً عن شكوكه التي لا تصدق. ورغم توتره وانفعاله فقد تكلم بتؤدة ومنهجياً عارضاً الموضوع وكمية المعلومات الملتقطة. وظل ماك كولا مكتفياً بالإصغاء فترة طويلة. إلى أن قال أخيراً ـ وهو الذي بالطبع يعرف بولارد «يا له من جاسوس يستحق اللعنة».

اتفقا على أن المعلومات كانت تُسَرَّب على الأغلب إلى إسرائيل. وتفحّص رجلا استخبارات القوات البحرية نموذج المادة واستنتجا أنها ليست من النوع الذي يهم السوفييت. قال آجي: «من ذا يصدق أن السوفييت يعودون إلى شراء كافة المعلومات التي باعوها».

وعندما تساءلا عمّن غيرهم يهتم بهذا النوع من المعلومات لم يجد الاثنان جواباً سوى «إسرائيل».

وكلاهما يعرف أيضاً أن بولارد يهودي.

سأل ماك كولا آجي «هل هم حقيقة بُلهاء أم تتحكم بهم الخيلاء؟» مشيراً إلى الإسرائيليين.

«يا إلهي! كيف نعطيهم كل هذه المعلومات؟ هل هم حقاً حمقى بحيث لم يجدوا بين الناس سوى جاي لرشوته واستخدامه؟»

اتفق ماك كولا وآجي على ضرورة إجراء تحقيق كلي حول بولارد. ولكن نظراً لأن بولارد مستخدم مدني في القوات البحرية يتعذر على مصلحة الاستقصاء البحري القيام بتحقيق دون إعلام وكالة الاستخبارات الأميركية على الأقل وطلب تعاونها. تلك هي الخطوة التالية.

صباح الإثنين ١١ تشرين الثاني/نوفمبر اجتمع آجي وماك كولا وموظفا مقاومة التجسس في مصلحة الاستخبارات البحرية، وذلك في مكتب ماك كولا لرسم استراتيجيتهم، راجعوا كافة الأدلة المتوفرة لديهم. ثم انضم إليهم فيما بعد صباحاً موظف وكالة الاستخبارات الأميركية. عرضوا تخميناتهم إلا أن موظف الاستخبارات كان مبدئياً مرتاباً في استنتاجاتهم.

قال: «لا بد من وجود تعليل آخر».

وقال آجي: أظن أننا منطقيون في اعتقادنا. ونحن نعتبر أن لدينا بينة كافية تبرر على الأقل إجراء تحقيق.

اقترح آجي وماك كولا القيام بتحقيق كامل بما في ذلك مراقبة مستمرة. إذ أرادوا معرفة المكان الذي تنقل إليه الوثائق.

إلا أن ممثل وكالة الاستخبارات الأميركية ـ ويا للهول ـ شدد على أنه ليس لدى الوكالة العدد الكافي من الأشخاص للقيام بتحقيق كهذا. إذ إن وسائل وكالة الاستخبارات الأميركية مرتبطة بأكملها سابقاً. وكان مكتب مجال واشنطون جد مشغول بتحقيقات عمليتي تجسس جاريتين آنئذٍ. والمراقبة المستمرة تتطلب مجهوداً ضخماً، بما في ذلك ما لا يقل عن عشرين موظفاً. فالسوڤييت والقوى العاملة والمال والأجر الإضافي وغيرها من الأمور ذات الصلة كلها معرقلات لا يمكن تجاهلها.

قال ممثل وكالة الاستخبارات الأميركية «قد يكون ذلك غير ما تعتقد. وربما كان ثمة تعليل سهل لكل ما يجري. فلماذا لا تهبط إلى القاعة وتأتي به هنا لنتحدث إليه؟».

بيد أن ماك كولا رفض ذلك الاقتراح كلياً. أراد التثبت من أنه إذا صحت تخميناتهم ـ وكان بولارد جاسوساً حقاً ـ فسيمكّنهم ذلك من التعرف على الذي كان يتلقى المعلومات. وفكر آجي في أنهم إذا جابهوا بولارد بشكوكهم فسينكرها بولارد بالطبع ويتوقف فوراً عما يقوم به، ولن يتمكنوا من معرفة الحقيقة أبداً.

كان ماك كولا حازماً، خلال الأيام القليلة التالية في المطالبة بإجراء تحقيق كلي، الأمر الذي وافق عليه في النهاية ممثلو وكالة الاستخبارات الأميركية. سألوا إذا كان من الممكن بدؤها يوم

الإثنين التالي، ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر. ليتسنى لهم إنجاز تحقيق آخر. وفي الوقت ذاته تتمكن مصلحة الاستقصاء البحري من القيام بتحقيقها الخاص.

بدأ ممثلو مصلحة الاستقصاء البحري في ذلك الأسبوع باتخاذ الاستعدادات لاستجواب بولارد بعد سطوه القادم ومغادرته البناية. عندئذٍ يكون لديهم مبرر لاستجوابه. إلا أنهم أرادوا تأخر ذلك السطو إلى أن تصبح وكالة الاستخبارات الأميركية مستعدة ـ المقصود يوم الإثنين التالي، ١٨تشرين الثاني/ نوفمبر.

يوم الأربعاء ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر وجد آجي أن بولارد طلب في الواقع طبع مزيد من الرسائل المنسقة في مركز الحاسب. كانت الوثائق جاهزة في اليوم ذاته إلا أن بولارد لم يتقدم لأخذها. وكان آجي يدرك بالطبع نموذج بولارد السابق لجمع الوثائق أيام الجمعة.

في ساعة متأخرة من ليلة الأربعاء بعد انصراف مناوب النهار أخلى آجي مكتب «أتاك» من موظفي الحراسة وكل الموجودين. طلب إليهم الذهاب إلى مكتب آخر بحجة تمكين ماك كولا ورجاله لمقاومة التجسس في مصلحة الاستقصاء البحري من تركيب آلتي تصوير ذات ثقب وجهاز ڤيديو مراقبة في السقف يمكنهما تصوير كل ما يدور حول مكتب بولارد. كان آجي الشخص الوحيد في أتاك الذي عرف بأمر الكاميرتين كما عرف بهما أيضاً بالطبع ماك كولا ورجاله.

يوم الخميس ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر ذهب آجي إلى مركز الحاسب لاستلام رزمة الوثائق المنسقة التي طلبها بولارد. أقفل عليها خزانة حيث لا يستطيع أحد الاهتداء إليها. وكان آجي يفترض أن بولارد سيأتي يوم الجمعة كالعادة بحثاً عن الرزمة ـ ولكن تكون ثمة أية رزمة. وهذا ما يمكّن رجال مصلحة الاستقصاء البحري ووكالة الاستخبارات الأميركية من مفاجأته للاستجواب يوم الإثنين التالي. وكان هدف آجي تأخير السطو يوم الجمعة حتى الأسبوع التالي عندما تكون وكالة الاستخبارات الأميركية مستعدة للمساعدة.

الواقع أن بولارد توجه إلى مركز الحاسب في وقت متأخر بعد ظهر الجمعة ـ وأُخبر بأن الرزمة غير موجودة هناك.

سأل الكاتب بحدة: «ماذا تعني بغير موجودة؟ لقد طلبتها يوم الأربعاء».
بحث الكاتب عنها في كل مكان حوله ولم يجدها.
اقترح عليه العودة يوم الأربعاء.

استشاط بولارد غضباً. قال في نفسه: «ما عساي أقول ليوسي؟». كان المفروض به وضع الوثائق في شقة إيريت في طريق عودته إلى البيت من العمل مساء ذلك اليوم، الجمعة.

ولكن مرة أخرى لم يضمر سوءاً في نفسه: اعتبرها مجرد ظاهرة لبيروقراطية الحكومة الرجراجة في العمل. وسلواه أنه سيترك هذا العمل قريباً إذ يخطط لأمور أوسع وأجدى.

على كلٍ، كان بولارد شديد الانفعال. وفي ذهنه أن آفي سيللا سيكون في واشنطون في نهاية الأسبوع ذاته وسيتناولان العشاء مساء السبت. لم يرَ آفي منذ الرحلة إلى إسرائيل في أواخر تموز/يوليو ومطلع آب/أغسطس. ثمة كثير من الأمور للتداول لا سيما الغارة الجوية ضد منظمة التحرير الفلسطينية في تونس. والمعلوم أن سيللا لعب دوراً يُذكر في العملية، وكان جد متلهف للحصول على كافة التفاصيل التقنية.

مساء ذلك اليوم، الجمعة، تناول بولارد وآن وصديق طعام العشاء في مطعم مراكش المختص بالمأكولات الشرقية. قال بولارد فيما بعد، إن رفيقهما إلى مائدة العشاء صديقه السعودي. ووفقاً لبيان حسابي حكومي لاحق، بلغت فاتورة العشاء ٢٤٨,٤٠ دولاراً سددتها آن بشيك شخصي، بما في ذلك مشروبان قبل العشاء وخمسة مشروبات بعد العشاء. وزجاجة شمبانيا دوم بيرينيون ثمنها ٩٥ دولاراً.

الفصل الثامن

الاعتقال

السبت ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥

كان أفييم سيللا قادماً إلى واشنطون مع زوجته يهوديت للاطلاع على سير عمل «مستخدَمه». كان سيللا في تورنتو حيث اجتمع إلى يهودي كندي مثرٍ جداً كان مستعداً للتبرع بمبلغ ضخم لإنشاء كنيس في قاعدة رامون الجوية في النقب. وكان ذلك المشروع المفضل لسيللا.

ورغم أن سيللا لم يعد «مدير» بولارد، إلا أنه كما يبدو، لم يزل جد مهتم بعملية التجسس. وبواسطته قدم بولارد معلومات قيمة لا تصدق إلى إسرائيل، وقد شعر سيللا بزهو شخصي إذ لعب دوراً بارزاً في إقامة العلاقة بمجملها. وخُيل إليه أن ذلك سيساعده في بناء نهجه الحياتي الذي كان متشامخاً قبل التقائه ببولارد بمدة طويلة.

كان سيللا قد خطط الكثير من الحرب الالكترونية التي عطلت البطاريات المضادة لصواريخ أرض ـ جو السورية في لبنان. وخلال حرب الاستنزاف الإسرائيلية ـ المصرية على طول قناة السويس في أوائل السبعينات أصبح سيللا أول طيار غربي قام فعلاً بتصوير البطاريات المضادة لصواريخ سام ـ ٦ سوفييتية الصنع. وقد قُدِمت تلك الصور القيّمة فوراً إلى استخبارات الجيش الأميركي. وفي إحدى المجابهات في ٣٠ تموز/يوليو ١٩٧٠ أسقط شخصياً مقاتلة ميغ ٢١ مصرية بقيادة طيار سوفييتي. كما نقلت المعلومات عن ذلك الاشتباك إلى سلاح الجو والقوات البحرية الأميركية. فلا غرابة إذا كان سيللا وجهاً شعبياً ومعروفاً بين ضباط الجيش الأميركي الذين قاموا بزيارة إسرائيل. وكثيراً ما كانوا يقصدونه للحصول على التعليمات.

والآن، فإن سيللا كان سابقاً قائد قاعدة رامون الجوية في النقب الّتي تولت الولايات المتحدة إنشاءها وتمويلها. وهو يشق طريقه بسرعة ليصبح قائد السلاح الجوي.

بيد أن ما شاهده سيللا في واشنطون في ذلك اليوم، السبت، البارد، أثار انفعاله. لقد زاد كثيراً وزن بولارد وزوجته. تناولوا طعام العشاء في «لاماريه» وهو مطعم جد مكلف، حيث أُعجِب

سيللا برئيس الندل الذي كان على ما يبدو يعرف بولارد بالاسم. وكان بولارد على ما يظهر ينعم بحياة الترف التي كان يهيؤها له مبلغ ٢,٥٠٠ دولار وهو مقدم الأتعاب الشهري من إسرائيل. وبينما كان الأربعة يتجاذبون أطراف الحديث ازداد انفعال سيللا لسماع مشاريع جمع المخابرات المتسمة بالمبالغة الحمقاء والتي أتى على ذكرها بولارد في الطريق كما حدثه عن علاقته بالسعودي.

أخذ سيللا يتساءل عما إذا كان يتوجب على إسرائيل إنهاء كامل العملية رغم المعلومات القيّمة جداً التي تم الحصول عليها. فقد يُثبت بولارد أنه متهور ومتقلب. زد على ذلك أنه قد لا يكون الشخص المناسب لمهمة التجسس.

ولكن قبل الوصول إلى تلك النتيجة أراد سيللا معرفة المزيد وخاصة عن حياة الزوجين بولارد. ثم إن يوسي ياغور الذي خلف سيللا كمدير لبولارد، ضايقه المحلل الشاب لاستخبارات القوات البحرية بشأن حاجته لشقة أكبر وأكثر أمناً في واشنطون. وأكد بولارد أن الشقة الحالية كانت جد صغيرة لنوع الضيافة اللازمة لإقامة أفضل اتصالات. وقد أعرب لياغور عن قلقه الشديد حول قدرته على الفرار من تلك الشقة في حال افتضاح العملية. وهو بحاجة إلى بيت أو شقة ذات «تعديلات خاصة» تمكنه من مغادرتها دون انكشاف أمره. فمثلاً لا بد من وجود باب مسحور لأغراض الفرار. وقال إنه يجب على الإسرائيليين إيجاد «متعهد مأمون» للقيام بالعمل. والواقع أن بولارد في الأيام الأخيرة، وصف لِياغور الشقة بأنها «شرك مميت». فللشقة نفسها مخرج واحد ـ البناية ليست أفضل حالاً. كان ثمة مخرجان أحدهما من المقدمة يؤدي إلى الشارع. والآخر خلفي يؤدي إلى ممشى. وذكر بولارد لياغور أن المراقبة على البناية كانت «أمراً سائغاً جداً».

كان قد طُلِب من الطيار التحقق من شكاوى بولارد. لذا كان من المهم أن يلقي نظرة فعلية على الشقة. وفي المطعم ظن سيللا تلك الليلة أن بولارد ربما كان مبالغاً في تصوير المخاطر. كان قلقاً على الجاسوس الإسرائيلي. ولكن تقديمه تقريراً إلى زملائه يستلزم مزيداً من الأدلة الواقعية.

وبينما كانوا يختمون عشاءهم بالقهوة والتحلية، اقترح سيللا القدوم مساء الإثنين وأن تتلطف آن بإعداد طعام العشاء له ولزوجته.

إلا أن بولارد اقترح أن يتناولوا العشاء مساء الإثنين خارج البيت ثم يعرجون عليه للتحلية.

وقد رحب سيللا بهذا الاقتراح.

ثم تناول بولارد ورقة الحساب للعشاء والمدام والمشروبات والبقشيش تلك الليلة فبلغت ٢٠٢,٠٢ دولار جرى إضافتها إلى قائمته لدى أميريكان أكسبريس.

الأحد ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥

كان من المفروض أن تكون عملية المقايضة مساء الأحد مماثلة للعمليات الكثيرة التي أجراها بولارد طيلة الأشهر العشرة الأخيرة.

قاد بولارد سيارته من شقته في جادة كونكتيكوت العليا إلى مجمع شقق ڤان نيس للاستعاضة عن المحفظة الملأى بالوثائق والتي فوّتها يوم الجمعة الماضي وكانت أيريت إيرب، السكرتيرة الشابة الجذابة في السفارة الإسرائيلية في واشنطون التي أقامت في البناية ذاتها، تتسلم الوثائق من بولارد مساء يوم الجمعة بينما كان بولارد في طريقه من العمل إلى البيت. وكانت تصور نسخ في الشقة الثانية التي اشتراها هارولد كاتز. ونظراً لمعدات النسخ الفوتوغرافي المعقدة التي ركبها الإسرائيليون في الشقة، كان لا بد من اتخاذ احتياطات أمنية خاصة. وكانت الشقة مزودة بجهاز «تمبست» الكتروني للوقاية لضمان عدم انبعاث شارات من المعدات في الداخل يمكن كشفها من الخارج. وأقصى ما كان يتوقعه الإسرائيليون هو صدور تذمر من جار من بعض التشويش على جهازه التلفزيوني.

كان بولارد ينقل الوثائق ثلاث مرات أسبوعياً. وحسب تعليمات الإسرائيليين له كان يأخذها إلى سيارته ويقودها إلى موقع لا يمكن ملاحظته فيه. مثل مكان غسيل السيارات في جادة كونكتيكوت العليا. وإذ كان يجتاز محطة غسل السيارات كان ينقل الوثائق إلى محفظة أوراق، تقدمة إسرائيلية، كان يحتفظ بها في السيارة لهذا الغرض. وكان جيران بولارد يعجبون بشدة محافظته على نظافة سيارته القديمة.

بعد استلام إيريت الوثائق مساء الجمعة كانت تصور نسخ في نهاية الأسبوع. كانت الآلات تعمل ساعات في آن واحد. وكان بولارد يأخذ النسخ الأصلية ويعيدها إلى ملفات الأمن القومي عادة أول شيء صباح الإثنين.

كان من العسير للغاية ـ إن لم يكن مستحيلاً ـ على بولارد استنساخ صور في مكتبه، ومن بين الأسباب أن بعض الوثائق كان صور استطلاع ضخمة لأقمار صناعية تتطلب معدات نسخ فوتوغرافي جد معقد ـ وهي المعدات المركبة في شقة كاتز. ولا يمكن نسخ الصور إلا بمقاطع يتوجب ضمها معاً فيما بعد. ولم يكن قد حصل على ذلك النوع من المعدات. على كلٍ، فإن الإسرائيليين كانوا يفضلون استخدام النسخ الأصلية حيث تتضاءل إمكانيات التزييف.

كانت هذه العملية في الأساس في غاية البساطة، يجمع بولارد الوثائق في مكتبه ويجلبها إلى الإسرائيليين. كانوا يقومون بتصوير نسخ ثم يعيدون النسخ الأصلية. لم يكن الأمر يتطلب نقاطاً دقيقة، أو مهارات زخرفية أو تحويلات غريبة. هذه في الواقع حسناتها. ولكن كان ثمة أيضاً سيئات. بيد أن سهولة الحصول على الوثائق «السرية للغاية» كانت عامل إغراء للحصول على المزيد منها. وطبيعي أن يتحول ذلك إلى طمع. وهذا ما تملّك بولارد ومديريه الإسرائيليين.

قال بولارد «إن المعلومات التي قدمها أكسبت إسرائيل نظرة في أعماق المستقبل. . . إذا كان المرء عالماً بما يخبئه المستقبل من تهديدات، يستطيع الحد من المال الذي يوظفه في البحث والتطوير مما يمكنه من التأهب لمجابهة تلك التهديدات».

استمر هذا الترتيب في فان نيس أشهراً سارياً بكل سهولة، ولكن الليلة لم يرد أحد على جرس الباب أو طرقه. وكانت إيريت على الدوام موضع ثقة ويقظة. ربما حدث طارىء استدعى غيابها.

أدار بولارد مقبض الباب. واستغرب إذ وجده مقفلاً، قرر الدخول. ولكن سرعان ما تبين له أن المغلاق السلسلي مشبوك والباب المعدني المجسم لا يفتح إلا بضع بوصات قبل أن توقفه السلسلة. لم يعرف بولارد ما الذي حدث. إذا لم يكن أحد في الداخل كيف يمكن أن تُشبك السلسلة؟ لم يكن ثمة طريق آخر لمغادرة الشقة الصغيرة. لا بد من وجود أحد هناك.

نادى: «إيريت. إيريت. إيريت».

تعالى صوته ولكن ما من مجيب. أحس بتسارع نبضه. وتراجع عن الباب. وأثناء مغادرته فان نيس بالسيارة عائداً ألى البيت بدأ يرتعش كمن أصيب بقشعريرة ثم أخذ يعرق. وأشعل سيجارة. كان من غير المحتمل أن تفوت عليه إيريت موعداً. ثم ماذا حدث للسلسلة؟ كانت تلك أول مرة يعترض فيها العملية عقبة.

في تلك الليلة، جلس بولارد وآن في حجرة جلوسهما الصغيرة. وقص عليها ما جرى. وقال بولارد وهو يتأمل نبات صبير اشتراه مؤخراً: «اسمعي. إذا حدث في وقت ما أن ناديتك واستعملت كلمة «صبير» بأية طريقة كانت، فمعنى ذلك أنني في مأزق. عليك أن تتناولي أية وثائق لدينا في البيت وتتخلصي منها».

كانت آن منذ البداية تعلم بتجسس بولارد لصالح إسرائيل حتى رغم التعليمات المشددة التي وجهها إليه مديروه الإسرائيليون بعدم إعلامها. وقالت فيما بعد: «كان جاي يؤكد لي طيلة سنين أهمية إسرائيل وبقاء الدولة وعدم استعداد الولايات المتحدة لأن تقدم لإسرائيل المعلومات التي لديها. وقد أعاق ذلك بيروقراطيون متوسطو المستوى إن لم نقل مسؤولين من المستوى العالي.

لم يستطع الزوج أو الزوجة النوم. وقد تحدثت إيريت فيما بعد بالهاتف معتذرة. وأوضحت أنها لم تستطع المجيء بنفسها لأنها كانت تستضيف صديقاً. وهكذا ثبت أن المسألة من ألاعيب القدر. وكشف بولارد فيما بعد: «أنها لم تكن دليل مشكلة. بيد أنها كانت على الأقل في المدى القصير، استراحة سعيدة بالنسبة لي». كان محقاً في ذعره. ولم يكن يعلم أن موظفي مصلحة الاستقصاء البحري ووكالة الاستخبارات الأميركية كانوا يضيقون الخناق عليه.

الاثنين ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥

سارت آن من شقتها إلى جادة كونكتيكوت فمكتب أميريكان اكسبريس في الجزء التجاري من واشنطون لتسديد الرصيد المتبقي في حسابهما. ناولت آن الصندوق شيكاً شخصياً بقيمة ٨٦,٠٦ دولارات و٢,٠٠٠ دولار نقداً كان ياغور قد أعطاه لبولارد في مغلف قبل أيام.

كان ماك كولا وآجي وموظفو وكالة الاستخبارات الأميركية على استعداد للقبض على بولارد

في ذلك اليوم. رغم عدم تأثرهم على الإطلاق من أنه سيجمع أولاً الوثائق التي هي بانتظاره في مركز المواصلات. وبالطبع كانت عمليات السطو تتم أيام الجمعة. فهل تراه يأتي اليوم لأخذها؟

أخرجت الرزمة من الخزانة وأعيدت إلى مركز الحاسب. وبناء لتعليمات آجي اتصل كاتب ببولارد لإعلامه أنها جاهزة للاستلام. والواقع أنه وكاتبين آخرين اتصلوا ببولارد ثلاث مرات ـ مرة في الصباح الباكر ثم في ساعة مبكرة بعد الظهر وأخيراً في وقت متأخر بعد الظهر.

أما بولارد الذي هزه غياب إيريت، فلم تهدأ ثائرته بعد. وكان يعتزم تناول طعام العشاء في ذلك المساء مع سيللا الذي سيكون جد ممتن للمعلومات التي تتضمنها الرزمة الأخيرة.

توجه لجلب الرزمة في الساعة الرابعة بعد الظهر وأعادها إلى مكتبه. كان آجي وماك كولا وموظفون آخرون من وكالة الاستخبارات الأميركية يرقبون بلهفة عبر كاميرات الڤيديو المخفية في السقف. شاهدوا بولارد ـ ظاهرياً رابط الجأش ورصيناً ـ يفتح الرزمة ويُلقي الغلاف جانباً ويتصفح الوثائق. احتفظ بالصفحات التي أراد ورمى الأخرى في كيس المحروقات. ثم طوى الأوراق ووضعها في أدراج مكتبه. وبدا كما لو أنه قام بهذا الروتين عدة مرات.

عندئذٍ رأوا بولارد يفتح درج المكتب الآخر. ثم فتحه بالكامل. سأل آجي: «ما الذي يفعله هذا الشيطان الآن؟».

في المؤخرة تناول بولارد قصاصة ورق مطوية. فتحها وتأملها بدقة قبل طيها وإعادتها إلى الدرج.

قال آجي للآخرين في الغرفة: «تلك قائمة تبضعه. إنه يحاول استذكار شيء ما».

فيما بعد اكتشفت مصلحة الاستقصاء البحري ووكالة الاستخبارات الأميركية عدة قصاصات ورق صغيرة مخبأة في مكتبه تحتوي على قوائم الوثائق التي كان يؤمر بالحصول عليها. وكان للملاحظات أرقام دقيقة وأسماء الوثائق المنسقة ـ وعليها رموز فريدة بما في ذلك تسلسل مميز لكلمات الكود. لم يكن ثمة خلاف على أنه كان يُطلب من بولارد جلب تلك الوثائق المعينة. فالكتابة على الورقة كانت من خط يده.

والواقع أن هذا النوع من التكليف أقنع فيما بعد سلطات وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات الأميركية بأنه لا بد من وجود جاسوس آخر للإسرائيليين كان يعمل داخل جهاز استخبارات الولايات المتحدة ـ «شخص مجهول» كان يبلغ الإسرائيليين أية وثائق يراد الحصول عليها. وقد اشتبهوا في أن هذا الجاسوس الثاني كان ذا مقام رفيع جداً لا يُسمح له فعلاً بجمع هذه الأصناف من الوثائق بنفسه

حينئذٍ وضع بولارد الرسائل في محفظته وأقفل عليها. ثم تلفن لآن قائلاً: «أنا ذاهب إلى البيت. إني أغادر المكتب الآن». كان تواقاً لرؤية سيللا ثانية.

بعد إنهاء المكالمة التلفونية سوّى مكتبه وجال ببصره حول المكتب وسار على بركة الله. نزل إلى الردهة الرئيسية وخرج من البناية الرئيسية، ماراً بالحرس. ألقى عليهم تحية المساء مبتسماً. لم يوقفه أحد. كان موظفو وكالة الاستخبارات الأميركية ومصلحة الاستقصاء البحري يحومون قرب النوافذ يرقبون خروجه. وصل إلى سيارته حوالى الخامسة مساءً حيث كان في الانتظار حمولة أربع شاحنات من موظفي وكالة الاستخبارات الأميركية ومصلحة الاستخبارات البحرية يرتدون بذلات العمل.

جلس بولارد في مقعد القيادة. وإذ ذاك تقدم إلى النافذة موظف مصلحة الاستقصاء البحري وكان يعرف بولارد، وطلب إليه النزول.

قال: «جاي، هل تتفضل بالنزول من السيارة ومرافقتنا إلى داخل البناية؟»

سرعان ما أدرك بولارد بالطبع أن في الأكمة شيئاً غير مرض جداً. تملكه شعورٌ مغثٍ في بطنه. وقال في نفسه: «رباه! إنني في حرج شديد».

حتى ذلك الحين لم يدرِ ما هو مخبأ له. أدرك أن عليه الحفاظ على رباطة جأشه. وكممثل مُجيد تظاهر بالمفاجأة التامة. لم يشأ أن يُظهر الانزعاج بأي شكل كان.

سأل: «ما معنى ذلك؟»

«هناك بعض الاستيضاحات نود توجيهها إليك، والأسهل أن نقدمها داخل البناية».

شعر أن قلبه ينهار. ولم يسعه إلا الموافقة. كانت نفسه تحدثه بأن هذه هي بداية النهاية.

سأل: «هل أنا قيد الاعتقال أو ما شابه؟»

طُلب إليه مجرد الإجابة عن بعض الأسئلة ففعل.

ذكرت الحكومة فيما بعد في المستندات المسجلة لدى المحكمة «أن بولارد أذعن عن طيب خاطر. ولكنه سرعان ما اتضح أن قصده كان تحويل أنظار الموظفين والتحايل عليهم عوضاً عن مساعدتهم في جهودهم لاسترداد الوثائق المنسقة التي فضحها».

في ذلك الوقت ظل بولارد مقتنعاً بأنه ما زال بمقدوره إطالة التحايل على السلطات إلى أن يدبر هربه. وكان ينتظر بدهاء ارتياب الموظفين في تورط دولة أجنبية ويسمحون له بالبقاء طليقاً آملاً في أن الرقابة قد ترشد الموظفين إلى المتسلمين الحقيقيين للوثائق المنسقة.

كان في المكتب المختار موظفان من وكالة الاستخبارات الأميركية وموظفان من مصلحة الاستقصاء البحري، سألوا بولارد بأدب ولكن بحزم عن الرزمة التي كان ينقلها. إذ إنها كانت، وفقاً للحكومة، مماثلة للنوع الذي تستخدمه مصلحة الاستخبارات البحرية للف المواد المنسقة.

طوال القسم المبكر من تلك المقابلة الأولى أصر بولارد على أنه كان فقط ينقل الرزمة إلى اجتماع لمكتب مأمون آخر للقوات البحرية ضمن ذات المجمع في سويتلاند، ماريلاند، وقال إنه أراد تسليمها إلى محلل آخر. وقد احتوت الرزمة، وفقاً للحكومة، على ستين وثيقة كان عشرون منها منسقاً وسرياً للغاية أو أهم.

قال بولارد: «أعرف أنه كان يتوجب عليّ عدم إخراجها من المكتب في هذا الوقت المتأخر من النهار. ولكني كنت أفعل ذلك على الدوام. فأية غضاضة في ذلك؟». وأعلن براءته التامة من ارتكاب أي ذنب جدي.

في هذه الأثناء كان جيري آجي في الطابق العلوي يتفحص كل شيء في مكتب بولارد وحوله. وأوضح فيما بعد. «كنا نُجرد كل شيء». كان مهتماً بوجه خاص بالحصول على أسماء وأرقام الهاتف.

وكلما صعد أحد الموظفين الذين يستجوبون بولارد لينقل ما كان يقوله، كان آجي ـ حسب تعبيره ـ «يضع حداً لتخرصاته». وظل آجي على إصراره بأن أقوال بولارد مجرد كذب.

كان مقرراً أن يتناول الزوجان بولارد طعام العشاء عند «السيدك». وهو مطعم صيني جد مكلف وممتاز في شارع ك. في واشنطون مع الزوجين سيللا. وبالطبع تحدث بولارد هاتفياً مع زوجته قبيل الساعة الخامسة ليقول إنه مغادر المكتب. وقال إنه سيكون في البيت حوالى الخامسة والنصف.

عند الساعة السابعة تملّك آن قلق شديد. لم يكن محتملاً أن لا يتلفن زوجها على الأقل ليقول إنه سيتأخر.

قالت فيما بعد. «لم يسبق قط أن واجهنا جاي وأنا مشكلة من هذا القبيل. كان بعض الفتيان يدعون جاي للقاء خارج المنزل فيقول: «حسناً، سأحُضر آن»، أو أن تدعوني بعض الفتيات لموعد مماثل وأقول: «حسناً سأحضر جاي». لم نكن ننفرد في الخروج. لم نكن نقوم أبداً بزيارات ليلية للفتيان أو للفتيات فحسب أو ما شابه، وعندما كان جاي يقول سأعود إلى البيت بعد نصف ساعة، كان يعود في هذا الموعد المحدد.

كذلك كانت آن تعرف لهفة زوجها لتناول طعام العشاء مع الزوجين سيللا، وتحرقه لرؤية سيللا. في هذه الأثناء أصبح جاي يحب آفي كأخ أكبر. وكشفت فيما بعد: «إنه كان في اعتقاده إنساناً متقد الذكاء، كريماً ومحباً وفي منتهى اللطف». «أنت تعلم كيف تتعلق فوراً بشخص آخر. كان هذا شعوره نحوه». لقد وجد جاي في آڤي إنساناً يقدّر ويبحث الأمور التي تهمه بدءاً بالتخطيط الاستراتيجي لإسرائيل إلى المجزرة البشرية، كانا روحين متجانستين.

طلبت مكتب زوجها بالهاتف تكراراً. وأُخبرت أنه ترك الساعة الخامسة ب. ظ.

ذكرت «كانت الساعة السادسة وأنا محطمة الأعصاب». قالوا إنه ترك الساعة الخامسة. «خِلت أنه تعرض لحادث سيارة. لم أعرف ما كان يجري».

أخيراً وحوالى السابعة والنصف ب.ظ. تلفن بولارد. في ذلك الوقت، زود الموظفين باسم محلل آخر في القوات البحرية زعم أنه كان يتلقى الوثائق. وبينما حاول موظفو وكالة الاستخبارات الأميركية ومصلحة الاستقصاء البحري الاهتداء إلى ذلك المحلل والتثبت من رواية بولارد، سأل بولارد ما إذا كان باستطاعته التحدث بالهاتف إلى زوجته ليعلمها أنه سيتأخر في العمل. ونظراً لأنه لم يكن آنئذٍ قيد الاعتقال لم يمانع الموظفون.

ذكرت آن أن صوته كان منفعلاً. وقالت: «لم يكن كعادته». قال معللاً تأخره في العمل: «اذهبي لرؤية أصدقائنا. وخذي ألبوم حفلة الزواج واعطيهم صبيرتنا وابلغيهم محبتي». سألت في حيرة: عم تتحدث؟ قلت إنك قادم إلى البيت».
ـ «سمعتُ ما قلتِ»

وكرر الإشارة إلى الصبّير وألبوم حفلة الزواج.

عندئذٍ أدركت أن الأمور أفلت زمامها. لقد صعقت بالطبع لسماع الإشارة إلى الصبيّر بعد يوم فقط من حديثهما عن كلمة الكود.

سألت في محاولة سريعة لاسترداد هدوئها:

«هل تريد حقاً أن أهديها؟» حاولت أن تخفي ذعرها وارتابت في أن تكون المكالمة مراقبة. «لقد أضعت وقتاً كثيراً للحصول عليها».

حاول بولارد أيضاً جعل صوته طبيعياً ما أمكن. وأخبرها أنه من الضروري للغاية إعطاء الصبّير لأصدقائهما. وقال مختتماً المكالمة: «سأكون في البيت حالاً».

بعد عشر دقائق أجرى مكالمة ثانية مع آن. كرر الإشارة إلى الصبّير وأضاف بوجوب أن تأخذ أيضاً ألبوم حفل زواجهما إلى جيرانهما. وكانت آن تعلم أن بعض الوثائق المنسقة خُبئت في الألبوم بما في ذلك تلك المتعلقة بالسفارة الصينية. وكان بولارد على ثقة من أن آن ستتخلص من الوثائق المنسقة المبعثرة حول الشقة ثم تحذر سيللا.

بعد المكالمات التي كانت في الواقع مراقبة من قبل وكالة الاستخبارات الأميركية وافق بولارد على مزيد من الاستجواب. وأخبره الموظفون أنهم اهتدوا في النهاية إلى المستخدم الآخر في القوات البحرية، وقد نفى أية خطط للاجتماع ببولارد أو استلام وثائق منه. إلا أن بولارد أصر على إنكاره هو بأنه نقل الوثائق لغرض غير مصرح به. ووفقاً لمحققي الحكومة زعم أنه لم يأخذ إطلاقاً وثائق منسقة إلى أية مواقع غير مرخصة ولكنهم أدركوا أن رواية بولارد كانت تنهار.

بعد تداعي الرواية حول المستخدم الآخر قال بولارد إنه أعطى بعض الوثائق المنسقة إلى كورت لوبيك، صديقه الصحفي المستقل الذي كان قد سافر إلى أفغانستان للكتابة عن مقاتلي الحرية الذين يقاومون الاحتلال العسكري السوڤييتي. وقد وصف بولارد فيما بعد لوبيك بأنه «حلقة اتصال معترف به» مع المجاهدين أو مقاتلي الحرية الأفغان. وقد أمل بولارد بإثارته موضوع أفغانستان صرف أنظار مستجوبيه عن إسرائيل.

قال آجي فيمابعد: «لقد قام جاي بخداع رجل المخابرات التقليدي. إذا قبض عليك، لا تقل شيئاً في الحال. حاول التخلص واعطهم طرف الخيط. وأثِرْ قدراً كبيراً من الدخان. وإذا استطاعوا في النهاية تلمس طريقهم عبره واكتشفوا الحقيقة، أثِرْ مزيداً من الدخان وقليلاً من الحقيقة. وهذا ما كان يفعله. كان يعرف ما يفعل. وكنا آنئذٍ ندور في كثير من الحلقات المفرغة».

حوالى الساعة العاشرة مساءً كان مخبرو وكالة الاستخبارات الأميركية ومصلحة الاستقصاء البحري ينتهون من جمع الخيوط للبدء بمناقشة بولارد حولها. الكل ضاق ذرعاً. فمن ساعة ما ألقوا القبض عليه. أدركوا أن الطريق الآخر أمامهم هو إطلاق سراحه. في ذلك الوقت لم يكن لديهم أدلة كافية للقبض عليه ـ ما عدا علمهم بوجود مخالفة مريعة. لا بد من إيجاد الذريعة لتقرير خطوتهم التالية. دعوا آجي إلى الطابق العلوي، وطلبوا منه المجيء إلى المكتب لمناقشة بولارد.

جلس آجي في مقعد أحد المخبرين وهو مُحبط يتميز غيظاً. وجابه بولارد مباشرة دونما خجل. سأل بغضب: «ما الذي يجري؟».

أجاب بولارد وهو يعلن البراءة: «لست أدري. لا أعرف ما يدور في خلدهم. كل ما فعلته الخروج بالمادة إلى الشارع».

قال آجي: «جاي، هذا كذب صريح إنك لم تأخذ تلك المادة إلى الشارع. إنك تفعل بها شيئاً آخر. ما الذي تفعله يا جاي؟»

«لا أدري عم تتحدث. لا أدري لماذا تستمر في اتهامي بشيء ما».

اتهم آجي بولارد قطعاً بالتجسس ـ الأمر الذي نفاه بولارد.

كان آجي قد جمع سابقاً كافة بطاقات بولارد وشعاراته الخاصة بدائرة المخابرات. وأعطاه كتاباً سبق إعداده يوقفه عن عمله حتى انتهاء التحقيق. كما سُحب مؤقتاً سائر تصاريح بولارد الأمنية. وأوضح آجي قائلاً: «لم نقصد اعتقاله في ذلك الوقت ولكننا لم نشأ حصوله على أي شيء».

كان مخبرو وكالة الاستخبارات الأميركية ومصلحة الاستقصاء البحري متساهلين في استجوابهم،لم يريدوا أن يجعلوا بولارد غير منطقي أكثر مما ينبغي لأنهم كانوا يخشون أن ينتصب واقفاً ويذهب ـ إذ كان بمقدوره أن يفعل ذلك. ولكن آجي كان غير ذلك. سرعان ما أصبح معادياً

في استجوابه، لدرجة أن المستجوبين الآخيرين في وكالة الاستخبارات الأميركية ومصلحة الاستخبارات البحرية اضطُروا في النهاية إلى إخراجه من الغرفة من جراء غضبه.

ذكر آجي فيما بعد: «كنت أهز القارب».

إلا أن الأسلوب الجاف صير بولارد حقاً على ما يبدو أكثر انفعالاً وجعله يزداد كلاماً، وفقاً لآجي والمخبرين الآخرين المشتركين في التحقيق.

قال آجي: «في كل مرة اتهمته بشيء كان يسهب في تفنيد عدم صحة ذلك الاتهام».

طلب المخبرون موافقة بولارد على تفتيش شقته إلا أنه رفض مبدئياً معللاً أنه كان قلقاً لأنهم قد يعثرون على مقادير ضئيلة من الحشيش المخدر.

قال مخبر «لا يهمنا إذا كنت تتعاطى الحشيش».

ثم أوضح بولارد أن زوجته كانت متوعكة الصحة.

قال: «لم أفعل شيئاً غير مناسب، ولا أدري مبرراً لتفتيش شقتي».

كان يعتريهم مشاعر الخيبة، أثناء مضيهم في مقابلتهم، لتلقيهم ما اعتبروه تعليلات غير محتملة لنقل الوثائق المنسقة. كانوا يعلمون كذب بولارد. إلا أنهم لم يكونوا متأكدين حول الطبيعة الكاملة لنشاطاته ومداها.

كلما استمرت المقابلة. كانت شكوك المخبرين تتزايد، وبعد ست ساعات من الاستجواب أعلموا بولارد في النهاية أنهم بدأوا يسعون للحصول على أمر بتفتيش الشقة. قال آجي فيما بعد: «كان ذلك هدفهم الصحيح. شعروا أن ما في جعبته موجود على الأرجح في شقته. رغم جهلهم لكميته».

لدى إرسال مخبرين آخرين لاستجواب بولارد كانوا يحاولون إرهاقه. أرادوا أن يظل مسترسلاً في الكلام بينما يحتفظون هم بنشاطهم، قال آجي: «كان أحمقاً ومتغطرساً بحيث اعتقد أن بإمكانه الكلام حسبما يشاء ويحتكره لنفسه. كل ما كان يفعله الإصرار على موقفه ورفضه التزحزح قيد أنملة. كان المقصود إفساح المجال له للكلام».

لقد نجح تكتيكهم. فحوالى الساعة ١١,٣٠ مساء وافق بولارد آخر الأمر على التفتيش المسموح، وافترض أن آن قامت حينئذٍ «بترتيب» المكان.

مضى الجميع بسياراتهم إلى شقته. وقد ارتاح بولارد إذ وجد أن آن لم تكن في البيت عند وصوله والمخبرين. كان واثقاً من أنها نقلت الوثائق المنسقة وكان الوقت يقارب منتصف الليل.

قالت آن فيما بعد: ما إن سمعت كلمة «صبّير» حتى أدركت حدوث شيء مكروه. قمت

بجمع الوثائق في البيت ـ كل الوثائق ـ وتملكني الانفعال.

شهد يوجين نولت كامبر، مخبر وكالة الاستخبارات الأميركية فيما بعد أن سِمك الوثائق المكدسة يبلغ من خمس عشرة إلى ثماني عشرة بوصة. وكثير منها مصنفة «سري للغاية». ووفقاً لنولت كامبر «كان ذلك بادياً على الصفحة الأولى ثم على كل صفحة». وكانت الوثائق تتعلق بأسلحة الولايات المتحدة وقدراتها العسكرية.

كانت آن حائرة فيما عساها تفعل بالوثائق. كانت تخشى إحراقها أو غسلها بدفق الماء إذ ربما تحتاجها إسرائيل أو جاي. بدلاً من ذلك، وضعتها في حقيبة احتوت أيضاً على زوج أحذية نسائي، ومغلفاً بداخله صور حفلة زواج وكيساً بلاستيكياً صغيراً يحتوي على شريط آلة كاتبة قُصت أجزاء منه قطعاً صغيرة. وأخذت تسير خارج مبنى الشقة في الشارع العشرين رقم ١٧٣٣ ش.غ. وعندها وقع بصرها في الخارج على عدة سيارات غير موسومة تابعة لوكالة الاستخبارات الأميركية ومصلحة الاستقصاء البحري ومحركاتها تدور. كانت السيارات متوقفة في نسق مزدوج. وهي من نوع فورد ودودج كبيرة الحجم ألوانها أزرق غامق أو بني أو أسود ذات أطر سوداء الجدار، وبداخل كل سيارة رجلان. وكان في مؤخرة السيارة هوائيان إضافيان. واستطردت: «استطعت تمييزها إذ سبق أن دلني جاي عليها».

«استطعت سماع أصوات الراديو فيها منطلقة يميناً ويساراً. جلست هناك في جو شديد البرودة وفرائصي ترتعد خوفاً. حرت ما عساني أفعل».

بعد استعادتها بعض هدوئها أخفت الحقيبة في بيت سُلّم الطابق السفلي وتوجهت إلى شقة جيرانها الملاصقة الزوجين كرستين وباباك اصفندياري وكانا صديقين حميمين. قالت آن: «ذهبت إليهما نتيجة اليأس، ورجوتهما المساعدة. وقد أدركت ضرورة إخراج تلك الحقيبة».

أخبرتهما عن حاجتها للمساعدة بنقل مادة ثقيلة، حقيبة، من البناية. لم يعيرا الموضوع كبير اهتمام في بادىء الأمر، واقترحا على آن الجلوس وتناول مشروب معهما. وظلت كرستين تسأل: «لم لا تجلسين وتحتسين مشروباً؟» أجابت آن وقد نفذ صبرها: «لا أريد مشروباً. كل ما أريده أن تتفضلا وتحضرا لي هذه الحقيبة». وتوسلت إليهما نحو خمس عشرة دقيقة.

أخيراً، عندما أخبرتهما عن قلقها لأن شيئاً ما قد حصل لجاي، وافقا على المساعدة. وأعلمتهما أنها كانت قد طلبت من جاي الحصول على معلومات من السفارة الصينية. كانت آن تعد مع شريكي عمل آخرين، اقتراحاً للقيام بعمل للسفارة في حقل العلاقات العامة. كانوا يقدمون عطاء في عقد للقيام «بتدريب وسطاء» للدبلوماسيين الصينيين. وقالت إن الحقيبة حوت وثائق منسقة وذكرت أنها اعتزمت إتلاف الوثائق إذا استطاعت إخراج الحقيبة من البناية.

وافق الزوج باباك على المساعدة. طلبت إليه إحضار الحقيبة إلى فندق الفصول الأربعة

الممتاز في جورجتاون على بعد ميل أو ميلين. ويلتقيان في الردهة. وحثته على سلوك طريق غير مباشر للوصول إلى هناك.

ومع أنها لم تتدرب أبداً على تجنب المراقبة، فقد انسلت خارجِ مؤخر البناية عبر الممشى إلى شارع «ر». وذكرت: «سرت حول المجمع». وخُيل إليها أنها ملاحَقَة.

قالت فيما بعد: «أود أن أوضح أمراً واحداً على نحو كامل. «أنا لست جاسوسة. لم أكن أبداً جاسوسة. لم أتدرب على أساليب الجاسوسية أو ما شابه».

ولكن إذا كانت آن ملاحقة، فقد حاولت الفرار بمهارة. في وقت ما، سارت نحو الباب الأمامي لمتجر وخرجت من المؤخرة. ثم اجتازت أزقة قبل الوصول إلى جادة بنسلڤانيا حيث نادت تاكسي، قالت: «طلبت منه نقلي إلى مكان واحد ثم ذهبنا إلى عدة أماكن». وأخيراً أنزلها في زاوية شارع حيث قطعت عدة عمارات وصولاً إلى فندق الفصول الأربعة. ظلت تدقق للتأكد من أنها لم تكن ملاحقة.

قالت: «دخلت مرآب الوقوف. لم أدرِ ماذا أفعل. كنت مذعورة. كل ما عرفته هو أن زوجي في مأزق، وطلب مني القيام بذلك، كان لزاماً عليّ مساعدته. لو طلب مني القفز من فوق جسر بروكلين لما ترددت. أدركت أن جاي كان في هم مريع».

ولكن باباك لم يكن هناك. تلفتت لكرستين وأُخبِرت أنه لا بد أن يكون قد وصل إلى هناك. ولكنها لم تعثر عليه. ونظراً لأن وصولها إلى الفندق استغرق وقتاً طويلاً يبدو أنه جاء وقفل راجعاً - ومعه الحقيبة. استولى عليها الفزع. «بحثت في كل مكان. لم أجده. لم أعثر عليه أبداً».

أخيراً توجهت إلى تلفون عمومي في الردهة السفلى من الفندق. وطلبت آڤي سيللا في فندق هوليدي إن في ضاحية بيت سيدا، ماريلاند حيث كان يقيم هو وزوجته. كانا جالسين يشاهدان التلفزيون ينتظران بأناة سماع أخبار الزوجين بولارد. اتصل آڤي بشقة بولارد وما من مجيب. كان قلقه في ازدياد حول الوثوق ببولارد. الوقت التاسعة والنصف، بعد ساعتين من الموعد المتفق عليه لتناول العشاء في «السيدك».

قالت آن بصوت ينم عن خوفها وهلعها إنه حدث في آخر لحظة تبديل في المواعيد. أرادت مقابلة سيللا على انفراد في مطعم أودونيل للسمك في أعلى الشارع الذي فيه فندقهما. قالت إنه يتعذر عليها الكلام على التلفون وستصل خلال عشرين دقيقة.

استقلت آن تاكسي إلى المطعم. كانت الساعة ١٠,١٥ وسيللا ينتظر في كشك منزوٍ.

قالت وهي تنتقي الكلمات وتدخن باستمرار: «إن جاي في مأزق خطر». لم يكن مفروضاً أن تعرف عن نشاطاته التجسسية. وذكرت فيما بعد: «تطرقت إلى الموضوع من أطرافه».

أخبرت سيللا بإيجاز: «لقد طلب مني إزالة بعض المواد من الشقة ـ وهي مواد لم يكن من المتوجب وجودها في الشقة. «آفي، يجب أن تساعد. أرجوك مساعدة جاي. إنه في بلاء رهيب، رهيب».

نظرت في عينيه. كانت يداها ترتعشان وشفتاها ترتجفان، وكادت تختنق عندما شعرت أن سيللا لم يكن مستجيباً. وأجهشت في البكاء.

أما سيللا الذي كان منفعلاً جداً منذ مواجهة ليلة السبت، فقد بدأ يفترض حقيقة وجود أسوأ الاحتمالات ـ افتضاح أمر بولارد. والعملية برمتها كانت على وشك الانهيار. بل أخذ يساوره الخوف من أن تكون آن قد نصبت له فخاً. وارتاب في أنها ربما كانت «موصولة بسلك» كجزء من عملية تحرش من قبل وزارة العدل ضده.

قال ببرود وهو يترك المائدة: «أريد إجراء مكالمة».

تحدث سيللا من تلفون عمومي مع ياغور المدير الأول لبولارد في نيويورك. ونقل إليه ما حدث تلك الليلة وماهية الترتيبات لفراره.

ارتاح سيللا إذ علم أنه لم يكن ثمة خطط طوارىء كهذه، وأن لا علم لياغور على الأقل بوجود أي منها. ورغم مكانة إسرائيل المرموقة لحيازتها أكثر أجهزة الاستخبارات فعالية في العالم، لم يرسم أحد خطة فرار للزوجين بولارد وغيرهما من رجال المباحث المشتركين. وقد نُصح سيللا بمغادرته البلاد فوراً. وقال ياغور: «الأفضل أن تفر من هناك».

كان ياغور وبولارد قد أقاما، على مر الشهور، علاقات وطيدة جداً قائمة على الثقة المتبادلة. لقد أحب ياغور بولارد حباً صادقاً وأعجب به أيما إعجاب. كان شديد الامتنان لما كان يؤديه الأميركي من أجل إسرائيل، وقبيل اختتام المحادثة أكد لسيللا بقوة أنه بالإمكان الوثوق ببولارد وأصر على أن بولارد مخبر وفي. وقال ياغور بحزم: «إنه واحد منا. وثقتي به تامة. فكن مطمئناً من ناحيته».

بعد خمس دقائق عاد سيللا إلى المائدة ممتقع الوجه. أدرك أنه أضحى الآن وحيداً في الميدان. ولا بد من فراره بأسرع ما يمكن. لم يكن لديه حصانة دبلوماسية. ولا زوجته التي كانت لا تزال تشاهد التلفزيون في الفندق.

أحست آن باستعادتها بعض الطمأنينة لدى عودته من التلفون. وذكرت فيما بعد: «أقسم آفي أنه سيفعل كل ما في طاقته لمساعدتنا».

تكلم بثقة وجرأة. قال: «كل شيء سيصبح على ما يرام لا تقلقي. سنهتم بكل شيء. هدئي من روعك».

زود آن برقم هاتف ياغور في نيويورك وتعليمات لبولارد كي يتصل هاتفياً بياغور فيما بعد تلك الليلة. ولم يسبق لبولارد أن تلقى ذلك الرقم غير المدرج على القائمة. وقبل أن ترك سيللا المطعم سأل آن إذا كانت ترغب في مرافقته.

قالت بهرع: «لن أترك زوجي. لا أستطيع».

أمر الطيار آن بأن لا تفشي لأي كان أنهما تقابلا في وقت ما. قال وهو يتناول يدها ويضغط عليها: «أنت لا تعرفينني. لم تقابليني أبداً. لم تسمعي باسمي قط».

«أومأت برأسها موافقة» وقالت: «حسناً».

وعد بأن يتلفن فيما بعد ذلك المساء ليرى إذا كان بولارد قد وصل إلى البيت وإذا كان حقاً في مشكلة. طلب أن تنتظر في الفندق حتى منتصف الليل قبل الذهاب. وهذا هو الوقت الضروري لسيللا لرسم فراره بالذات من الولايات المتحدة. قالت آن فيما بعد: علمت آنئذٍ إن ذلك كان وقت فراره، وكانت آخر مرة سمعت فيها صوت آفي.

كانت حركة المرور خفيفة في جادة وسكنس عندما عاد سيللا سيراً إلى فندقه الذي كان يبعد مسافة مجمع. أمعن النظر في السيارات القليلة في الشارع المزدحم عادة؛ متلهفاً لمعرفة ما إذا كان أحد يلاحق آن إلى المطعم. لم يعثر على شيء مريب. كانت السيارات المتوقفة خالية ـ ولم يكن ثمة أي مشاة على الرصيف. كان جل همه أن لا يكون ملاحقاً إلى الفندق. سار الهوينا وكان يتوقف عرضاً للالتفات ـ بسرعة ـ للتأكد من أنه كان وحيداً. وعندما وصل الردهة أيقن أنه كان كذلك.

فتح باب المصعد. شعر كما لو كان في رحلة بلا نهاية.

أخيراً دخل الغرفة وأخبر زوجته أن لا بد من مغادرتهما الولايات المتحدة فوراً. وشرح لها ما حصل. كان يبدو عليها الغضب والذعر. وسرعان ما حزما أمتعتهما وغادرا الغرفة. سأل موظف الاستقبال عندما توجها لتسديد حسابهما: «هل: هل من شيء غير مناسب؟»

أجاب سيللا: لا، حدث مجرد تغيير في خططنا.

أدركا أنه يجب عليهما مغادرة البلاد بأسرع ما يمكن. ولكن الوقت كان متأخراً حينئذ للحاق بطائرة مقلعة من واشنطون. ولم يكن ثمة طائرات صباحية مقلعة إلى أوروبا أيضاً من مطار دوليس الدولي في واشنطون. ولم يكن أمامهما مفر من الذهاب إلى نيويورك. وقد حاولا بمساعدة مسؤولين في السفارة الإسرائيلية استئجار سيارة في ذلك الوقت المتأخر تلك الليلة. ثم قادا السيارة إلى مطار جون ف. كنيدي في نيويورك حيث انتظرا لركوب أول طائرة تغادر البلاد في الصباح المبكر جداً من اليوم التالي ـ طائرة إلى لندن.

دخل سيللا الولايات المتحدة من كندا بجواز سفره الإسرائيلي القانوني مستخدماً اسمه

الحقيقي، ولكنه غادر البلاد بجواز سفر إسرائيلي مغاير منتحلاً اسماً مستعاراً وقد خشي أن يكون رجال مباحث الولايات المتحدة قد نُبهوا آنئذٍ لإلقاء القبض عليه. كان محطم الأعصاب. والواقع أنه بعد سنوات من الإقلاع عن التدخين استأنف العادة في تلك الليلة الليلاء.

لدى الوصول إلى لندن تنفس الصعداء. وقال في نفسه: إنه أصبح طليقاً. وفيما بعد أسر إلى أصدقائه أن تلك المحنة في واشنطون كانت أشد الليالي رعباً في حياته ـ وياله من تصريح مِمَّن كان يجابه طياري المقاتلات السوڤييتية وجهاً لوجه.

كان الوقت بُعيد منتصف الليل عندما عادت آن إلى شقتها. وكان جاي آنئذٍ في البيت. ولكن ليس وحيداً، إذ كان البيت مطوقاً من قبل مخبري وكالة الاستخبارات الأميركية ومصلحة الاستقصاء البحري. كانوا يفتشون بتؤدة الخزانات والأدراج والكتب وكل شيء. قالت فيما بعد: «كان بيتي ممزقاً أشلاء».

وفقاً لمحققي الحكومة. كشف الاستقصاء عن سبع وخمسين وثيقة منسقة مخبوءة في صندوق وتحت بعض الملابس النسائية في حجرة النوم الرئيسية وقد عجزت آن عن تعبئتها في الحقيبة بسبب هلعها. ووفقاً للحكومة ضمت الوثائق بعض التنسيق السري للغاية وقد شرحت تحليل الولايات المتحدة لأنظمة الأسلحة والقدرات العسكرية للاتحاد السوڤييتي والعديد من الأقطار العربية.

وفقاً لوثائق المحكمة «تظاهر بالدهشة عندما جوبه بالوثائق». وتعليله الوحيد هو أنه أتى بها بلا ريب إلى البيت لمتابعة عمله وأنه نسي فيما بعد إعادتها إلى المكتب.

وبينما كان المخبرون في زحمة تفتيشهم تحدث سيللا كما وعد. من تلفون عمومي، وقد ردت آن على المكالمة. سأل، دون تعريف نفسه، «هل كل شيء على ما يرام؟» وبالطبع مَيَّزَت صوته.

أجابت مؤكدة «لا. على الإطلاق».

قال مُنهياً المحادثة بسرعة: «فهمت. إلى اللقاء».

تلفن سيللا إلى ياغور ناقلاً إليه الأخبار السيئة. وخلال دقائق كان ياغور على الهاتف مع رافي إيتان في تل أبيب.

ونظراً لأن حيازة بولارد للوثائق المنسقة في بيته على الأقل خرقاً للأنظمة الأمنية للقوات البحرية، طُلِبَ إليه الحضور إلى مكاتب مصلحة الاستقصاء البحري في اليوم التالي لفحص كلي بمكشاف الكذب. وقد وافق على ذلك. ثم غادر المخبرون الشقة ومعهم الوثائق المنسقة.

لم يعتقلوا بولارد في تلك الليلة. شعروا أنهم قد ثبتوه في مكانه. وكانوا على ثقة من أنه ليس في أي وضع يُمكِّنه من الإفلات من مراقبتهم المستمرة. وأمِلوا في أن بولارد سيرشدهم إلى

رؤسائه. ذكر آجي: «لم يكن لدينا بينة آنئذٍ. كل ما عرفناه أنه كان يُخرج المادة. لم يكن لدينا أي دليل مطلقاً على ما كان يفعله بها. لذا كنا طوال الوقت نجري مقابلات معه ونراقبه لمعرفة أين يذهب. على أمل أن يذهب إلى مكان ما ويخبرنا بما يجري».

ظل الاحتمال المتبنَّى أن بولارد كان يتجسس من أجل إسرائيل. إلا أنهم لم يواجهوه مباشرة بذلك الادعاء. وكان آجي، الذي تفحص بعناية كل شيء على مكتب بولارد، أكثر يقيناً آنئذٍ بأن إسرائيل كانت تسيّر بولارد.

بعد مغادرة المخبرين توجه الزوجان بولارد مرتعدي الفرائص وفي ذعر شديد إلى مقهى ليلي قريب من دائرة دوبون. وقد أدركا أنهما ملاحقان من قبل مخبري وكالة الاستخبارات الأميركية الذين لم يتدخلوا. وكما أمر سيللا آن، اتصل بولارد بياغور في نيويورك من حجيرة تلفون عمومي.

قال بولارد إنه كان في حرج شديد.
سأل ياغور: «هل يعرفون بتورط إسرائيل؟»
أجاب بولارد: «لا. لا أعتقد ذلك».

وقال ياغور: «إذن احتفظ برباطة جأشك، ولا تقلق. إذ إننا سنهتم بأمرك».

قال إن زمرة إسرائيلية متخصصة تقف على أهبة الاستعداد لإنقاذهما. كما ذكّر بولارد باستخدام رقم الهاتف الخاص في واشنطون الذي سبق وأُعطي له في حال حدوث طارىء. وكان الزوجان بولارد لا يزالان فريسة الخوف عندما عادا إلى شقتهما قيد العين الساهرة، التي كانا متيقنين منها، لحكومة الولايات المتحدة. وقد أدركا أن لا بد من فرارهما من الولايات المتحدة بأسرع ما يمكن. وليس ثمة بديل آخر.

الثلاثاء ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥

بعد ليلة ليلاء لم يذوقا فيها طعم الكرى، طلب بولارد من آن الخروج من الشقة في ذلك الصباح والتجول في المنطقة. وذكرت آن: «قال إن أحداً ما قد يلتقي بي ويعلمني بهدوء كيفية مغادرة البلاد أو ما يتوجب علينا فعله. وكان ذلك ترتيباً متفقاً عليه سابقاً».

في ذلك الصباح مَثُل بولارد، كما أُمِر، أمام مكاتب مصلحة الاستخبارات البحرية لإجراء فحص مكشاف الكذب المعين. ولكن ما إن بدأ مخبرو مصلحة الاستقصاء البحرية الاستعدادات للفحص، طلب بولارد التحدث إلى أحدهم على انفراد. وقال إنه لن يتمكن من إتمام الفحص بنجاح لأنه في الواقع أعطى خمس أو ست وثائق منسقة إلى صديق لم يكن مخولاً باستلامها. عندئذٍ، وفقاً لوثائق المحكمة، أعلم مخبرو مصلحة الاستقصاء البحري بولارد بحقه القانوني للبقاء صامتاً. إلا أن بولارد قال إنه راغب في التنازل عنه.

كان هدفه الأهم أن يؤخر أطول وقت ممكن أي مكشاف كذب لا بد أن يظهره كاذباً. وقد شدد الإسرائيليون على هذه النقطة دائماً خلال سائر تعليماتهم إليه. ولم يكونوا يعتقدون أن باستطاعة بولارد خداع الآلة. كما طلبوا إليه أن لا يذكر إسرائيل إطلاقاً إذا ما استُجوِب في وقت ما بدون الأسلاك الموصولة بنبضه وغدده العَرَقية.

أما بولارد، الذي سبق أن قرأ مئات قصص الجاسوسية، فقد كان محنكاً في نصب حبائل صغيرة لوكالة الاستخبارات الأميركية. فقد عرف ما كانوا يريدون سماعه وعرف كيف يؤخر أي اعتقال. ولدى المزيد من الاستجواب سرعان ما ازداد تقدير بولارد لعدد الوثائق المنسقة التي فضحها إلى خمسين أو مائة شهرياً خلال العام المنصرم. وعندما أقر باستلام مبالغ من المال لقاء الوثائق، جرى الاتصال بوكالة الاستخبارات الأميركية وبدأ إجراء مقابلات مشتركة من مصلحة الاستخبارات البحرية ووكالة الاستخبارات الأميركية.

استمرت مقابلة المخبرين لبولارد ثماني ساعات متواصلة. وخلال تلك المقابلات لم يفشِ بعلاقته مع إسرائيل. عوضاً عن ذلك ادعى، بغية كسب مزيد من الوقت، أنه سلم معلومات منسقة فقط إلى صديقه كورت لوبيك، وهو مواطن أميركي، وطوال المقابلات كان يختلق قصص أخرى أيضاً لإبعاد الشبهة عن إسرائيل. وفي النهاية قدم للمخبرين ذلك اليوم بياناً خطياً من إحدى عشرة صفحة يفصّل فيه بيع الوثائق المنسقة. ونفى بوجه خاص أن يكون قد باع شخصياً معلومات منسقة إلى ممثل دولة أجنبية. وأنكر أية معرفة حقيقية أن صديقه كان يبيع المعلومات إلى دولة أجنبية. وزعم أنه ارتاب فقط في أن يكون لوبيك يستخدم المعلومات لمساعدة «مقاتلي الحرية في أفغانستان».

قال بولارد: «ربما كان مرتبطاً مع استخبارات عسكرية باكستانية».

في البيان الخطي، شرح بولارد مفصلاً الوثائق التي زودها. ونظراً لسعة هذه الوثائق وهدفها، وكذلك الوثائق المنسقة المستعادة الليلة السابقة، شك المخبرون في أن بولارد كان يسلمها بنفسه إلى معتمد دولة أجنبية. وعلاوة على ذلك، وبالرغم من تقديم بولارد سابقاً بياناً خطياً مطولاً، فقد أصر على وجود مزيد من التفاصيل لتقديمها فيما يتعلق بالوثائق المنسقة المعينة التي فضحها.

لقد فهم بولارد بدهاء كيفية تفكير مخبري وكالة الاستخبارات الأميركية ومصلحة الاستقصاء البحري وطريقة عملهم. فبتقديم الوعد بمزيد من التعاون خُيل إليه أنهم سيسمحون له بالذهاب إلى البيت. لقد كان في حاجة لأن يؤخر، أطول مدة ممكنة، أي قرار من ناحيتهم باعتقاله. وطالما أن بولارد يتعاون مع التحقيق. يكاد يكون مؤكداً أن المخبرين لن يعتقلوه.

ذكر بولارد فيما بعد: «لكي لا يظل تنكري «موضع تساؤل بقدر الإمكان» لَزِمتُ الحقيقة إلا ما يتعلق منها بالأفراد والولاءات. وإزاء احتمال استمرار المضايقة من الحكمة أن تبني معظم كذبك حول جوهر الحقيقة التي يمكن تذكرها مفصلاً ذلك على الثقة بقدرات المرء على الخلق

والاستقامة. ورغم إدراكي أن جميع الحجج التي استهدفتني حتى تلك المرحلة قامت على حيازة الوثائق المنسقة والتي لم يكن لدي متسع من الوقت لإعادتها إلى خزاناتها المختلفة، فإن أملي في توكيدات رافي بالإنقاذ جعل القصة التي بدأت اختراعها أكثر من مقنعة - إذ كانت مُحكمة ولائقة كثوب طَيِّع. ومرد ذلك بلا ريب إلى إدراكي التام لما أراد مستجوبيّ سماعه، وما علي إلا أن أُبقي على اهتمامهم فترة كافية لتأجيل مكشاف الكذب المحتم. وكنت آمل أن أكون في ذلك الوقت خارج البلاد بعد نجاحي في تضليل الأجهزة الأمنية بساذج أكثر ملاءمة».

من ثم قرر المخبرون في ذلك المساء، كما أَمِل بولارد، مواصلة استجوابهم في اليوم التالي ولكن بالإبقاء في الوقت ذاته على المراقبة المستمرة لبولارد. وقد رافقوه في طريق العودة إلى شقته. وقالت وثائق المحكمة الأميركية «إن المراقبة استُهلت في حالة محاولته الاتصال بأي مندوب أجنبي أو فراره من واشنطون».

دخل الشقة مخبران برفقة بولارد حيث طلبا من آن توقيع بيان بالتنازل عن حقوقها (ميراندا) والإجابة عن أسئلتهم.

قالت: «لن أرد على أية أسئلة».

أعطياها ورقة طالبين منها توقيعها. كتبت في أسفل الورقة: «رفضت الإجابة على أية أسئلة بدون حضور محاميّ».

ثم غادر المخبران الشقة.

ارتقاباً لفرارهما بدأ الزوجان بولارد حينئذٍ تمزيق ورمي كمية كبيرة من المدونات والوثائق والملفات الشخصية الموجودة في شقتهما.

افترض بولارد أن مديره المؤتمن خطط سابقاً فرارهما إلى إسرائيل. كان متلهفاً لتلقي تعليماته. وقد حز في نفسه كثيراً أن ما من أحد «التقى» بآن في ذلك اليوم.

عند المساء عاد الزوجان بولارد إلى المقهى الليلي لمخابرة ياغور. ورغم انفعالهما ظلا على ثقة من أن الإسرائيليين سيعملون على إنقاذهما. فقبل بضعة أشهر أمضيا أسبوعين رائعين في إسرائيل حيث استُقبلا بحرارة. قال بولارد لآن: «إن الإسرائيليين أبناء عائلة» وهم على أي حال، جواسيس كبار». «إنهم سيهتمون بنا».

إلا أن بولارد ذهل عندما لم يلق جواباً من شقة ياغور. ظل يتلفن وجرس التلفون يرن.

عندئذٍ طلب رقم واشنطون الذي أُعطي له للاستعمال عند الضرورة.

قال صوت عامل التلفون المسجل: «الرقم المطلوب معطل. الرجاء ضبط الرقم والطلب ثانية».

أعاد طلب الرقم ولكنه سمع ذات الجملة.

عاد الزوجان بولارد إلى البيت مصعوقين، لم يعرفا ما جرى. وعاد بولارد يردد لآن: «إنهم سيهتمون بنا. لا تقلقي».

إلا أن ياغور وإيريت إيرب وإيلان راڤيد، المستشار العلمي في السفارة الإسرائيلية في واشنطون الذي نقل بولارد وثائق إلى بيته في مطلع العملية، كانوا قد تلقوا تعليمات من إيتان بالاستعداد لمغادرة البلاد.

اعترض ياغور بشدة وسأل: «وما بال الزوجين بولارد؟ يجب علينا أن نخلصهما». وجاءه الجواب مموهاً.

ولدى مجادلة ياغور على فراره الاضطراري من الولايات المتحدة شدد على أنه يمكن اعتبار بولارد متنكراً وليس خائناً لإسرائيل أثناء استجوابه. وقال لرؤسائه: «لا داعي لقلقنا بشأنه».

إلا أن إيتان، الجاسوس الأستاذ ذا المزاج البارد، لم يوافق. فإيتان الرجل الذي قبض على أدولف أنجمان سنة ١٩٦٠ بعد فشل مئات غيره كان يعرف عن الجاسوسية والهجوم السياسي المعاكس أكثر من أي شخص آخر في الحلبة. كان يدرك أن لدى الأميركيين طرقاً لإرغام بولارد على الكلام. وارتأى أن إسرائيل ستنفي عندئذٍ أية معرفة بالموضوع الذي يتحدثون عنه. فمن تراه يصدق الزوجين بولارد وقصصهما الخرقاء عن التجسس لصالح إسرائيل؟

لقد أشار على ياغور وراڤيد وإيرب بمغادرة الولايات المتحدة فوراً. وقال إن هذا ليس موضع جدل.

لم يدر في خلد بولارد ذلك المساء أنه وحيد بالفعل.

كما أنه لم يعرف الأصفندياري وزوجته، جارين والمفروض أنهما صديقاه الطيبان اتصلا بعد الظهر بمخبري مصلحة الاستقصاء البحري حول الحقيبة واتصل المخبرون بدورهم بوكالة الاستخبارات الأميركية وتوجهوا معاً إلى شقة الجيران لاسترداد الصندوق.

ذكرت الحكومة فيما بعد في مذكرة: «لدى تسلم الحقيبة من الشاهد رأى المخبرون بطاقة مربوطة بها تحمل اسم وعنوان يوناثان بولارد. لم يفتح المخبرون الحقيبة آنئذٍ. وعوضاً عن ذلك قرروا الحصول على تفويض بتفتيش محتوياتها».

الأربعاء ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥

صباح الأربعاء أشار بولارد على آن مرة أخرى بأن تقوم «بجولة» حول المكان. كان لا يزال على يقين من أنها ستتلقى تعليمات ما بالفرار. إن إسرائيل لن ـ بل لا تستطيع أن ـ تتخلى عن أحد عملائها بالذات.

في الوقت ذاته أحضره مخبرو وكالة الاستخبارات الأميركية ومصلحة الاستقصاء البحري لمزيد من الاستجواب. قدّم بولارد بياناً خطياً آخر يشرح تفاصيل أخرى لما سمته الحكومة «إفشاءه غير المرخص لوثائق منسقة إلى الصديق ذاته». وفي البيان، وفقاً لمستندات المحكمة، أعاد سرد المعلومات التي أوحت للمخبرين أنه كان يسلم وثائق منسقة إلى شخص يعمل بالنيابة عن دولة أجنبية. وظل بولارد مصراً على نفه أي علم له باشتراك دولة أجنبية. ولكن كجزء من ألعوبته من حيث الإبقاء على المخبرين أسرى الخداع والتخمين، اعترف بأنه سافر وزوجته إلى أوروبا في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤ وتموز/يوليو ـ آب/أغسطس ١٩٨٥.

إلى جانب تلك البشرى ازدادت الثقة بأن بولارد كان يورط لوبيك لإخفاء التورط المباشر لدولة أجنبية أخرى. ولكن المخبرين لم يعرفوا الدولة المتورطة. وخيل إليهم فقط أنها إسرائيل. وفكر البعض في احتمال تورط أحد بلدان حلف وارسو. إلا أنه لم يتوفر أيضاً بينة ثابتة.

في ختام المقابلة ظل بولارد يشدد على أن لديه تفاصيل إضافية للكشف فيما يتعلق بالوثائق الخاصة التي طُلب منه الحصول عليها. وقد وافق على العودة إلى مكاتب مصلحة الاستقصاء البحري في اليوم التالي بعد اصطحاب زوجته إلى الطبيب لمعالجة طبية مستعجلة عينت موعداً لها، وقد استجاب المخبرون لطلبه، إلا أن المراقبة المتواصلة ظلت قائمة. وجاء فيما بعد في مستندات المحكمة أن هذا الأسلوب الاستقصائي «يتطلب استخدام عشرين مخبراً لمعالجة مشبوه واحد إذا أريد القيام بها على الوجه الأكمل ودون انكشاف».

كذلك واصلت وكالة الاستخبارات الأميركية ومصلحة الاستقصاء البحري مقابلاتها الشاملة مع زملاء بولارد في العمل. وارتابت آنئذٍ بافتضاح قدر كبير من المعلومات المنسقة. وأخبرت المحكمة، فيما بعد أنها «في قلق بالغ الخطورة» بالرغم من أن بولارد كان لا يزال يتظاهر بالتعاون مع تحقيقاتها.

أما يوجين نولت كامبر المخبر الخاص لوكالة الاستخبارات الأميركية والذي كان مشتركاً في الاستجواب السابق لبولارد فقد طُلِب منه جمع وإعداد المعلومات الخاصة اللازمة للحصول على تفويض بتفتيش الحقيبة. وفي وقت متأخر من النهار أبلغ مكتب محامي الولايات المتحدة عن حاجته لتفويض وبدأ إعداد ما ظهر في النهاية أنه شهادة خطية بقسم من سبع صفحات. وقد قابل نولت كامبر مخبرين آخرين في وكالة الاستخبارات الأميركية ومصلحة الاستقصاء البحري لجمع معلومات إضافية للشهادة الخطية بقسم.

مرة أخرى سُمِح لبولارد المحطم والمستنزف ذهنياً بالعودة إلى البيت متأخراً في ذلك اليوم. توجه إلى تلفون عمومي وحاول ثانية الاتصال بياغور. أيضاً دون جواب.

وقف في كشك التلفون باكياً ومرتعشاً. أي جرم جنى؟

هدأ نفسه قبل العودة إلى البيت. لم يشأ أن تراه آن على هذه الحال من الانهيار.

بحث بولارد مرة أخرى مع آن ما اعتبراه الخيار الوحيد المتبقي أمامهما ـ الحصول على لجوء سياسي إلى السفارة الإسرائيلية في واشنطون. فحالما يدخلان ذلك المبنى الذي لا تستطيع سلطات الولايات المتحدة دخوله لتطبيق القانون، يصبحان في أمان. وعندئذٍ يجد الإسرائيليون طريقة لإخراجهما من البلاد.

أدرك بولارد حينئذٍ أن الوقت آخذ في النفاد. لقد حاول تأجيل فحص مكشاف الكذب بتذرعه أن زوجته كانت مريضة وأنه مضطر لأخذها إلى المستشفى في اليوم التالي. وقد وافق مخبرو وكالة الاستخبارات الأميركية على الانتظار يوماً آخر لكنه لا يستطيع التحايل مدة أطول.

أكد آجي فيما بعد أن بولارد كان قلقاً جداً بشأن مكشاف الكذب. قال: «أعتقد أن خوفه حقيقي من مكشاف الكذب. فإذا اعتلى المكشاف وبدأوا يسألونه بعض الأسئلة المحرجة تذهب أدراج الرياح كل محاولاته الناجحة للتنكر. لذا أعتقد أنه أراد تجنب المكشاف ورغب في محاولة تأخير هذا الإجراء برمته أربعة أيام ولكن ليس إلى ما لا نهاية. وسيُلقى القبض عليه عاجلاً، وبذا تنعدم الخيارات أمامه. وإذا كان باستطاعته عمل شيء فليكن حالاً».

في تلك الليلة طلب بولارد من كشك للتلفون السفارة الإسرائيلية راجياً التحدث مع موظف الأمن. وذكر بولارد فيما بعد أنه سرد أسماء «مديريه» وطلب ترتيب اللجوء السياسي. وشددت آن على «أنهم عرفوا بالضبط شخصيته».

غير أن موظف الأمن الذي كان في الخدمة والمشدوه حقيقة قال: إنه سيبحث في الموضوع وطلب من بولارد الاتصال ثانية صباح اليوم التالي. وقال محاولاً طمأنة المتحدث: «إننا سنساعدك».

الخميس ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥

في الصباح الباكر يوم الخميس توجه بولارد إلى كشك تلفون عمومي للتحدث ثانية مع موظف أمن السفارة. وقد شدد بولارد فيما بعد على أن التعليمات التي تلقاها كانت حازمة. وقيل له إنه إذا استطاع نقض مراقبته عليه المجيء إلى السفارة فيما بعد ذلك الصباح، وإن باب الدخول إلى السفارة سيفتح الساعة العاشرة صباحاً.

قال بولارد فيما بعد: «سألني عن نوع السيارة التي أقودها».

إلا أن الموظف الأول للأمن في السفارة شهد بأنه لم يشر على بولارد بالمجيء إلى السفارة. وشدد الموظف على أن لا علم له بعملية التجسس أو أية محاولة للانقاذ. إلا أنه سلَّم بأن أحد صغار

موظفيه في الخدمة، وهو على الأرجح لا يجيد اللغة الإنكليزية، ربما أساء فهم ما كان يتحدث عنه بولارد. وأشار على بولارد عرضاً ـ من باب اللياقة ـ المجيء إلى السفارة لتسوية أية مشكلة ـ وقال مسؤول إسرائيلي «ربما كان سوء فهم لا يستهان به».

حزم الزوجان بولارد حقيبة. واختطفت آن ألبوم حفلة زواجها ذا الشريط الأحمر وقطتهما دستي، كما أخذت شهادتي ميلادهما وإذن الزواج وأوراق تلقيح دستي. وأدركت أنهما سيغادران الولايات المتحدة ربما إلى غير رجعة.

ولكن لا بد أولاً من قيادة السيارة إلى مركز مستشفى واشنطون قرب الجامعة الكاثوليكية حيث كان مقرراً إجراء معالجة عسر حركة صفراوي وهو اعتلال مِعدي غير مألوف. كان ذلك هو المشكلة القديمة التي ازدادت بلا ريب نتيجة الإجهاد الفظيع خلال الأسبوع.

لقد شرح طبيبها الباطني، الدكتور هربرت موسكوفيتش كيف أجرى لها فحص المجواف في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر. قال: «تبين أنها كانت تشكو من كتلة كبيرة مُعَنقدة من الطعام غير المهضوم والإفرازات في معدتها. وكانت هذه المشكلة تعاودها من حين لآخر. وقد قمنا بغسل معدتها».

طُلب منها المجيء إلى جناح الأمراض المِعدية ـ البولية في ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر للقيام بإجراء آخر لتخفيف الألم. وأوضح أن الحلق والبلعوم يُخدران برشة تخدير موضعي كما في جرعات السعال. ثم يسكّن المريض باستخدام العقاقير المخدرة في الوريد، بحيث يمكن إدخال جهاز بصري ليفي لين ومرن عبر الحلق والمريء إلى المعدة.

لحق المخبرون الزوجين بولارد إلى المستشفى. قالت آن فيما بعد: «لقد تبعوني إلى غرفة العمليات».

لم تستغرق المعالجة طويلاً. ولكنها خُدرت تخديراً ثقيلاً. وقال الدكتور موسكوفيتش «إنّ المخدر يجعل الناس نعسانين ومنومين». وأضاف «أنه يؤثر على التفكير ويقلل القدرة على الاستجابة وتنقص حساسيتهم للألم والانزعاج». لقد أعطاها مائة مغم من الديميرول و١٠ مغم فاليوم (٤) قبل إدخال المجواف.

كان المفروض أن يعودا من هناك إلى شقتهما. وكان مقرراً أن يخضع بولارد لمزيد من الاستجواب.

بيد أنهما قررا محاولة الفرار رغم علمهما بأنهما ملاحقين. قادا السيارة حول واشنطون في طريق غير مباشر من التعرجات والمنعطفات حتى وصلا السفارة الإسرائيلية وهناك لم يستطع ملاحقوهما متابعة ملاحقتهما في الداخل.

ومما يدعو إلى السخرية أنه لم يسبق لبولارد أن دخل السفارة ولم يحضر أبداً استقبالات

دبلوماسية هناك. كان في ذلك خطر شديد على العملية، وكثيراً ما كان يرى البناية ذات الطوب الرمادي الفاتح بنوافذها شبه الدائرية أثناء قيادته السيارة بعيداً عن مجمع شقته ڤان نيس المجاور بعد إنزال بعض الوثائق. ومن جادة كونكتيكوت كان يرى علم إسرائيل الأزرق وعليه نجمة داود البيضاء يرفرف على سارية خارج مبنى السفارة. وكان يتراءى له ولكثيرين غيره أن البناية وهندستها المميزة بدت وكأنها قطعة من القدس أكثر من وجودها في واشنطون.

وفقاً لمخبر ميدان وكالة الاستخبارات الأميركية مشترك في القضية فإن العديد من سيارات وكالة الاستخبارات الأميركية غير الموسومة ظلت تلاحقه طيلة ساعة في ذلك الصباح. سيارة إثر أخرى. وقلما كان بولارد يرى ذات السيارة في مرآته الخلفية الرؤية. كانت السيارة قريبة وذات اتصال لاسلكي مستمر. وابتغاء الأمان ركبت وكالة الاستخبارات الأميركية جهاز إشارات الكترونياً داخل مصدم سيارته الموستانغ موديل ١٩٨٠ كان يرسل صفيراً هادئاً مما يسمح لوكالة الاستخبارات الأميركية بالتقاط موقع السيارة حتى لو استطاع بولارد نقض مراقبته. لم يكن ثمة مجال لفرار الزوجين بولارد.

في الساعة ١٠,٢٠ صباحاً دخلت سيارة بولارد الموستانغ مجمع رقم ٣٥٠٠ الطريق الدولية ش.غ. واصطفت خلف سيارة للسفارة الإسرائيلية ـ وهي سيارة تخص الدبلوماسية رقم ٢ في السفارة، الياكيم روبنشتاين، لم يكن في الداخل إنما كان سائقه فقط. أما الباب الالكتروني التحكم والبطيء الحركة فلم يغلق بعد أن تجاوزته سيارة السفارة. وفي النتيجة تبع بولارد السيارة إلى داخل باحة السفارة. قاد السيارة نزولاً في الطريق الطويل والمنحدر الزوايا. كانت آن لا تزال مخدرة تخديراً قوياً جالسة في المقعد الأمامي بالقرب منه ومتمسكة بقطتها وألبوم صور حفلة زواجها. ثم أغلق باب السفارة خلف سيارة بولارد.

اقترب فوراً حارسان إسرائيليان. وعرّف بولارد عن نفسه كرجل مباحث إسرائيلي يعمل في خدمة راڤي إيتان. ويوسي ياغور. كان ينشد اللجوء.

ذكر بولارد فيما بعد أن أحد الحارسين بادره قائلاً: «حللت أهلاً ووطئت سهلاً». وقد رأى الحارسان بولارد يرتعش بكل معنى الكلمة. كانت زوجته تولول. «إنك الآن في أمان. وكل شيء على مايرام». ومهما يكن فقد شدد الحارسان فيما بعد أنهما ارتاعا كلياً بوصول بولارد.

شاهدت وكالة الاستخبارات الأميركية آن تخرج من السيارة ثم سارت بمنأى عن الأنظار إلى فناء تحت السفارة داخل مرآب مكشوف حاملة كيسين (في أحدهما دستي) وجزداناً.

بيد أنه في بضع دقائق طُوقت السفارة بوكالة الاستخبارات الأميركية. كان هنالك دزينة سيارات وشاحنات وعربات نقل ومخبرون ينزلون من كل منها. وقد استخدموا منظارات لمشاهدة ما يجري.

إن موظف أمن السفارة الذي كان يدرك ما يجري عاد فدخل البناية من باب المرآب السفلي، بينما ظلت الموستانغ في آخر الطريق الخاص حيث كان بولارد منتظراً.

بعد حوالى عشر دقائق ظهر رجل المباحث.

ـ خاطب بولارد المرتاع: «يجب أن تخرج».

ـ «ماذا؟»

ـ «لقد سمعتني. يجب أن تخرج».

قال بولارد «هل تعرف ماذا فعلت لإسرائيل؟ أنا رجل مباحث إسرائيلي». وذكر أسماء معارفه الإسرائيليين. قال الموظف بوضوح «اخرج».

قال: «أريد أن أنفذ حقي بموجب قانون العودة للمواطنية الإسرائيلة. نحن يهود. نحن على أرض إسرائيلية. ليس باستطاعتك أن تُلقي بنا إلى الخارج».

ذهبت اعتراضاته أدراج الرياح.

قال الموظف: «اخرج».

«ولكنك ترى ما يجري في الخارج هناك. سيُقبض علينا فوراً. لا يمكنك أن تفعل ذلك». وأخذ بولارد نفسه يبكي.

دفعه الموظف إلى داخل السيارة وطلب إليه قيادتها.

كان مخبرو وكالة الاستخبارات الأميركية خائفين من إضاعة بولارد وبدا عليهم الارتباك والانفعال. وعيونهم شاخصة من الشارع. كان بولارد وزوجته واقفين آنئذٍ خارج السيارة منهمكين في حديث ساخط ومطول مع موظفي السفارة.

احتج بولارد للمرة الأخيرة: «إنكم لا تستطيعون القيام بما تفعلون».

عاد وحث الموظف على الاتصال بياغور أوراڤيد أو سيللا أو إيتان أو إيراب. «إنهم سيؤكدون لك أن كل ذلك خطأ فظيع. سيوضحون لك ما فعلت من أجل إسرائيل. أنا جاسوس إسرائيلي. أرجوك. لا يمكنك الغدر بجاسوس إسرائيلي بهذا الشكل. أرجو أن تتلفن لهم».

صاح الموظف: «امض الآن بالسيارة». ووفقاً للزوجين بولارد: لقد أبدى انفعالاته قياماً بواجبه كما لو كان يرغب في إفهام وكالة الاستخبارات الأميركية أن الإسرائيليين يطردونهما من السفارة. «اخرج».

حالما ابتعد بولارد بالسيارة عن عقار السفارة الإسرائيلية اعتُقِل وتُلِيت حقوقه. وأسرّ أحد مخبري وكالة الاستخبارات الأميركية فيما بعد قائلاً: «لا أستطيع أن أصدق أنه نظم الفرار للنجاة بنفسه. لا بد أنه في ذعر حقيقي».

نُقل بولارد إلى سجن مقاطعة كولومبيا. وقد صودرت السيارة وكل ما فيها كَبَيِّنة احتمالية ـ باستثناء دستي. وبعد بعض الاستجواب المبدئي سُمِح لآن بالذهاب إلى البيت ذلك المساء.

ذكر بولارد فيما بعد: «لن أنسى الشعور الذي خامرني وأنا أغادر أرض السفارة. وإذ ألقيتُ نظرة على العلم لدى خروجنا، كل ما دار في خلدي الأغنية التي أنشدها البريطانيون وهم يغادرون يوركتاون للاستسلام. «لقد انقلب العالم رأساً على عقب». كنت على أتم استعداد ـ ولا أزال ـ لتقديم حياتي لتلك البلاد، إنما ليس بهذا الشكل، ما الذي أُنجِز حتى الآن؟ إنني أعرف المعلومات التي حصلت عليها، ولا بد أن تغيظ كاسبار واينبرغر إلى ما لانهاية. ولكن ماذا عن الخسائر البشرية؟ إنني أكره التصريح بها. ولكن كان من الممكن تجنب الملحمة لو اتخذ إيتان فقط الاحتياطات الدنيا لأمني الشخصي».

الفصل التاسع

ـ التجسس الودي ـ

ليست قضية بولارد من وجهة نظر سطحية، مفهومة تماماً. فـالولايـات المتحدة وإسـرائيل الصديقان الحميمان يتقاسمان رسمياً قدراً غير محدد من المعلومات. فما الداعي إذن للمجازفة بتلك الدرجة العالية من التعاون من أجل قسط مفتَرَض وأدنى درجة من المخابرات غير المشتركة؟ وقد زُعِم فيما بعد أن نشاطات بولارد التجسسية ألحَقت أبلغ ضرر تعرّض له أمن الولايات المتحدة القومي في وقت ما، إلا أن الحكومة، لاعتبارات تتعلق بالأمن القومي، رفضت أن تقدم علانية تفاصيل معينة لذلك الضرر.

لقد شدد جوزيف سيسكو وكيل وزارة الشؤون الاجتماعيـة في الولايـات المتحدة على أن العمليات الخفية بعضها ضد بعض «غير ضرورية إطلاقاً لأن حجم التعاون بين الدولتين من القوة بمكان». وقال إنه باستطاعة إسرائيل الحصول على ثمانية وتسعين في المائة مما تحتاجه استناداً لهذا التعاون، وأياً كان نتاج عملية كالتي قام بها بولارد، فلا قيمة له بالنسبة لمجمل العلاقات.

بيد أن الموظفين الإسرائيليين سريعو الانفعال، والذين يحيون على قسط ضئيل من الأمن، ويلازمهم القلق لأسوأ حالات التهديد، لم يقتنعوا بهذا المنطق فما زال هناك العديد من الأسرار التي رفضت واشنطون، لهذا السبب أو ذاك، أن تشارك إسرائيل فيها. وكلا الطرفين لم يكن ليشارك في معلومات أعتقد أنها قد تَفْضَح ما يسميه محترفو المخابرات «المصادر والأساليب» ـ أي كيفية جمع تلك المعلومات.

لقد شرح هذا المنطق بـوب وودوورد في كتابـه عن المرحـوم ويليام كيسي، مـدير وكـالة الاستخبارات المركزية. أوضح أن الولايات المتحدة اخترقت المنظمات الارهابية الفلسطينية، وكأن لوكالة الاستخبارات المركزية مصادر سرية عن منظمة التحرير الفلسطينية كانت «أحياناً تقدم تفاصيل عملية حول هجمات منظمة التحرير الفلسطينية في إسرائيل». إلا أن الولايات المتحدة لم تتقاسم

هذه المعلومات مع إسرائيل. وكتب وودوورد «في بعض النواحي الهامة كانت إسرائيل أكثر تجاوزاً في أمور المخابرات. وكانت مديرية عمليات وكالة الاستخبارات المركزية قد أقنعت كيسي بأن تلك المعلومات لا يمكن نقلها إلى الإسرائيليين لئلا تنضب المصادر. كانت لعبة صارمة، وقد أُعجِب كيسي بطريقة تقبل إسرائيل للقوانين، لا بد من حماية المصادر بأي ثمن. كانوا جد محنكين في هذا المضمار. فأدركوا أنه ليس بمقدور الحليف إعطاء كل شيء».

إلا أن بولارد لم يركّز على ذلك. وكتب بولارد فيما بعد في رسالة لي: «تصور نفسك جالساً على مكتب تقرأ تقريراً حول هجوم إرهابي وشيك ضد مركز إسرائيلي منعزل في «الحزام الأمني» «جنوبي لبنان».

كل شيء معلوم: الزمان والمكان والأسلوب الواجب استخدامه. وتدل التقديرات بوضوح على أن الإصابات الإسرائيلية يتوقع أن تكون فادحة ـ ربما دزينة من القتلى والجرحى. وتتجه عيناك نحو أسفل الصفحة حيث يبين صندوق مخطط بنماذج مريعة أنه لن يقدم إشعار تنبيه إلى الإسرائيليين. وعندما تتصل بصديق لمعرفة أساس هذا القرار يقال لك إن وزير الدفاع يريد خروج الإسرائيليين من الحزام الأمني وإن زيادة الإصابات ستزيد الضغط عليهم لإخلاء المنطقة. إذن هذا هو المنطق الذي عليك التسليم به ومحاولة التعايش معه أثناء مشاهدتك التغطية التلفزيونية لاحتفالات الدفن على جبل هرتسل (في القدس). والواقع أنني أصبحت مشمئزاً ومُتعَباً من الوقوف متفرجاً ومشاهدة اليهود يموتون ليتسنى للسيد واينبرغر إبلاغ أصدقائه السعوديين بأنه كان يقوم بكل ما يستطيع لتعزيز «الاستقرار في جنوب لبنان».

قال مسؤولون إسرائيليون فيما بعد إن معظم المعلومات التي قدمها بولارد جُمع بواسطة وسائل الكترونية بالغة التعقيد. وكانت إسرائيل تقليدياً أقوى في المجالات «الإنسانية» لجمع المعلومات ـ بنشر عملاء في الأقطار الأجنبية.

وهكذا بينما قدمت الولايات المتحدة لإسرائيل قدراً ضخماً من المساعدة، كان ثمة أيضاً قسم كبير من المعلومات التي أُمسِكت ـ وهي المعلومات التي قدمها بولارد. ووفقاً للمسؤولين الإسرائيليين الذين برروا إيجاد حلقة الجاسوسية في واشنطون، فإن المعلومات التي زودها لإسرائيل اعتُبرت حرجة بشكل قاطع لأمن الدولة، لا سيما في حالة حرب شاملة أخرى مع سوريا.

لقد نقل بولارد وثائق تفصّل ما وصفه فيما بعد: بتهديدات «رهيبة» تواجه إسرائيل ـ مثلاً بقاء مصانع سوريا الحربية للمواد الكيماوية والغازات. لقد تصوّر بولارد عشرات الآلاف من الإسرائيليين ـ رجال ونساء وأطفال ـ يسقطون صرعى في هجوم سوري مفاجىء. ألم يكن العراقيون يستخدمون الغاز السام ضد الإيرانيين، إخوانهم في الإسلام؟ هل يغلق هو عينه على هذا النوع من السيناريو؟

قال: هناك حقيقةُ محلل المخابرات وحقيقةُ رجل الشارع المواطن جو «يو». وإذا كنت قد رُوّعت لبقاء إسرائيل عندما كنت رجل الشارع المواطن جو ولم أكن مدركاً تمام الإدراك الطبيعة

الحقيقية لتهديد بقاء إسرائيل فإن انغماسي في ذلك النوع من البيئة في الوسط الاستخباراتي أثار قلقي. وعندما تنظر إلى طائرة أول ما يتبادر إلى ذهنك «يا إلهي، كيف يقف هذا الشيء في الجو؟» وهو نفس التجربة من التعجب الذي تملكني بعد استعراض كافة التهديدات التي تواجهها إسرائيل. «يا إلهي، كيف يتغلبون عليها؟»

في العالم الواقعي كل الأقطار تتجسس لا ضد أعدائها فحسب، بل أيضاً ضد أصدقائها. وتحاول الولايات المتحدة اعتراض وسائل الاتصال الإسرائيلية كما أنها تلتقط صور استطلاع بالأقمار الاصطناعية للقواعد العسكرية الإسرائيلية(*). ويلتقط الملحقون العسكريون الإسرائيليون صوراً للمناطق المحصورة. وسيحاول الدبلوماسيون الأميركيون تعلّم أسرار إسرائيلية أخرى، كما أن المسؤولين الإسرائيليين سيقومون، على طريقتهم الخاصة، باستطلاع تطفلي حول الولايات المتحدة.

لقد ارتأى تقرير لوكالة الاستخبارات المركزية في آذار/مارس ١٩٧٩ عن أجهزة استخبارات إسرائيل ـ عثر عليه ووزعه الثوار الإيرانيون في السفارة المنهوبة للولايات المتحدة في طهران ـ إن إسرائيل منذ عهد بعيد وهي تسعى لاستخدام اتصالاتها بين شتى الجاليات اليهودية حول العالم لخدمة مصالحها. وذكر التقرير «أن جهاز الاستخبارات الإسرائيلي يعتمد بشدة على مختلف الجاليات والمنظمات اليهودية في الخارج لتجنيد العملاء وانتزاع المعلومات العامة».

إن الطبيعة الأيديولوجية العدوانية للصهيونية والتي تؤكد أن جميع اليهود ينتمون إلى إسرائيل ويجب أن يعودوا إلى إسرائيل كان لها عقباتها في استخدام الدعم لعمليات المخابرات، من ناحية ثانية، نظراً لوجود معارضة كبيرة للصهيونية بين اليهود في سائر أرجاء العالم، وأن ممثلي المخابرات الإسرائيلية الذين يدركون هذه الحقيقة يعملون عادة بحذر بين الجاليات اليهودية، ولديهم تعليمات بتوجيه بعثاتهم بأقصى درجات اللباقة لتجنب الإرباك لإسرائيل. كما يحاولون التأثير في العناصر المناهضة للصهيونية لتحييد المعارضة، ورغم تلك الاحتياطات فإن الإسرائيليين غالباً ما يعانون من العقبات. وكان هناك العديد من الحالات التي رُفِضت فيها عمليات تجنيد الأميركيين من أتباع الديانة اليهودية وأُبلِغَت إلى سلطات الولايات المتحدة.

جون داڤيت، الرئيس السابق لقسم الأمن الداخلي في دائرة العدل أخبر فيما بعد الواشنطون بوست، أنه كان ثمة عدد ضئيل من الحالات خلال السنوات الثلاثين التي قضاها في خدمة الحكومة والتي طلب فيها بهدوء من الدبلوماسيين الإسرائيليين المشتبه بممارستهم الجاسوسية مغادرة البلاد.

(*) زود بولارد إسرائيل بهذه الصور التي ساعدتها على تطوير أساليب فنية أكثر فعالية «للتغطية» أو التعمية. بما في ذلك أقمشة قنب لتغطية الدبابات والطائرات. وقد برر إعطاء إسرائيل هذه الصور بالإشارة إلى أن لدى الاتحاد السوڤييتي قدرات استطلاع مماثلة. وتستطيع إسرائيل اتخاذ إجراءات مضادة لإرباك السوڤييت.

بيد أن ذلك حصل في الخمسينات والستينات عندما لم تكن العلاقة الأميركية الإسرائيلية قوية كما أصبحت فيما بعد.

ومع ذلك فإن المسؤولين الاميركيين عن تطبيق القانون ارتابوا منذ أمد بعيد في أن إسرائيل كانت متقلبة إزاء العمليات الأميركية الإسرائيلية الخفية والقديمة العهد والمعيقة للتفاهم فيما بينهما. والواقع أن بعض حالات التجسس تجري حتى بين أكثر الأصدقاء والحلفاء تقارباً. ولكن شتان بين ذلك وإقامة «سد» فعلي في وسط استخباراتي لبلد صديق.

وهكذا ثمة بون شاسع بين عمليات جمع مخابرات غير فضولية، من جهة، وإدارة تجسس فعلية ومأجورة بين البلدان بعضها مع بعض. وكان المفروض أن يكون هناك قانون غير خطي بأن الولايات المتحدة لن تستخدم المواطنين الإسرائيليين للتجسس ضد إسرائيل، كما لا تستخدم إسرائيل المواطنين الأميركيين للتجسس ضد الولايات المتحدة. إلا أن خبراء المخابرات الأميركيين والإسرائيليين أكدوا أن «المندسين» لم يكونوا بالضرورة جزءاً من ذلك القانون. وكان من غير الواقعي الافتراض بأن هذه الأنواع من المتطوعين سيُرفض قبولهم من قبل أي من البلدين ـ كما أوضح فيما بعد السناتور الجمهوري داڤيد دورنبرغر، من مينيسوتا، الرئيس السابق للجنة المخابرات في مجلس الشيوخ. وقال إن كيسي مدير وكالة الاستخبارات المركزية كان قد قبل «مندساً» عسكرياً إسرائيلياً خلال الحرب في لبنان سنة ١٩٨٢ واتهم دورنبرغر أن الولايات المتحدة هي أول من خرق فعلاً قواعد اللعبة مما جعل من الأيسر فيما بعد على إسرائيل قبول بولارد.

ومع ذلك، ثمة حدود يفترض بالدول الصديقة أن تعمل ضمنها وكان دورنبرغر يشير إلى حادثة فريدة بسيطة ليس لعامل المال دخل فيها. وكان بولارد الظاهرة التي تجاوزت فيها إسرائيل تلك الحدود.

والحق يقال إن بولارد زود إسرائيل بكمية هائلة من الوثائق. وأكدت حكومة الولايات المتحدة أن المواد المنسقة التي فضحها بولارد كانت ضخمة حجماً وبعيدة المدى مجالاً، بما في ذلك آلاف صفحات الوثائق المصنفة «سرية للغاية» و/ أو «المعلومات المقسمة الخاصة». وقد جاء الكثير من هذه الوثائق من وكالة مخابرات الدفاع.

إن خبراء المخابرات الإسرائيليين الذين كانوا مطلعين على اشتراك بولارد وصفوه بأنه واحد من أهم الجواسيس في تاريخ إسرائيل. وقال موظف مخابرات إسرائيلي إن بعض المعلومات كان «مثيراً للغاية» بحيث بررت في الواقع المجازفة البالغة الضخامة التي أقدمت عليها إسرائيل بإدارة جاسوس في واشنطون.

ووفقاً لبولارد، كثيراً ما كان ياغور يخبره دون مبالغة أنه كان «وكالة مخابرات من رجل واحد» لصالح إسرائيل. والواقع أن ما فعله بولارد هو أنه هيأ لإسرائيل فعلاً كامل جهاز جمع المخابرات الأميركية وبذلك أكمل الصورة في تلك المنطقة حيث كانت معرفة إسرائيل الخاصة محدودة. وكان

تركيز اهتمام إسرائيل بالطبع على أعدائها العرب والاتحاد السوفييتي، وخاصة قدراتهما العسكرية.

إن أقل ما يقال، في ضوء المعلومات الضخمة المقدمة هو أن بولارد كان في الحقيقة الأكثر إنتاجاً. لقد بهر مديريه الإسرائيليين بكمية ونوعية المعلومات التي حصل عليها على حدٍ سواء. وقال ليون هـ تشارني وهو محامٍ نيويوركي مثّل بولارد فترة وجيزة وهو من المقربين جداً للعديد من الزعماء الإسرائيليين إن ما فعله بولارد «لأمن إسرائيل فوق طاقة أي كان ممن ضحوا في وقت ما بمناصبهم من أجل القضية الإسرائيلية. كانت مساعدته بجلاء لا تقدر بثمن لأمن دولة إسرائيل».

ذكر محامو بولارد فيما بعد أن المعلومات التي قدمها تتوزع بين الفئات العامة التالية:

١ ـ أنظمة الأسلحة في الأقطار العربية.
٢ ـ أجهزة مخابرات الدول العربية وقدراتها.
٣ ـ حركة الرسائل اليومية المتعلقة بالأحداث في الشرق الأوسط.
٤ ـ تحليل أنظمة الأسلحة السوفييتية التي يحتمل تسليمها إلى الدول الموالية للسوفييت في الشرق الأوسط.
٥ ـ تحليل الزعماء العرب والأهداف السياسية والاستقرار الحكومي.

لقد شددوا على أنه فرض قيوداً على المعلومات المقدمة إلى إسرائيل. إنه لم يتخذ موقفاً أعمى بأن ما يصلح لإسرائيل يصلح للولايات المتحدة. على العكس، فقد أدرك أن مصالح إسرائيل والولايات المتحدة تتباعد أحياناً.

وأضافوا: «تبعاً لذلك، شدد بولارد، بموافقة الإسرائيليين، أنه لن يفشي معلومات تتعلق بقدرات الولايات المتحدة العسكرية أو المخابراتية، أو يتخذ أي إجراء يعتبر ضاراً بأمن الولايات المتحدة القومي».

لقد رفض بولارد بنوع خاص طلب إيتان معلومات تتعلق بمصادر مخابرات الولايات المتحدة في إسرائيل. وقال المحامون إن إيتان طلب أيضاً وثائق تتعلق بمعرفة الولايات المتحدة لمعاملات الأسلحة الإسرائيلية في أقطار أخرى، وخاصة الصين. ومعرفة الولايات المتحدة لمساعي المخابرات الإسرائيلية في الولايات المتحدة. في كل مرة كان السيد بولارد يرفض تقديم تلك المستندات أو المعلومات رغم تهديدات إيتان باتهامات مضادة.

أكدت الوثائق الحكومية أن معظم المستندات التي حصل عليها بولارد كانت «أبحاثاً تحليلية مفصلة تحتوي على حسابات تقنية ورسوم بيانية وصور أقمار اصطناعية». وضمت المعلومات الأخرى حركة رسائل وخلاصة استخبارات منسقة للغاية، وكذلك معلومات عن «أنظمة أسلحة معينة». وتناولت الوثائق الخاصة القوات البحرية لأقطار معينة في الشرق الأوسط وشمالي إفريقيا وتسهيلات موانىء قطر شرق أوسطي، ودراسة في الألغام البحرية وإجراءات الاستخبارات المضادة للألغام وبحثاً عن خطوط مواصلات قطر شرق أوسطي ودراسة استخبارات الجيش الأميركي لقطر

شرق أوسطي ودراسة تهديد تشويش هليبورن على حلف الأطلسي من قبل السوفييت/ حلف وارسو. وبناء لطلب وزارة الدولة فإن الوثائق الحكومية لم تذكر بالاسم وعلى وجه التحديد الأقطار العربية التي تعرضت للافتضاح. ولم تشر الوثائق إلا إلى أقطار في الشرق الأوسط وشمالي إفريقيا.

إن تقدير قيمة المعلومات التي زودها بولارد لإسرائيل هو الطريقة الوحيدة كي يُفهم لماذا وجدت إسرائيل نفسها تتجسس في واشنطون في المقام الأول، وتقدم على هذه المخاطرة. وما من رجل مباحث خصوصي إسرائيلي مدرك يقبل مخاطرة كهذه إذا كانت الأتعاب لا يَعتدّ بها. فلا بد للأجور أن تَرجَح على المخاطر. ورافي إيتان الجاسوس الأستاذ الذي يدير بولارد لم يكن ضئيل الشأن.

وهكذا فإن أي فهم لمسألة بولارد لا يمكن أن يتحقق إلا إذا عرفت تفاصيل المعلومات التي قدمها. وعلاوة على المعلومات التي ساعدت إسرائيل على قصف المقر الرئيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية في تُونُس أعطى بولارد لإسرائيل كافة أنواع الاستخبارات الحيوية التي لا تُصدق.

مثلاً، لقد حصل على أصدق المعلومات التي جمعتها الولايات المتحدة حول القدرات العراقية والسورية للإنتاج الحربي الكيماوي بما في ذلك صور أقمار اصطناعية مُفصلة تبين موقع المصادر وتسهيلات التخزين، ولم تشأ الولايات المتحدة جعل تلك المعلومات الخاصة في متناول إسرائيل خشية ضربة شُفعية، كما خشيت إمكانية افتضاح «المصادر والأساليب» الأميركية المستخدمة للحصول على تلك المعلومات في حال توفرها لإسرائيل. وأولى الوثائق التي أعطاها بولارد لإسرائيل والتي كان لها أبلغ الأثر على مديريه تضمنت تفاصيل مصانع العراق الحربية الكيماوية.

قال بولارد فيما بعد: «باستعمال العراقيين عملاء الأعصاب في حرب الخليج الفارسي دون أن ينالوا جزاءهم كان الإسرائيليون معذورين في قلقهم حول نوايا السوريين لاستعمال تلك الأسلحة في مرتفعات الجولان ـ كما يحتمل أن يفعلوا الآن على ما يبدو. ولا حاجة للقول إن تجهيز مراكز للجيش والسكان المدنيين للبقاء في وسط قتالي كهذا يتطلب سنوات. ويعمل الإسرائيليون عادة وسط ردح زمني أقصر من ذلك بكثير».

كذلك أعطى بولارد الإسرائيليين التفاصيل الدقيقة عن كافة شحنات الأسلحة السوفييتية لسوريا والدول العربية الأخرى بما في ذلك مواصفات صواريخ س س ـ ٢١ جو ـ جو وصواريخ سام ـ ٥ المضادة للطائرات. وكلما اكتشفت الولايات المتحدة أن سفينة سوفييتية كانت تعبر البوسفور إلى البحر الأبيض المتوسط نقل بولارد تلك المعلومات إلى إسرائيل، كما زود إسرائيل بأدق تفاصيل التقديرات لدى جماعة الاستخبارات الأميركية للمقاتلة السوفييتية الحديثة ميغ ـ ٢٩.

قال: «كانت خطتي تقديم المعلومات عن الدول العربية والسوفييت التي تتيح للإسرائيليين تجنب حرب يوم التكفير التي واجهوا فيها ما لا يقل عن بيرل هاربر تكنولوجية. وإذا سلّمنا بطبيعة

التخطيط الدفاعي لإسرائيل فإن وضعاً مشابهاً لسنة ١٩٧٣ لن يُحتمل. وفي غِيَاب مخابرات موثوقة تُعرِّف القدرات الحقيقية لتجهيزات الكتلة الشرقية المستقدمة حديثاً يمكن أن يؤدي إلى حرب وقائية هدّامة جداً».

واستطرد بولارد: بالنسبة لبلد مثل إسرائيل «شديد التأثر بالإصابات، ومقيد بمصادر محدودة ومرهق بحدود مكشوفة للغاية، فإن ظهور نظام سلاح معاد جديد على الحد يعني الفرق بين حملة جراحية سريعة وانتصار بيروسي. لذا كلما بكّر المخططون العسكريون الإسرائيليون لمعرفة المعالم التقنية لنظام معين سرعان ما أمكنهم تخصيص الأموال النادرة لتقرير الإجراءات المضادة المناسبة وقد حول الكثير منها إلى الولايات المتحدة لاستعمالها الخاص».

قال بولارد إن المفتاح لدفاع إسرائيل هو «وجود متسع كافٍ من الوقت أمام مختلف مؤسسات الأبحاث ومصانع الإنتاج ووكالات الاستخبارات ومكاتب العمليات لخلق المقومات الأساسية والوسائل الملائمة والضرورية لدحر، مثلاً منظومة صواريخ سام أرض ـ جو سوڤييتية».

لقد اعترف بأن الولايات المتحدة تشارك إسرائيل بشكل روتيني بقدر غير محدد من المعلومات المنسقة لا سيما في هذه الأنواع من الأسلحة. ولكن المعلومات، وفقاً لبولارد ليست مفصلة إلى الحد الذي يمكّن الإسرائيليين من أن يفهموا بدقة طبيعة التهديد الذي يواجههم في المستقبل. وبدون هذا النوع من المعلومات يحتمل أن لا يتوفر لسلاح الجو الإسرائيلي قيادة للجو لا تقبل الجدل في الأيام الأولى من اندلاع حرب في مرتفعات الجولان. ونظراً لقصر المسافات لمراكز السكان الإسرائيليين، فلا بد أن تُترك القوات الأرضية وحيدة للقتال في عمليات إعاقة مُكلفة حتى يحين الوقت الذي يتدخل فيه سلاح الجو بشكل حاسم.

أضاف بولارد: «لهذا السبب فإن كثيراً من المواد التي نقلها إلى الإسرائيليين تتعلق بتقنية صواريخ سام السوڤييتية التيارية والمُسقطة وما رافق ذلك من أجهزة حرب الكترونية وأنظمة قيادة /مراقبة/ اتصالات».

ذكر مثلاً أن ياغور هنأه بعد أن تمكنت طائرة استطلاع إسرائيلية بدون ربان من أن تُكمل طريقها بنجاح عبر نظام الدفاع الجوي السوري سنة ١٩٨٥. وقال ياغور إن هذا الإنجاز الرائع لم يكن ممكناً لولا المعلومات التي قدمها بولارد.

إن خط التنظيم السوڤييتي السوري هو الذي كان يطغى على عقل بولارد طوال العملية. قال: «بين جميع التهديدات التي تواجهها إسرائيل حالياً فإن أعظمها بمراحل تلك التي يشكل السوڤييت وحلفاؤهم السوريون، بسبب طبيعة نظام الأسد التي لا يمكن التنبؤ بها والوعد المعترف به علانية والذي قطعته موسكو بضمان تعادل سوريا الاستراتيجي مع إسرائيل. ومع ذلك فإن الهدف الخفي لتلك المعادلة هو تمكين القوات المسلحة السورية من شن هجوم «خاطف» غير معلن يستهدف انتزاع السيطرة على مرتفعات الجولان والخليل قبل أن يتمكن الإسرائيليون من تعبئة قواهم. إن

المعلومات التي زودت بها الإسرائيليين يجب على أقل تقدير أن تمكنهم من التغلب على معظم أسلحة الدفاع الجوي السوڤييتية التي يعتمد عليها السوريون لتزويد قوات غزوهم بمظلة جوية متحركة ضد هجوم جوي إسرائيلي».

قال بولارد: وإذا افترضنا أن إسرائيل استطاعت أنْ تحيّد بسرعة تلك الدفاعات الجوية السورية، فإن الهجوم السوري يمكن صده في أقرب مسافة ممكنة من الحدود.

وذكر أن تلك الصواريخ السورية المضادة للطائرات ذاتها «أخرجت من السماء» نفاثتين بحريتين أميركيتين خلال تورط الولايات المتحدة في لبنان، وأضاف أن تلك الصورايخ هي السبب الرئيسي الذي يجعل الإدارة الحالية تتجنب مقابلة دمشق بالمثل حتى لو كان «دخان البندقية» المنبعث في حادث إرهابي يؤدي اقتفاؤه إلى مكتب السيد الأسد.

قال بولارد: «في حال تطلب الأسطول السادس الأميركي في البحر الأبيض المتوسط مساعدة إسرائيلية كدعم إضافي في وجه السوڤييت أو السوريين فسيكون مدعاة للامتنان أن يتمكن سلاح الجو الإسرائيلي من معالجة محيط التهديد دون إضاعة الوقت إلى جانب فقد بضع طائرات في بادىء الأمر».

لم يقصر بولارد المعلومات التي جمعها على الاتحاد السوڤييتي وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية. فقد جمع وثائق عن تهديدات محتملة أخرى تواجه إسرائيل بما في ذلك الباكستان. وبوجه خاص أعطى الإسرائيليين معلومات حول برنامج الباكستان لصنع قنبلة نووية. بما فيها صور أقمار اصطناعية كبيرة الحجم لمرفق مفاعلها النووي خارج إسلام أباد. وقد أتت دراسته مطولة مرافقة لمخابرات الولايات المتحدة على وصف سيناريو يتضمن هجوماً جوياً إسرائيلياً على نسق الغارة الإسرائيلية ضد المفاعل العراقي. وقد أخذت فوتوغرافياً استطلاع الولايات المتحدة صوراً مفصلة لا تُصدق للمصنع الباكستاني - وهي صورة موجودة الآن في حوزة إسرائيل.

قال بولارد: «وبصرف النظر عن سوريا، قدمت للإسرائيليين معلومات استراتيجية خطيرة تتعلق بالطوق الخارجي لأعدائهم. أي ليبيا والجزائر والعراق والباكستان. والتهديدات التي تشكلها دول «جبهة الرفض» هذه لا تقل واقعية عن التهديدات السورية».

لقد عجب أيما إعجاب لمدى حاجات إسرائيل: «لقد لقنتني درساً قيماً كيف أن الإدراك المقبول لقدرات جمع مخابرات إسرائيل يمكن أن يكون مضللاً برمته. فليسوا بأية حال أساطين المعرفة بكل ما يتعلق بالشرق الأوسط. وقد أرغموا على تركيز أفضل مصادر قواهم البشرية والتقنية ضد سوريا التي تمثل أعظم تهديد مباشر لبقائهم». وأضاف بولارد: أنه في الوقت الذي بدأت «أدرك أنني كنت في الواقع أقدم معظم المعلومات التي تصل إسرائيل عن أخصامها النائين، اتضحت لي خطورة وضعهم غير المستقر».

كذلك طلب مديرو بولارد الإسرائيليون منه تقديم المعلومات التي يمكن أن تفيد العديد من مشاريع الدفاع الخاصة بإسرائيل بما فيها إمكانية تطوير منصة استطلاع عبر الجو، كما طلب منه إبداء رأي حول الأسلحة التي قد تثبت فعاليتها في حماية منشآت تعبئة النفط في جزيرة خرج الإيرانية من هجوم جوي عراقي.

كما أعد كتاباً مطولاً إلى ياغور يصف شتى منظومات الصورايخ التي صممها أو صنعها مختلف الأقطار غير الشيوعية والتي يمكن بيعها لإيران، بما فيها منظومة إفرنسية بيعت إلى جنوبي إفريقيا وتعرف باسم كاكتوس. وقد عاد هذا الكتاب ليلعب دوراً خاصاً جداً في إزعاج بولارد.

لقد دافع بولارد عن قراره بمساعدة الإسرائيليين لمعرفة إمكانات بيع الأسلحة إلى إيران. واعترف بأن «الزعامة الدينية لإيران معارضة بقسوة لبقاء إسرائيل». ورغم ذلك أكدّ أن هزيمة القوات المسلحة الإيرانية في حرب الخليج الفارسي ستترك الحرية للعراق لنقل عدد كبير من الوحدات إما لمرتفعات الجولان أو وادي نهر الأردن، الأمر الذي يزيد التهديد للحدود الشرقية لإسرائيل».

استطرد بولارد: «بتعبير أدق، إن مصلحة إسرائيل في دوام حيوية إيران هي العمل بالمثل السائد إن عدو عدوي صديقي». ومع أن هذا الضرب من التفكير قد لا يكون لأول وهلة مستحسناً لدى كثير من الأميركيين المعتادين على سياسة خارجية أكثر مثالية إلا أنه رأي غير معروف ألبتة في سياسة الولايات المتحدة الاستراتيجية بوجوب الحفاظ على السلامة الإقليمية لإيران منعاً لنشوء فراغ قد يسهّل تقدماً سوفييتياً نحو المحيط الهندي.

«أنا على يقين من أن تشرشل لم يعد يستمتع بالتعامل مع ستالين خلال الحرب العالمية الثانية أكثر مما كنت أوصي بتوفير الأسلحة الدفاعية المناسبة لإيران. إلا أن منطق سياسة مراعاة مصلحة الوطن كثيراً ما تتطلب من المرء الاختيار بين أهون الشرين ـ وبالنسبة لي، فإن الحاجة كانت أعظم لإبقاء النظام العراقي منشغلاً بمحاربة إيران قوية عسكرياً في ساحة قتال بعيدة عن الحدود الإسرائيلية، إذا أريد الحفاظ على التوازن الاستراتيجي الدقيق بين دمشق والقدس».

وهكذا أراد أن يُضفي على الكتاب لياغور بعض المبررات. وأكد: «إن إسرائيل ملتزمة بالإبقاء على قدرات إيران العسكرية التقليدية لتأكيد احراج الشاه في حرب الخليج الفارسي. ونظراً لأن الولايات المتحدة حذرت إسرائيل مراراً في الماضي من شحن الأسلحة علانية إلى إيران فقد عهد الإسرائيليون بهذا النشاط بكل لباقة إلى وسطاء سريين يمكن إنكارهم في حال افتضاح أمرهم».

وفقاً لبولارد اختير «أوزي» لذلك المشروع. وفي خريف ١٩٨٥ على وجه التحديد احتاج الإيرانيون إلى الدفاع عن مرفقهم في جزيرة خرج ضد غارات العراق الجوية المتعددة. وطُلبت آرائي حول كيفية تحقيق ذلك الهدف، «علماً بأني كنت في الواقع في أفضل وضع لمعرفة حقيقة الأسلحة التي كان يستخدمها سلاح الجو العراقي لمنع مجمع تعبئة النفط».

كذلك قدم بولارد للإسرائيليين مقداراً كبيراً من استخبارات الولايات المتحدة المجموعة عن ما اعتُبر الدول العربية الأكثر اعتدالاً ـ مصر والأردن والعربية السعودية وغيرها. وقد وصف تلك الدول بأنها «تهديدات مستترة لإسرائيل لا يمكن لأية دعاية قلب حقيقتها».

وهكذا اتهَمَ بأنه رغم معاهدة سلام مصر مع إسرئيل لا تزال الأركان العامة المصرية تقدّر أفضل السبل لشن حرب في الصحراء القاحلة في شبه جزيرة سيناء. وأضاف أن السعوديين منهمكون في «توسيع لا يصدق» لمجمعهم العسكري ـ الصناعي في تبوك غير البعيد عن إيلات ميناء إسرائيل الجنوبي. فضلاً عن أن السعوديين يزودون السوريين بما يزيد عن تسعين في المائة من العملة الصعبة التي يحتاجونها لشراء الأسلحة من الاتحاد السوفييتي

استطرد بولارد: «ومهما يكن لم تشر المعلومات إلى أن أياً منهما تعامل مع التمرينات العسكرية أو الاتفاقات الدبلوماسية أو خطط الطوارىء العسكرية السرية المشتركة بين الولايات المتحدة ومصر أو الولايات المتحدة والعربية السعودية».

ربما كان لأهم وثيقة مفردة قدمها بولارد إلى إسرائيل تألفت من كتيب مطول حساس للغاية عن استخبارات الاتصالات الأميركية الأولوية لدى مديريه في الحصول عليها. واعتقد الاسرائيليون أن هذا الكتيب سيساعدهم على كسب الحرب القادمة. ولم يكن لدى الولايات المتحدة نية مشاركة إسرائيل أو أية دولة أخرى فيه لأن ذلك يعرض للخطر جمع ذلك النوع من الاستخبارات في المستقبل، وقال مسؤولو الولايات المتحدة إنه إذا عرفت إسرائيل ما حواه ذلك الكتيب فستتخذ إجراءات معينة لا بد أن تشير إلى الدول المعادية أن الولايات المتحدة نفذت إلى اتصالاتها الأكثر حساسية. والواقع أن الكتيب أتاح لإسرائيل التجسس حيثما أرادت على وجه التقريب.

أكدّ بولارد «أن قيمة المادة التي قدمها للإسرائيليين، في التحليل الأخير، تتجاوز كثيراً الفائدة التكتيكية المباشرة التي تضفيها على قادة ميدانهم: بإعطاء كبار مخططي الدفاع الإسرائيليين صورة مفصلة لطبيعة تهديد محيطهم في المستقبل، يتسنى للزعامة السياسية للدولة تفصيل سياسة خارجية قائمة على حقائق بدلاً من مغامرات موضع جدل».

كما برر نشاطه بإقناع نفسه أنه كان يعمل حقاً على تعزيز السلام. وقال: «إن المصلحة العسكرية لإسرائيل تشكل حافزاً لعملية السلام، إذ ما من حكومة إسرائيلية مسؤولة تفكر في التنازل عن منطقة قيّمة ما لم تُجر تقديراً دقيقاً للخسارة المحتملة التي قد تلحق بالأمن العسكري للدولة نتيجة قرار كهذا. . . وأنا مقتنع بأن ما فعلته سيعجل اليوم الذي يمكن فيه بلوغ السلام في المنطقة، لأنه بدون كثير من المعلومات التي قدمت تكون المؤسسة العسكرية الإسرائيلية أقل ميلاً للثقة بتأكيدات زعامتها السياسية الخاصة، ناهيك تلك الصادرة عن عدو تقليدي».

الجزء الثاني

السجين

الفصل العاشر

مغتاظ ومكتئب ومرتبك

كان بولارد القابع في السجن لا يزال في حيرة للمشهد في السفارة الإسرائيلية. لماذا أقدموا على طرده؟ لقد أكدّ له رافي إيتان مراراً أن إسرائيل ستخلصه إذا افتضحت العملية في وقت ما. وقال بولارد فيما بعد: لماذا كذب علي رافي بهذا الخصوص أمر يستعصي عليّ فهمه. فبدلاً من الهرب عندما توافرت لي الفرصة، تعمدت التنكر لضمان فرار آفي ولتحويل ارتياب وكالة الاستخبارات الأميركية نحو مؤسسات دبلوماسية أخرى، الأمر الذي أمّن سفر ياغور ورافيد. لقد قمت بكل ما كان مفروضاً بي فعله. ولم يدر في خلدي ألبتة أنني سأقوم بدور مؤخرة قابلة للضياع إذ إن العرف الأوّلي في مثل هذه الأمور يقضي بإنقاذ الجاسوس في أسرع وقت ممكن.

خلال ذلك الاستجواب الأول بعد الاعتقال اعتبر بولارد أن تصريحيه الخطيين في ١٩ و٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ـ الثلاثاء والأربعاء الماضيين ـ كانا صحيحين من حيث علاقتهما بتفاصيل العمليات. وهكذا أثبت طبيعة الوثائق التي فضحها وتوقيت التسليمات غير المرخصة وتعددها ومقدار الأتعاب الشهرية التي تلقاها. إلا أنه اعترف بأن الشخص الذي كان يبيعه الوثائق ما يزيد على السنة لم يكن كورت لوبيك، الصديق الأميركي الذي سبق أن سماه. واعترف أنه لفق اسم لوبيك كي يُبعد الشبهة عن الجواسيس الحقيقيين.

في تلك الجلسة الأولى بعد الاعتقال اعترف بولارد أيضاً أنه حاول التهرب من استجواب آخر والاعتقال في نهاية الأمر بالحصول على لجوء سياسي في السفارة. وأوضح أنه كيهودي، كان يأمل أن يُمنح اللجوء السياسي بشكل روتيني بموجب قانون العودة الإسرائيلي. واستغرب رفض موظفي أمن السفارة منحه وزوجته حق الدخول. ورغم الاستجواب المستمر، فقد رفض بحزم الإفصاح عن جنسية، ناهيك بأسماء الأشخاص الذين كان يزودهم بالمعلومات.

كذلك لم يَبُح بولارد بمكان وجود الوثائق المنسقة التي سلمها لها باستثناء القول إن الوثائق

المحفوظة في الحقيبة في شقته سُلمت إلى أحد «معارفه» ثم نُسخت وأعيدت إليه. وعندما سأله رجال المباحث عما إذا كان قد زود في وقت ما معلومات منسقة إلى ممثل الحكومة الإسرائيلية أجاب بكلمة واحدة: «نعم».

ولكن وفقاً لمستندات الحكومة، لم يساعد هذا الرد الإيجابي مادياً على تقدم تحقيق رجال المباحث، إذ إن بولارد عمل في مناسبتين عضواً في فريقين أميركيين اجتمعا مع نظيريهما الإسرائيليين لتبادل المعلومات والوثائق بشكل مرخص. وحتى بعد طرد بولارد من السفارة مغتاظاً ومكتئباً ومُربكاً ظل يحاول كعهده حماية إسرائيل.

قال بولارد فيما بعد: «إن التصورات المكتسبة على مر الحياة لا تمّحى بين عشية وضحاها. ولم أنفكّ أعتقد رغم كافة البينات المناقضة أننا لن نُخذل».

مع ذلك بدأ يفقد الثقة. وفي مؤخرة ذاكرته تراءى له الجواسيس الإسرائيليون الآخرون الذين أُلقي القبض عليهم في أمكنة أخرى وزجوا في السجن سنوات عدة. وسمع بمسألة لافون المشؤومة سنة ١٩٥٤ عندما قُبض على عملاء إسرائيليين في القاهرة إثر محاولاتهم وضع قنابل في المنشآت الأميركية والبريطانية هناك. وقد وجه اللوم من قبل البعض في إسرائيل إلى وزير الدفاع بنحاس لافون للحادث المؤسف. والإسرائيليون الذين استخدموا يهوداً مصريين في العملية، أرادوا تقويض علاقة الرئيس المصري جمال عبد الناصر مع واشنطون ولندن بإعطاء الانطباع بأن الحُكم المصري لم يستطع حماية مصالحهما.

قال بولارد فيما بعد إنه كان أيضاً مطلعاً على عملية التجسس الإسرائيلية في سويسرا سنة ١٩٦٨ للحصول على تصاميم الطائرة المقاتلة النفاثة ميراج الفرنسية الصنع. وقد استخدمت إسرائيل لاحقاً تلك التصاميم للمساعدة على تطوير مقاتلتها النفاثة كفير الخاصة بها. إلا أن مهندساً سويسرياً، ألفريد فراون كينجنت، كان يعمل مع الإسرائيليين في تهريب العملية اعتقل أخيراً من قبل السلطات السويسرية واقتيد إلى السجن عدة سنوات.

قال بولارد: «سمعت بفضيحة لافون وما حدث لألفريد فراون كينجنت، ولكني أقنعت نفسي بأن هذه الأمور ليست سوى انحرافات لن تتكرر على وجه التأكيد. وعندما تقدمت إلى الاستجواب الأول في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر وبدأت «اعترافي» كعميل للاستخبارات العسكرية الباكستانية أخذت أقدّر شعور طياري الكاميكاز قبيل اندفاعهم نحو أهدافهم. إنه شعور مثالي يطغى على امرىء يضع رأسه طوعاً تحت مقصلة من أجل قضية أسمى من ذاته. بمعنى أنني قضيت الأشهر الثمانية عشر الماضية في ابتداع قصص فذة ومتقنة كمقدمة لأروع ملحمة»(*).

(*) أوضح بولارد فيما بعد في كتاب لي: «أود أن أكون في غاية الجلاء. لا أعتقد أن العملية كانت خطأ (وضع خطاً تحت كلمة «لا»). إذا سلمنا بالأخطار التي أثارتها لمعادلتها، كانت المسألة عملاً رئيسياً. ولو أن خطة فرار محكمة نفذت على سبيل الافتراض، لانخفضت مخاطر الافتضاح إلى مستويات مقبولة «لقد كتب بولارد والمرارة تعتصر

خلال ذلك اليوم المتوتر بشكل لا يصدق كان بولارد قلقاً بوجه خاص على آن. «إن الشخص الوحيد الذي كنت قلقاً عليه حينذاك هو آن، إذ كان من المفروض أن ترافقني إلى السفارة. وإذا فشلت تلك المناورة فلا بد أنها وقعت في دوامة لا ترحم ليست من صنع يدها. كان باستطاعتها مغادرة البلاد مع آفي ولكنها قررت التخلف لأنها شعرت أن مكانها كان إلى جانبي رغم المخاطر التي يشكلها ذلك عليها. وبغض النظر عن أنها كانت في الواقع الشخص المسؤول عن إنقاذ رقبة آفي فقد عرف الإسرائيليون خطورة حالتها الصحية. ومع ذلك تركها أولئك الأفاكون تبلى في السجن ثلاثة أشهر دون أية معالجة طبية. كان في مقدورهم على الأقل إعلام الأميركيين أنه لم يكن لها أي دخل في العملية. ولذا كان إطلاق سراحها لدوافع إنسانية مناسباً. وكنت على يقين أن أي التماس كهذا سيلقى آذاناً صماء، بيد أنه كان في الإمكان القيام بمسعى نيابة عنها.

أنا على ثقة أنه لو أخبرني الإسرائيليون استحالة إنقاذي لعدم تنظيم رافي خطة في الواقع لاحتمال كهذا. ولكنهم كانوا على استعداد لإخراج آن (بالقوة) من البلاد، لكنت سرت على بركة الله وأنزلت الهيكل عن رأسي. لا أقول إنني ضحية مبدأ. إنما أنا أدرك أن ثمة لحظات يتوجب فيها على المرء أن يضع مصالح الدولة قبل نفسه. بيد أن هذا النوع من الخيار ما كان ليتأرجح أمامي لو أن رافي أبدى درجة دنيا من الاهتمام بسلامتي. ولا أدري ما الذي كان يجول في خاطره.

ذكر بولارد أنه منذ البداية كان قد حذر مراراً من نقائص في العملية. إلا أن إيتان لم يفعل شيئاً لإصلاحها. أوضحت له ذلك باستمرار خلال سير العملية بخصوص المال الذي لم أستطع إعادته والرحلات التي لم أتمكن من تعليلها والفنادق التي طُلِب منا الإقامة فيها والتي كانت بجلاء فوق إمكانياتنا المالية. وبطاقات الدفع التي ألح على استعمالها رغم مساوئها الواضحة وحجم المادة التي أرادها مما جعلني أعدو في المدينة كدجاجة مقطوعة الرأس. ولا ننس حساب المصرف السويسري الذي لم أطلبه إطلاقاً ولم أتوقع قط استعماله. فما الذي كان يفعله في اعتقاده؟ لم يكن المفروض أن تكون هذه المهمة انتحارية وحتى لو كان الأمر كذلك لقد اعتراني شعور مرير بأن حبة «ل» التي أعطيت لي تحولت إلى دواء لمجرد الإرضاء!

بعد اعتقال بولارد بساعات حصل مخبرو وكالة الاستخبارات الأميركية على إذن تفتيش لفتح

قلبه، حول «الإجراءات الناقصة بشكل إجرامي والتي اتخذت فيما يتعلق بضمان سلامتي في حالة الفرار»

وعندما طلب مني المجيء إلى السفارة لم أستطع أن أصدق أذنيّ. إذ إن في ذلك على وجه التأكيد هدماً لكل ما استطعت بناءه طوال اليومين السابقين من الاستجواب «غير الودي» إلى حدٍ ما. عندئذٍ أدركت أن المسألة برمتها كانت تتفكك خطوط التحامها، نظراً لأن اليد الواحدة لم تكن تدري ما تفعله اليد الأخرى. وما زاد الأمور سوءاً أنه لم يكن أمامي بديل في تلك اللحظة. إذ إن القدر سبق أن خط مصيري كجاسوس.

ورغم الشك الذي قد يساورك في الحقيقة، صدقني إذا قلت إن جلدي أخذ فعلاً يقشعر عندما بدأت أدرك حقيقة ما كان يدور.

الحقيبة التي دعت آن جيرانها لاستردادها. وقد قدم المخبر الخاص نولت كامبر ومساعد المحامي شهادتهما الخطية بقسم إلى المحكمة وصودق على الإذن بشكل روتيني.

تبين أن الحقيقة كانت تحتوي على خمس وعشرين وثيقة منسقة تتعلق بالدفاع القومي بما فيها واحدة ختِمت سري للغاية. كما احتوت على مسودات ونسخ كتاب من بولارد إلى «يوسي» أوردت بعض المعلومات المنسقة التي حصل عليها بولارد - أي منظومات الصواريخ التي صممتها وصنعتها مختلف الأقطار غير الشيوعية والتي قد تتوفر للبيع إلى إيران، بما فيها واحدة تعرف باسم «كاكتوس». وقد أُعد هذا الكتاب فعلاً بعيد بدء الولايات المتحدة وإسرائيل مفاوضاتهما السرية مع إيران حول بيع الأسلحة مقابل الرهائن. وسبق أن حصلت إسرائيل على ترخيص الرئيس رونالد ريغان ببيع إيران صاروخ «تاو» الأميركي الصنع المضاد للدبابات وصواريخ هوك المضادة للطائرات. ولم تكن إسرائيل بحاجة لأخذ ترخيص أميركي لبيع إيران أسلحة غير أميركية الصنع.

بدأ تفتيش الحقيبة بعد ظهر الخميس واستمر حتى ساعة متأخرة من الليل. وذكرت الحكومة فيما بعد:

«ومما يجدر ذكره إن تفتيش مستوعب في قضية استخبارات مضادة أجنبية لا سيما المحتوي على ١٥ إلى ١٨ بوصة من الوثائق المنسقة لا يمكن إنجازه بسرعة. فالمخبر المفتش لا يستطيع أن يتصفح فقط الوثائق بحثاً عن أدلة. يجب أن تُلمس الوثائق بقفازات بحذر وترزم على حدة بحيث لا يُفسر نظام بينة مادية أخرى قد تكون موجودة كبصمات الأصابع أو الباثنات الدقيقة. فضلاً عن أن رجال المباحث القائمين على تفتيش الحقيبة يوم الخميس ليلاً رقموا صفحات الوثائق فقط، ودلالة كلمات كود مثل «كاكتوس» لا تكون ظاهرة».

إن رجال المباحث القائمين بالتفتيش، رغم خبرتهم الجلية بهذه الأمور، لم يكونوا نفس المخبرين الذين سبق أن استجوبوا بولارد. لذا لم يكن لدى المخبرين المفتشين - حسبما جاء في وثائق المحكمة - «معرفة إجمالية كسائر المخبرين الآخرين الذين تولوا التحقيق، كما لم يكن ذلك متوقعاً في تحقيق اشترك فيه أعداد لا حصر لها من المخبرين.

إن جيري آجي. الذي لم ينم أياماً، أمر بمحاولة إعادة تنظيم المعلومات التي حصل عليها بولارد والتي أغفلها بشكل دقيق. كان ذلك جزءاً مما سمي بعملية تقدير الأضرار. وكلِف مسؤولون آخرون بمساعدة آجي المنهك والمستنزف، في جمع المعلومات. وقال آجي فيما بعد: «كنت أعمل ساعات طوال جداً».

والغرابة الظاهرة كما كان ارتياب جيري في الأصل - أن إسرائيل كانت البلد المتورط في عملية التجسس - وقد أثبت جيري أنه كان على حق.

بعد ظهر يوم الخميس بالذات أُحضِرَ بولارد أمام القاضي الأميركي لمقاطعة كولومبيا جـ.

أتريدج. ومثل الحكومة هاري ر. بينر مساعد المحامي الأميركي. ومثل بولارد غوردون كوفي الذي عمل مع ريتشارد هيبي. أما الدكتور موريس بولارد المنذهل فلدى علمه بأن ابنه اعتقل في ذلك اليوم، طلب بِهوس من صديق في كلية نوتردام للحقوق تزكية محام جنائي قدير في واشنطون. وقد برز اسم هيبي الذي أرسل بدوره كوفي لتلك المرافقة الأولى لأنه كان في كليفورنيا في مهمة أخرى.

ذكر الدكتور بولارد: تلقيت مكالمة من آن تقول إنهم بحاجة إلى محامٍ في الحال. وأخبرته أن ابنه اعتقل بتهمة التجسس ـ «لقد نزل الخبر علي كالصاعقة». وطار فوراً إلى واشنطون لمراقبة ما كان يجري.

إن أتريدج الذي دعا لإجراء المرافعة في قاعة محكمة صغيرة ومزدحمة، طلب من الكاتب تحليف بولارد اليمين. وقف أمام القاضي بادي الانفعال وصوته أجش يكاد لا يسمع.

سأل القاضي: «المرجو أن تذكر لنا اسمك الكامل لسجلنا».

«يوناثان جاي بولارد».

ثم طرح القاضي عدة أسئلة روتينية عن أي عجز صحي يشكو منه بولارد قد يمنعه من فهم المرافعات. أجاب بولارد بالنفي. سأل القاضي إذا كان بولارد تحت تأثير أية مخدرات، رد بولارد نفياً.

عندئذٍ أخبر أتريدج بولارد أن الغاية من المرافعة مجرد إعلامه بما له من حقوق. وستتخذ الترتيبات لعقد جلسة تمهيدية «في الوقت الذي يتوجب على الحكومة تقديم بينة تثبت وجود مسبب محتمل لارتكاب هذا الإجرام الذي اتهمت به وسبب محتمل لارتكابه من قبلك».

أصغى بولارد وهو يهز رأسه. كانت يداه مكتفتين. لم يستطع تصديق ما كان يحدث في حياته.

استطرد القاضي: «والآن ليكن معلوماً لديك أنك اتهمت بانتهاك الفصل الثامن عشر، الجزء ٧٩٤ (١) من مجموعة قوانين الولايات المتحدة. إذ إنه خلال تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥ وضمن مقاطعة كولومبيا قمت متعمداً ومدركاً أن ذلك كان لمصلحة دولة أجنبية، بإبلاغ وتسليم دولة أجنبية مباشرة أو غير مباشرة وثائق وكتابات ومعلومات تتعلق بالدفاع القومي.

«وإذا أُدِنت بانتهاك ذلك الجزء فإن العقوبات هي الموت أو السجن عدداً من السنين أو المؤبد».

وقد تجهم وجه بولارد لدى سماعه الجملة الأخيرة.

«لقد اتهمت بانتهاك الفصل الثامن عشر، الجزء ٧٩٣ (أي) من مجموعة قوانين الولايات المتحدة التي تحظر حيازة أية وثائق وكتابات تتعلق بالدفاع القومي، والاحتفاظ بها قصداً، وأخفقت

في تسليمها إلى مسؤول أو موظف الولايات المتحدة المخول باستلامها.

وإذا أُدِنت بانتهاك هذا الجزء تكون العقوبات غرامة قصوى لغاية ١٠,٠٠٠ دولار أو السجن لغاية عشر سنوات أو كلتيهما».

عندئذٍ طرح أتريدج على بولارد عدة أسئلة إضافية لتقرير ما إذا كان يرغب في إطلاق سراحه لقاء كفالة. قال «أريد أن أذكرك وأحذرك أنك قيد اليمين».

طلب من بولارد ذكر عنوانه ووضعه العائلي وعمله ومكان ولادته وتعليمه. كما سئل عما إذا سبق أن اعتُقِل في وقت ما. أجاب بالنفي. وكان رده بصوت لطيف ولكن ثابت.

في ذلك الوقت طلب القاضي من بينر مساعد المحامي الأميركي توضيح دعوى الحكومة ضد بولارد. وقد اقترح بينر حرمان بولارد من الكفالة.

قال: «يا صاحب الفضيلة، فيما يتعلق بموضوع الالتزام تعتزم الحكومة المطالبة باحتجاز السيد بولارد نظراً لكونه يشكل خطراً على المجتمع وبسبب وجود خطر جدي للهروب في هذه القضية. فضلاً عن أنه في الواقع متهم بجرم يعاقب عليه لغاية السجن المؤبد، ومعلوماتنا، يا صاحب الفضيلة، أن السيد بولارد سافر مرتين هذا العام خارج الولايات المتحدة.

وحسب اعترافاته، ففي حيازته مبلغ كبير من المال قبضه لقاء النشاطات المذكورة في الشكوى. وثمة حقائق أخرى تبرر في رأينا احتجاز الحكومة للسيد بولارد بحيث تعقد جلسة احتجاز في أقرب فرصة مناسبة للمحكمة والفرقاء».

وافق القاضي ـ أن لا يُطلق سراح بولارد لقاء كفالة، وعين الأربعاء القادم موعداً للجلسة التمهيدية.

اقتيد بولارد تحت الحراسة من قاعة المحكمة وأُعيد إلى سجن مقاطعة كولومبيا حيث أجهش في البكاء. وظل طرده من السفارة مستولياً على تفكيره. لماذا جرى ذلك. ولم يجد جواباً.

عندما سأل المراسلون الصحفيون في ذلك اليوم ذاته جوزيف أي دي جينوفا، المحامي الأميركي لمقاطعة كولومبيا عن طبيعة الوثائق التي حصل عليها بولارد أجاب: لقد اتهم بالتجسس. وهذه لم تكن لائحة حضور فترة الغداء نادي الصحافة. كانت الوثائق منسقة للغاية.

إن مخيائيل هـ. أرماكوست وكيل وزارة الدولة للشؤون السياسية استدعى فيما بعد في ذلك المساء الدبلوماسي رقم ٢ في السفارة الإسرائيلية في واشنطون للمجيء إلى الطابق السابع من وزارة الدولة حيث استجوب حول اشتراك إسرائيل مع بولارد. كان السفير الإسرائيلي مائير روزين يلقي محاضرة في باريس. وقال روبنشتاين إنه لم يعرف شيئاً عن بولارد أو عملية التجسس المزعومة. قال إن الحكومة الإسرائيلية كانت تبحث المسألة بصورة مستعجلة.

يوم الجمعة ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر حصل مخبرو وكالة الاستخبارات الأميركية على تصاريح لتفتيش سيارة الموستانغ ١٩٨٠ وشقة بولارد والحقيبة والجزدان اللذين حملتهما آن إلى السفارة. لقد تأخروا قليلاً في تحقيقهم عندما تلفن خبير مهووس مكلف بمراقبة آن إلى المركز الرئيسي من سجن مقاطعة كولومبيا حيث مضت آن لزيارة زوجها. وأفاد المخبر، وفقاً لمستندات المحكمة، أن كافلاً في السجن كان يحاول إطلاق سراح بولارد من السجن رغم أمر القاضي في اليوم السابق. وذكرت الحكومة فيما بعد: «لقد بُذل كثير من الوقت والطاقة البشرية في محاولة للحيلولة دون إطلاق سراح بولارد. وأبلغ المخبرون مكتب قاضي المحكمة ومصلحة الإصلاحات. ولكن إذا أخفقوا في إبقائه في السجن فقد اعتزموا وضع بولارد تحت الرقابة المستمرة. وأوضحت الحكومة فيما بعد أنه لا حاجة للقول إن هذه الأزمة الظاهرة والتي حلّتها في النهاية مصلحة الإصلاحات دونما حدث، عملت على تأخير تحليل البنية.

قال الدكتور بولارد فيما بعد إنه هو أيضاً قد ذعر مبدئياً إذ تبين له بعد وصوله إلى واشنطون أن إجراءات قد اتخذت لإطلاق سراح ابنه لقاء كفالة. قال الأب: شعرت أن ذلك خطأ. لأنه لا يعلم أحد من يقف وراء الإفراج عنه. فباستطاعتهم إطلاق سراحه بغية خروجه وقتله. وقال: إن ما يجري «شيء سخيف». وأضاف متهكماً أن روعه هدأ عندما رُفضت الكفالة لابنه.

لم يتمكن رجال المباحث وكثير من مساعدي المحامين الأميركيين من الالتئام إلا مساء اليوم التالي. الجمعة ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر لفحص البيئة المتمثلة بالوثائق الموجودة في الحقيبة.

في ساعة متأخرة من تلك الليلة عاد مخبرو وكالة الاستخبارات الأميركية ووكالة الاستخبارات البحرية لتفتيش شقة بولارد. وُجدت أربع وثائق منسقة إضافية وملاحظات في أماكن خفية. لقد أغفلها الزوجان بولارد مساء يوم الأربعاء الماضي عندما كانا يهمان بالفرار. وأظهرت الشقة ما وصفته الحكومة فيما بعد «دليلاً واضحاً» على اعتزام الزوجين بولارد تركها بما في ذلك ثلاث حقائب كبيرة تحتوي على أوراق شخصية ورسائل ومذكرات ومستندات لحكومة الولايات المتحدة ممزقة باليد.

أمضت آن وحموها ـ وكلاهما في حالة من الارتباك والألم الشديدين لما كان يجري في حياتهما ـ معظم ذلك اليوم الجمعة في محاولة للحصول على إذن لزيارة بولارد في السجن.

ولكن نظراً لمصادرة جزدانها ومحتوياته لم يكن لديها معيّن الهوية كرخصة سواقتها اللازمة لدخول السجن. كانت بحاجة لمعين الهوية مع صورة لدخول ذلك السجن. أخيراً عادت إلى شقتها وعثرت على جواز سفرها الذي استخدمته لزيارته يومئذٍ.

بعد ذلك تناولت هي والدكتور بولارد في ذلك المساء طعام العشاء في قفطير مومسات في المستشفى العمومي بمقاطعة كولومبيا على مقربة من السجن. تناولا الطعام بصعوبة، وقد سردت بشكل عام بعض الأحداث فوق العادية في الأشهر الأخيرة. لم يكن ليصدق ما سمعه. تكلما همساً لعلمهما أنهما مراقبين. ولدى خروجهما تقدم منها رجلا مباحث من وكالة الاستخبارات الأميركية.

سأل أطولهما بصوت منخفض: «آن بولارد؟»

قالت: «نعم، من أنت؟».

قال: «نحن من قِبل وكالة الاستخبارات الأميركية».
وتلا عليها حقوقها.

الدكتور بولارد، وهو رجل قصير ذو شخصية دمثة ومطمئنة، تجهم وجهه. حاول ـ دون جدوى ـ التدخل. قُيدت يداها واقتيدت إلى سجن مقاطعة كولومبيا.

في اليوم التالي حَكم روفوس كنغ، قاضي المحكمة العليا، بأنه يمكن توقيف آن دون كفالة حتى تنظيم مرافقة تمهيدية يوم الاثنين ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر. وقد أمضت نهاية الأسبوع في السجن. كانت رفيقاتها في الحجرة بعض المومسات المتمرسات ومتعاطيات المخدرات في واشنطون اللواتي كن يعيّرنها دون توقف.

في ذلك اليوم الجمعة أخبر شارلز ردمان، الناطق بلسان وزارة الخارجية مراسلي الصحف موجِزاً الأخبار اليومية: «لقد صُدمنا وحزِنّا لفكرة أن شيئاً كهذا يمكن أن يحصل. وقد اتصلنا بالإسرائيليين في محاولة لمعرفة أبعاد ذلك. وليس لدينا كافة الحقائق».

السناتور الجمهوري داڤيد ف. دورنبرغر، رئيس لجنة مجلس الشيوخ المختارة للاستخبارات أذاع بياناً قال فيه: «إن هذا العمل الغادر والخائن الذي قام به موظف مؤتمن مدفوع لمجرد المال شيء مروع. إنه يعزز مرة أخرى الحاجة لعمل فوري بشأن المقترحات المتعددة لتحسين الاستخبارات المضادة التي هي قيد الاعتبار في الإدارة وأمام لجنتنا».

في القدس ذكر آڤي بازنر الناطق بلسان وزارة الخارجية أن الحكومة الإسرائيلية لا تعرف شيئاً عن بولارد. وقال: ليس لدينا أدنى فكرة حول هذه المسألة. إننا ندقق بتلك القصة وبعد معرفتنا الحقائق، عندئذٍ فقط يكون ثمة رد فعل رسمي.

في ساعة متأخرة من بعد ظهر الجمعة توجه موشي أرينز، الوزير بلا وزارة، وهو سفير إسرائيلي سابق في واشنطون إلى وزارة الخارجية في مقابلة محددة سابقاً مع وزير الخارجية جورج شولتز. وقد رافق أرينز داڤيد ماتناي، المستشار السياسي للسفارة الإسرائيلية، ويوسي غال، الناطق الصحفي بلسان السفارة. أما روبنشتاين وهو يهودي شرقي، فلم يشأ السواقة مساء الجمعة ـ بعد بدء السبت اليهودي.

نشأت صداقة شخصية حميمة بين أرينز وشولتز في غضون تولي الإسرائيلي منصبه في واشنطون. وقد عمل أرينز وزير دفاع في ربيع ١٩٨٤ عندما أجرى بولارد أول اتصال مع سيللا.

قبيل نهاية اجتماعهما أثار شولتز موضوع قضية بولارد.

قال شولتز «ميشا» منادياً أرينز بتسمية الودية. «لا بد أن أبحث معك قضية أخرى». وأبدى فزعه الشديد لعلمه باشتراك بولارد مع إسرائيل.

أجاب أرينز: «أنا لست أقل منك دهشة» مقترحاً الانتظار ريثما يحصلان على كافة الحقائق قبل إبداء رد فعل حول القضية.

كذلك أصيب شولتز والرئيس رونالد ريغان بالارتباك إذ سألا الوزير بمضض لدى عودتهما على متن طائرة سلاح الجو الأولى إلى واشنطون من اجتماع القمة الأميركي السوفييتي في جنيف: «لماذا قاموا بذلك؟».

عندما عاد أرينز بعد يومين إلى إسرائيل أخبر مراسلي الصحف أنه أخفق في تهدئة المخاوف الأميركية. قال «إن انقشاع الدخان يتطلب وقتاً. لدينا مشكلة هنا ومن المهم أن نحلها. لا أعتقد أننا نجحنا في تهدئة الموقف».

بعدئذٍ في ذلك اليوم الجمعة، أعادت وزارة الخارجية النظر في موقفها وأذاعت هذا البيان:

تلقت الزعامة السياسية الإسرائيلية بصدمة وذعر التقارير من واشنطون التي اتهم بموجبها مستخدم في القوات البحرية للولايات المتحدة بالتجسس لإسرائيل. إن مثل هذه الأعمال في الولايات المتحدة تتناقض تناقضاً كلياً مع سياسة الحكومة الإسرائيلية، وإن سياسة إسرائيل هي الإحجام عن أي نشاط استخباراتي يتعلق بالولايات المتحدة نظراً لعلاقات الصداقة الحميمة والخاصة السائدة بين البلدين. ويجري فحص دقيق لتقرير ما إذا كان ثمة أي انحراف مهما كان نوعه عن هذه السياسة. وإذا حدث انحراف كهذا عندئذٍ تُرسم الاستنتاجات الضرورية.

سألت جريدة هاآرتس الإسرائيلية أيسير هاريل وهو رئيس سابق في الموساد عما إذا كان من الممكن حصول نشاط تجسسي من قبل سفارة واشنطون بدون تفويض عالي المستوى من القدس أجاب: «ذلك ممكن نظرياً، حتى بالرغم من أن مثل هذا النشاط لا يتم عادة دون توجيهات من فوق».

يوم الإثنين وبعد أن أمضت آن هندرسون بولارد ثلاثة أيام في السجن مَثُلت أمام القاضي باتريك أتريدج. ومثَّلها جيمس هيبي (أخ ريتشارد هيبي). ومثل الحكومة شارلز ليبر، المساعد الرزين للمحامي الأميركي. وقد حُلِّفت اليمين وطُرح عليها الأسئلة الروتينية التي وجهت إلى زوجها يوم الخميس الماضي. وعندما سئلت عن اسمها الكامل أجابت: «آن هندرسون بولارد». وذكرت أنها خالية من أي عجز بصري أو سمعي. ولكن محاميها أفاد بأنها كانت تتعاطى علاجاً موصوفاً معيناً. وأجابت بالنفي عندما سئلت عما إذا كان ذلك يؤثر على قدرتها على فهم الدعوى القضائية.

قال القاضي: «لقد اتهمت الآن بانتهاك الفصل الثامن عشر، الجزء ٧٩٣ (أي) من مجموعة قوانين الولايات المتحدة الذي هو فعلاً حيازة ونقل غير مرخصين لوثائق دفاع مصنفة. وإذا أُدِنت فإن

العقوبات غرامة قصوى قدرها ١٠,٠٠٠ دولار وسجن مدته القصوى عشر سنوات أو كليهما».

سأل القاضي ليبر إذا كانت الحكومة قد اتخذت موقفاً إزاء مسألة إطلاق السراح قبل المحاكمة.

أجاب: «نعم يا صاحب الفضيلة. إننا نطلب تعيين جلسة المرافعة يوم الأربعاء».

سأل القاضي: «أي الوقت ذاته كالزوج السيد بولارد؟»
«أجل، سيدي».
«هل هذا مُرضٍ، يا سيد هيبي؟».

أجاب هيبي: «من أجل القيود، اسمي جيمس هيبي. إنني أمثل السيدة بولارد. سنسجل رفعاً فرعياً بالبراءة ونطلب جلسة مرافعة تمهيدية. وسنكون على استعداد لجلسة المرافعة يوم الأربعاء».

سأل أتريدج: «هل من شيء آخر في هذه الآونة؟»

قال هيبي: «كان ثمة مشكلة صغيرة في السجن. بمعنى أنها، كما بينت، تتعاطى علاجاً موصوفاً لبعض المشاكل الصحية لديها. ولم تتمكن حتى الآن من تناوله في السجن». وتلك مُقدمة للسماح لها بتناول علاجها. واستطرد: «وبدونه لا تستطيع الأكل. وهي لم تتناول الطعام. لذا من الضروري تعاطيها العلاج».

سأل القاضي: «سيد ليبر؟»
أجاب: «لا مانع، بشرط مصادقة الطبيب بالطبع».

وافق القاضي: «حسناً». وأمر بأن يقوم طبيب في المستشفى العمومي لمقاطعة كولومبيا بمقابلة آن وذلك بغية «تثبيت حاجتها للدواء الموصوف. . . وفي غضون ذلك تُوقَف المدعى عليها بدون كفالة».

كانت القاعة الصغيرة للمحاكمة في محكمة المنطقة الأميركية مقاطعة كولومبيا تغص بمراسلي الصحف وقناتي شبكة التلفزيون وغيرهم بعد ظهر الأربعاء ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر عندما دعا القاضي أتريدج جلسة المرافعة التمهيدية إلى الانعقاد. وفي هذه المرة انضم إلى ليبر داڤيد جينسون مساعد محاكم أميركي آخر. كذلك كان حاضراً كلا الأخوين هيبي.

كان بولارد يرتدي بذلة بنية وقميصاً قرنفلياً وأربة متناسبة عندما أُحضر إلى قاعة المحكمة. كما أحضرت زوجته التي ارتدت ثوباً أرجوانياً وأسود. خيم على الغرفة الصمت. وأُجلسا قرب محاميهما عندما طلب أتريدج من الحكومة دعوة أول شهودها، أوجين نولت كامبر، المخبر الخاص في وكالة الاستخبارات الأميركية الذي حُلف اليمين.

في بدء إجابته عن أسئلة ليبر قال: إنني مُعين في مكتب ميدان واشنطون. وأنا معين في سرية

الاستخبارات المضادة الأجنبية. وقال إنه عمل لدى وكالة الاستخبارات الأميركية أربعة عشر عاماً ـ العامان الأخيران في السرية.

ذكر نولت كامبر أن وكالة الاستخبارات الأميركية ومصلحة الاستخبارات البحرية كانتا تتوليان معاً التحقيق مع المدعى عليهما. وقال إن بولارد حصل في خلال عمله، على «وثائق تتعلق بالدفاع القومي».

في استجواب متلاحق قال نولت كامبر إن بولارد اعتقل لاستجواب أولي في ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر. وكان يحمل مغلفاً يحتوي على وثائق الأمن القومي التي كانت حساسة لدرجة أنها اقتضت «خزانة خاصة كما كانت محاطة بحراسة مستمرة أو جرس انذار».

قال رجل وكالة الاستخبارات الأميركية إن الستين وثيقة على وجه التقريب في المغلف ركزت على قدرات التسلح لبلدان أجنبية لم يحددها. وقد صدرت إليه التعليمات مقدماً بعدم ذكر أسماء البلدان الأجنبية تلافياً لانفجار نوع من الأزمة الدبلوماسية.

قال نولت كامبر إن الوثائق شملت «قدرات جمع الاستخبارات لأقطار أجنبية».

تحدث بعبارات قصيرة جازمة. ثم وصف مكالمتي بولارد إلى زوجته مستخدماً كلمة الكود «كاكتوس» في دعوته إياها لإخراج الوثائق المصنفة من البيت. وروى محاولاتها إقناع الجيران بالمساعدة. «أرادت تسليمها لها في فندق حيث يمكنها حرقها». وقال: لقد أظهر التفتيش فيما بعد أن تلك الوثائق تضمنت معلومات حول القدرات العسكرية للولايات المتحدة وبلدان أجنبية».

أوضح نولت كامبر أنه لم يكن مرخصاً لا لآن ولا للجيران الاطلاع على تلك الوثائق التي كان على صفحة غلافها باللون الأحمر الناصع عبارة: «سري للغاية».

ثم ذكر محاولة بولارد دخول السفارة. كانت عربة دبلوماسية تدخل المجمع عبر البوابة، تتبعها الموستانغ.

سأل مساعد المحامي الأميركي: «ماذا حدث للبوابات آنئذٍ يا سيد؟»
«أُغلِقت».

وصف المخبر المشهد في السفارة ولاحظ أن بولارد أخبر وكالة الاستخبارات الأميركية بعد اعتقاله أنه اتصل هاتفياً بالسفارة وأُخبر أنه «إذا استطاع خرق رقابته فليدخل». أدرك بولارد أنه قيد المراقبة إلا أنه قرر بالرغم منها الاستمرار في محاولته.

استطرد نولت كامبر «خلال تلك المقابلة اعترف بولارد أيضاً بأنه أفشى سابقاً أسراراً تتعلق بالأمن القومي طيلة حوالي ثمانية عشر شهراً». وسئل عما إذا اعترف بولارد بقبض دفعة، أجاب المخبر «لقد دفع له ٢,٥٠٠ دولار في الشهر بالاضافة إلى قبضه تكاليف رحلتين إلى أوروبا».

واصل نولت كامبر نقل قول بولارد: إن الوثائق التي اكتشفت في الحقيبة سُلمت إلى إسرائيل لنسخها على أن تعاد إلى مكتبه «لأنه وقع على إخراجها وقيدت عليه».

عندئذٍ وجه ليبر، وهو مدع حازم، عادي المظهر، يترك انطباعاً بأنه لا يعرف الابتسام، أسئلته إلى مخبر وكالة الاستخبارات الأميركية حول آن. وفي الدعوى القضائية قال نولت كامبر: إنه عند اعتقال آن في النهاية كان معها جواز سفرها في حقيبتها. واستنتج من ذلك أنها كانت تعتزم الفرار من البلاد.

إلا أن محاميها جيمس هيبي، شرح سبب حيازتها على جواز سفرها. إذ إن المعيّن الوحيد للهوية الذي تركته مع صورة لها عليه. لقد احتاجته للدخول إلى السجن. كما شدد هيبي على أنه لم يكن ثمة شيء «مشؤوم» في اتصالاتها بالسفارة الصينية. كانت تحاول الاشتراك مع مسؤولين آخرين في شركة نيويوركية المقر للعلاقات العامة مجرد الحصول من الصين على عقد لسبل التدريب. وقال هيبي: كان ثمة «تعليل بريء جداً» للعرض الذي قدمته في السفارة الصينية.

قال القاضي: «لم يدلوا بتلميحات مشؤومة» والدليل ضدها أنه كان لديها وثائق مصنفة غير مرخصة وعلاوة على ذلك كانت في كيس لديها تحت الدرج، أو ما شابه، أو حقيبة تحت الدرج وطلبت من شخص آخر أخذها. والنطاق الآخر ـ حول السفارة الصينية ـ ليس ذا أهمية تذكر في هذه المرحلة ولا دخل لي به».

أما جيمس هيبي، ذو الصوت العالي فقد استدعى طبيب آن، هربرت موسكوڤيتش، ليشهد على صحتها. وصف الإجراء الذي قام به صباح الخميس الماضي، ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر. ولدى استجواب القاضي قال الدكتور موسكوڤيتش إنها كانت «كسلى» لدى تركها المستشفى في ذلك الصباح. وأضاف «ربما كانت بطيئة نوعاً ما في الإجابة، ولكنها كانت تتكيف حسب الزمان والمكان والظروف».

دعي الدكتور موريس بولارد فيما بعد للشهادة في جلسة المرافعة. استجوبه القاضي أتريدج عن علاقته مع كِنّته. سأل: «منذ متى تعرف كنتك؟».

«حوالى أربع سنوات».
«في أية ظروف قابلتها في الماضي؟»
«حسناً. جاءوا لزيارتنا في مناسبة، وكنا نقابلها كلما نجيء إلى واشنطون».

وكم هي المناسبات التي أتيت فيها إلى واشنطون وزرتهم خلال السنوات الأربع الماضية؟»
أجاب الدكتور بولارد: «أوه. أستطيع القول ربما مرة كل أربعة أشهر».

«وما هي الظروف التي قابلتها فيها في تلك المناسبات؟»
ـ «كنا نتناول طعام العشاء».

ـ «هل كان ذلك في بيتهم أو في المطعم؟»
ـ «لا. في المطعم».
ـ «في مطعم؟».
ـ «في مناسبة واحدة تعشينا في البيت».

«خلال الاستجواب فيما بعد سأل القاضي الدكتور بولارد كيف كان شعوره إزاء آن؟ أجاب: «لا أعرف كيف أفسره وكيف أجيب على ذلك. إنني أعرفها وأحترمها. وقد ازددت ميلاً لها».

ولدى استجواب جيمس هيبي أكد الدكتور بولارد أنه لو أطلق سراح آن بكفالة فإنها لن تفر من مقاطعة كولومبيا. قال «إنني متيقن من أنها لن تفعل ذلك».

بيد أن مساعد المحامي الأميركي في محاولته الإقناع بوجوب حرمانها من الكفالة، ذكر أنه حتى بعد اعتقال زوجها كانت لا تزال تعتزم السفر إلى نيوجرسي في ذلك اليوم التالي في مهمة سبق تعيينها. وأوضح أن الدكتور بولارد وصل واشنطون يوم الخميس بُعيد تلقيه نبأ اعتقال ابنه. وسأل الدكتور بولارد: «هل ذهبت يوم الجمعة إلى سجن مقاطعة كولومبيا مع المدعى عليها آن هندرسون بولارد؟».

أجاب الدكتور بولارد: «صحيح».

ثم استدعي للشهادة برنارد هندرسون، والد آن. أكد أنه أشار عليها بالقيام برحلة إلى نيوجرسي، قال في الرد على سؤال جيمس هيبي: «كنت عالماً بتلك الرحلة منذ أمد».

ـ «كيف كنت عالماً بها؟»

ـ «كنت عالماً بها لأن أحد مديري الشركة صديق لي. وقد بحثنا الرحلة وصوابية قيام آن بتلك الرحلة. تمّ ذلك على الهاتف وشخصياً في اجتماع مع المديرين مؤخراً».

ـ «وهل بحثت ذلك مع آن أيضاً؟».

ـ «نعم بحثناه مع آن أيضاً».

ـ «هل تحدثت مع آن يوم الجمعة، الجمعة الماضي في ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر حول الرحلة؟»

ـ «أجل. تلفنت لآن من لوس أنجلوس وقد نشأت تلك الرحلة خلال المحادثة».
ـ «هل أشرت عليها بوجوب قيامها بالرحلة أم لا؟»

«أشرت عليها بالقيام بالرحلة لأنني اعتقدت أن الرحلة كانت ذات أهمية لمواصلة نهجها الحياتي في العلاقات العامة».

ـ «إذا أُطلق سراح السيدة بولارد، هل ستغادر مقاطعة كولومبيا؟»

ـ «لا أعتقد ذلك لأنني في تلك المحادثة بالذات اقترحت على آن إمكانية قدومها للإقامة معي في بنسلڤانيا فترة من الزمن وقالت: لا يا عمي. إن مكاني في واشنطون».

بعد ذلك خلال جلسة المرافعة ذكر ريتشارد هيبي أنه لم يطلب إطلاق سراح موكلته بالكفالة. قال هيبي: «يا صاحب الفضيلة. إنني مستعد أن أبين للمحكمة في هذا الوقت أنه لن تجري أية مناقشة بالنيابة عن السيد بولارد حول موضوع المبرر المحتمل أو الكفالة. لذا أعتقد أن كل ما على المستشار القانوني فعله هو توجيه دعواه ضد السيدة بولارد».

شدد جيمس هيبي على الإفراج عن موكلته ـ آن. وقد ناقش ليبر هذه النقطة. قال إنها قد تحاول الفرار حقاً، وذكر محاولتها الدخول إلى السفارة الإسرائيلية «بصورة عائلية كثيرة ومتعددة من النوع الموروث. بدءاً بصورها وزوجها في سني الطفولة حتى الوقت الحاضر». وأكد أن خطر الفرار في رأي الحكومة بالنسبة للمدعى عليها آن بولارد شديد كخطورة محاولة زوجها، ربما تقف الآن متهمة في الوقت الحاضر بجرم استمر عشر سنوات، ولكن مما لا شك فيه أنها بعد الشهادة التي أُعلنت اليوم عليها أن تتوقع هي أيضاً الملاحقة القضائية من قبل هيئة المحلفين الكبرى بتهمة التجسس نظراً لمساعدتها وتحريضها زوجها في نشاطاته ببث معلومات للحكومة الإسرائيلية أو بقدر ما يتعلق الأمر بنشاطاتها الخاصة المتعلقة بجمهورية الصين الشعبية.

استطرد ليبر: «أعتقد أن من المهم درس وضعها في سياق اعتراف زوجها أنه كان ذاهباً وزوجته إلى السفارة الإسرائيلية صباح يوم الخميس لالتماس اللجوء السياسي. وإن الاعتراف تعزز بمحتويات محفظة السيدة بولارد. ليس وثائق في حيازة المدعى عليه يوناثان بولارد بل تلك التي كانت في محفظتها التي وضعتها هناك دون ريب قبل خضوعها للإجراء الذي أتى على وصفه الدكتور موسكوڤيتش.

ثم إن مواد التعريف تلك هي بالضبط ما يحتاجه المرء لبدء حياة جديدة في بلد جديد: ترخيص زواج وشهادة ميلاد. حتى أنه كان لديهما ما احتاجاه لتبدأ القطة حياة جديدة في بلد جديد.

كان معها صور العائلة وهي صور شملت الفترة منذ طفولتها وطوال فترة مراهقتها. وكما قلت سابقاً، إنها هي التي كانت تنقل هذه الوثائق وليس المدعى عليه يوناثان بولارد».

كذلك أشار ليبر إلى الوثيقة في المحفظة التي وصفت خط سفر بولارد خلال رحلتهما إلى إسرائيل وأوروبا في الصيف الماضي ـ شهر عسلهما. قال المدعى عليه إن هذه كانت رحلة «مولها الفرقاء الذين كان يعطيهم هذه المعلومات المصنفة. فما هو الضمان الذي لدينا بأن ذلك الفريق، وهو ممثل الحكومة الإسرائيلية، أو بقدر ما يتعلق الأمر بممثل دولة أجنبية أخرى، المهتم بالحصول على المعلومات المصنفة التي حصل عليها الزوجان بولارد، لم يمول رحلة أخرى؟

في حالة الإسرائيليين. ذلك بالطبع لقاء خدمات ماضية أُدِيت. ولكن كما سمعت المحكمة

خلال الشهادة المقدمة هذا اليوم فإن الوثائق التي حصل عليها كلا المدعى عليهما هي، أو تشكل، أسراراً قومية. ولا أظن أن الحكومة ستغرق في التفكير لتستنتج أن دولة أجنبية، لا سيما دولة أجنبية معادية، كانت شديدة الاهتمام بالحصول على المعلومات وهي راغبة في أن تدفع مقابلاً لها.

أما القاضي فقد قاطع ليبر ليسأل ما إذا كانت حكومة الولايات المتحدة قد ارتابت بأنه قد تكون معلومات مصنفة أخرى لا تزال غير مدفوعة. أجاب ليبر: «حسناً يا صاحب الفضيلة. لا أستطيع القول. ولكني أعرف ما يلي: «لقد سئل يوناثان بولارد يوم الإثنين عما إذا كان لديه أية معلومات مصنفة أخرى إلى جانب تلك التي كانت لديه في مغلفه. أجاب بالنفي. ولكن العجيب أن يعودوا فيجدوا بعضاً منها في الشقة».

بعد اعتقاله سئل مساء الخميس: ألديك مزيد من الوثائق المصنفة؟ أجاب بالنفي. ولكن ما يدعو إلى العجب أنهم عندما يجرون تفتيشاً كاملاً للشقة، وفقاً للإذن يوم الجمعة، يجدون المزيد.

قال ليبر إن آن كانت ملمة جداً بالوثائق لا سيما تلك المتعلقة بقدرات الصين لجمع الاستخبارات في الولايات المتحدة. وقال: «إن هذا النوع من المعلومات ما زال ذا قيمة للدول الأجنبية وخصوصاً جمهورية الصين الشعبية. وهكذا فإن لديها من الوثائق للبيع أكثر مما قد تكون موجودة هناك. إن لديها المعرفة للبيع».

عندئذٍ أورد المحامي الأميركي تفكير آن في القيام برحلة العمل المحددة إلى نيوجرسي، وسأل كيف تفكر «لحظة واحدة في القيام برحلة عمل لتعزيز نهجها الحياتي الذي لا يزيد عن شهرين؟ واسترعى انتباه المحكمة إلى أن ذلك كان خدعة، وألفت نظر المحكمة إلى أنها تعتزم القيام برحلة في أول فرصة تسنح لها».

ذكر أنها وزوجها صُدَّا من قبل ذات الدولة التي كانا يساعدانها. ولكنها حاولت إعادة الكَرّة في مكان آخر. وقال: «يجب على المحكمة أن تدرك أن الاعتقال بتهمة التجسس ليس جرماً يسلم المتهم به إلى حكومته. لذا لا تُرسل هذه المدعى عليها إلى إسرائيل. ولا داعي لإرسالها إلى أوروبا. كل ما يمكنها فعله هو الوصول إلى الحدود الكندية».

قال ليبر: إن الوثائق التي قرأتها آن تضمنت أخطر أسرار الدولة ـ وثائق تتعلق بنُظم أسلحتنا وقدراتنا العسكرية، ونُظم أسلحة دول أجنبية وقدراتها العسكرية وقدرات جمع الاستخبارات لتلك الدول هنا في الولايات المتحدة. وما دامت قد تاجرت في الماضي بهذه المعلومات لقاء المال فثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأنها على استعداد ـ بأن آن هندرسون بولارد على استعداد لتكرار العملية.

«في اعتقادي أن الموقف يمكن تلخيصه بالقول إن «ظروف اليأس تولد أعمالاً متهورة». والدولة التي تعاونا معها في المقام الأول أوصدت الباب في وجهيهما. وألفت انتباه المحكمة إلى أن مما يدعو إلى الاعتقاد أن تلك المعلومات التي تختزنها في رأسها قد تُعد لأعلى مزايد».

أما أتريدج فقد طلب من ليبر توضيح النقطة الأخيرة. أجاب: «لا أعتقد أن باستطاعتنا الاطمئنان إلى أنها قد تكون ذات ذاكرة حيوية الانطباع لأن بمقدور ذوي الألباب، على ما أظن، الاستنتاج بأنه حتى إذا نُشر قسم ضئيل من المعلومات لما يعتبره كثيرون بلداً معادياً أو بلداً ذا مصالح مخالفة لمصالحنا، جمهورية الصين الشعبية، فذلك ضار بالولايات المتحدة».

رفض جيمس هيبي حجج ليبر. قال: «يا صاحب الفضيلة. مع وافر الاحترام، استرعي الانتباه إلى أنه ربما كانت بلاغة السيد ليبر تؤلف حدثاً موضوعياً إلا أنه غير مدعم بالدليل». وشدد على أن الرحلة التجارية إلى نيوجرسي لم تكن مشؤومة كما لم يكن العرض المقدم للسفارة الصينية. لقد قامت بذلك مع رفقائها في العمل من الشركة. وقابلت الحكومة أولئك الشهور. أما المجيء الآن إلى المحكمة وإجراء صفقة كبيرة من وراء ذلك فأمر غير مناسب على ما أعتقد».

بيد أن القاضي استثير لأن آن رافقت زوجها إلى السفارة وأن ذلك لم يكن بالقرار المرتجل. ولمَ يكون مرتجلاً بينما الشهادة والبينة يدلان على وجود مكالمة هاتفية قبل ذلك مع السفارة الإسرائيلية ويُزعَم بأن المدعى عليه بولارد أُخبر أنهم سيدخلونهما إذا استطاعا الإفلات من الرقابة؟.

في نهاية جلسة المرافعة التي استمرت ساعتين حكم أتريدج بوجوب توقيف آن ـ أسوة بزوجها ـ بدون كفالة. وقد كُبلاَ وأعيدا إلى جناحين مختلفين من سجن مقاطعة كولومبيا.

الفصل الحادي عشر

التغطية:
اسم الشيفرة «سيرين»

لم تكد ترفضّ جلسة مرافعة الكفالة حتى استدعى وكيل وزارة الخارجية ميخائيل أرماكوست السفير روزين إلى وزارة الخارجية. ولكن بدا حينئذٍ أن تصدعاً خطيراً حدث في العلاقات الأميركية الإسرائيلية. كان الأميركيون في غضب. وأرادوا أجوبة بسرعة.

أصرّ أرماكوست وهو دبلوماسي لبق ومؤثر على تأكيدات للتعاون الإسرائيلي في التحقيق. وأكد له السفير أن الحكومة الإسرائيلية رغبت في الحصول على تلك الأجوبة على جناح السرعة.

لدى اجتياز روزين مدخل شارع سي إلى وزارة الخارجية سأله مراسلو الصحف المنتظرون عما إذا غادر أي دبلوماسيين إسرائيليين الولايات المتحدة. أجاب «أنه لم يغادر أحد».

كلا رئيس الوزراء شمعون بيريز ووزير الخارجية اسحق شامير اللذين تلقيا سيلاً من المكالمات الهاتفية من الزعماء اليهود الأميركيين الغاضبين توضيحاً للحادثة، بعثا برسائل إلى شولتز تفيد بأن كبار الزعماء السياسيين الإسرائيليين أحدثت فيهم الفضيحة دهشة مطلقة، وشاركوا الوزير الرغبة في معرفة كافة الحقائق بأسرع ما يمكن. وبعد تلقي وزارة الخارجية تلك الرسائل أصدرت بياناً يفيد بأن الولايات المتحدة «تأكدت من تعاون الحكومة الإسرائيلية التام في استقصاء الفضيحة».

في الواقع بعث بيريز إلى شولتز برسالة أخرى في اليوم التالي يَعد بأن تعيد إسرائيل أية وثائق مصنفة مسروقة.

في القدس عقد بيريز وشامير ورابين اجتماعات يومية لرسم استراتيجيتهم المشتركة. كان الانفعال بادياً على كل منهم. إذ أصبحت سِيرهم على المحك. وأرادوا بلهفة التأكد من أن عملية رافي إيتان لا تتصل بأعلى عناصر الحكومة الإسرائيلية.

طُلب من رؤساء مختلف وكالات الاستخبارات في إسرائيل المشاركة في التحقيق الأولي لما بعد الاعتقال الذي أُطلق عليه اسم الشيفرة «سيرين». في ذلك الوقت كانت الزعامة الإسرائيلية مدركة تماماً تورط إيتان. لقد شرح ما حدث ـ ادعى أن لاكام كانت مخولة تماماً لإدارة بولارد في واشنطون. ودعّم بالوثائق بعض المعلومات الحيوية التي نقلها بولارد إلى إسرائيل.

خلال بضعة أيام عينت الحكومة رسمياً هيئة مستشارين ثلاثية لتولي التحقيق الداخلي:

أفراهام شالوم، نائب شين بيث، منظمة الاستخبارات المحلية، وحنان بار ـ أون نائب مدير عام وزارة الخارجية ورام كاسبي، محام ابن عائلة من تل أبيب وكان رفيقاً سياسياً حميماً لبيريز.

أنجزت لجنة مراقبة الأضرار تقريرها يوم الأربعاء ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر وقررت أن بولارد كان عضواً في مجموعة «أوغاد» لجمع الاستخبارات. وكانت الحكومة بذاتها غير مطلعة على ما كان يجري. وكان لا بد من اجتثاث هذا المخطط بسرعة لحصر الإضرار بالعلاقات الأميركية الإسرائيلية.

تلفن ناخمان شاي الناطق الصحفي الشعبي لرابين، في ذلك اليوم إلى توماس ل. فريدمان رئيس مكتب القدس لجريدة نيويورك تايمس، وقد دعاه شاي إلى مكتب وزير الدفاع لسماع نتائج التقارير التي نقلت إلى سفير الولايات المتحدة في إسرائيل توماس بيكرنغ في الوقت ذاته. وقد أورد التقرير المطول لفريدمان والذي نشر في اليوم التالي ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر «مصدراً إسرائيلياً رفيقاً لم يذكر اسمه ولم يشأ رابين تعريفه بالاسم».

أكدت النتائج، وفقاً لوزير الدفاع أن بولارد اتصل بمسؤولين إسرائيليين، بينما لم يتصلوا هم به. وارتأى التقرير أن الباعث الوحيد لاستخدام بولارد كان معرفة ما إذا كانت الولايات المتحدة تتجسس على إسرائيل. وقد أضفى إيتان أهمية كبرى على هذه النقطة خلال استخلاصه المعلومات.

استطرد التقرير أن بولارد كان في بادىء الأمر مدفوعاً بمشاعره المتأججة الموالية لإسرائيل. ولم يُثَر موضوع المال إلا فيما بعد وفقاً للتقرير. قال بولارد إنه كان بحاجة للمال للمساعدة على إعالة زوجته وتغطية نفقات علاجها. وقال إن المال يمكن الإفادة منه أيضاً في الحصول على وثائق سرية.

أخبر رابين فريدمان أن الموظف الرفيع في الاستخبارات الإسرائيلية المسؤول عن عملية بولارد ـ والذي لم يُسمه ـ لم يُعلم رئيس الوزراء أو أي شخص غيره في الحكومة الإسرائيلية عن ذلك لئلا يؤمَر بإيقافها. وسلّم رابين أن ذلك كان لا يمكن تصديقه إلا أنه واقع الأمر.

وقال رابين: «لقد فسر سياستنا الأساسية بعدم القيام بالتجسس داخل الولايات المتحدة على أنه يعني عدم التجسس ضد مصالح الأمن القومي للولايات المتحدة. وما من شك أن ذلك كان

خطأ من جانبه لتفسير الخطوط العريضة بهذه الطريقة. ولا عذر للحصول على المعلومات بأساليب غير مشروعة ولكن ليس بداعي الضغينة من جانبه. إن تفسيراً خاطئاً للخطوط العريضة خطأ حقيقي».

بنشر رواية فريدمان اعتقد رابين ومسؤولون إسرائيليون آخرون أنهم قد حصروا الإضرار. وازدادوا ثقة بأنهم يستطيعون الخروج سالمين من العاصفة. وافترضوا أن باستطاعتهم رأب الصدع بهدوء مع واشنطون ـ الطريقة التي تحل بها البلدان الصديقة غالباً الارتباكات الدبلوماسية.

بيد أن تقرير التايمس وتأكيدات التعاون الإسرائيلية المتكررة أخفقا في تهدئة قلق واشنطون. والواقع أنه إزاء الاتهامات الأميركية للمعوقات الإسرائيلية، أعربت وزارة الخارجية يوم الجمعة ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر عن «فزعها» لأن إسرائيل لم تبدِ تعاونها الكامل والفوري للاستقصاء الأميركي. وقال في بيان: «هدفنا الآن هو الحصول على كافة الوقائع فوراً ليتسنى تطبيق قوانيننا. لقد طلبنا من الحكومة الإسرائيلية على وجه التحديد تعاونها الكامل مع مسؤولينا عن تطبيق القانون بتزويدنا بكافة المعلومات التي لديها فيما يتعلق بهذه القضية، بما في ذلك إعادة أية وثائق والوصول إلى الموظفين الإسرائيليين المتورطين. وقد أكدت لنا السلطات الإسرائيلية رغبتها في التعاون إلا أنها لم تبدِ بعد التعاون الكامل والفوري الذي طلبناه منذ أسبوع. إننا نأسف لهذا التأخير، ونحث الحكومة الإسرائيلية على الاستجابة فوراً».

لدى سؤال إيتان عن التقارير الصحفية بتورطه نوعاً ما في القضية أخبر في يوم الجمعة ذاته جريدة معاريف الإسرائيلية «قد يكون لدي ما أقول، ولكن في مرحلة قادمة. إن الحكمة تقضي في الوقت الحاضر بعدم الرد على كافة الهجمات الموجهة لي لأن التجربة الماضية دلت على أن أفضل ما يمكن لرجل الاستخبارات عمله هو أن يتوارى عن الأضواء. أما بصدد ذكر اسمي في الصحافة الأميركية والمحلية بصفتي الرجل الذي جند بولارد ووجّهه، فقد يكون ذلك من قبيل الخطأ. لقد ورد اسمي في الأخبار خطأ».

ظل الأميركيون في حالة غضب: والواقع أنه في منتصف ليل يوم الأحد ١ كانون الأول/ديسمبر، الساعة ٣,٣٠ صباحاً اتصل شولتز هاتفياً ببيريز في القدس لتقديم شكوى. ونظراً لفرق الوقت كانت الساعة ٥,٣٠ من بعد ظهر السبت في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر في كليفورنيا ـ حيث اتفق وجود شولتز. قال شولتز مضطرباً: «علينا أن نحل هذه المسألة بشكل حاسم». وقد وافق بيريز وهو في البيجاما على ذلك.

تحدثنا مطولاً مستعرضين الحادثة برمتها. وقد ظل بيريز ملتزماً بحزم برأي إسرائيل الرسمي أن العملية كانت في الواقع غير مرخصة. ومع ذلك اعتذر ووعد ثانية بتعاون إسرائيل الكامل. كما أكد شولتز أن فريقاً من محققي الولايات المتحدة يمكن أن يأتي إلى إسرائيل لاستجواب المسؤولين الإسرائيليين المعنيين شريطة إمكانية الوصول إلى قواعد أساسية مقبولة من الطرفين. لقد أرادت

إسرائيل التأكد من أن المسؤولين الإسرائيليين سيحصلون على حصانة ضد أية مقاضاة إجرامية. وأنهى بيريز المحادثة بالوعد أنه سيصدر فيما بعد بياناً رسمياً مجمِلاً اتفاقهما ذلك اليوم(*).

أما أعضاء لجنة تحقيق الكنيست الستة فقد انقسموا حسب انتماءاتهم الحزبية في نظرتهم العامة لهذا القرار، بأن عرض بيريز زعيم حزب العمل التعاون التام مع تحقيق الولايات المتحدة، وأيد القرار الأعضاء البرلمانيون الثلاثة في حزب العمل بينما عارضه أعضاء الليكود الثلاثة أيحود أولمرت والياهوس أليسار وداڤيد ماغين. وأشار أعضاء حزب العمل إلى أن بيريز كان مدعوماً من شامير ورابين في عملية اتخاذ القرار. وقال أعضاء حزب العمل إن إلحاحية الضغط الذي مارسته الولايات المتحدة لإيضاح المسألة إلى جانب الدلائل على أن التشكيل السياسي للولايات المتحدة

(*) وهذا بالضبط ما فعله رئيس الوزراء. قال البيان: إن الحكومة الإسرائيلية مصممة على أن لا تألو جهداً في التحقيق في هذه القضية بدقة وبشكل كامل وكشف كافة الحقائق بجميع التفاصيل مهما كان المسار الذي يؤدي إليه التحقيق.

لا يزال التحقيق الكامل غير مستوف، ولذا فإن كافة الحقائق لم تتوفر بعد لحكومة إسرائيل، إلا أن التحقيق يتقدم بعزم.

تؤكد حكومة إسرائيل لحكومة الولايات المتحدة بأنه إذا أسفر التحقيق عن إثبات المزاعم فسيحاسب المسؤولون وتحل المجموعة المتورطة في هذا النشاط وتتخذ الخطوات التنظيمية الضرورية لضمان عدم تكرار هذا النشاط. إن علاقاتنا مع الولايات المتحدة تقوم على أسس متينة من الصداقة العميقة والتقارب الحميم والثقة المتبادلة. إن التجسس على الولايات المتحدة مناقض تماماً لسياستنا، والمدى الذي بلغه هذا النشاط كان خطأ وتعتذر الحكومة الإسرائيلية. وليس لدينا ما نضيفه على ذلك في الوقت الحاضر.

في بضع ساعات أصدر شولتز البيان التالي:

لقد أصدرت الحكومة الإسرائيلية بياناً حول قضية بولارد أذيع على الملأ. إنه بيان ممتاز ونحن مسرورون به ونرحب به بحرارة. ولنأمل الثقة بتصميم إسرائيل وقدرتها على ملاحقة هذه القضية حتى النهاية ومحاسبة المسؤولين عنها.

لقد أكد لي رئيس الوزراء بيريز أنه أصيب ورفاقه بدهشة تامة للتطورات ولم يكونوا مطلعين على النشاطات المزعومة في هذه القضية.

أكد لنا الإسرائيليون أنهم سيعملون بالتعاون مع سلطاتنا المنوط بها تطبيق القانون ونحن ستعاون معهم.

كما أكد لنا أن إسرائيل ستمكننا من الاتصال بأولئك الأشخاص ذوي الاطلاع الواسع على القضية، وأن إسرائيل ستقدم لنا تقريراً وافياً عن أية نشاطات يُظهر تحقيقهم حدوثها.

إن مقياس العلاقة الجيدة لا يتوقف على ما يحصل عندما تجري الأمور بسهولة بل عند قيام الصعوبات. عندئذٍ يكون من المهم أن يتعاون الأشخاص المعنيون فيما بينهم بشكل وثيق ويعالجوا القضية معالجة فعالة.

هذا ما يحصل هنا. وبهذه الطريقة يمكن أن تؤدي هذه العملية حتى إلى تعزيز العلاقات وزيادة إخصابها واتسامها بقدر أكبر من الثقة المتبادلة.

بالاختصار: نحن نرحب ببيان حكومة إسرائيل ونقدر رغبتها والتزامها بالعمل بتعاون معنا بغية حل هذه القضية على الوجه الأكمل. ومن ناحيتنا سنعمل بأمانة مع السلطات الإسرائيلية بحيث يتمكن كلا البلدين من الوصول بسرعة إلى خفايا هذه المسألة وتأمين العدالة وعند إتمام تحقيق الولايات المتحدة حول هذه المسألة سنذيع تقريراً ملائماً. أما في الوقت الحاضر فليس لدى حكومة الولايات المتحدة المزيد لتقوله حول هذه القضية.

تمنى مخلصاً ضبط اللهيب وإخماده، اضطر الوزراء الثلاثة لتحويل انتباههم بسرعة نحو الجبهة الأميركية. وكان شامير قد أخبر الهيئة الاستشارية أنه حصلت استشارات قبل المكالمة الهاتفية بين بيريز وشولتز. وبيّن شامير «أننا كنا نسير نحو تعاون كامل بغية إنهاء الحدث».

كذلك قال البرلمانيون من حزب العمل إن تصرفات بيريز «حالت دون الانهيار وصهرت التعاون الوثيق» مع شولتز. «إن التشكيل السياسي الأعلى في الولايات المتحدة كان رد فعله ايجابياً تجاه المحادثة مع السيد بيريز والرسائل التي أعقبته. وتلقى السيد بيريز والسيد شامير رسائل من السيد شولتز تفيض احتراماً وصداقة وتُظهر رغبته من جانبه لضبط المسألة. وكان ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد أن التوتر أخذ في الاضمحلال، وأن العلاقات مع الولايات المتحدة ستعود إلى صفائها. ومن العسير إضفاء صفة الخطأ الفاضح على حركة دبلوماسية تُوجت بهذا القدر من النجاح. أما بديل هذه السياسة فكان سيولد نكسة خطيرة للعلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل مع كل عواقبها. كانت ستولد رد فعل متطرف وضار من قِبل سائر عناصر المجتمع الأميركي، وستدفع إسرائيل إلى مجابهة مع وزير الخارجية شولتز، وبالتالي مع البيت الأبيض كذلك. وتكون النتيجة ردود فعل مناهضة لإسرائيل بين الرأي العام وفي الكونغرس على حدٍ سواء».

إلا أن أعضاء الليكود في الهيئة الاستشارية لم يوافقوا. فبينما سلموا بأن بعض التعاون مع واشنطون كان ضرورياً إلا أنهم تساءلوا حول مدى تأكيدات بيريز. وقال الأعضاء إن موافقة رئيس الوزراء شمعون بيريز على إعادة الوثائق التي جلبها بولارد كان خطأً رئيسياً وسبب ضرراً بالغ الخطورة. وكان لزاماً على بيريز أن يدرك أن المواد يمكن استخدامها ضد بولارد.

ذكروا أيضاً أن بيريز «لم يكترث لنصيحة أولئك الذين كانوا يهتمون بالمسألة نيابة عنه والذين اعتقدوا أن من غير الممكن إعادة هذه الوثائق».

اتهم البرلمانيون الليكود أن عمل هيئة التحقيق الاستشارية الثلاثية التي عينها بيريز كان هزيلاً في جمع كافة الوقائع وختموا بالقول إنه لو أمر بيريز بإجراء تحقيق صحيح كما كان يتوجب عليه، لأحجم دون ريب عن الاقتراح بإعادة الوثائق وربما رفض حتى السماح باستجواب الإسرائيليين المعنيين في القضية. إلا أن بيريز امتنع عن الأمر بإجراء تحقيق أو درس التفاصيل الضرورية وبذا أصبح متورطاً بالتزام كان من الواجب أن لا يعطيه.

بعد يومين من مكالمته الهاتفية مع شولتز أرسل بيريز وفداً رفيع المستوى إلى واشنطون لرسم التفاصيل الصحيحة المتعلقة بتعاون إسرائيل مع تحقيق الولايات المتحدة، وقد ضم أرينز وأقراهام شالوم ورام كاسبي. اجتمع الإسرائيليون مع شولتز في وزارة الخارجية يوم الخميس ٥ كانون الأول/ديسمبر. وكانت جلسة مثمرة.

قال شولتز في اليوم التالي إن مخبري وكالة الاستخبارات الأميركية انضموا إلى وفد من مسؤولين أميركيين آخرين في رحلة استقصائية إلى إسرائيل. وذكر أن إسرائيل تعهدت «بالتعاون

الكامل» في التحقيق. وستلتزم بوعدها. وقد دعي إيتان وياغور وإيرب ورافيد ومسؤولين إسرائيليين آخرين للاستجواب. وقال شولتز «ثمة ما يحملنا على الاعتقاد بأن القضايا المعنية ستحل بشكل مرضٍ».

رأس الوفد مستشار الشؤون القانونية في وزارة الخارجية إبراهام سوفير ومساعده الأول بات شاوبيل. وانضم إليه المحامي الأميركي لمقاطعة كولومبيا جوزيف أي دي جينوڤا وزوجته ڤكتوريا تونسنغ. وكان في الوفد أيضاً نائب مساعد المدعي العام مارك ريتشارد وجون مارتن رئيس قسم الأمن الداخلي في وزارة العدل ومساعد المحامي الأميركي ـ تشارلز ليبر وستيفن ر. شبيڤاك ـ ومخبرا وكالة الاستخبارات الأميركية جوزيف جونسون وأوجين نولت كامبر وضُم أيضاً آجي.

استمرت الاجتماعات في إسرائيل عدة أيام. وخلال الجلسات ـ التي عقدت في النادي الريفي شمالي تل أبيب على ساحل البحر الأبيض المتوسط ـ اعترف المسؤولون الإسرائيليون أن بولارد نقل معلومات ولكنهم أصروا على أنها لم تكن بالكمية التي اشتبهت بها الولايات المتحدة. وكرروا بالطبع التأكيد على أنها لم تكن عملية مصادق عليها رسمياً.

خلال الاستجواب ذكر الإسرائيليون أن إسرائيلياً آخر تورط باختصار في المسألة ولكنهم لم يريدوا كشف هويته. وألحوا ـ مشيرين إلى آفي سيللا ـ على أنه في أي حال لعب فقط دوراً هامشياً جداً في العملية. وأصروا فيما بعد على أن الأميركيين لم يضغطوا لمعرفة هويته. واطمأنوا على ما يبدو إلى أن هذا الشخص لم يكن مواطناً أميركياً آخر.

كان ثمة عدة أسباب لعدم رغبة الإسرائيليين في كشف هوية سيللا. فالزعامة العليا بدت آنئذٍ مقتنعة بإخلاص بأنه لم يلعب في الواقع إلا دوراً صغيراً نسبياً في بدء العملية من الأساس. ورأوا أنه وضع حد للسيرة الممتازة لسيللا لمجرد ذلك الدور التمهيدي الأولي تبديد مفجع.

ولكن كان ثمة أسباب وجيهة أخرى لإبقاء شخصية سيللا سراً، لقد ظن الإسرائيليون أنه ما كان ليعتقد أحد في واشنطون أن العملية غير مرخصة لو تبين أن ضابطاً عالي الرتبة في سلاح الجو الإسرائيلي كان متورطاً بالفعل ـ حتّى ولو هامشياً فقط. إن الأميركيين واسعوا الاطلاع بشأن القوات المسلحة الإسرائيلية بحيث لا تنطلي عليهم إمكانية تورط سيللا دون تفويض عال. وقد عنى ذلك بالطبع قائد سلاح الجو الجنرال آموس لابيدوت وعلى الأرجح رئيس الأركان ذاته، الجنرال موشي ليڤي. وهكذا فإن كشف شخصية سيللا للأميركيين سوف يثير سلسلة كاملة من الأسئلة الأخرى التي أراد الإسرائيليون جاهدين تجنبها.

الواقع أنهم لم يتركوا الأمر للصدف. فقد أمروا سيللا بمغادرة البلاد في الوقت الذي وصل وفد سوفير إلى إسرائيل. وحسب التعليمات المعطاة لسيللا، فقد طار إلى ألمانيا الغربية بجواز سفره الإسرائيلي والمؤرخ زوراً قبل ذلك ببضعة أيام ليظهر أنه كان خارج البلاد قبل وصول الوفد وأراد الإسرائيليون إفهام محققي الولايات المتحدة بأن هذا الشخص الإسرائيلي الآخر غير المسمى لم

يكن على أي حال موجوداً للاستجواب نظراً لوجوده في الخارج. وقد اختيرت ألمانيا الغربية لأن مأموري الجمارك لا يختمون بشكل روتيني تواريخ الدخول على جوازات سفر الزوار الإسرائيليين. ولم يشدد الأميركيون على مقابلة الإسرائيلي الآخر.

في ذلك الوقت اعتقد الإسرائيليون أن شخصية سيللا يمكن أن تظل بالفعل سراً، وشعروا بالثقة من أن بولارد لن يكشف ذلك. وإذا فعل فمعناه أن عليه أيضاً البوح بتورط صديق عائلته القديم ستيفن شتيرن. واعتقد الإسرائيليون أن بولارد سيلتـزم جانب الكتمـان فيما يتعلق بسيللا وشتيرن كليهما.

إلا أنه لم يكن عسيراً على وكالة الاستخبارات الأميركية اكتشاف حقيقة شتيرن على حدة. والاستعراض الكامل للمكالمات الهاتفية البعيدة من بيته ومكتبه أظهر النموذج الرتيب للمحادثات بين الصديقين. فمن هو هذا الرجل الذي كان بولارد أيضاً يتكلم معه؟

لقد أخبر محامي شتيرن فيما بعد النيويورك تايمس أنه لم يدر في خلد شتيرن أن اتصال بولارد ـ سيللا الأولي سيقود في النهاية إلى التجسس. وقال المحامي يوناثان ل. روزنر إن مسؤولي وزارة العدل كانوا قد أعلموه أن شتيرن اختير «شاهداً» في القضية، وهو تعبير يشير على حد قوله إلى «شخص ما لا يريدون إقامة دعوى ضده أو ليس لديهم البينة لمقاضاته». وأضاف روزنر «أن تورط السيد شتيرن في مجمل هذه القضية قليل الأهمية بحيث لا يستأهل أن يكون موضع أخذ ورد».

أكد شتيرن من ناحيته فيما بعد أنه كان قد شهد أمام هيئة المحلفين الكبرى الفيدرالية التي تحقق في القضية. لقد تعاون مع تحقيق وكالة الاستخبارات الأميركية، وادعى البراءة التامة، ولم يتهم أبداً بأي جرم.

بيد أن ألاعيب شتيرن في رأي بولارد لم تكن بأية حال بريئة إلى هذا الحد. وإذ اعتقد بولارد أن شتيرن أساء الكلام بحقه خلال جلساته مع وكالة الاستخبارات الأميركية، فإنه ارتأى بمرارة أن شتيرن كان بلا شك يعرف نوايا بولارد.

كذلك أنكر بولارد فيما بعد بشكل قاطع أن يكون هو أول من كشف لوكالة الاستخبـارات الأميركية عن الطيار أو شتيرن. وارتأى أن شتيرن ربما كشف شخصية سيللا. وأصر شتيرن، من ناحيته، على أنه حين جاء مخبرو وكالة الاستخبارات الأميركية لاستجوابه في المرة الأولى كانوا يعلمون آنئذٍ بأمر سيللا. وقد ظن شتيرن في ذلك الحين أنهم حصلوا على المعلومات من بولارد.

بينما رفضت السلطات الأميركية المكلفة بتطبيق القانون الإفصاح بشكل بات عَمّن كشف دور سيللا، فقد أوضحت أن بولارد هو الذي بدأ «المعزوفة» بعدما علم بأن الحكومة الإسرائيلية قد غررت به. كما ذكرت أنه كان لشهادة بولارد أمام هيئة محلفين فيدرالية أميركية سرية كبرى الأثر الكبير فيما آلت إليه الأمور باتهام الطيار.

بالعودة إلى إسرائيل، فقد تعرض بيريز وشامير ورابين إلى انتقاد متزايد لرغبتهم في التعاون مع الأميركيين. وقد تأكد ذلك في رسالة إخبارية نشرت في النيويورك تايمس:

«أياً تكن صورة السيد بولارد العامة فينظر إليه في الجهاز العسكري الإسرائيلي كجاسوس آخر يقوم بعمله، ولا تستطيع المخابرات الإسرائيلية التضحية به دون تقويض مصداقية غيره من الجواسيس حول العالم. ويعتقد المسؤولون العسكريون الإسرائيليون أن السيد بولارد نقل بعض المعلومات القيمة جداً، ويعتبر اكتشافه في المؤسسة العسكرية إخفاقاً مخابراتياً وهو حدث مألوف في دنيا الجاسوسية، ولكنه ليس بخطأ في مفهومها الأصلي».

أوضح ذلك الرأي أيضاً في مقابلة الإذاعة الإسرائيلية مع الكولونيل مناحيم ديغلي، وهو ضابط مخابرات إسرائيلي متقاعد. قال «لا أعرف شيئاً عن كيفية حصول قضية بولارد. الشيء الوحيد الذي أعرفه أن الأشخاص الذين عالجوها لم يكونوا مغفلين. بل إن المغفل من جعل الناس يعتقدون ذلك. وهو إن دل على شيء فعلى أنه لا يعرف عن المخابرات شيئاً». وقال ديغلي: «إن جمع المخابرات كالتنقيب عن النفط، ففي حالة بولارد أصاب الحفر العِرق الرئيسي الذي كان مليئاً بالمعلومات. كان الظمأ لتلك المعلومات شديداً ولكن صادف وجود البئر في ساحة صديق مخلص، إنما لم يكن مخلصاً إلى الدرجة التي تجعله يعطي المعلومات طوعاً. . . تصور لو أن بولارد استمر سنوات يقدم المعلومات دون أن يعرف أحد ذلك. أيشك أحد في أن الموضوع سيعتبر حيوياً ويحاط بهالة من التقدير ـ رغم كل شيء؟»

لقد بقي الوفد الأميركي في إسرائيل أسبوعاً واحداً. وخلال هذه المدة روقب بدقة من قبل رجال المباحث الإسرائيليين. وكان الأميركيون في الواقع على يقين من أنه كان لغرف الفندق آذان. وحاول أحدهم فعلاً العثور على ثقوب ولكنه لم يستطع. كما بحث عن احتمال وجود جهاز صوري ذي عدسة ثقب صغير مخبوء في الغرف ولكنه لم يجد أياً منهما.

في الأيام الأولى لاستجوابهم شعروا أنهم كانوا فريسة المراوغة. وهذا واقعهم، لقد رفض الإسرائيليون في بادىء الأمر إعادة الوثائق التي حصل عليها بولارد، كما أنهم طُوقوا بالإجابة عن شتى الاستجوابات عن العملية. وهدد سوفير آنئذٍ بإعادة مجموعته من حيث أتوا ما لم يتحقق «التعاون الكامل» الموعود. وقد لَيَّنَ الإسرائيليون موقفهم. إذ صدر أمر آخر من رئيس الوزراء فلزم سوفير مكانه.

المفهوم أن بولارد صُدم عندما علم فيما بعد بتعاون إسرائيل. وأسرّ أن «القرار الذي لا يغتفر لإسرائيل بالتعاون مع مِجَسّ وزارة العدل دون ضمان إطلاق سراحي أولاً» يشير بوضوح إلى أن مجلس الوزراء اعتقد فعلاً أن التضحية بإنسان وعذراً «خبيثاً» واهياً ينجحان بإصلاح الإدارة. كان هذا إظهاراً بسيطاً لسوء التقدير الغريب والفعال نظراً لأن تعاونهما لم يفعل أكثر من التهوية على لُهُب

مشعلة واينبرغر المناهضة لإسرائيل، وقد أصبح بولارد مستحوذاً بـإلقاء اللوم على وزيـر الدفـاع واينبرغر من جراء مشاكله.

قال فيما بعد إن عدم حل العملية نتيجة «لحماقـة» رافي إيتان «وجشعـه» وكذلـك إخفاق إسرائيل في تقدير الطبيعة المعادية للإدراة الحاضرة تجاه إسرائيل. ووفقاً لبولارد كلا هذين العاملين أدياً إلى تقصير إيتان في توفير خطة طوارىء عملية لإنقاذ بولارد وزوجته.

إذا وضعنا جانباً ملاءمة تشغيل عميل يهودي ضمن (وليس ضد) جهاز استخبارات الولايات المتحدة اتضح لي والألم يعصر قلبي أن المرء العائد للوطن يحار كيف كانت ستتصرف هذه الإدارة بالذات لو أن عميلاً إسرائيلياً اكتُشِف في أعماق أجهزتها الأمنية. ومـع أن سبب التقديـر السيء والمؤسف قد يُعزى نوعاً ما إلى اعتقاد بيريز أن الإدارة لن تهدر أبداً فُرصَة لبلوغ تسوية مؤقتة مع الأردن بإثارة فضيحة تجسس، ففي اعتقادي أن الخلل الرئيسي في «تفكير» إسرائيل بصدد هذه المسألة يتمثل في الاستخفاف برغبة واينبرغر في تغيير صورة إسرائيل في مخيلة روسيا من حيث تهديدها الأمن الأميركي. من ناحية أخرى كان ذلك وسيلة لغاية في نفوس مُستَعْرِبي وزارة الدفاع. ولسوء الحظ لم يستطع الناس في الوطن على ما يبدو تقدير قيمة الدعاية التي شكلها هذا النوع من الفضيحة لأناس مثل واينبرغر حاولوا منذ سبع سنين إعادة توجيه مركز الاهتمام الاستراتيجي والالتزام الأميركيين بعيداً عن إسرائيل وفي اتجاه العربية السعودية وشتى مشيخات الخليج الفارسي.

قال بولارد: إن الخطأ الكبير الذي ارتكبه مديروه كان الظن بأن عملية التجسس جرت في بيئة صديقة. ولو كانت إسرائيل تظن بأن المحيط كان معادياً لكانت اتخذت مزيـداً من الاحتياطـات ولرسمت أيضاً مُقَدّماً خطة فرار الزوجين بولارد.

قال بولارد: «وهكذا بدلاً من اعتبار هذه العملية كما لو أُديرت خلف خطوط معادية، وقد كانت كذلك من نواح عدة، آثرت إدارتي الاعتقاد بأن العلاقة الخاصة «بين البلدين تؤمن بشكل ملائم حصر «النزاع» السياسي في حال افتضاح أمري». كان ذلك إساءة تقدير قاضية للوضع الذي كان قائماً في واشنطون: كان المعروف بجلاء أن واينبرغر كان يحبذ سياسة عادلة لمبيعات الأسلحة في الشرق الأوسط. ولم يُخف ميز رغبته لوضع إسرائيل على «لائحة أقطار المحك» التي تضعها في مصاف الدول المنبوذة مثل ليبيا وكوبا وكوريا الشمالية. والواقـع أن وضع أولئـك البيروقـراطيين الموالين لإسرائيل الذي كان قائماً آنئذٍ كان غير مستقر بحيث إن كثيرين تناولتهم يد التطهير حتى دون صدور احتجاج من قبل الكونغرس بعد اتهـامي. بذلـك الإجراء وحـده يمكن للمرء تقـدير اللاتوازن الذي كان قائماً بين الجانبين خلال عمليتي(*).

(*) أقطار المحك هي تلك الأقطار التي تعينها وزارتا الخارجية والعدل على أنها معادية بشكل خاص للولايات المتحدة ويُخضع ممثلوها في الولايات المتحدة لرقابة دقيقة، ونقل التقنية العالية غير مستحسن لها. ولم يسبق أن اعتبرت إسرائيل في عداد هذه الفئة، مع أن بعض مسؤولي الاستخبارات المضادة الأميركية غالباً ما أرادوا مراقبة أشد.

قال بولارد إنه كان على الدوام يحث الإسرائيليين على إعادة النظر في بعض افتراضاتهم ومفاهيمهم السياسية بشأن واشنطون. «لقد حذرت رافي دوماً حول البيئة المعادية والمناوئة علناً لإسرائيل والتي سادت في المدينة لا سيما ضمن جهاز المخابرات العسكرية، إلا أنه لم ينفك يعتبرني قاصراً في دنيا السياسة عن تقدير ما يحدث في قممه الأولمبية. وكان ثمة مبرر لعدم وصول المعلومات إلى إسرائيل من خلال اتفاق التبادل الذي كان أقل تعلقاً بالكراهية المنتشرة إزاء إسرائيل بـ جهاز الاستخبارات العسكرية من ارتباطه بمُعيَّني واينبرغر السياسيين في البنتاغون الذين كانوا يؤججون هذا التحامل ويشجعون بهدوء خفض المخابرات الخطيرة لإسرائيل. لقد أبى إيتان بشكل قاطع الاقتناع بحدوث ذلك لأنه كان لا يزال ضيفاً مبجلاً في البنتاغون. وقد اعتبر بولارد ذلك «عقدة العُقد، على ما أعتقد».

يرى بولارد أيضاً أن بيريز ربما افترض أن مدير وكالة الاستخبارات المركزية ويليام كيسي ـ وهو مؤيد قوي لإسرائيل ـ سيكبح الضرر الذي لحق بالعلاقة نظراً للروابط الوثيقة بين وكالة الاستخبارات المركزية والموساد وتجنيد الوكالة السافر لضابط إسرائيلي خلال حرب لبنان. وكان هذا إشارة لزعم السيناتور الجمهوري دافيد دورنبرغر، عن مينيسوتا بأن الولايات المتحدة كانت «البادئة بخرق قواعد اللعبة» بإدارة عميل إسرائيلي خلال الحرب.

بيد أن ذلك كان أيضاً، كما قال بولارد: «سوء تقدير «لمقدرة واينبرغر على تحريك» كيسي في سياسة الشرق الأوسط، على الأقل بلعب ورقته السعودية الرابحة. ورغم البلاغة حول محبة ريغان لإسرائيل فإنه لم ينقض مرة دفاع واينبرغر عن موازنة القدرات العسكرية بين العرب وإسرائيل. على العكس من ذلك، فحتى منح وضع حليف رئيسي غير حلف الأطلسي لإسرائيل كان مهزلة، إذ إنه تحقيقاً للعدالة، الأداة التي ابتدعها واينبرغر، منحت أيضاً الولايات المتحدة الوضع لمصر في الوقت ذاته. والآن أصبح لزاماً على الإسرائيليين التنبه للمعدات العسكرية التي يطلبونها لئلا ينبري المصريون للمطالبة «بحصول مماثل» على ذات المادة بمقتضى علاقتهم الرفيعة مع واشنطون.

«حتى بالرغم من أننا قد نستمر إلى حد التقزز في السعي لحل هذا المعادل السياسي «لعقدة» ر. د. لينغ يمكن القول بلا تردد إن الإسرائيليين أخفقوا في تقدير «بيئة التهديد» وقرروا أنه نظراً لنوعية المعلومات التي تصلهم فإن المخاطر المتخلفة للعملية كانت أمراً مقبولاً».

كان بولارد مقتنعاً بأن إيتان لم يتخذ هذا القرار على مسؤوليته. وقال: «إنني أستبعد فكرة أن رافي اتخذ قراراً كهذا بنفسه». ورغم صفة المراوغة التي تتسم بها تقارير إيبان/ روتنشترايخ ـ تسور فقد أيدا حقيقة إدخال مادتي في التقارير التي وصلت إلى وزارة الدفاع. وأولئك الأشخاص في القمة ذاتها كانوا يعلمون جيداً مصدر المعلومات فانتابهم الجشع وقصر النظر. كانوا يفكرون انتهازياً أكثر منه استراتيجياً، إذا جاز هذا التعبير. وإذا سلمنا بطبيعة التهديدات التي كنت أكشف النقاب

عنها، فقد يكون لهذه النظرة ما يبررها لأن ذلك كان يتم بشكل مريع عرّض سلامة عمليتي لمخاطر جدية(*).

لقد طُمئن بولارد مراراً بأنه إذا انكشف أمره واعتُقل فسيعمل الإسرائيليون على إخراجه. وذكر: أنني طُمئنت مرة تلو أخرى إلى أنه إذا حدث وأُلقي القبض عليّ بشكل يستحيل معه انقاذي، فسيجري الاتصال بالأميركيين دون جلبة والطلب إليهم ترحيلي. كان هذا افتراضاً بالفعل مع أنه ربما بُني على الاعتقاد بأن السيد كيسي سينجح في التدخل نيابة عني ـ كما حاول على ما يبدو. بيد أن ذلك تضمن الاعتراف بالصلة الإسرائيلية، الأمر الذي أُخبرت تكراراً بوجوب عدم كشفه أبداً وفي أية ظروف كانت، ومن ثم عناء انعدام المعلومات الذي كنت أتوقع مكابدته في حال اعتقالي. «هذا التناقض لم أجد له حلاً ألبتة».

وفقاً لبولارد كان إيتان يعمل أيضاً بمقتضى افتراضات أخرى خاطئة. وقال بولارد: «كان رافي واثقاً تماماً أنه نظر لانتمائي السابق للاستخبارات المضادة كنت متنبهاً لأي قرار اتخذ لزيادة الرقابة على القانونيين الإسرائيليين في البلاد مثل رافيد وياغور اللذين كنت أعمل معهما». ولكن كان ثمة سببان يجعلان هذا المجرى للتفكير خطراً. قال بولارد: «أولاً، إن عمل الجاسوسية المضادة موزع إلى حد بعيد على فيض من الوكالات المتعددة الأقسام والتي لم أتوصل إلى معظمها. ومما زاد الطين بلة كان المأمول أن تركز هذه الوكالات نشاطاتها في منطقة واشنطون، آخذة بعين الاعتبار عدد الأهداف الحساسة والمؤسسات الدبلوماسية الشيوعية في العاصمة، ولم يكن أمامي سبيل للتأكد حينئذٍ من أن القانونيين الإسرائيليين كانوا خارج نطاق الملاحقة». واستطرد قائلاً: «ونظراً لأن إسرائيل لم تكن من أقطار المحك (راجع الحاشية صفحة رقم ٤٦٩)، ربما كان ذلك مجازفة ثابتة ولكنها لم تكن أبداً مدعاة مَسَرة لي لأنه كان بالإمكان تجنبها».

السبب الثاني تناول ما سماه بولارد «قاعدة رئيسية للعمليات الإسرائيلية حتى عندما تتعلق بشخص مثلي اعتُبر مخلصاً مائة في المائة للقضية». وقال على وجه التحديد إنه «يجب على المديرين الفعليين أن يكونوا مرتبطين بمركز دبلوماسي». ويجب على العميل «أن لا يعرف أسماء أعضاء فريقه». إلا أن الإسرائيليين لم يراعوا تلك القواعد.

«لم تجرِ أية محاولة لاستعمال أسماء مستعارة من قبل الدبلوماسيين الإسرائيليين. لأنه بحكم التحاقي بالاستخبارات المضادة كان بمقدوري كشف أشخاصهم دون أية مشكلة. وحيث كنت أُعْتَبَرُ

(*) شُكلت لجنتا تحقيق في إسرائيل للنظر في قضية بولارد. وقد رأس هيئة مستشارين اباء ايبان وهو عضو من حزب العمل في الكنيست ورئيس لجنة الشؤون الخارجية والدفاع في الكنيست. أما الهيئة الأخرى فقد تـألفت من المرحوم يهوشع روتنشترايخ وهو محام بارز من تل أبيب، والجنرال تسفي تسور، ضابط متقاعد في قوة الدفاع الإسرائيلية، وهـذه الهيئة الثـانية شكلتهـا الحكومـة الإسرائيليـة. وقد أذيـع التقـريـران في ذات اليـوم ـ ٢٧ أيار/مايو١٩٨٧.

إسرائيلياً، شئت أم أبيت، لم يكن ثمة حاجة لمثل هذه المخادعات «المضايقة». وكل هذه الخصائص العملية يمكن أن تعزى لاعتقاد أساسي: إننا لم نكن نعمل في بيئة معادية.

قال بولارد إنه كان لدى الإسرائيليين كذلك اعتقادات أخرى خاطئة. كانوا يأملون أنه في حال اعتقال بولارد سيعامله الأميركيون بحذر شديد نظراً لأن المعلومات التي حصل عليها لإسرائيل تناولت على وجه الدقة التهديدات العربية والشرق أوسطية المواجهة لإسرائيل. لم أؤمر بجمع معلومات تتعلق بقدرات الولايات المتحدة العسكرية أو أسرارها الدبلوماسية. لقد اعتبر الإسرائيليون أن مركز نشاطاتي الجغرافي والعملي سيُثلِم أي انتقاد أميركي في حال افتضاحي. ومع أن مجرى هذا التفكير قد يكون ملائماً في الظروف العادية من جراء جنون الارتياب التجسسي الذي يكتسح واشنطون في هذا الوقت وكذلك الموقف المحتمل الذي كان من المؤكد أن يتخذه واينبرغر فيما لو أدرك نوع الضرر الذي أُلحِق بأصدقائه العرب إلا أن ذلك لم يكن مفهوماً بالمرة. لم يدرك أحد على ما يبدو أن افتضاحي ستنتهزه الزمر المناهضة لإسرائيل في الإدارة كفرصة ذهبية لتصوير الحالة كخطر واضح وقائم للأمن الأميركي بغض النظر عَما إذا كانت نشاطاتي في جمع المعلومات قد اتصلت بأفرقاء آخرين».

تساءل بولارد: «هل أصبح رافي إيتان جاسوس إسرائيل المعلم متقدماً في السن وعاجزاً عن القيام بالعمل؟ وحتى لو كان شرطة ميدانه السريون حقاً غير ملائمين لأداء الواجب الملقى على عاتقهم، فما دام رافيد وياغور ليسا عميلين بمعنى الكلمة وإنما «عالمان أخصائيان» قبل كل شيء، ففي حال قيامهما بخطة فرار، ينقصهما التدريب والمزاج لتنفيذها. والشيء الوحيد الذي يراودني هو أن أولئك الأشخاص لم يفترضوا أنني كنت أعمل في بيئة بالغة التهديد، واعتقدت أنه إذا ألقي القبض عليّ، إما أن أضحي بنفسي طوعاً بتضليل السلطات نحو فرقاء آخرين صارخاً «مشوى الشهداء» أو أذهب إلى السجن لقضاء «بضع» سنين بتهمة استحواذ. بيد أنه لم يدر في خلدي سوى انقاذي «بطريقة ما»، وأنه يتوجب علي التأكد من أن تظل صلتي الإسرائيلية مستورة قبل أن يُسدل الستار».

استطرد بولارد: «أما إذا لم يكن ثمة آلية تضمن فراري، عندئذٍ يكون الأمر بتوريط بلد ثالث معادلاً لانتحاري. وإذا صدق بولارد أمره بالذهاب إلى السفارة الإسرائيلية، فإنه لم يفهم الأساس المنطقي وراء أمره بالقيام بذلك». وقال: «إلا إذا ظن أحدهم أن الأمور ستنجلي بهدوء حالما تدرك السلطات أنني لم أكن عميلاً للمعسكر الشرقي، ومع ذلك، فالأكثر احتمالاً أن يكون رحيل رافيد وياغور المفاجيء قد أحدث إعصاراً. كل ما أعلمه على وجه اليقين أنه طُلب إليّ على وجه التخصيص الدخول».

أصرّ بولارد على أنه خلال اليومين الأولين إثر استجوابه الأولي كان بمقدوره الفرار على مسؤوليته لو أنه قرر ذلك. وكتب «بينما كان باستطاعتي تدبير فراري مستقلاً عن السيد إيتان وياغور،

كان ثمة عدة عوامل حالت دون حدوث ذلك. أولاً كنت أفتقر إلى الارتياب المتأصل في ضابط المراقبة المسؤول مباشرة عني (ياغور) الذي يشكل الأساس لأي استعداد من ناحيتي لضمان بقائي بالذات، لم أكن أتصور أنه يتخلى اليهود بعضهم عن بعض، وهو أمر لم يفعله سوى المارقين. ومع ذلك لا بد من القول، إنصافاً ليوسي، إنه لو توفر لديه الـوسائـل والسلطة لكان بـذل المستطاع لإخراجنا من البلاد.

ثانياً بما أن مهماتي في الجمع تزايدت حجماً، لم يكن لدي متسع من الوقت للتفكير في وقوعي في الأسر. كل ما شغل بالي آنئذٍ هو جلب المواد إلى إسرائيل بأسرع ما يمكن لأن الكثير منها سريع التقلب زمنياً ونذير. في هذه الحالة بدت همومي الشخصية ذات أهمية ثانوية. قد لا تصدق ذلك ولكن هذه طبيعة المؤمنين الصادقين، وخاصة عندما يجدون أنفسهم في وضع يتطلب العمل السريع لا التفكير. وأشك في أن يكون الأمر قد انحدر إلى أولويات غريزية. لقد توجب علي موازنة مخاوفي الشخصية مقابل وضع سَمَا بي الاعتقاد أنه مَثَّل بقاء جنسنا.

أوضح بولارد أنه لم يتوفر لديه المال الضروري لتنظيم الفرار. وقال: كان يعوزني المـال اللازم لتنسيق خطة فرار تضمن توارينا ما وراء البحار. ثم ما دام يوسي احتفظ بجوازات سفـرنا الإسرائيلية كيف يمكننا عبور الحدود والعودة إلى إسرائيل على حسابنا؟ كانت مهمة مستحيلة لم تكن آن أو أنا في وضع يمكننا من تنفيذها. ونظرة إلى الوراء، حتى لو كان باستطاعتنا الوصول إلى كندا ماذا بعد ذلك؟ هل نتصل بالسفارة في كندا ونفاوضها للحصول على جوازات سفرنا؟ وعلى وجه الدقة، كيف يمكننا الخروج من مبنى شقتنا التي طالما وصفتها ليوسي بأنها شرك الموت.

وفي النهاية خلص بولارد إلى القول إن مديريه الإسرائيليين كانوا غير أكفاء. «ربما لم تكن المصيبة نتيجة أي سوء تقدير معقد بل شيئاً أكثر أصالة. إن الأثر الإنساني الوحيد الذي لم أستطع ألبتة تحليله في مخيلتي هو قدرة المرء على الحماقة. وقد كانت هذه حالة بسيطة لظاهرة كهذه إذا وُجد لها مثيل. إن نوع البضاعة التي عرضها رافي في هذه القضية كان دون الرديء ـ كان لا مسؤول جنائياً».

كذلك خشي بولارد أن تضع وزارة العدل بهدوء إسرائيل على لائحة المحك. قـال: «إن النتائج ستكون وخيمة. والحركة الصهيونية الأميركية يمكن تصنيفها كتهديد أيديولوجي مدمر معادل للشيوعية والمتطرفين المسلمين. وقابلية حسم الضرائب من التبرعات للمنظمات الصهيونية أصبحت في أكثر الاحتمالات مدعاة للتساؤل. والشخصيات القيادية في الحـركة ربمـا أخضعت لمراقبـة مقتحمة. وقد طبقت قيود تصدير صارمة على المبيعات المعقدة للأسلحة إلى إسرائيل».

سبب وحيد لخشية بولارد من تطور ذلك النوع من السيناريو المريع هـو طبيعة جـانب من الاستجواب الذي تعرض له. وقد ازداد مسؤولو وزارة العدل اقتناعاً من وجود جواسيس إسرائيليين آخرين يعملون في واشنطون ـ وليس بولارد بالضرورة الحدث الوحيد. والسبب المقنع أنهم يعملون

وفق ما يسمى بنظرية الصرصور. فكل صرصور تراه في المطبخ دليل على وجود كثير غيره مختبئة في أنابيب المياه.

ادعى بولارد أن وزارة العدل أرادت منه توريط جواسيس آخرين. أرادت معرفة ما إذا كان أي من زعماء اليهود الأميركيين جزءاً من شبكة تجسس إسرائيلية. فمثلاً، بينما كان بولارد ملتصقاً بآلة مكشاف الكذب طلب منه قراءة لوائح بأسماء يهودية والدلالة على جواسيس يهود مزعومين. وقد رفض هذا الطلب. وأنكر ذلك المحامي الأميركي السابق لمقاطعة كولومبيا، جوزيف دي جينوفا.

قال بولارد فيما بعد: «هذا الإضعاف لقاعدة التأييد لإسرائيل في الولايات المتحدة كان الهدف الخفي لواينبرغر في هذه الحالة. تجاوز كثيراً مجرد اضطهاد شخص لم يكن متهماً بمساعدة دولة محاربة أو متهماً بتعمد الإضرار بالولايات المتحدة. ولا شك أنه بتسويد الصيت الأدبي لعميل يشوه المرء سمعة نفسه في الوقت ذاته ـ وقد كان ذلك مجمل الهدف من هذه المهزلة القضائية الدقيقة التنسيق. وكل من شك في ذلك ما عليه إلا إعادة النظر في عنف اتهام واينبرغر لي، الذي خطط إلى حدٍ ما دون ريب بغية تملق العرب وبالتالي المساعدة على تجديد بناء المصداقية الملطخة للإدارة معهم إثر الصفقة المشؤومة لمبادلة الأسلحة بالرهائن مع الخميني.

مع أن المستعربين في واشنطون أخفقوا أخيراً في محاولتهم استخدام قضيتي كوسيلة لتحقيق البرنامج الخفي لحكمهم، إلا أن مرد ذلك لم يكن لنقص في المحاولة. وما لا يمكن تفسيره هو أنه في ضوء العداء ذي الدعاية الحسنة لواينبرغر إزاء إسرائيل والناجم بلا ريب عن الشعور بمركب «كرايسكي» أو «أمالك»، كان على مديري أن يفعل كل ما في طاقته لمنعه من الإطباق عليّ. وفي رأيي أن هذا هو الخطأ الرئيسي في معالجة رافي العملية للقضية.

غادر سوفير والأعضاء الآخرون في الوفد الأميركي إسرائيل متأثرين بدرجة التعاون التي لاقوها. والواقع أنه في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر أصدرت وزارة الخارجية بياناً رسمياً أوضح ذلك، قال البيان: «أنجز فريق الولايات المتحدة بالتعاون الكامل مع حكومة إسرائيل مهمته المتعلقة ببعض النشاطات التي تلقى بواسطتها مسؤولو حكومة إسرائيل وثائق مصنفة لحكومة الولايات المتحدة بشكل غير مصرح به».

أكدت حكومة إسرائيل أنها أعادت للولايات المتحدة كل تلك الوثائق التي في حوزتها أو تحت سيطرتها. ومن خلال تعاون حكومة إسرائيل اتصل الفريق الأميركي بالأشخاص المطلعين على الوقائع المتعلقة بالمهمة. وقد أعلمت حكومة إسرائيل حكومة الولايات المتحدة أنها اتخذت الإجراء الضروري لحل المجموعة المعنية. وكررت حكومة إسرائيل للفريق الأميركي بيانها بأن الأشخاص المعنيين تصرفوا دون تفويض وخلافاً لسياستها. وباتخاذ حكومة إسرائيل الخطوات المناسبة بهذا الشأن عملت حكومة إسرائيل على منع أي تكرار لهذه النشاطات. وتعتبر الحكومة الأميركية أن هذه الإجراءات تنظم التعاون الذي تتوقعه الحكومتان. وفي سياق تعاون الفريقين

الأميركي والإسرائيلي وبعد مباحثاتهما اتفقا على أن يأخذا بعين الاعتبار أية إجراءات ملموسة قد تقتضيها الضرورة في المستقبل.

مضى البيان في القول بأن وزارة العدل كانت لا تزال في غمرة متابعة القضايا المتعلقة بالمسألة. ولذا فإن التعليق غير مناسب، وسوف لا يصدر أي بيان آخر حتى تحين الفرصة الملائمة. واستناداً إلى الأساس المتين للصداقة الوطيدة والعلاقة الحميمة والثقة المتبادلة تؤكد كلتا الحكومتين ثانية عزمهما على مواصلة تعاونهما الوثيق في كافة الميادين.

بعد اعتقال آن، أمضت ما يقارب المائة يوم في سجن مقاطعة كولومبيا قبل إطلاق سراحها لقاء كفالة. وكتبت فيما بعد في رسالة إلى ليون هـ. تشارني، المحامي النيويوركي الذي ناب عنها بالوكالة في القضية: «لقد حُرمت عمداً من المعالجة الطبية والوصفات الضرورية لمشاكلي الصحية المتعددة. وكدت أموت نتيجة لذلك. حتى أن شعري علاه المشيب».

قالت إنها كانت تُرغم على الدوام على سماع «التهديدات العديدة بالموت التي كانت توجه إليّ من قبل زميلاتي النازيات الجدد والنزيلات المسلمات وهن تتحدثن بصوت مرتفع عن كيف سيقتلن العاهرة اليهودية القذرة».

خلال احتجاز آن الأوَّلي وجدت نفسها ممنوعة من التكلم مع أي كان، «ولم يُسمح لي بتنشق الهواء الطلق أو رؤية أشعة الشمس. وفي بادىء الأمر حُرمت من حق تلقي مواد القراءة أو الكتابة فضلاً عن «أنني مُنعت طيلة مدة احتجازي من الاتصال بزوجي أو رؤيته وهو أقسى عذاب يكابده زوجان حميمان مثلنا».

«كانت الروائح التي أتنشقها مزيجاً من النتانة التي لا تطاق في مرحاضي وبالوعتي اللتين لا تنظفان باستمرار بسبب إهمال موظفي السجن أياماً. وكان العرق يسح من بشرتي باستمرار من جراء الحرارة المشبعة بالرطوبة العالية والتي لا تُحتمل. لم أستطع شرب الماء نظراً لاختلاطه بغاز المجارير. كنت أتحرق للحظات عزلة إذ كنت أراقَب دوماً من قِبَل الحرس ذكوراً وإناثاً لا سيما الذكور منهم الذين كانوا يرمقونني بنظرات غرامية كلما أُذن لي بأخذ حمّام. وكان أقرب رفاقي فصائل الصراصير وغيرها من الكائنات الحية التي كنت أصحو وأغفو عليها. كانت الزنزانة خاوية لدرجة أنه كان ينقصها الملاءات والمناشف. وألوان العذاب الذي كنت ألاقيه كانت تذكرني على الدوام بمشاهد من كتاب «بو» «جهنم ورقاص الساعة». وما زلت حتى اليوم في عجب كيف خرجت حية من ذلك السجن».

استطردت: «هذه المضايقات المروعة كانت مصممة إما لتحطيمي عقلياً أو قتلي. وقد علمت فيما بعد أن هذه المضايقات أمر بها مسؤولون حكوميون كبار أغضبهم نذري الصمت في وجه سائر المسؤولين عن تطبيق القانون. علاوة على ذلك، كان أولئك المسؤولون يأملون أنه بإهلاكي ببطء يستطيعون إقناع زوجي بالتعاون معهم. لقد كانت حلقة شريرة كادت أن تكلفني حياتي».

نقص وزن آن ما يقارب الستين رطلاً إنكليزياً خلال الأشهر الثلاثة التي قضتها في السجن، «كنت أقاسي باستمرار ألماً بطنياً مبرحاً ودونما معالجة. علمت فيما بعد أنه تفاقم بسبب افتقاري للمعالجة الطبية، والأحوال التي سيطرت عليّ».

في نهاية شباط/فبراير ١٩٨٦ سعى محامي آن، جيمس هيبي، لتأمين إطلاق سراحها من السجن بكفالة. في ذلك الوقت اتضح للمحققين الأميركيين أنها لم تكن جاسوسة صينية، كما تبين ـ استناداً لما سمعوه مباشرة من الإسرائيليين ـ أنها لم تشترك عملياً في شبكة التجسس الإسرائيلية. ربما علمت ما كان يفعله زوجها، ولكنها لم تقم أبداً بجمع الوثائق ونقلها.

كان واضحاً أن المدعين كانوا يأملون في كسب تعاون بولارد الكامل كجزء من اتفاق مشارطة دفع الدعوى. فبالإفراج عن آن كانوا يتوقعون أن يبدأ زوجها بالتعاون ـ وهو ما حدث بالضبط.

في آذار/مارس كان كلا الزوجين بولارد يتعاونان تعاوناً تاماً رغم عدم إنجاز وتوقيع اتفاقات مشارطة دفع الدعوى الرسمية حتى ٢٣ أيار/مايو. ومقابل ردهما التهمة وتعاونهما الكامل لم تطلب الحكومة أقصى أحكام ممكنة. واتضح أن آن كانت تـأمل أن يسـاعد تعـاونها على كسب حكم مخفض لزوجها، وكان هو يأمل بالطبع أن ينقذ تعاونه زوجته من العودة إلى السجن.

في ٤ حزيران/يونيه ١٩٨٦ ـ وكان يوماً مشمساً وجميلاً في واشنطون ـ عاد الزوجان بولارد كلاهما إلى محكمة المقاطعة الأميركية التي كانت مزدحمة، مرة أخرى، بالمراسلين الصحفيين. مَثُلا أمام القاضي أوبري روبنسون الثالث وهو على ما يبدو محام مدني أسود بارد المزاج، عين خلال إدارة كارتر. ورغم سلوكه المتجهم فقد كان يتمتع بسيرة حسنة باعتباره قاضياً حاذقاً ونزيهاً.

أخبره مساعد المحامي الأميركي، تشارلز ليبر، أن هيئة محلفين أميركية كبرى ردت في ذلك الصباح تهمة ضد يوناثان جي بولارد الذي جيء به أمام القاضي روبنسون الذي رمى نظرة ازدراء من مقعده وسأل بولارد ما إذا كان يرغب في تسجيل دفع للتهمة. فردّ بولارد بالإيجاب.

سأل القاضي: «هل تسنى لك قراءة الاتهام؟»

أجاب بولارد بتمتمة تكاد لا تسمع «أجل». وكان يرتدي بذلة عمل رمادية فاتحة، ومحرمة بيضاء أنيقة محشوة في الطرف العلوي من جيب الصدر. وبدا واضحاً أن وزنه نقص كثيراً منذ مثوله الأول أمام المحكمة قبل حوالى ستة أشهر.

كانت آن بانتظار دورها للمثول أمام القاضي ذاته، جالسة إلى طاولة مجاورة وعيناها باكيتان. جاءت إلى جلسة المرافعة في ثوب أبيض أنيق وقد قصرت قصة شعرها الأحمر. وهي أيضاً نقص وزنها قليلاً. والواقع أنها بدت أفضل بكثير مما كانت عليه خلال مثولها الأول أمام المحكمة.

رداً على استنطاق القاضي أعرب الزوجان بولارد عن استعدادهما لمباشرة اتفاق دفع الدعوى وتنازلهما عن حقهما في مرافعة. وأعلم روبنسون بولارد أنه يمكن الحكم عليه بالسجن المؤبـد

بغضّ النظر عن الاتفاق. أجاب بولارد أنه فهم ذلك. ثم سأل القاضي آن إذا كانت قد فهمت أنها تواجه حكماً أقصى بالسجن مدة خمس سنوات. أجابت: «نعم. فهمت».

حينئذٍ سأل مساعد المحامي الأميركي داڤيد جينسون عما إذا كان لدى الحكومة أي اعتراض على بقائها طليقة بكفالة حتى الحكم. قال المدعي: «لا اعتراض لنا على الوضع القانوني كما هو، يا صاحب الفضيلة».

سُمح لآن بالعودة إلى شقتها في كنيسة الشلالات، فرجينيا، حيث كانت تقيم مؤقتاً مع أبيها. وأعيد زوجها إلى السجن الفيدرالي في بطرسبورغ.

في نهاية أيار/مايو ١٩٨٦ شرعت سلطات تطبيق القانون الأميركية في تسريب نبأ بأن بولارد كان عضواً في عملية أوسع وأكثر تنظيماً. وبالطبع كان الأميركيون آنئذٍ مدركين تمام الإدراك دور آفي سيللا ومحاولة إسرائيل إخفاءه. وذكر أحد مسؤولي إسرائيل لمجلة لوس انجلوس «تايمس» بغلاظة أن هذه العملية لم تكن عملية شريرة قصيرة الأمد بل كانت أكثر تنظيماً من ذلك. لقد كانت العملية التي قاموا بها جد باهظة فما من مال رشي تتبناه سفارة قادراً مهما بلغ على تغطية هذا النوع من النشاط.

في ذلك الوقت كان جلياً أيضاً أن بولارد وزوجته كانا يعتزمان قبول صفقة المشارطة ـ دفع الدعوى. وكي يظفر بولارد بالتساهل إزاء زوجته كان يتعاون مع السلطات كاشفاً تفاصيل خطيرة للعملية كان الإسرائيليون قد أخفوها، بما في ذلك الحجم الكامل لدور سيللا ووعد الإسرائيليين بإيداع ٣٠,٠٠٠ دولار سنوياً طوال عقد في حساب مصرفي سويسري.

عاد إلى إسرائيل افراهام سوفير، المستشار القانوني لوزارة الخارجية مع بعض المعاونين لمواجهة الإسرائيليين بهذه المعلومات الجديدة. ما السبب في محاولة إسرائيل تغطية دور سيللا؟ كان جواب إسرائيل أن سيللا لم يلعب إلا دوراً صغيراً في العملية.

إلا أن الأميركيين ظلوا على غضبهم. وقال مدير وكالة الاستخبارات الأميركية، ويليام هـ. وبستر، إن إسرائيل لم تزود الولايات المتحدة إلا «بتعاون اختياري» رغم الوعود بتعاون كامل. ووصف هذا الافتقار للتعاون «بالمخيب، إلا أنه ليس بالمستغرب إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة جمع المعلومات.

هدد مسؤولو الولايات المتحدة بسحب الحصانة من جهة الادعاء الممنوحة للشرطة السريين الإسرائيليين بما فيهم إيتان وياغور وإيرب. وقدم ذلك الوعد مقابل شهادة صادقة. لم يكن أحد من الإسرائيليين مستقيماً بكل معنى الكلمة.

وسرعان ما تبين أن السلطات الأميركية كانت ترغب في مقابلة سيللا، إلا أن الإسرائيليين عرقلوا ذلك.

ثم إن ليونارد غامنت، وهو محام كبير من واشنطون، عمل مستشاراً قانونياً للبيت الأبيض في عهد الرئيس ريتشارد نيكسون خلال فضيحة ووترغيت، تلقى مكالمة هاتفية من كين بيالكن في ٦ حزيران/يونيو ١٩٨٦. وبيالكن، وهو ذاته محام نيويوركي ذو نفوذ، وكان رئيساً لعصبة بني بريث لمكافحة الافتراء ومؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأميركية الكبرى، كان في تل أبيب حيث بحث قضية بولارد مع صديق قديم خاييم تسادوك، وهو وزير عدل إسرائيلي سابق. كان تسادوك يمثل آفي سيللا وقد طلب من بيالكن تزكية محام قدير من واشنطون لتولي القضية نيابة عن سيللا. في ذلك الحين كان سيللا قد عُرِّف من قِبَل وزارة العدل الأميركية بأنه متآمر شريك في حلقة بولارد التجسسية. كان لضابط سلاح الجو محاميان من تل أبيب؛ تسادوك وأخوه بالذات، مناخيم سيللا الذي كان شريكاً في مؤسسة تسادوك القانونية. كانت المسألة بمجملها عائلية إذ إن تسادوك كان أيضاً حما مناخيم سيللا.

لم تكن هذه المرة الأولى التي اشترك فيها غارمنت بقضية بولارد. وبُعيد اعتقال بولارد تلقى غارمنت مكالمة هاتفية من السفير الإسرائيلي مائير روزين مستفسراً عما إذا كان بإمكانه المجيء لبحث القضية. ولشد ما كانت دهشة غارمنت إذ اصطحب روزين موشي أرينز الذي طلب منه رئيس الوزراء شمعون بيريز المساعدة في عملية احتواء الضرر الإسرائيلي. كان أرينز يعتزم الاجتماع في ذلك المساء مع شولتز. وقد أراد هو والإسرائيليون الآخرون الذين كانوا مشتركين في الأبحاث مع الوزير من غارمنت إجراء تقييم للموقف. لقد جاء أرينز إلى واشنطون مع افراهام شالوم ورام كاسبي. ما هي الحالة النفسية التي كانت سائدة في واشنطون؟ وما مدى غضب شولتز؟ ما الذي يتوجب على إسرائيل فعله لتخفيف التوتر البالغ الخطورة الذي اعترى العلاقات؟

قام غارمنت ببعض الاتصالات بكبار المسؤولين في إدارة ريغان. وأخبر فيما بعد الإسرائيليين أن الوضع كان دون ريب خطراً جداً. لقد حثهم على كشف الأوراق ـ فستعرف الولايات المتحدة كل شيء في أية حال. وارتأى أنه بتعاون الأميركيين في التحقيق يمكن حل المسألة بشكل نهائي.

بيد أنه بعد حوالى ستة أشهر أُعيد غارمنت إلى القضية، وكان الإسرائيليون قد أخفوا قبل ذلك تورط سيللا. وربما خافوا أن لا يصدق أحد في واشنطون قصة عملية إسرائيل «الشريرة» فيما إذا كُشف عن تورط ضابط إسرائيلي رفيع في القضية.

في ٩ حزيران/يونيو طار غارمنت إلى إسرائيل. وفي طريقه قرأ وثائق وزارة العدل ومقتطفات الصحف حول القضية. كان يجهل ما خبىء له في الأسابيع الكثيرة القادمة. لقد أَلَمّ بكافة أنواع المسائل المتعلقة بإسرائيل خلال السنوات العشرين التي قضاها في واشنطون. وقد استخدمه الرئيس نيكسون كمصدر دبلوماسي لنقل وتلقي الرسائل من رئيسة الوزراء غولدا مائير. ونمى علاقة

مع وزير الخارجية هنري كيسنجر خلال الدور الذهبي للمكوك الدبلوماسي في الشرق الأوسط. وكان قريباً شخصياً من عدة سفراء إسرائيليين على مر السنين. بيد أنه كان لا يزال غير مؤهل لما كاد أن يشهده.

لقد نفض غارمنت يده من القضية خلال بضعة أسابيع بعد أن استنتج أن إسرائيل لا تعتزم التعاون مع الولايات المتحدة تعاوناً كاملاً.

الفصل الثاني عشر

مذكرة واينبرغر

بينما كان اتفاق المشارطة ـ دفع الدعوى قيد الإعداد بدأ كلا الجانبين التركيز على الحكم. ومقابل تعاون بولارد وعدت حكومة الولايـات المتحدة طلب «حكم حيـوي» ولكن ليس السجن المؤبد. نُقل بولارد إلى السجن الفيدرالي في بطـرسبورغ، فرجينيا. وكانت زوجته لا تزال طليقة بكفالة، وكانت تزوره في نهاية كل أسبوع على وجه التقريب.

في الأشهر القادمة تلقى القاضي روبنسون سيلاً من المذكرات من الحكومة ومحامي الدفاع. وهو وحده الذي سيقرر المدة التي يتوجب على بولارد قضاؤها في السجن. وما إذا كانت آن ستعاد إلى السجن. في ذلك الوقت قدّر مقررو المحكمة المتمرسون أنه من المحتمل أن يتلقى من عشرة إلى خمسة عشر عاماً ـ ويصبح مؤهلاً لإطلاق سراح مشروط بعد حوالى خمسة أعوام. وافترضوا أن آن يمكن أن تتلقى حكماً معلقاً وأن لا تعاد إلى السجن.

أعد المُدَّعون وثائقهم بعناية. وأدركوا أن تقييم الأضرار الذي قدمه وزير الدفاع واينبرغر إلى روبنسون قد يكون الوثيقة الوحيدة الأهم.

وإذ أوردت الحكومة الهموم الأمنية، رفضت الإذن بنشر بيان واينبرغر ذي الصفحات الست وأربعين على الملأ. بل قُدِّم سراً إلى القاضي روبنسون رغم السماح لبولارد ومحاميه بقراءته وإعداد ردهما.

إن مذكرة واينبرغر المصنفة التي أُحْرِزت لاحقاً بموجب قانون حرية المعلومات ولو مع بعض المقاطع مُسوَّدة، فقد وصفت ما قالت إنه «الضرر الهام الذي سببه المدعى عليه للأمن القومي»: كتب واينبرغر: «لقد أساء المدعى عليه فعلياً إلى الولايات المتحدة، وفي رأيي أن جرائمه تتطلب عقاباً صارماً. ونظراً لأنه قد لا يكون جلياً للمحكمة أن نشاطات المدعى عليه سببت ضرراً بالفداحة المحققة، اعتقدت أنه من الضروري تقديم تحليل مطلع ليتسنى صوغ حكم مناسب».

لم يقل واينبرغر في وثيقته أي حكم يتوجب.

ذكر واينبرغر: «إن غايتي شرح طبيعة أعمال المدعى عليه وأهميتها التي أرى أنها أثرت على أمن الولايات المتحدة. لقد فصّلت قدراً كبيراً من المعلومات البالغة الحساسية. ولذا أطلب من المحكمة مراجعة هذه الوثيقة وإعادتها بمقتضى ختم المحكمة إلى أيدي حاملها فور الانتهاء من المراجعة. كما أطلب أن لا تسمح لأي شخص آخر بالاطلاع على هذه الوثيقة ما لم يكن من الضروري بحكم القانون أن يفعل ذلك. وعندما يثبت الترخيص وحرية الاستعمال الصحيحان. وإذا احتاجت المحكمة الوثيقة ثانية أو أية محكمة ذات اختصاص بسبب هذه القضية فسيتاح ذلك فوراً. لقد أمرت أن تحفظ هذه الوثيقة لدى مدير الاستخبارات البحرية الذي سيكون مسؤولاً عن صونها وتسليمها أيضاً إلى المحكمة حسب الحاجة».

ثمة موضوع رئيسي في المذكرة هو أنه يمكن أن يلحق بالولايات المتحدة إضراراً هائلاً في الأمن القومي حتى عندما تكون الأسرار مشتركة مع أقطار صديقة مثل إسرائيل، وقال واينبرغر إنه أراد تبديد أي افتراض بأن الإفشاءات لأي حليف ليست بذات بال. على العكس من ذلك، فقد ارتكب ضرر جوهري لا يمكن رده بحق هذه الدولة.

أوضح أن معلومات الاستخبارات التي أفشيت لدولة معادية «يمكن استخدامها للتسبب في إجراءات مضادة وتشجيع أساليب إضاعة المعلومات وحتى السماح باستخدام أكثر كفاءة وفعالية للمصادر بطرق ضارة بمصالح الولايات المتحدة. وأصرّ قائلاً: إلا أن المعلومات المزودة لأقطار صديقة قد لا تقل ضرراً.

إن الإفشاءات غير المرخصة لدول صديقة قد تسبب ضرراً فادحاً للأمن القومي يضاهي الافشاءات للدول المعادية لأنه حالما تنقل المعلومات من أنظمة الرقابة المأمونة لا يوجد متطلب قابل للتنفيذ ولا أي حافز لتهيئة رقابات فعالة لصونها. علاوة على ذلك ربما كان من الأفضل أن تستخدم المعلومات لأغراض غير مقصودة. وأخيراً فإن تلك الإفشاءات ستُفْضِي إلى فضح صورة أوسع لقدرات الولايات المتحدة ومعرفتها أو الحاجة إليها مما قد يكون في مصلحة الولايات المتحدة كشفه لدولة أخرى حتى لدولة صديقة.

اعترف واينبرغر أن الولايات المتحدة وإسرائيل تتقاسمان معلومات الاستخبارات بشكل روتيني، ولكنه أكد أن المعلومات التي حصل عليها بولارد كانت من الحماقة بحيث تجاوزت نطاق المبادلات الرسمية.

في هذه الحالة أقر المدعى عليه أنه نقل إلى معارفه الإسرائيليين كمية ضخمة لا تصدق من المعلومات المصنفة. وقبل كل شيء لا بد من القول إن الإفشاءات غير المشروعة التي أقدم عليها المدعى عليه تجاوزت إلى حدٍ بعيد نطاق أية مبادلة رسمية لمعلومات الاستخبارات مع إسرائيل. وإذ تحقق ذلك، فقد اكتمل الإضرار بالأمن القومي منذ اللحظة التي سُلمت فيها المعلومات.

قدم واينبرغر عدة أمثلة لنوع المعلومات المفضوحة وقال: مثلاً، أود أن أفصّل للمحكمة كل المعلومات التي نقلها المدعى عليه إلى معارفه الإسرائيليين. ولسوء الحظ فإن حجم المعلومات التي نعرف أنها نُقِلت ضخم جداً بحيث لا يسمح بذلك. وعلاوة على ذلك يقر المدعى عليه بأنه نقل لمديريه الإسرائيليين كمية ضخمة من الوثائق تُشغِل مساحة قدرها خمسة أقدام في ستة أقدام في عشرة أقدام.

قال وزير الدفاع إن المذكرة السرية أُعِدت «استناداً إلى مراجعتي الشخصية للمعلومات المختصة وأبحاثي مع الموظفين المطلعين على المعلومات المبينة فيها»، وقال إن غايته من إعداد الوثيقة كانت «شرح طبيعة وأهمية أعمال المدعى عليه كما أرى أنها أثرت على أمن الولايات المتحدة».

قُسمت المذكرة إلى ثلاثة أقسام. تناول الأول ما وصفه واينبرغر بأنه أمثلة موجزة ولكن معينة للوثائق الفعلية المنقولة. وتناول القسم الثاني ما قال وزير الدفاع «إنه الضرر الذي أرى أنه حصل». وهنا أيضاً مع أمثلة معينة. واستهدف القسم الثالث «تغطية الأهمية الإجمالية لنشاطات المدعى عليه».

في الوثيقة المنشورة بموجب قانون حرية المعلومات حذف القسم الأول بكامله. إلا أن أجزاء كبيرة من القسمين الثاني والثالث تركت على حالها.

قال واينبرغر في قسم تقدير الضرر «إن اتساع الإفشاءات كان كبيراً بشكل لا يصدق». وأضاف أنه تبعاً لذلك فإن الضرر الذي لحق بالمصالح الأمنية للولايات المتحدة نتيجة لتلك النشاطات كان كبيراً بالمثل. وفصّل ما قال إنها النواحي الأكثر صلة بموضوع الإضرار بالأمن القومي للولايات المتحدة كما أراها.

إن نكسة رئيسية أصابت الاتفاقات المتطورة لمشاركة الاستخبارات الأميركية الإسرائيلية. وتتقاسم الولايات المتحدة وإسرائيل رسمياً قسطاً كبيراً من المعلومات على أساس البدل. وقال واينبرغر «بيد أن عملية بولارد صغّرت حافز إسرائيل في تقاسم المعلومات مع الولايات المتحدة» نظراً لتضاؤل حافزها للحصول على أسرار الولايات المتحدة إذ حصلت عليها سابقاً.

أضاف واينبرغر «يجب أن يكون واضحاً أنه ليس لدى الولايات المتحدة لا الفرصة ولا المصادر لتجمع من جانب واحد كافة المعلومات التي تتطلبها، فنحن نعوض بشتى اتفاقات تقاسم المعلومات مع دول أخرى في العالم. ويضم بعض هذه الترتيبات شراكة كاملة فعلاً تنجم عن الاعتراف بالمصالح المشتركة والثابتة (إشارة إلى الاتفاقات الحالية للولايات المتحدة مع البلدان الأنكلوسكسونية ـ بريطانيا وكندا وأوستراليا).

استطرد واينبرغر، إلا أن الاتفاقات الأخرى «صيغت على أساس البدل». وأورد على سبيل

المثال رغبة الولايات المتحدة في مشاركة حليف في أنواع من معلومات الاستخبارات مقابل المعلومات المنشورة أو غيرها من المساعدة القيّمة، وقال إن هذه المبادلات درست بعناية فائقة. وحالما تبرم تلك الاتفاقيات فإن القرارات لإفشاء وثائق مصنفة خاصة أو مواضيع معلومات الاستخبارات تتخذ من قِبَل مسؤولين رفيعي المستوى بعد تقييم دقيق لتكاليف الإفشاء لأمننا القومي إزاء المنافع المتوقع الحصول عليها في حال المصادقة على الإفشاء. وفي بعض الحالات، لا سيما معلومات الاستخبارات الحساسة التي ينشدها حليف فإنها تقايَض لأن الحليف يوافق على تزويد معلومات حساسة حيوية مماثلة.

إن إعداد المعلومات التي يراد تقاسمها مُعقد لأنه «يجب موازنة جميع المقاييس بعضها مع بعض». وقال واينبرغر: إن الحاجة لحماية مصادر وأساليب حيازة المعلومات وكذلك الحاجة لحماية المعلومات الأساسية المستلَمة يجب أن تتطابقا مع حاجة المستلمين لتلك المعلومات وتوقع المنفعة للولايات المتحدة.

وهكذا فإن الناتج النهائي لعملية ما لجمع الاستخبارات قد يُقايَض مع دولة أجنبية، إلا أن المصادر والأساليب الحقيقية المستخدمة للحصول على تلك المعلومات يجب حمايتها بكل الوسائل. وإن جميع مصالح الاستخبارات بالغة الحساسية لضرورة التأكد من أن هذه المصادر والأساليب ـ سواء العملاء أو الوسائط المشتملة على كودات أو مراقبة فوتوغرافية مُنتَهَكَة ـ لا تفتَضح مصادفة.

قال واينبرغر: «وهذا يعني عادة أن المعلومات الأساسية تحرَّر من الوثائق الأصلية المحتوية على المعلومات قبل الإفشاء».

ومهما يكن، لقد سلم بولارد إلى الإسرائيليين وثائق أصلية لم يحررها اختصاصيو الاستخبارات للتأكد من أن نقل المعلومات قد يبين المصادر والأساليب الحقيقية.

كتب واينبرغر: «لقد تعرف المدعى عليه على وجه التخصيص، إلى أكثر من ٨٠٠ نشرة أميركية مصنفة وأكثر من ١٠٠٠ رسالة وبرقية أميركية مصنفة باعها إلى إسرائيل، وجُلّ ما أعرف أنه ما من نشرة من النشرات التي زَوَّدَها رُخصت للتسييب الرسمي لإسرائيل بشكل غير محرر».

وهكذا فإن أعمال المدعى عليه عرّضت للخطر معلومات الاستخبارات الأساسية التي زودها للإسرائيليين وكذلك مصادر تلك المعلومات بوصفها خارج محيط أمني خاضع للرقابة الأميركية. وقال واينبرغر إن الولايات المتحدة واجهت الآن «مصاعب في إعادة اقتناء ما تضرر من مصادر اقتناء الاستخبارات التي افتضحت». ويجب على الولايات المتحدة أن تتوقع ازدياد بعض المخاطر مباشرة على أشخاص أميركيين من جراء أعمال المدعى عليه. «وأضاف أن الخطر الذي يهتم به بوجه خاص بصفته وزيراً للدفاع هو أن القوات المقاتلة للولايات المتحدة المنتشرة في العالم يمكن أن تتعرض للخطر بشكل غير مقبول نتيجة الاستخدام الناجح لهذه المعلومات».

قال وزير الدفاع أيضاً إن بولارد أساء إلى شتى نُظم الشرف في جهاز استخبارات الولايات المتحدة التي كان من المفروض أن تقصر حصول المسؤولين فقط على تلك المعلومات التي هم «بحاجة لمعرفتها». وعلاوة على ذلك، انتهك بولارد مسؤولياته «كساعٍ» مأمون بإمكانه نقل وثائق مصنفة من مبنى حكومي لآخر.

قال واينبرغر: «لقد قامت الولايات المتحدة، وفي الواقع، جميع أولئك الذين يتعاونون معنا بتقاسم الاستخبارات، بتطوير نظام لحماية المعلومات المصنفة يعتمد على الوثوق بالأشخاص من أجل فعاليته كما أنه نظام تختلف متطلباته للحماية بحساسية المعلومات التي هي تحت الخطر».

يجب أن توضع جميع المواد المصنفة في مخازن خاصة ملائمة لمستوى تصنيفها، وجميع الموظفين القائمين على رعايتها مسؤولون عن ضمان اتّباع الإجراءات الصحيحة لحمايتها. ويعتمد النظام بالضرورة على استقامة الشخص واستيثاقه. وما دام الشخص مسؤولاً عن المواد المصنفة التي هي في رعايته، فنحن نفترض بوجه عام أن تضمن المصلحة الشخصية صونها. إن صون المواد المصنفة يتعرض للخطر عندما لا يكون الشخص الذي يتولى رعايتها مسؤولاً عنها. وفي حالة كهذه ليس ثمة حافز حقيقي لحماية تلك المعلومات على نحو كافٍ.

مما يسبب حدوث ذلك في السير العادي للعمل، على سبيل المثال، ضرورة استخدام السعاة لنقل معلومات بالغة الحساسية من موقع لآخر. لقد قام المدعى عليه مراراً بعمل ساعٍ كهذا. وإساءته لهذا الترتيب الذي يعتمد بالضرورة على استقامة الفرد، جعلت من الممكن حصول نشاطاته التجسسية. وعلاوة على ذلك، في وضع كهذا، ينشأ الدافع لاستخدام المعلومات المُحْرزة لمصلحة الشخص الذاتية.

أكدّ واينبرغر أن نشاطات بولارد، بالإضافة إلى جمع الاستخبارات، أضرت أيضاً بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة. واستشهد بالهجوم الجوي الإسرائيلي على مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس مع العلم أن تلك الدولة كانت صديقة للولايات المتحدة.

قدم واينبرغر النصيحة التالية للقاضي فيما يتعلق «بحكم مناسب» على بولارد:

«يجب أن يكون العقاب ملائماً للجرم. وفي رأيي أن ما من جريمة أكثر استحقاقاً للعقاب الصارم من قيام المرء بنشاطات تجسس على بلده بالذات. وهذا يصح بوجه خاص عندما يكون الجاسوس الفردي قد تولى طوعاً مسؤولية حماية أسرار الدولة. وبالطبع كان المدعى عليه على علم وتفهم تامّين بحساسيات المعلومات التي أُفشيت بشكل غير قانوني. ولإثبات تلك المعرفة أرفقت طية نسخ اتفاقات عدم الإفشاء التي وقعها طوعاً. وإذا احتاجت المحكمة مزيداً من المعلومات أو الشرح لأي من محتويات هذه المذكرة تفضلوا بتقديم متطلباتكم لحامل هذه الوثيقة وأنا أتولى الإجابة عنها».

لقد سُمح لبولارد ومحاميه ريتشارد أ. هيبي وغوردون أ. كوفي بقراءة مذكرة واينبرغر السرية للقاضي بغية إعداد ردهم الذي قدموه إلى المحكمة في ٢٧ شباط/ فبراير ١٩٨٧. وفيه التمسوا رفض فكرة أن نشاطات بولارد سببت ضرراً فادحاً للولايات المتحدة. وقد أيد هيبي فيما بعد هذه النقطة بالإشارة إلى أن قسطاً ضئيلاً جداً من ردهم صُنف سرياً من قِبَل جهاز الاستخبارات الأميركية.

كتب المحاميان: «في هذه القضية، رغم معالمها الحساسة حيث نقل مقدار هائل من المعلومات بشكل غير مناسب، فقد جرى ذلك دونما قصد الإضرار بالأمن القومي أو التسبب به.

هذه القضية تفتقر إلى المقوم الأساسي الذي يجعل هذا الجرم شائنًا. لم يكن المستفيد، وليس هو، العدو إنما أحد أقرب الأصدقاء. ونحن لا نناقش أن ما أقدم عليه بولارد كان قويماً أو أنه لا يستأهل العقاب. ومهما يكن يجب أن يتناسب العقاب مع الخطورة الفعلية لهذا التصرف الإجرامي. وبتطبيق هذا الإجراء لا يصيب هذا البلد أي ضرر. وعليه يجب أن يعكس حكم بولارد هذه الحقيقة التي لا تقبل الجدل».

قال المحاميان في الاعتراض على مذكرة واينبرغر: إنها احتوت على عاصفة من الخلافات الظاهرة للتأكيد على عبارات: «قد يكون له»، و«ربما يكون له» و«يحتمل أن يكون له».

كذلك اتهما بأن الشهادة الخطية لم يكتبها فعلاً وزير الدفاع. «في المضمون الحقيقي للهجوم الذي يتميز به تقدير الحكومة للضرر في هذه القضية، فإن محاولة تضخيم الضرر الحقيقي للأمن القومي والتي وضحت من أسلوب توقيع الوزير للشهادة الخطية عوضاً عن المؤلف (المؤلفين) الحقيقي (الحقيقيين) كتبا مشيرين إلى أن وزير الدفاع لم يوقع شخصياً على تقدير ضرر مماثل في قضية تجسس أخرى عالقة في فرجينيا. وجاء ذكر هذه النقطة هنا لأنه يجب أن لا تُساق المحكمة لعدم اعتبار اعتراض على وثيقة لأنها وُقعت من قِبَل وزير دولة».

ادعى بولارد أن الشهادة الخطية «انقسمت في تفكير طلق حول الضرر المحتمل، إلا أنها أخفقت في ملاحظة شواهد معينة من الضرر الفعلي. ورغم أن هذا التفكير يصح لو أن بولارد اعتُقِل أمس فقط، فقد مضت خمسة عشر شهراً منذ اعتقاله. في هذه الأثناء استجوبته الولايات المتحدة مطولاً وأجرت إعادة نظر شاملة للوثائق التي سلمها إلى الإسرائيليين وأُتيحت لها فرصة مراعاة أي تبديل مادي للعلاقات بينها وحكومة إسرائيل والدول الحليفة والدول العربية الصديقة، وقد توجب على الولايات المتحدة في هذه الأثناء توسيع تقييم واقعي للضرر وبذا تتفادى الحاجة إلى أي تأمل. وعليه فإن اعتماد الولايات المتحدة على التأمل يؤكد هشاشة ادعاءاتها.

كانت النقطة الرئيسية التي رددها دفاع بولارد أنه لم تتسرب أية أسرار أميركية فعلاً إلى دولة معادية كالاتحاد السوڤييتي. والإشارة الوحيدة للاتحاد السوڤييتي في وثيقة واينبرغر تطرقت إلى خطر

وجود جاسوس سوفييتي في الاستخبارات الإسرائيلية. إلا أن الحكومة، وفقاً لرد بولارد، اكتفت بإثارة هذه الإمكانية دون أي دليل.

استطرد الرد: «لقد أظهرت الحكومة أن الحجم الواضح للمعلومات التي قدمها جعل من قضية التجسس هذه الأسوأ في تاريخ الولايات المتحدة. ومرة أخرى يخفق هذا الفحش وفي الإقرار بإبراز جميع الحقائق في القضية. لم يكن العدو مستلم المعلومات. والحجم بحد ذاته لا يؤخذ به إذا لم يكن عاكساً للضرر».

وفقاً لرد بولارد لم يزعم واينبرغر في أي مكان أن الولايات المتحدة فقدت حياة أو فائدة أي عملاء، أو أنها أُلزِمت بإبدال أو إعادة تجهيز استخبارات أو نقلها، أو أنها اضطرت لتغيير إشارات اتصال أو فقدت مصادر أخرى للمعلومات أو أن تكنولوجيا افتُضِحت. والواقع أن المذكرة لم تُجْنِ إلا «إمكانية» افتضاح المعلومات في المستقبل. الأمر الذي يتطلب إجراءات مضادة. لذا فإن عدم اتخاذ أية إجراءات مضادة نتيجة تصرف بولارد قد يكون أصدق بارومتر للضرر الفعلي، أو انعدامه، للأمن القومي.

وعليه فإن ميثودولوجيا هذا التقييم للضرر تصدعت على نحو خطير لعدم وجود «حجة مفحمة». إن تركيزها على الضرر ليس بفضح المعلومات الأساسية بل في التفكير غير الملموس وغير المثبَت الذي سيتعذر علينا التفاوض الفعال بشأنه مع حكومة إسرائيل حول تقاسم الاستخبارات مدة من الزمن. قد يظن المرء أنه لو كان ثمة دليل على ذلك، لقدّم في هذه الوثائق. ولا ريب أنه بعد انقضاء ثمانية عشر شهراً منذ بدأ الإسرائيليون تلقي المعلومات من السيد بولارد، في هذا الوقت كان سيبرز إلى عالم الوجود تطور كهذا ـ لو أنه حصل فعلاً، ولكنه لم يحصل.

في الشهادة الخطية السرية ما قبل الحكم التي قدمها واينبرغر إلى القاضي شدد على دور بولارد في الهجوم الجوي الإسرائيلي على مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في تونس. وأوضح أن علاقات الولايات المتحدة مع بلد عربي صديق قد تضررت. وهذا ما يقوض مصالح السياسة الخارجية للولايات المتحدة. كانت غارة تونس دليلاً على استخدام إسرائيل المعلومات التي حصل عليها بولارد مما ألحق الضرر بالولايات المتحدة.

لقد زود بولارد الإسرائيليين فعلاً بمعلومات عن الموقع الدقيق لمقر القيادة بما في ذلك استكشاف جوي ووصف كامل لسائر الأبنية هناك. هذه المعلومات وغيرها التي حصل عليها بولارد مكنت سلاح الجو الإسرائيلي من تفادي الكشف وقصف ذلك المركز الرئيسي في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٥ ـ قبل سبعة أسابيع من اعتقال بولارد.

تناول واينبرغر في مذكرته مطولاً الضرر المحتمل الذي يمكن أن تحدثه هذه الغارة على مصالح الولايات المتحدة فيما لو قُتِل عرفات. كان هذا مثلاً للعدوان الإسرائيلي الذي شجع عليه، وفقاً لوزير الدفاع، الميزة العسكرية الواضحة على أعدائها.

قال واينبرغر بوجه خاص إن علاقات الولايات المتحدة مع تونس تضررت من جراء الغارة. إلا أن دفاع بولارد رفض هذه الحجة. قالوا: إن الوزير واينبرغر يُغفِل ظاهرة رئيسية. فلم تكن الغارة على تونس موجهة ضد تونس بل كانت هجوماً جراحياً استهدف منظمة إرهابية. ومع أن العلاقات مع تونس قد تكون اضطربت بسبب الهجوم (رغم عدم حدوث قطع للعلاقات)، فالجدير بالذكر أن الرئيس ريغان، مهندس السياسة الخارجية للولايات المتحدة ذكر بعد الغارة أن للدول الأخرى حق مهاجمة الإرهابيين إذا استطاعت تبيُّن الأشخاص المسؤولين.

علاوة على ذلك، أوضح المحاميان أن الغارة الإسرائيلية لم تكن نتيجة معلومات استخباراتية حديثة قدمها بولارد إنما «تطبيق للسياسة الثابتة لإسرائيل بالثأر للأعمال الإرهابية ضد مواطنيها. ولم يقم الإسرائيليون بالغارة إلا بعد مقتل ثلاثة مدنيين إسرائيليين على يد جماعة إرهابية تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية في لارنكا، قبرص.

سلم محاميا بولارد بأن المعلومات التي زودها عززت دون ريب هجوم (تونس) ولكنها لم تتسبب به. والواقع أن المعلومات قلّلت على الأرجح من خسارة الأرواح الإسرائيلية والتونسية مما هو لصالح السياسة الأميركية إذ أتاح دقة الهجوم على مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية.

وفقاً لمحامي بولارد، لم يبين واينبرغر في شهادته الخطية ما إذا كان الإضرار المزعوم بالعلاقات التونسية نتيجة للهجوم الفعلي أو إخفاق الولايات المتحدة في التنديد به فوراً. وقالا: «مرة أخرى، إذا فرضنا أن الغارة حدثت بغض النظر عن نقل بولارد المعلومات إلى الإسرائيليين فلربما قلّل بولارد الإضرار بالعلاقات التونسية بتخفيض عدد الوفيات التونسية.

الواقع أن ريغان ذاته مال للموافقة على العملية الإسرائيلية. فعندما سأله المراسلون عن كيفية تأكد الإسرائيليين من مهاجمتهم أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية أجاب الرئيس: إن لي دائماً ملء الثقة باستخباراتهم.

لقد أدخل محاميا بولارد حجج أخرى في دفاعهما رداً على اتهام واينبرغر بأن غارة تونس قوضت مصالح السياسة الخارجية للولايات المتحدة وسألا «هل إن الغارة الإسرائيلية تختلف عن غارة الولايات المتحدة على طرابلس؟».

أليس من العدل أو الدقة التمييز بين الاثنتين على أساس صداقتنا مع تونس مقابل عدائنا مع ليبيا؟ كلتاهما كانت انتهاكاً لسيادة البلد، وكلتاهما جرت للهدف ذاته وهو الثأر من الإرهابيين في موقعهم المعروف. وكلتاهما قوبلت بثناء رئيسنا لكونهما ردَّي فعل على الإرهاب. وبعد خمسة عشر شهراً من اعتقال بولارد لم تتبدل علاقاتنا مع كل من هذين البلدين، ولذا فإن تحليل سياسة الوزير أقل ما تكون تحليلاً وأكثر منه نظرية ملائمة للضرر الذي لا علاقة له بالحقيقة.

في بيان بولارد الخاص للقاضي تقدم خطوة أخرى في الدفاع عن قراره تزويد الإسرائيليين

بالمعلومات حول عملية منظمة التحرير الفلسطينية في تونس. كتب بولارد: «قد يكون أقوم دور لعبته في المساعدة على اجتثاث هذا التهديد الإرهابي للبشرية حدث في خريف ١٩٨٥ عندما قرر الإسرائيليون مهاجمة المركز الرئيسي لياسر عرفات خارج تونس».

وكما فهمت فقد استهدف الثأر بوجه خاص مفرزة القوة ١٧ التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية التي كانت مسؤولة عن قتل ثلاثة مدنيين إسرائيليين عُزّل في حوض سفن يقع في مرفأ لارنكا القبرصي. لقد أمضيت اسبوعين قلقين في جمع المعلومات الخاصة بجهاز الدفاع الجوي الليبي وبيع منظمة التحرير الفلسطينية أسلحة مضادة للطائرات مما ساهم بجلاء وبشكل هام في نجاح المهمة.

أشار بولارد إلى أن نفس تلك المفرزة للقوة ١٧ قتلت أيضاً ثلاثة سفراء للولايات المتحدة خلال العقد الماضي دون عقاب بالمرة. وكانت تسعى لتنظيم مزيد من الأعمال الإرهابية ضد مصالح دبلوماسية أميركية في الخارج عندما دمرت الغارة الجوية الإسرائيلية تنظيمها القيادي.

برر بولارد مشاركته قائلاً: «من ناحيتي لقد شكل ذلك عِبْرة مثالية للمكان الذي ارتأيت القيام بنشاطي فيه خدمة لكلا البلدين إسرائيل والولايات المتحدة التي بدت آنئذٍ عاجزة أو غير راغبة في حماية المواطنين في الخارج».

لقد أطرى الإسرائيليون على إسهامه. وقال «إن ياغور وسيللا كليهما شددا على أن المهمة لم تكن لتتحقق في الواقع لولا المعلومات التي وفرت».

هل كان ثمة أي ضرر آخر بالعلاقات الأميركية مع دول عربية أخرى نتيجة للمعلومات التي نقلها بولارد إلى إسرائيل؟ قال واينبرغر بالإيجاب إلا أنه لم يضع النقاط على الحروف في شهادته الخطية، وذكر محاميا بولارد أن إسرائيل لم تهاجم أي بلد عربي منذ غارة تونس باستثناء واحد. وقالا: «إن لإسرائيل سياسة ثابتة تسبق تاريخ اشتراك بولارد معها تقوم على استهداف القواعد الإرهابية الواقعة في لبنان. وتلك الغارات الجوية هي الاستثناء الوحيد لهذه المسألة. فلو أن المعلومات التي قدمها بولارد غيرت التوازن العسكري كما يؤكد الوزير واينبرغر لشرعت إسرائيل على وجه التأكيد بمحاربة سوريا على ضوء السلوك المثير لذلك البلد في لبنان.

في شهادة واينبرغر الخطية أثار إمكانية تقاسم إسرائيل بعض المعلومات التي حصل عليها بولارد مع بلدان ثالثة. والغاية اكتساب إسرائيل بعض المنافع المقاتلة من تلك البلدان. زد على ذلك أن الاستخبارات التجارية في السوق الدولية ليست أمراً غير عادي إطلاقاً.

أوضح محاميا بولارد في خلاصتهما أن واينبرغر لم يقدم أي دليل على أن إسرائيل اشتركت فعلاً في نشاط كهذا. وقالا إن «المخاوف حول ما قد تفعله إسرائيل بهذه المعلومات باقتسامها مع بلدان ثالثة، لا أساس لها مطلقاً ما لم يكن الوزير بالطبع قد أراد القول أيضاً إن المعلومات التي

تلقتها إسرائيل بصورة مشروعة تدخل في التقاسم الخاطىء. إذا صح ذلك، يكـون الخطر غيـر مستغرب هنا للمعلومات المفضوحة! فهو يشملها جميعها ـ المفضوحة وغير المفضوحة على حد سواء».

تابعا القول إن «شفاعة أي تجسس» يجب أن يُراعَى معها اعتزام مستلم المعلومات المصنفة الإضرار بالولايات المتحدة. وليس ثمة دليل في تقييم الضرر على تعمد إسرائيل الإضرار بالولايات المتحدة بسبب تلقيها بصورة غير مشروعة المعلومات المصنفة من السيد بولارد. فإسرائيل ليست الاتحاد السوفييتي ـ إنها ليست بلداً من حلف وارسو ـ وهي ليست الصين لا بل ليست الهند.

إن إسرائيل على النقيض من ذلك تتمتع «بعـلاقة خـاصة» مـع الولايـات المتحدة. وقـال المحاميان «إنها حليفنا الوفي والثابت». وأسوأ ما قيل حول خسارتنا في هـذه القضية إن وضعنـا المفاوض في التعبير الأمين لمبادلة الاستخبارات مع إسرائيل قد يتعرض للخطر. وأضافا أنه بعد خمسة عشر شهراً من التحقيق لم يظهر دليل على ذلك.

ثم أجملا المنافع التي حصلت عليها الولايات المتحدة بانضمامها الوثيق إلى جانب إسرائيل. وقالا: «كذلك قامت إسرائيل بعمليات جَنَتْ منها الـولايات المتحـدة منفعة جـوهريـة وفي العام الماضي أحبطت إسرائيل عدة نشاطات إرهابية ضد أهداف أميركية وقدمت معلومات لاستخدامها في نشاطات الاستخبارات الأميركية أو أعمال ضد الإرهاب. وفي نص مذكرة الدفاع المذاع علانية حذف مراقب الاستخبارات الأسطر المتعددة التابعة والمحتوية على تفاصيل مساهمات إسرائيل.

كذلك أثـار واينبرغـر في مذكـرته احتمـال أن يكون بـولارد ضحية عمليـة تجسس «زائفة الجنسية». ويشكل ذلك وضعاً خُدع فيه المذنب فاعتقد أنه يعطي المعلومات إلى مستلِم أريحي تماماً بينما المستلِم الأساسي في الواقع هو العدو.

بيد أن محاميي بولارد بيّنا أنه كان دقيقاً في التحديد بأنه لم يكن متورطاً في عملية «زائفة الجنسية».

نكرر مرة أخرى أنه يجب على المحكمة أن تقيّم الضرر الفعلي لا الضرر المحتمل. وقد أشارت كل دلائل «الجنسية» إلى إسرائيل دونما إجحاف ولا شيء في تجربة بولارد ناقض ذلك. وهكذا فإن السيد بولارد عرف أن الكولونيل سيللا (في ذلك الوقت)... بطل عسكري إسرائيلي قاد غارة إلقاء القنابل على موقع المفاعل الذري العراقي سنة ١٩٨١. وبينما كانت زوجة سيللا تقيم في نيويورك كانت عاملة وطنية في جمعية مكافحة الافتراء (بني بريث)(*). علاوة على ذلك هيأ سيللا للسيد بولارد التعرف على يوسي ياغور وإيريت إيرب اللذين أصبحا مديريه الطويلي الأمد. والأهم

(*) لم تكن السيدة سيللا عاملة في جمعية مكافحة الافتراء. فعلاقتها الوحيدة بالمنظمة شملت عملها في مؤسسة كينيث بيالكن وهو رئيس مجلس إدارة وطني سابق لجمعية مكافحة الافتراء.

أنه اجتمع مطولاً مع رفائيل إيتان المراقب الأساسي للعملية. وطيلة سير عمليته كان السيد بولارد يسأل كل هؤلاء الأشخاص مطولاً للتثبت من إخلاصهم. حتى أفضل العملاء تدريباً لم يستطيعوا معرفة التفاصيل والأحداث التي امتحن على أساسها هؤلاء الأشخاص. وعليه لم يكن في الواقع من وجود لشبح «جنسية زائفة».

رداً على القول بأن المعلومات التي قدمها لإسرائيل أضرت بمصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، ارتأى واينبرغر أن ازدياد قوة إسرائيل يقلب ميزان القوى من المنطقة مما يزيد احتمال النزاع المسلح.

لو كانت الولايات المتحدة تعتقد ذلك حقاً لما زودت إسرائيل بأكثر المعدات العسكرية تعقيداً والمساعدات الخارجية السخية. وبدلاً من ذلك فإن إحدى مقومات سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط هي التأكد من احتفاظ إسرائيل بتفوق عسكري واضح في المنطقة.

اقتبسا من تقرير الولايات المتحدة المصنف بعنوان: «التوازن العسكري العربي الإسرائيلي» من إعداد جهاز مخابرات الولايات المتحدة القول بأن «الولايات المتحدة تبيع إسرائيل بعض أفضل المعدات وأكثرها تقدماً على أساس مناسب حتى قبل أن تتسلمه أحياناً قوات الولايات المتحدة».

كذلك رفض محاميا بولارد زعم واينبرغر باقتراح العكس - أن إسرائيل «بالمعرفة المتفوقة عسكرياً لن تتعرض لعدم الاستقرار الذي يذكي نار الحروب في الشرق الأوسط».

عندما نقلَت الواشنطون تايمس أول مرة هذا المقطع من مذكرة الدفاع تلفن السفير الإسرائيلي في الولايات المتحدة مائير روزين شخصياً إلى واينبرغر مستفسراً عن صحة هذا الخبر - أن وزير الدفاع ارتأى أن ازدياد قوة إسرائيل تقلب ميزان القوى في المنطقة ضد الولايات المتحدة، رفض واينبرغر التعليق على مادة الوثيقة المصنفة بيد أنه ذكر لروزين مرتين خلال «محادثتهما أنه كان من الواجب قتل بولارد».

في مذكرة مستقلة غير مصنفة إلى القاضي قال واينبرغر «إن المعلومات التي زود بولارد الإسرائيليين بها احتفظت بها الولايات المتحدة لاستعمالها الخاص لأن إفشاءها لأي شخص أو دولة يلحق أفدح الضرر بأمننا القومي. إن مقرراتنا للاحتفاظ بمعلومات استخبارات معينة والحفاظ عليها ومصادر وأساليب حيازتها، سواء كلياً أو جزئياً، تتخذ بعناية فائقة كجزء من خطة للدفاع القومي والسياسة الخارجية جرى تطبيقها بشكل ثابت طوال إدارات عدة. لقد أخذ المدعى عليه على عاتقه من جانب واحد قلب تلك السياسات، وبعمله هذا أضرّ وقضى على السياسات والأصول القومية التي استغرق تأمينها سنين عديدة وجهداً عظيماً ومصادر هائلة».

حث واينبرغر القاضي على أن يكون صارماً في حكمه. وكتب: «أؤكد باحترام أن أي مواطن أميركي، لا سيما موظف دولة مؤتمن يبيع أسرار الولايات المتحدة إلى أية دولة أجنبية يجب أن لا

يعاقب كمجرد مجرم عادي. على العكس يجب أن يعكس العقاب المفروض عذر تصرفات الشخص وخطر الخيانة المرتكبة وضرورات الدفاع القومي. هنا، رغم أن المدعى عليه أدى يميناً لصون وحماية المعلومات المصنفة، فقد خان الأمانة العامة لقاء المال، وأعتقد أن هذه الحقائق يجب أن تُعار أعظم تقدير لدى صوغ الحكم المراد فرضه. صوناً للثقة العامة بقانوننا ولاستعادة الثقة التامة في قدرتنا والتزامنا بحماية أمن الولايات المتحدة».

في أوائل كانون الثاني/يناير ١٩٨٧ بدا واضحاً أن الولايات المتحدة وإسرائيل لن تتوصلا إلى اتفاق مبكر حول آڤي سيللا. لقد رفض مسؤولو وزارة العدل منح سيللا الحصانة من المحاكمة قبل الاستجواب ـ الشيء الذي منحوه لرافي إيتان وغيره من الإسرائيليين المعنيين. واعتقد الأميركيون أنهم خُدِعوا باتفاقهم الأسبق.

ازداد اعتقاد الإسرائيليين من ناحيتهم أنهم قدموا «تعاوناً كاملاً» مع واشنطون. والواقع أنهم شددوا على أنه كان ثمة تعاون لا مثيل له في قضية كهذه. كانوا غاضبين لتسرب هذه الإساءات ضدهم من قِبَل الولايات المتحدة. ولكل شيء حدود. فلماذا لا تسدل الولايات المتحدة الستار على هذه المسألة؟

لقد رفض الأميركيون بمرارة هذه الشكاوى الإسرائيلية. ورغم كل شيء كانت الولايات المتحدة ضحية التجسس الإسرائيلي ـ وليس العكس. أجل، لقد تعاونت إسرائيل إنما ليس على الوجه الأكمل. وبينما حلت إسرائيل «لاكام» فقد تولى رافي إيتان عملاً مقبولاً وهيناً كمدير لمواد إسرائيل الكيماوية. وهي أكبر شركة في البلاد تمتلكها الدولة. وطبعاً لم يعتبر ذلك عقاباً. فبالنسبة لواشنطون كان ذلك ترقية على عمل أحسن أداؤه.

وهكذا أخذ يتهاوى ما تبقى من قضية بولارد دون إنجاز.

بيد أنه لم يكن بالإمكان التعرض بشكل قاطع لمكانة سيللا وماضيه في سلاح الجو. فقد كان يتمتع رغم كل شيء بشعبية واسعة. فبصفته قائداً لقاعدة رامون الجوية قام بعمل رائع ـ كالعادة. واتفق قائد سلاح الجو آموس لابيدوت ورئيس الأركان موشي ليڤي ووزير الدفاع اسحق رابين بعد بحث دقيق، على أنه يجب معاقبة سيللا بسبب اتباعه التعليمات بإقامة الاتصال المبدئي مع بولارد. كما تعرضوا لضغط قوي من داخل قوة الدفاع الإسرائيلية بعدم التضحية بسيللا على مذبح العلاقات الأميركية الإسرائيلية. وفي الأسابيع الأخيرة اجتمع لفيف من كبار ضباط سلاح الجو الإسرائيلي مرتين مع رابين للإصرار على عدم معاقبة سيللا لأنه تصرف بحسن نية.

في النتيجة، رُقي سيللا لقيادة قاعدة تل نوف الجوية الكبيرة قرب تل أبيب ـ التي تعتبر تقليدياً نقطة ارتكاز ليصبح قائد سلاح الجو. وبعد بضعة أشهر ينال الرتبة التي تسبق قيادة: عميد.

لقد أثار نبأ ترقية سيللا حفيظة واشنطون. إذ اعتبر صفعة على وجه واشنطون. كانت إسرائيل

قد وعدت «بمناقشة حساب» أولئك المسؤولين المتورطين في العملية «الشريرة». ومع ذلك ها هم يتلقون الآن الترقيات فعلاً.

في ٣ آذار/مارس ١٩٨٧ ردت الولايات المتحدة باتهام سيللا رسمياً بثلاث تهم تجسس. لقد اتُهِمَ «بالتآمر لتسليم إسرائيل معلومات تتعلق بالدفاع القومي للولايات المتحدة». وبالتسبب «في نقل الوثائق إلى إسرائيل مع العلم أنها تحتوي على معلومات عن الدفاع القومي للولايات المتحدة يمكن أن تستخدم لصالح إسرائيل واستلام غير مشروع «لمعلومات مصنفة من موظف أميركي». وقالت نشرة الاتهام: إنه في حال إدانته يمكن أن يُحكم كحد أقصى بالسجن المؤبد وغرامة ٥٠٠,٠٠٠ دولار.

كان رد فعل رابين مريراً: قال: «نعتقد أننا قمنا بالتزاماتنا فيما يتعلق بهذه القضية. ومما يؤلمنا أن المسألة قيد التطويل والأخذ والرد، ونأمل إيجاد طرق لإزالة هذا المصدر للمشاكل في العلاقات بين بلدينا». وأصر على أن الزعم بأن عملية بولارد كانت تحظى بمصادقة رسمية «هراء كلي».

إن ترقية سيللا ـ فيما يتعلق بالزوجين بولارد ـ جاءت في أسوأ وقت.

الفصل الثالث عشر

الحكم

كان ٤ آذار/مارس ١٩٨٧ يوماً مشمساً آخر في واشنطون وهو التاريخ الذي يُحكم فيه على يوناثان جي بولارد وزوجته آن هندرسون بولارد. وقد مضى على اعتقالهما خمسة عشر شهراً. كانت الغرفة مكتظة. وصل مراسلو الصحف إلى محكمة المقاطعة الأميركية في جادة الدستور على بعد بضعة مجمّعات من رابية الكابيتول في وقت جد مبكر ـ حوالى منتصف الساعة الحادية. كان محدداً بدء جلسة الحكم الساعة ٢ بعد الظهر. ولكن قبل تسعين دقيقة من موعدها احتشد صف طويل خارج الغرفة ذات الألواح الخشبية. كان ثمة عشرات من الصحفيين المندفعين ومصوري المحكمة ينتظرون في صف متعرج حول الجدار الرخامي للممر كما كان هناك حوالى عشرين من زملاء بولارد القدامى في الاستخبارات البحرية بمن فيهم المقدم جيري آجي، رئيسه. ارتدوا جميعاً بذلات عمل ـ ليس بذلاتهم الرسمية. وكان في الانتظار في الخارج والد بولارد وحموه. كما كانت هناك كارول بولارد أخت بولارد.

وقف الجميع بهدوء إلى أن بدأ الحراس بالسماح للمشاهدين بالدخول ـ فرداً فرداً. كانوا يفتشون جيوب كل منهم بكاشفات معدنية نقالة رغم أن كلا منهم فتش بدقة عند الدخول إلى المبنى في الدور السفلي. ورغم وجود العديد من الحراس كان هنـاك زحمة ذاتيـة، والناس يتـراشقون الكلمات الغاضبة وهم يندفعون بعنف إلى الأمام. وأخيراً بعد لحظات من التوتر خشي خلالها بعض المراسلين من عدم توفر أمكنة كافية في الداخل. تمكن الجميع من الدخول.

بعد لحظات قليلة أُحضِر الزوجان بولارد إلى قاعة المحكمة يصحبهما المحامون متجهمو الوجه. ناب عنها جيمس هيبي واليزابيت ليبشوتز وناب عنه ريتشارد أ. هيبي وغوردون أ. كوفي. جلسوا إلى طاولة مستطيلة في الجانب الأيسر من قاعة المحكمة. كان جي ومحامياه في جانب من الطاولة مقابل آن ومحامييها. في الجانب الآخر من الغرفة كان الادعاء برئاسة المحامي الأميركي

الأنيق لمقاطعة كولومبيا جوزيف أي. دي جينوڤا الذي جلس في صدر الطاولة مقابل القاضي. كان يرافق دي جينوڤا مساعداه المحاميين الأميركيين تشارلز س. ليبر وداڤيد ف. جينسون. وقف الجميع بينما دخل الغرفة القاضي أوبري روبنسون وهو شخصية مهيبة وجلس في مقعده. جال ببصره على الحضور من مقعده المرتفع في مقدم قاعة المحكمة ثم أومأ برأسه نحو كاتب المحكمة. ويبدو أنه اعتاد ذلك في مثل هذا الموقف.

في تمام الساعة ٢,١٠ بعد الظهر بدأ الكاتب الإجراءات. ران صمت مطبق عندما أعلن:

«القضية الجنائية أرقام ٢٠٧ ـ ٨٦ و٢٠٨ ـ ٨٦ يوناثان جي بولارد وآن هندرسون بولارد».
وتلا أسماء محامي الدولة والدفاع. قال روبنسون: «ليتقدم المدعى عليهما ومحاموهما». وهو يجيل الطرف في قاعة المحكمة. واقترب الزوجان بولارد ومحاموهما من مقعد القاضي.

قال روبنسون وهو يقرأ من ورقة مطبوعة على الآلة: إن المدعى عليه يوناثان جي بولارد ماثل أمام المحكمة للحكم عليه، إذ قدم دفعاً لدعوى إجرامية بالتآمر لارتكاب التجسس انتهاكاً للعنوان الثامن عشر، مجموعة قوانين الولايات المتحدة، القسم ٧٩٤ (سي).

«هل هذا صحيح يا سيد هيبي؟»
«صحيح، يا صاحب الفضيلة».

والمدعى عليها آن ل. هندرسون ماثلة أمام المحكمة، إذ قدمت دفعاً لجرم فقرة اتهامية بالتآمر لاستلام أملاك مختلسة للدولة، انتهاكاً للعنوان الثامن عشر من مجموعة قوانين الولايات المتحدة، القسم ٣٧١ وملحقه بعد الواقعة لحيازة وثائق الدفاع القومي انتهاكاً للقسم ٧٩٣ (أي) و٣ من العنوان الثامن عشر.

«هل هذا صحيح يا سيد جيمس هيبي؟»
«صحيح، يا صاحب الفضيلة».

سأل القاضي روبنسون: «والآن هل تسنّى للمحامين والمدعى عليهما مراجعة محضر ما قبل الحكم بهذه القضية؟»

أجاب ريتشارد هيبي أولاً: «أجل يا صاحب الفضيلة».
أضاف أخوه: «أجل فعلنا، يا صاحب الفضيلة».

قال القاضي روبنسون: «حسناً، إذن أعتقد أن بإمكان المدعى عليهما الجلوس إلى طاولة المحامي».

دعا القاضي روبنسون ريتشارد هيبي، وهو رجل جسيم ذو صوت جهور لتقديم استرحام بولارد

للرأفة. وقد أصبح بولارد على مر الشهور منتقداً لِهيبي ولكنه لم يعزله. وكان بولارد قد قال: «لا أدري قد يكون الوقت متأخراً الآن لتبديله».

كان هيبي يرتدي بذلة عمل سوداء مقلمة وقميصاً أبيض وأربة حمراء، ويقرأ مفكرة. ذكر أن بولارد كان قد قدّم التماساً لرد التهمة، وتعاون مع حكومة الولايات المتحدة في تحقيقها. مقابل ذلك وافقت الحكومة بشكل خاص على عدم طلب السجن المؤبد.

في مناقشة هيبي من أجل حكم مخفف سلّم بأن بولارد كان مذنباً بشكل لا يدحض. ولكنه أكد على أنه لم يكن ثمة دليل «على أي تعمد بالإضرار بالولايات المتحدة». وذكر أن بولارد كان قد اتهم على وجه التخصيص بالتجسس «نيابة عن إسرائيل» وليس ضد الولايات المتحدة. ونظر المحامي إلى بولارد الذي كان يجلس منتصباً في مقعده.

قال هيبي: «في بادىء الأمر قام بما فعل دون مقابل. وفيما بعد تلقى المال لقاء جهوده. لقد أفسده المال. وكان باعثه لمساعدة إسرائيل قد لُطِخ بشكل لا يرمم انتهى إلى ما انتهى إليه من إدمان على تلقي المال لقاء عمله. إن تصرفه انتهك ائتمانه كصائن لأسرار الدولة. وعند افتضاحه تمادى في الكذب ليتسنى لمديريه تفادي قضاء الولايات المتحدة.

استطرد هيبي: «يا صاحب الفضيلة، لا عذر لهذا التصرف. وليس لدينا من الأعذار ما نقدمه لنجعله في حِل من جرائمه».

إلا أن محامي الدفاع سعى حينئذٍ لجعل القضية تأخذ مجراها الطبيعي. وأوضح أن الإضرار بالولايات المتحدة كان معتدلاً. فإسرائيل وهي حليف الولايات المتحدة كانت هي المستلم. وقال: «باختصار، إن إسرائيل ليست، ولم تكن أبداً عدوة للولايات المتحدة. وبالتالي، يا صاحب الفضيلة، إن أي ادعاء بالضرر نقدمه، يجب أن يُفهم على ضوء فداحته. والحمد لله إن الضرر في هذه الحالة ليس فادحاً».

مضى هيبي في وصف عائلة بولارد. قال للقاضي: «أعتقد أنكم تلقيتم كتاباً من أبيه الذي هو رأس العائلة. إن الأسى يعتصر قلب الدكتور موريس بولارد وزوجته لما حدث لابنهما وكنتهما. ولكني أعتقد يا صاحب الفضيلة أن من المهم فهم خلفية المدعى عليه في حضرة محامي هذه المحكمة. وتشمل تلك الخلفية تقديراً لوالديه وأسرته نظراً لاعتقادي يا صاحب الفضيلة أن الدليل سيظهر، في حال تسليم المحكمة بما كُتِب لها من هذه العائلة، إنهم كانوا مقربين ويتحلون بالحرص والمحبة وعالمين بتراثهم العرقي، وفي الوقت ذاته مواطنين قائمين بواجباتهم ومطيعين للقانون.

استطرد هيبي: «ليس هذا التماساً لإعادة بولارد لأسرته وزوجته فوراً: ذاك خيال غير أن الرجل له من العمر إثنان وثلاثون عاماً. والده في سن السبعين على الأقل. لقد التزموا بقيود القوانين

الجزائية التي تحدد تفقد السجناء. وتلك القيود شاقة بوجه خاص هنا، إذ إن العائلة تقيم في انديانا والمدعى عليه لم يُسكن هناك. وعدد ساعات التزاور محدود بوضوح وفوق ذلك في ظروف مُحكمة للغاية، بخلاف السجناء الآخرين ممن لهم حقوق الزيارة، ألفت انتباه فضيلتكم إلى هذه النقاط كي أبين بجلاء هول المأساة التي حلت بالأسرة إجمالاً ملتمساً منكم أخذ ذلك بعين الاعتبار عندما تقررون الحكم الذي يتوجب على السيد بولارد قضاؤه.

ذكر هيبي أن بولارد مستهدَف لزمر من المتطرفين في السجن. وقال: «باختصار، إن حياته في خطر».

لقد أقر نظام السجن ذاته بالأخطار التي تواجه بولارد وقال إن طيلة الأشهر الخمسة عشر الماضية، عُزل بولارد بشكل أساسي، والمفروض أن تستمر تلك العزلة... والمشكلة هي ببساطة: أن الوقت عصيب وعصيب. وأقول للمحكمة، يا صاحب الفضيلة، إننا سنجابه هنا أصعب الأوقات، كما يُستدل حقاً من الأشهر الخمسة عشر الماضية في السجن لاعتبارات عديدة لها دلالتها.

أضاف هيبي: إذا سلمنا بطبيعة التهمة، فإن إمكانية إطلاق سراح مشروط ضئيلة، وفي اعتقادنا أن هذا غير مأمول، وأنه سيقضي كل المدة التي تتطلبها القوانين مطروحاً منها ما ترتأي حسمه، قبل الإفراج عنه.

التَمس من القاضي الرحمة. «وعليه ثمة مجال يا صاحب الفضيلة للرأفة، بينما تأخذ العدالة مجراها. وشكراً».

ثم ابتعد هيبي عن القاضي وتوجه إلى طاولة بولارد.

أومأ القاضي روبنسون إلى جيمس هيبي، الذي كان واقفاً، للبدء بمرافعته نيابة عن آن ورغم شبهه الواضح لأخيه إلا أن جيمس هيبي لم يكن بضخامته وكان ذا صوت أعلى ويبدو أنه أكثر انفعالاً وأقل اعتداداً بالنفس.

شدد على الاختلاف بين القضيتين، «وإذ لم يكن أقل من الحكومة توقاً ليضفي على السيدة بولارد ذات الصورة التي رسموها للسيد بولارد، إلا أن الحقائق في قضيتها، مجردة من كل البلاغة المثيرة للحكومة، تدل على البون الشاسع بين القضيتين».

أوضح أن آن لم تكن جاسوسة لإسرائيل أو الصين. إنها لم تشارك في النواحي العملية لهذه المسألة. لم يسبق أن اشتركت في الحصول على أية وثائق أو معلومات مصنفة أو نسخها أو تسليمها لأي كان .

لم تكن «مرتزقة، بدافع من الحاجة أو الطمع بل مجرد زوجة وإن تكن زوجة وفية يحفزها

حبها لزوجها. كانت تتصرف بدافع الاهتمام الصادق به والمودة له، وليس بدافع أية رغبة في المال».

لم تطلب آن من زوجها أن يُحضِر إلى البيت وثائق مصنفة عن الصين. قال هيبي «إنها لم تنتبه لمعلومات الاستخبارات التي تضمنتها وثائق جمهورية الصين الشعبية. كانت تجهل بشكل أساسي معلومات الاستخبارات التي تضمنتها تلك الوثائق، ولم ترو أياً من تلك المعلومات لزميلاتها في الكومكور أو لأي كان في سفارة جمهورية الصين الشعبية».

أوضح المحامي: «إن نقلها الوثائق من الشقة وإشارتها لسيللا حول المتاعب لم يكن إلا مجرد محاولات لمساعدة زوجها. وحتى الآن ما زال حبها لزوجها هو ما يمنحها السند والقوة لاجتياز هذه الأوقات الصعبة. فهي ترى أن زوجها موضع ذم الحكومة والصحافة وهي تحس بضرورة تنقية صفحته».

توقف هيبي ليلقي نظرة على آن. بدا عليها الألم. كان ذراعاها حول معدتها، وتذكر تفانيها لزوجها ساعة حاجته.

استطرد: «هذا التصرف يكاد يعتبر استقامة في بيئة أخرى. أما في هذه القضية فقد اعتبر إجرامياً. إنها تدرك ذلك، وإذا كانت والحق يقال غير نادمة على مساعدة زوجها. فهي آسفة أشد الأسف لحصول شيء من هذا القبيل».

ثم تطرق هيبي لألم آن نتيجة الفضيحة وذكر تجربتها الرهيبة في سجن مقاطعة كولومبيا. لقد احتُجزت بشكل مؤثر طيلة أربع وعشرين ساعة يومياً في زنزانة بلا نوافذ ودون تمرين جسماني، وأحياناً دون أي اتصال من أي من الزميلات الأخريات. ولم تكن تسمع سوى التهديدات توجه إليها لكونها جاسوسة.

كذلك قال هيبي: «إن آن عانت من اضطراب معوي استلزم عناية وتطبيباً دائمين». أثناء وجودها في السجن لم تكن تتلقى أحياناً ذلك العلاج. وعندما تناولته ذات مرة، أو في النهاية، إثر جهود المحامي، لم يكن يقدم إليها في الوقت المناسب. وبالنظر لحالتها كان يتعذر عليها تناول طعام السجن.

أخذ نَفَساً عميقاً واستطرد: «حقيقة الأمر يا صاحب الفضيلة، إنها في ألم يومي. وأحياناً يُضعفها إلى حد أنه يستنفد قواها. وقد شاهدتُ ذلك بأم عيني. والواقع أن أطباءها يشيرون بوجوب إدخالها للمستشفى للمعالجة».

كذلك تحدث عن حب آن لبولارد ومبلغ افتقادها له عندما كانت في السجن. وربما كان أهم ما في الأمر في تلك الأثناء عدم تمكنها من رؤية زوجها سوى مرة واحدة. لقد تسنى ذلك لزميلات أخريات بواسطة قسيس السجن، ولكن لسبب ما تعذر عليهن الاجتماع. أما بالنسبة إليها، وأنا أشك

فيه كان ذلك عقاباً من الخطورة بحيث عانت الأمرين أثناء وجودها في السجن.

تابع هيبي: «إن استمرار انفصالها عن زوجها كان مُتلِفاً لها. وللتدليل على العلاقة التي تربطهما لقد حاولت زيارة السيد بولارد فعلاً في نهاية كل أسبوع أثناء سجنه في بيترسبورغ، كانت تقطع بالسيارة ٢٥٦ ميلاً ذهاباً وإياباً كل مرة لمشاهدته. وأحياناً ثلاث مرات في الأسبوع أيام الجمعة ثم السبت وأخيراً الأحد.

وختم قائلاً: «وفي النهاية بسبب فواتيرها الطبية والقانونية أصبحت مفلسة وغارقة في الدين. كل ذلك جعل الأشهر الستة عشر من حياتها كالجحيم. إن الإجهاد والضغط اللذين تعانيهما والقلق الذي تحملته أمور لا تطاق. ويمكن القول إنها لم تعد ذات الشخص الذي اعُتقِل منذ ستة عشر شهراً، رغم كل ذلك تعاونت مع الحكومة حتى قبل دفع التهمة. لقد أجرت فحص مكشاف الكذب المطلوب. وقابلها عدة مرات محققو وكالة الاستخبارات الأميركية وجهاز الاستخبارات البحرية، وشهدت أمام هيئة المحلفين الكبرى». وقال إن شهادتها ساعدت الحكومة على اتهام سيللا.

في معرض إشارة هيبي لحادثة ريتشارد فين، أنكر محاولة آن استخدامه. «هذا غير صحيح... حقيقة الأمر أنها لم تحاول استخدام هذا الصديق الذي ليس هو بالضحية كما حاولت الحكومة تصويره».

استطرد: «الآن فيما يتعلق بمعرفة السيدة بولارد بتجسس زوجها، إنها لم تنكر ألبتة معرفتها بنشاطاته. بيد أن ما يجب أيضاً إيضاحه رغم ذلك هو أنه عندما أخبرها السيد بولارد أول مرة برغبته في مساعدة إسرائيل لم تعلم بالضبط ما كان يعتزمه. والواقع أنه لم يكن يعلم هو ذلك آنئذٍ. إذ لم تكن آراؤه قد تبلورت بعد. ولم تعرف بنقله الوثائق إلا في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٤ بعد أن شاهدت واكتشفت وجود الوثائق في الشقة. لم تعرف أبداً محتويات تلك الوثائق التي كان يقدمها إلى الإسرائيليين. ولم يحدث أن حصلت عليها أو حللتها أو سلّمتها إلى الإسرائيليين نيابة عن زوجها».

التفت هيبي إلى آن التي كانت تجلس مقابل القاضي ووصفها «بأميركية وفية لم تتجسس أو تفعل أي شيء ألبتة يلحق الضرر بهذا البلد». والتمس عدم إعادتها إلى السجن.

ثم توقف ونظر للمرة الأخيرة إلى مذكرة وإلى عيني القاضي. وقال: «شكراً».

حينئذٍ وقف أخوه وسأل، مشيراً إلى آن: «هل تأخذ يا صاحب الفضيلة استراحة قصيرة؟»

وبدا على وجهها أمارات الألم.

سأل القاضي: «ما مبلغ قِصرها؟»

«ما يكفي لمعالجتها. هذا كل شيء»

قال روبنسون متجهماً: «أريد الانتهاء الليلة».

قال هيبي: «أفهم ذلك، كلنا يريد ذلك، ربما خمس دقائق؟».
قال القاضي وهو يدق مطرقته: «لنتوقف عشر دقائق».

في مؤخر قاعة المحكمة وقف المشاهدون واشرأبت أعناقهم. واستطاعوا رؤية آن وهي تغادر الغرفة بصحبة حارستين. كما انضم إليها بولارد والمحامون. لم يكن ثمة شك في أنها تتألم - جسمانياً وعاطفياً.

كان برنارد هندرسون وموريس بولارد يجلسان في الصف الخلفي يتميزان قلقاً وانزعاجاً. أكسب الأخوان هيبي قضيتي موكليهما قوة ودعماً. وكانت حججهما مبررة ودامغة. وكان كلاهما واضحاً وفي صميم الموضوع. في ذلك الوقت بدا أن آن ستتلقى حكماً معلقاً نوعاً ما. وخلال الاستراحة كان الإجماع بين المراسلين الصحفيين الجالسين في قاعة المحكمة على أن القاضي لن يعيد امرأة مريضة إلى السجن. من ناحية أخرى، من المحتمل أن يُحكم على بولارد بالسجن خمسة وعشرين عاماً رغم أنه سيكون مؤهلاً لإطلاق سراح مشروط بعد حوالى عشر سنوات.

قال القاضي، مستأنفاً الجلسة: «هل تريد يا سيد بولارد إلقاء خطاب بالأصالة عنك؟»

كان بولارد يرتدي بذلة سوداء مليحة وسار إلى مقدم الغرفة تحت هيئة القضاء. والأشهر التي قضاها في السجن - التي فقد خلالها ما يزيد على خمسين رطلاً انكليزياً - قد تكون شاقة إلا أنه بدا عل وجه التأكيد أفضل حالاً بكثير مما كان عليه عندما ظهر أول مرة في تلك البناية في آخر سنة ١٩٨٥.

بدأ مخاطبة القاضي بدون أية مذكرات. كان يتدرب على ملاحظاته في الأشهر الأخيرة. في مرحلة من حياته كان قد سُجل في كلية حقوق نوتردام. والآن أمام فرصة التدليل على مقدرته كمحام. كان بولارد واضحاً وقد تجلى ذلك بسرعة. وباستثناء بعض الملاحظات المتناهية القِصر والتي أوردها خلال مثوله أمام المحكمة في المرات السابقة، لتكن هذه المرة الأولى التي يُسمِع فيها الصحافة صوته. وأدرك أن هذا اليوم سيكون يومه في المحكمة - فرصته الأخيرة ليعلل سبب إقدامٍ على ما فعل.

استهل رافعاً بصره إلى القاضي: «أشكر المحكمة على هذه الفرصة التي أتاحتها لي لمخاطبتها اليوم. سأراعي الإيجاز في تعليقاتي قدر الإمكان».

قال القاضي: «لدي من الوقت بقدر ما تقتضي الضرورة». ربما لقلقه من تحذيره السابق بأنه أراد فض الجلسة في نهاية ذلك اليوم ليزيل على الأرجح أي انطباع بأنه كان غير منصف.

بدأ بولارد مناشدته، وقال بصوت خافت ولكنه مسموع:

«في الأشهر الخمسة عشر الماضية التي كنت فيها رهين العزلة وجدت لدي مزيداً من الوقت للتأمل في دوافعي وتأثير تصرفاتي لصالح إسرائيل. وتوصلت إلى النتيجة التي لا مفر منها وهي أنه

بينما قد تكون دوافعي نابعة من نية سليمة، إلا أنها لا يمكن، مهما شط الخيال، أن تغتفر أو تبرر انتهاك القانون. لا سيما القانون الذي يعني ائتمان الدولة، وما من ائتمان اسمَى من تلك الأمانات الموضوعة (لأجل) جهاز الاستخبارات. والهيئة الأسمى الوحيدة في تصوري هي الجهاز القضائي.

مما يعزيني في هذا السياق إدراكي الدقيق أني لم أكن أقصد الإساءة إلى الولايات المتحدة بل تأييد دولة حليفة. وهذا ما يريحني ويواسيني. ليس المهم أن ما فعلته قد يفيد هذه الدولة على المدى البعيد، إنه لا يغفر أو يبرر مخالفة القانون.

كانت عينا بولارد مركزتين على القاضي عندما أخذ نَفَسَاً واستطرد: «قد أجد لدي قائمة بالأمور التي أتمنى لو أستخدمها لتبرير عمل كالذي أقدمت عليه ولكن النتيجة التي لا مفر منها أنه لا بد من الإقرار كلياً وبصراحة بخطأي الإجرامي أمام المحكمة.

وفي عودة إلى الماضي، أتمنى لو فكرت في طرق عمل بديلة، وما أكثرها. وإذا كنت اعتقدت بوجود خطأ ما، كان لزاماً عليّ استنفاد الوسائل المشروعة التي كانت تحت تصرفي. إنها تسمى سلسلة القيادة. كان من الواجب أن أذهب إلى مفتش عام القوات البحرية. كان من الواجب أن أذهب إلى مدير الاستخبارات البحرية ورئيس العمليات البحرية ووزيري البحرية والدفاع. وحتى، إذا اقتضى الأمر، إلى رئيس الولايات المتحدة لتسوية قضيتي. ولكني عوضاً عن ذلك نقضت العهد وأخذت حقي بالقوة.

لسوء الحظ غاب عن ذاكرتي أنه عندما لا يستطيع موظف حكومي الالتزام بالقيود السياسية للإدارة التي يعمل فيها أو لمصلحتها، فليس أمامه سوى واجب واحد نحو نفسه والدولة على حد سواء. وهو الاستقالة للحفاظ على تَبِعَتِه الشخصية والمدنية.

إن ما فعلته، باختصار، يا صاحب الفضيلة كان نتيجة تبلد ذهني. لقد نقضت الأمانة وخرّبت أسرتي وجلبت لها العار، ووترت دون قصد، العلاقات بين دولتين كانتا متحابتين. وحصلت على أجر مالي لأعمالي لمصلحة إسرائيل رغم أني لم أقصد ذلك ولم أكن راغباً فيه. والحقيقة التي لا تحتمل المداورة هي أنني لم أقف عند حد.

ربما كان العمل ذاته الذي قمت به بتزويد معلومات إلى الإسرائيليين أكثر وضوحاً لبعض الناس لو لم يكن هناك العامل المالي. بيد أن القضية ليست كذلك، يا صاحب الفضيلة، فعامل المال كان موجوداً ولا أستطيع تجنبه ولن أتحاشاه.

مرة أخرى توقف بولارد لاستعادة السيطرة على أفكاره. حتى الآن بدا معتذراً عن نشاطاته. وهذا ليس بالمستغرب، كان لا بد من الإعراب عن ندمه العميق.

استطرد: «الناحية الأخرى لما فعلت والتي أشعر الآن وكأنها تزعزع كياني، هي أنني نقضت أمانة أخرى وهذه الأمانة هي زوجتي».

هنا تهدج صوته وهدأت نبراته.

قال: «المفروض عندما يتزوج رجل وامرأة أن يحمي كل منهما مصالح الآخر وينظما أولوياتهما على هذا الأساس. لقد ضحيت بها عن غير قصد ولكن، لا بأس من التصريح هنا، على مذبح الأيديولوجيا السياسية، لسنا هنا في مجالس الاستقامة. فلا يهمني الهدف الذي تعملون من أجله. وطيلة الأشهر الخمسة عشر حاولت تبرير ذلك دون جدوى. هذا متعذر. ليتني استطعت لأنه ليس في مقدور أحد احتمال وضع كالذي أنا فيه، لا من أجل نفسه، بل من أجل زوجته».

إذن ما فعلته يا صاحب الفضيلة نقضاً في الجوهر لائتمانين أحدهما للدولة ـ وأكرر القول إنه سيان كانت حليفة أو خلافاً لذلك، لقد انتُهِك قانون ـ والائتمان الآخر، من بعض النواحي، يا صاحب الفضيلة، أقدم عهداً بقليل وربما أكثر قداسة بقليل، وهو الائتمان الضمني للزوجة لدى زوجها.

«ما فعلته هو أنني يا صاحب الفضيلة وضعت زوجتي في موقف المستجيب لنداءاتي مجردةً من شعور المحافظة على ذاتها. لا يحق لي ذلك مطلقاً. وأجازف بالقول إن هذا الضرب من الجناة الخطرين قد يكون ماثلاً أمام محكمتكم الآن...».

وإذ كان القاضي ينظر إلى قصاصة من الورق، رفع بصره وقاطع بولارد: «قد يكون؟».

بادر بولارد للتصحيح قائلاً: «أو، بل «هو ماثل أمامكم»، ولكني، يا صاحب الفضيلة، لا أظن ولا أريد أن أكون افتراضياً، إنما لا أظن أنه مَثُل أمامكم أحد أكثر فساداً وإرهاقاً بسبب ما قمت به إزاء الائتمان لزوجتي.

«ما كان يتوجب عليّ فعله منذ أمد بعيد، هو إدراك الطبيعة المفسدة للايديولوجيا وتقديم استقالتي. هذا ما كان يتوجب عليّ عمله. وبدلاً من ذلك، يا صاحب الفضيلة أخذت حقي بالقوة. عينتُ نفسي، كما قرأت في مكان ما، وزير...

قال روبنسون: «دفاع».

«دفاع، وفي النهاية رئيس جمهورية».

عاد روبنسون فقاطع. ولكن بولارد سرعان ما أضاف: «كل شيء».

قال روبنسون: «مجلس الأمن، وكالة استخبارات الدفاع».

أضاف بولارد وهو يهز رأسه في محاولة خافتة لإظهار ذكائه: «وكالة الأمن البحري، وكالة استخبارات الدفاع».

قال روبنسون: «أصبت».

«وبينما أكون وحيداً أستطيع أن أفسر في لحظات يأسي الخير الممكن أن تتمخض عنه وهذا

ما يسرّي عني لأننا في الواقع على ما أظن، يا صاحب الفضيلة، دولة قوانين».

سأل القاضي متجهماً: «على ما تظن؟»

«إننا حقاً دولة قوانين. وليس. . .»

«لست مقتنعاً بذلك. أليس كذلك؟»

أجاب بولارد: «إنني على تمام الاقتناع من ذلك. نحن دولة قوانين ولسنا مجموعة أفراد تتوزع ني عشرين اتجاه مختلف وتحدّد ما تعتبره مصلحة قومية».

«لو اتبع كل فرد نهجي في العمل لاستطعت تعريفك النتيجة النهائية. إنها لن تقل عن لبنان وهو احتمال لا أود أبداً رؤيته هنا مهما شط بي الخيال».

كانت المفاجآة إشارة بولارد إلى الطبيعة المفسِدة لأيديولوجيا ـ ويعني الصهيونية. أجل كان صارماً بسبب قرار الحكومة الإسرائيلية بالتخلي عنه. ولكن تعليقاته اليوم تجاوزت كثيراً ملاحظاته السابقة. بدا أنه يشجب مجمل الحركة الصهيونية. ربما لأنه كان يحاول إنقاذ نفسه وزوجته.

بعدئذٍ ارتفع صوت بولارد قليلاً عندما استطرد قائلاً: «استوعبت الطائفية إلى حد التطرف غير المنطقي. لا تعقل، لا تبرير، لا تفسير، لا تلطيف لمخالفة قانون».

قال بولارد بصوت أرق مما كان عليه عند بدء مرافعته: «ختاماً آمل أن أفراداً آخرين في وضعي سيتأملون بعناية نتيجة هذا اللون من الغطرسة ويكوّنون الاستنتاجات الصحيحة. وستكون الجزاءات مفاجئة. أنها ستطبق وسيشعرون بها في الصميم».

«الشيء الوحيد الذي أرجوه يا صاحب الفضيلة، من المحكمة، في هذا الوقت هو أن تأخذ بعين الاعتبار الانتهاك الثاني للائتمان الذي ارتكبته. وإذا كان للرحمة وجود في قلبها، إن تحديد الرحمة نحو زوجتي التي كانت يا صاحب الفضيلة. في رأيي ورأي آخرين شاهدوا هذا الموضوع عن كثب، ضحية غطرستي الحضارية التي أثرت عليها كما يؤثر على أي إنسان آخر».

«لقد انتهزت الفرصة، وها هي الآن تدفع الثمن الذي هو في اعتقادي مأساة حقيقية لا يقلل من فداحتها شيء، وتقع مسؤوليتها على عاتقي. ويتعذر عليّ التعبير عن أية ندامة أعمق من إدراكي الحقيقي لمخالفتي القانون. وليتني لم أفعل، كان ثمة وسائل بديلة تحت تصرفي تكاسلت ولم أستخدمها. وكان أن ألحقت أفدح الضرر بامرأة كانت تعتمد على سديد رأيي للحفاظ على سلامة إحدى أقدم الروابط التي تتوفر لإنسان ما ألا وهي الزواج الذي سيظل حياً حتى بعد أن تتقادم ذكرى هذه القضية على مر الزمن. وشكراً.

عاد إلى طاولته وجلس. وبدا على العموم أنه عزز موقفه. ولا شك أنه أمِل في أن يكون قد ساعد آن.

استمرت الإجراءات دون توقف ثم نهضت آن وتقدمت ببطء شديد نحو القاضي، كان ذراعاها مشدودين حول معدتها. وكانت ترتدي بذلة رمادية فوق بلوزة حريرية سوداء ذات قبة عالية.

بدأت بصوت يكاد لا يسمع: «يا صاحب الفضيلة، أتكلم من قلبي وليس من أي نص كتبت. ما أريد قوله هو حبي العميق لزوجي واحترامي له وإعجابي به. إن زوجي هو إلى حد بعيد أهم شيء تخلل حياتي، وسيظل كذلك ما حييت. وأود مصارحتكم بأنني لن أفعل ما من شأنه الإساءة إليه، بل سأعمل فقط على مساعدته (كذا) بأية طريقة أراها صحيحة.

«أبتهل إلى الله كل صباح أن يلتئم شملي ثانية مع زوجي. هذا كل هدفي في الحياة جل ما أبغيه تكوين أسرة معه وقضاء شيخوختي معه وتمضية ما تبقى من العمر معه. لا أتصور إنساناً أليق أو أحنّ أو أشد حمية من يوناثان بولارد. إنه أروع إنسان وقعت عليه عيناي أو قابلته طيلة حياتي».

كل من في قاعة المحكمة حاول جاهداً سماع ملاحظاتها. جلس مراسلو الصحف على حافة مقاعدهم في محاولة للإصغاء وتدوين الملاحظات. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير.
«أعلم أنه قام بما فعل اعتقاداً منه أنه في ذلك الوقت كان يعمل ما فيه الخير للولايات المتحدة وإسرائيل على حد سواء، وأعتَقَدَ آنئذٍ أنه بتقوية إسرائيل الحليف الاستراتيجي الحيوي. إنما كان يقوي بشكل غير مباشر الولايات المتحدة، إذا أخذنا بعين الاعتبار العلاقة التي تربط بين كلتا الدولتين».

«إنني وزوجي مناوئان للشيوعية متحمسان ولن نقوم ألبتة بأي عمل يسيء إلى هذا البلد أو يضر هذا البلد بأي شكل أو صورة كانت. فنحن أميركيان وطنيان وقفنا أنفسنا للبقاء كذلك، كما أننا أوفياء لإسرائيل. إننا ننظر إلى إسرائيل كما لو كانت، إذا سمحتم، حد المحرقَة، وعلى أنها دولة أو حكومة تمثل حد الإبادة لليهود أو الجنس البشري بوجه عام. ونحن، كما قلت، لن ولن نفعل أي شيء يلحق الضرر بهذا البلد.

لا أستطيع الكذب والقول إنني لم أكن مدركة أن زوجي كان آنئذٍ يساعد إسرائيل. بيد أني أستطيع القول إن زوجي أكدّ لي تمام التأكيد أنه لم يفعل شيئاً في مقدوره للإضرار بإسرائيل ـ أو بالأحرى، أضافت مصححة نفسها «الإضرار بالولايات المتحدة، وأنه لم يكن يفضح معلومات ضد الولايات المتحدة، أو يفعل شيئاً يسيء إلى هذا البلد العظيم الذي هو موطننا حيث تعيش أُسَرنا، وهو مَسْقط رأسينا وله بالنسبة لنا. مكانة خاصة للغاية.

إنني أحب جاي كثيراً جداً جداً، وعندما دعاني في آخر لحظة استجبت لأني شعرت بأن ذلك واجبي كزوجة. واعتقدت أنني بمساعدة زوجي لم أكن ألحق الأذى إطلاقاً بالولايات المتحدة. أنا لم أفضح معلومات. ولم أفشِ شيئاً لأي مواطن أجنبي. لم أقترف الجاسوسية أبداً في حياتي ولن أفعل ذلك أبداً. لن أفعل شيئاً يضر بهذا البلد.

إنني أبتهل إلى الله كل يوم أن يجتمع شملي بيوناثان بولارد ثانية. إنه كل شيء في العالم بالنسبة لي. مكانته لدي شخصية للغاية وأنا بحاجة ماسة إليه الآن. إنه روحي وأفضل صديق لي، ومحدثي الفكري، وخير صديق لي. أعني أنه حبي الأكبر. إنه كل شيء في العالم لي مجسداً في إنسان.

في هذا الوقت أخذت في البكاء. حاولت أن تتماسك نفسها ولكن بدا عليها الارتعاش أمام القاضي روبنسون.

استطردت بصوت جد خافت «لم يدر في خلدي أبداً أن الله سينعم علي بمثل زوجي طيبة وروعة. ومما ثبط همتي رؤية التقارير السلبية المستمرة حوله. لأن كل من عرفه رأى فيه شخصاً طيباً ورائعاً. وإذا ما طرق بابه أحد في الساعة الثالثة صباحاً بداعي الحاجة أو مسألة عاطفية، كان زوجي أول من ينهض من فراشه لمساعدته بحكم عنصره الذي يتميز به.

عادت الدموع لتنهمر. وصاحت: «إنني آسفة جداً لما حصل. لا أستطيع إرجاع عقارب الساعة. كل ما أقوله إنني جد آسفة إذ أرى دولتين تصلان إلى هذا الحد وهما المرتبطتان بعلاقة وثيقة في قضية سياسية كهذه. أكرر أسفي الشديد لما حدث.

إنني شديدة الاحترام لإسرائيل. وشديدة الاحترام لهذا البلد، ولا أريد سوى دوام الصداقة الوطيدة بينهما. إن ما يصيب هذا البلد يصيب البلد الآخر، وقد وضح ذلك مرة تلو أخرى. وفي الحوادث الإرهابية عندما ارتعنا زوجي وأنا للأعمال الوحشية والمشينة التي تحصل، كنا نُسَر لتعاون البلدين أحياناً، أو على انفراد، لتفادي هذا النوع من الأحداث. ويسرني أن أرى كلا البلدين يعملان على ما أعتقد لتجنب حرب عربية إسرائيلية. وكنت أعتقد آنئذٍ أن زوجي كان يعمل كل ما في طاقته للحفاظ على الحياة البشرية».

فجأة علا صوتها قليلاً عندما شارفت على الانتهاء. قالت: «أعود فأكرر الأسف لما حدث. كنت أعتقد في ذلك الحين صواب ما فعلنا. لقد توسل زوجي إليّ. وكما تعلمون طلب مني في اليوم السابق نقل بعض المواد من البيت فيما إذا استعمل هذه الكلمة (أي «صبير»). وقد وردت خلال مكالمته. الأمر الذي فعلت. لا أستطيع القول إنني سوف لن أساعده ثانية. إنما سأبحث عن سبل أخرى أو طرق مختلفة للقيام بذلك.

إنني جد آسفة لأن هذه الحادثة قد ضخِمت أكثر من اللازم. وأكرر أسفي الشديد لحدوثها. وآسف لأنها أساءت إلى العلاقات بين البلدين. أبتهل إلى الله أن يرزق يوناثان وأنا ذات يوم بنين وأن يحدث ذلك في المستقبل القريب كما أرجوكم الرأفة والرحمة وخاصة لزوجي الذي هو كل شيء في الحياة لي. وشكراً جزيلاً.

ثم قفلت عائدة إلى مقعدها. وعندما جلست مسحت عينيها بمناديل ورقية. وامتدت يدها لتلمس يد زوجها.

نادى القاضي مساعد المحامي الأميركي تشارلز ليبر. اقترب من مقعد القاضي ومعه مفكرته. وليبر نائب عام شكس لا يعرف الهراء. وهو يشبه جسمانياً الملازم الأول الشرس في بروغرام التلفزيون الشعبي «نائب ميامي»، رغم أن ليبر أكثر اتساقاً.

بدأ بصوت هادر: «يا صاحب الفضيلة، إني أعتزم التزام الإيجاز، وسأتناول فقط قضية الولايات المتحدة ضد يوناثان بولارد». وقال إن داڤيد جينسون سيتناول فيما بعد مسألة الحكم على آن.

ألقى ليبر نظرة خاطفة على مذكرته. «لدى قراءة رواية الجريمة التي كتبها هذا المدعى عليه لفت نظري التكرار الذي يلجأ إليه في إضفاء أهمية أو محاولة إضفاء أهمية بمراجع حرفية أو مراجع توارتية. واسترعى انتباهي بوجه خاص في الصفحة ١٤. في ذلك الزمان أو ذلك المكان في مرافقة المدعى عليه قال: «اليأس خطيئة لا تغتفر. عندما كبرت تعلمت أن ثمة خطيئتين في الواقع لا تُغتفران وهما الغطرسة والخداع. وفي كتاب الأمثال، الفصل السادس عشر، يُروى لنا ونتعلم أن ثمة العديد من الخطايا في رأي المسيح، بيد أن الاثنتين اللتين تمقتهما روحه هما العيون المتعجرفة واللسان الكذوب».

«الواقع أن الغطرسة والخداع هما ما يعنيه ذلك المرجع. الغطرسة والخداع هما اللتان دفعتا المدعى عليه لارتكاب الأعمال، الأعمال الإجرامية في هذه القضية. كما أن تلك الميزتين الخلقيتين، الغطرسة والخداع، تمثلان الطريقان اللتان نشدهما للدفاع عن الأمور التي فعلها وتبريرها».

أعاد ليبر ذكر حجج الحكومة حول الضرر الفادح المرتكب للأمن القومي للولايات المتحدة «يبدو أن هذا المدعى عليه يعتقد أنه إذا استمر في ترديد الكلمات أمام المحكمة «من أن هذه القضية لا تتعلق بالاتحاد السوڤييتي»، فإنكم يا صاحب الفضيلة ستصدقون الموقف الذي يتبناه بأنه لم يسبب ضرراً للأمن القومي ببيعه الآلاف من الصفحات السرية للغاية ووثائق كلمات الكود. والآن يتبنى هذا المدعى عليه ذلك الموقف يقول «إن يوناثان جي بولارد على حق»، على حد قوله، «بيد أن وزير الدفاع في بيان المحلّف، مُخطىء إذ يقول إن نتيجة نشاطات يوناثان بولارد ألحقت ضرراً هائلاً بالأمن القومي».

يقول: «إن يوناثان جي بولارد على حق. بيد أن رئيس جمهورية الولايات المتحدة عندما أصدر القرار التنفيذي ١٢٣٥٦ كان مخطئاً بالقول إن الإفشاء غير المرخص للمعلومات السرية للغاية إلى أية دولة يسبب أو يُنتظر أن يسبب ضرراً فادحاً للأمن القومي على نحو استثنائي».
يقول إن يوناثان جي بولارد على حق. وكل إدارة منذ سنة ١٩٤٨ منذ تأسيس دولة إسرائيل، سواء الجمهوريين أو الديمقراطيين كانت على خطأ عندما قرروا أن سياسات الإفشاء يجب أن لا تسمح بفضح هذا النوع من الأسرار التي باعها المدعى عليه إلى إسرائيل.

صرح ليبر: «لقد اعترف هذا المدعى عليه بأنه باع لإسرائيل كمية من المعلومات المصنفة حجمها عشرة أقدام في ستة أقدام في ستة أقدام. فلو كُدست هنا حيث يجلس لبلغت طول هذه الطاولة وأعرض بقليل وأعلى من رأسه بكثير.

هلا نعتقد أنه درس كلًا من هذه الوثائق، تلك الوثائق ذات كلمات الكود السرية للغاية قبل تسليمها لمديريه؟ هلا نعتقد أنه قام بفحص كل وثيقة صفحة صفحة مقلباً الرأي حول تأثير إفشائها على علاقاتنا الخارجية ومقدِراً احتياج إسرائيل لتلك المعلومات الخاصة، ومقيّماً قدرة إسرائيل أو عدمها على توفير ذات الإجراء الذي نوفره لحماية تلك الوثيقة؟»

إن ليبر الذي استطاع فهم دقائق حقائق القضية كأيٍّ كان تابع رسم صورة لبولارد باعتباره جاسوساً خطراً وجشعاً وخائناً باع بلاده لقاء المال. «أخبرنا أنه في كل يوم طيلة عام كان يغتصب أعداداً قليلة من الرسائل اليومية ويُلقي بها في الحقيبة، رسائل تضمنت معلومات، معلومات سرية للغاية عن موقع سفن الولايات المتحدة وموقع تمرينات التدريب الأميركية وموقع مختلَف مراكز التدريب الأميركية مما يدفعنا إلى الاعتقاد أنه أجرى هذا التحليل الدقيق قبل حشو تلك الرسائل في حقيبته.

أليس ثمة حد لظن يوناثان جي بولارد بمبلغ ما نحن عليه جميعاً من سذاجة؟ إن من المستحيل عليه إجراء ذلك النوع من التحليل الأكثر من واحد في المائة من تلك الوثائق. وقيامه بذلك موضع شك. والسبب هو عدم مبالاته. لقد وضع نصب عينيه ـ إسرائيل سواء على حق أو باطل. وحالما ارتأى ذلك كان يحرك الأمور كربان أوتوماتيكي. لم يعد يفهم اليوم مبلغ الضرر الذي ألحقه بالأمن القومي أكثر مما كان يفهمه آنئذٍ عندما كان يحشو تلك المادة في الحقيبة. لم يكن يبالي حينئذٍ. وهو غير مكترث الآن».

أعاد ليبر النظر إلى مذكرته. تحدث عن أسرة بولارد. «قابلت والدة السيد بولارد ووالده. وهذا المدعى عليه منعم عليه بوالدين من ألطف ما يتمنى المرء. وارتكاب هذا الرجل هذه الجريمة دون مراعاة أثر ذلك على والديه يجعل الأمر أكثر مدعاة للشجب. يجب أن لا تسمع دعوى رجل في سن الثانية والثلاثين بالإتيان به هنا بعد ارتكابه هذه الجريمة الطائشة التي تسيء إلى والديه في الصميم. راجياً فضيلتكم مراعاة أساهما وألمهما بمنحه شيئاً من الرأفة».

عاد ليبر فتوقف واثقاً على ما يبدو من حججه، ومسجلاً بإحكام نقاطاً مع القاضي والمشاهدين. كانت قوة الدفع معه بوضوح. وظل القاضي يومىء برأسه إعراباً عن الموافقة.

اتهم ليبر بأن بولارد في مرافعاته الخطية أبدى «ازدراء أعمى» بالجهازين العسكري والاستخباراتي الأميركيين وحتى الزعم بوجود اللاسامية في القوات البحرية، «عجباً، ما لا يقوله يوناثان بولارد في هذه المرافعة إنه عندما علمت حكومة الولايات المتحدة ليلة ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٥ بأن إرهابيي أشيلي لاورو، قتلة ليون كلنجهوفر، المواطن الأميركي، كانوا

يفرون من مصر بالطائرة، كانت مقاتلات الأسطول الأميركي هي التي أقلعت من حاملة طائرات في منتصف الليل، واعترضت تلك الطائرة وأرغمتها على الهبوط في إيطاليا. في ذلك الحين اتخذ هذا الإجراء بمجازفة كبيرة من أولئك الأشخاص العسكريين. لقد اتخذ رغم نتائجه المثيرة بجلاء على أصدقائنا في مصر وإيطاليا. واتخذ بصرف النظر عن المعتقدات الدينية للضحية التي نحن بصددها، ليون كلنجهوفر».

قال ليبر «إن نظرة بولارد أصبحت محرفة وهدفه مشوهاً بحيث إنه في أول فرصة تسنح له سيغدو على وشك إعلام الإسرائيليين بكل ما يعرف».

ثم نظر إلى أوراقه. واستطرد: «حسناً ما الذي يمكننا عمله لاتقاء ذلك؟ ما الذي يمكن عمله لوقاية أمننا القومي من التصرف الضار لأشخاص أمثال يوناثان بولارد؟»

ذكر ليبر تجاهل بولارد التام للاتفاق الموقع، بما في ذلك رفضه الامتثال لاتفاق دفع الدعوى الذي قيد حرية وصوله إلى الصحافة. «في ٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨٥ وفي منتصف المؤامرة وقع يوناثان بولارد اتفاق كفالة اطلعتم عليه فضيلتكم. لقد أرفق ببيان الوزير واينبرغر وهو غير مصنف. ذكر فيه «لن أبحث أو أفشي أية معلومات مصنفة إلا لدى قيامي بواجباتي الرسمية. إنني أقبل بهذا الالتزام علناً بدون أي تحفظ ذهني أو غاية أو مراوغة».

«كان ذلك في منتصف المؤامرة، إلى أن ألقي القبض عليه واعتقل. ثم قرر دفع التهمة ودخل هذه القاعة في ٤ حزيران/يونيو ١٩٨٦، وعاد فنظر لفضيلتكم قائلاً: هناك، يا صاحب الفضيلة، اتفاق دفع الدعوى. موقع مني وأعترف بمضمونه وأوافق على التقيد بنصوص اتفاق دفع الدعوى وشروطه واحدها يتضمن شبه متطلب لإدارة الممتلكات قلما يسبب اتباعه إزعاجاً لهذا المدعى عليه، الرجل الذي يزعم أنه تعلّم دروسه بعد خمسة عشر شهراً. والمتطلب ينص على أنه إذا أراد التحدث إلى الصحافة فما عليه إلا تقديم المعلومات التي يرغب في إفشائها إلى مدير الاستخبارات البحرية وهو ذات الرجل الذي يقول الآن إنه كان يتوجب عليه التوجه إليه قبل خمسة عشر شهراً.

لقد نظر إلى فضيلتكم في ٤ حزيران/يونيو قائلاً إنه سينصاع لتلك الشروط. ولم يكن يقول لفضيلتكم الحقيقة لأنه في عدة مناسبات آخرها منذ أسبوعين مثلاً في ٢٩ كانون الثاني/يناير، جلس مع مراسل صحفي وأفشى معلومات نؤكدها وقد بينّا للمحكمة أنها في بعض الأحوال مصنفة. ولم يزعج نفسه لاتباع ذلك الإجراء.

قال ليبر، ملخصاً بيانه إلى القاضي. إنه لا يمكن الوثوق بكلمة بولارد. «وأختم بالقول يا صاحب الفضيلة إن ما تثبته هذه الوثائق الثلاث في رأيي هو أنه عندما يتعلق الأمر باتقاء إفشاءات أخرى لأسرار الولايات المتحدة فإن يوناثان جي بولارد ليس بالرجل الذي يحافظ على كلمته. وبالإضافة إلى اتساع معرفة هذا الرجل وغور ذاكرته والانعدام الكلي للشرف الذي أظهره في هذه الإجراءات، ألفت انتباه فضيلتكم إلى أنه رجل خطر جداً. وشكراً».

لقد قام ليبر بدوره خير قيام. إلا أن العديد من حضور قاعة المحكمة ظلوا عند اعتقادهم أنه سيُحكم على بولارد بالسجن المؤبد خمسة وعشرين عاماً.

أشار القاضي بالتقدم على مساعد المحامي الأميركي الآخر. اقترب داڤيد جينسون من مقعد القاضي، وبدا أقل عداء وتهويلاً من ليبر رغم أن تلك الصورة كانت مجرد سطحية. كان جينسون شكساً وصارماً. ومع أنه يهودي إلا أنه كان يشعر بالمرارة بوجه خاص لما فعله الزوجان بولارد.

قال: «يا صاحب الفضيلة، وأنا أيضاً سألزم الإيجاز».

سأل القاضي: «هل أصابك التعب؟»

«أظن أن كل واحد هنا قد يكون تعِباً بعض الشيء؟».

قال روبنسون متهكماً: «لا، لا، القضاة والمحامون لا يفعلون شيئاً في المحكمة. لذا لدينا متسع من الوقت»

استعرض جينسون اتهامات الحكومة ضد آن. وقال: «قال المحامي إن الحكومة كانت صارّة دونما خوف من أن تبدو غير متعاطفة مع شن المدعى عليها وأمراضها الجسمانية وعلاقتها الشخصية مع زوجها. وتعتقد الحكومة أن لا تلطيف ولا تعليل جديّين لهذا التصرف. فليس ثمة أساس منطقي سواء أكان سياسياً أو أيديولوجياً أو عملياً أو شخصياً لكونها ساعدت يوناثان جي بولارد في تقويض الأمن القومي لهذا البلد».

كانت حسنة الاطلاع على تصرفه مفصلاً منذ بدايته، ومتفهمة دلالاته وقابلة ثماره ومنافعه والأجر المالي والرحلتين المترفتين اللتين قامت بهما خلال فترة الثمانية أشهر، كما أنها سعت وحصلت من زوجها على وثائق «ب رسي» سرية مصنفة واستخدمت تلك الوثائق وفحصتها وأخذت ملاحظات عنها وتركت عليها بصماتها ثم احتفظت بها إلى جانب العديد من الوثائق المصنفة الأخرى التي كان يختزنها زوجها في شقتهما وبذا زادت الطين بلة بتركها عرضة للافتضاح لأناس لم يكن من المتوجب علاوة على ذلك وصولهم إليها».

كان جينسون يحتفظ أمامه بإضمامة ورق قانونية صفراء. نظر إليها ثم تابع بيانه. ذكر محاولة آن التصرف بالوثائق في الشقة حالما يوقف بولارد للاستجواب. كما أشار إلى اجتماعها بسيللا.

استطرد جينسون: «يا صاحب الفضيلة. لقد حدث مؤخراً شيء يلقي مزيداً من الضوء على ما يجري اليوم في هذه المحكمة التي تعرف الآن ما أشير إليه. لكني أعتقد أنه جدير بالذكر. لقد تسنى لي مشاهدة عرض «ستين دقيقة» ليلة الأحد الماضي، لمقابلة مع المدعى عليها آن هندرسون بولارد. وذلك لسوء حظ المدعى عليها وملايين الأميركيين الآخرين. لقد استُجوبت وعندما سئلت عما إذا فهمت ما جرى معها، كان جوابها «كل الفهم». ثم انتقلت إلى بعض التفاصيل الواقعية لعملية التجسس.

أشار إلى أن آن، خلال المقابلة، لم تبدِ أي ندم، وعندما سألها مايك والاس عما إذا كانت ستُقدم ثانية على ما فعلت، أجابت «أعتقد أنني قمت وزوجي بما كان يُنتظر منا عمله وما يمليه علينا واجبنا الأدبي كيهود وواجبنا الأدبي كبشر، ولست آسفة على ذلك».

عندئذٍ كرر جينسون عبارة «لست آسفة». ثم رفع بصره من إضمامة الورق إلى القاضي وقال: «هذا ما أشدد عليه يا صاحب الفضيلة».

استطرد: تأتي هذه المدعى عليها إلى هذه المحكمة بقناع من التذلل والنـدم. إن أسفها شديد، وفقاً لمحاميها، لما حصل. يا صاحب الفضيلة، إن الحكومة ترى أن أسفها شديد لإلقاء القبض عليها».

بدأ جينسون الكلام بصوت أعلى. «لقد أظهرت يا صاحب الفضيلة في البرنامـج الإذاعي «ستون دقيقة» مساء الأحد «أنها لا تعتقد بخطأ ما فعلته هي وزوجها وأن مشاكلها هي في الحقيقة مشاكل كل امرىء غيرها. إلا أن الحكومة تعتقد علاوة على ذلك أنه استناداً إلى الطريقة التي ظهرت بها وما قالته وكيفية تصرفها في محيط أقل إثارة مساء الأحد الماضي فإنها إذا ما أتيحت لها الفرصة، ستكرر الشيء ذاته الذي فعلته سابقاً.

نعتقد يا صاحب الفضيلة أن هذه المدعى عليها لا تستحق الاعتبار الذي توليه هذه المحكمة والذي قد تمنحه لمدعى عليها أقرّت بإجرامية أعمالها وكانت راغبة في تحمل مسؤولية القيام بها، إنها تَسِم تصرفها بشكل جريمة سياسية. وهذه ليست جريمة سياسية يا صاحب الفضيلة، إنها عمل إجرامي. وتقترح الحكومة يا صاحب الفضيلة وتطلب أن تفرض هـذه المحكمة حكمـاً بالسجن بعكس عدم ندمها وأسفها العميق. ويتناسب مع خطورة الأعمال التي قامت بها. وشكراً».

عاد جينسون إلى طاولته. أما رئيسه دي جينوفا فكان يرتدي بذلة رمادية أنيقة بصفيّ أزرار ومنديل متناسق في الجيب الخارجي ويجلس بمهابة في صدر الطاولة. وقد بدا عليه الاغتباط بعمل مساعديه. كان المدرب الرياضي وهما الظهيرين الربعيين.

أما القاضي فقد دعا جيمس هيبي لتقديم رد.
بدأ هيبي قائلاً: «يا صاحب الفضيلة، سأحاول أن أكون كثير الإيجاز».
قال القاضي: «لدي متسع كثير من الوقت».

ألقى هيبي نظرة عجلى على مذكراته الخطية. واتهم بأن نقاط جينسون هي «في الحقيقة جوفاء». وقد أظهر غضباً وخيبة معاً، حاثًا القاضي على اعتبار كافة الوقائع والظروف. وكرر أن آن اندفعت «بحبها لزوجها». ونؤكد أنها لمغالاة القول بأن السيدة بولارد ساعدت على تقويض الأمن القومي لهذا البلد. إن الوقائع المجردة لا تؤيد ذلك».

وجه هيبي كلامه إلى البرنامج الإذاعي «ستون دقيقة». قاطعه القاضي. سأل: «هل كنت تعلم بذلك؟»

«لا يا صاحب الفضيلة. لم أعلم إلا بعد القيام بذلك.

قال القاضي بازدراء: «لم يكن هذا ظني».

استطرد هيبي: «إن التضليل الذي كان ولا يزال قائماً لا بد أن يجعلكم وكل من تضمه قاعة هذه المحكمة تدركون بالفعل أن يشكل ذلك البرنامج اليد الطولى في ضمٍ وحذفٍ هنا وهناك من السياق، وما اقتبسه جينسون قد يكون ملاحظاته وقد لا يكون. فالنسخة التي تأملتها بإمعان عدة مرات تشير إلى أنها عندما قالت: «لست آسفة على ذلك «كانت تعتزم المتابعة. فهي تقول: «أفعالي» وهنا يقاطعها ولاس ولا يعطيها فرصة لقول المزيد.

قابلتها في اليوم التالي بعد مشاهدته، وكما أخبرتكم اليوم، فإن ما لا تأسف عليه هو مساعدتها لزوجها. إنها تأسف لأي نشاط إجرامي حاصل. لم يكن ثمة تقدير لما حدث، إلا أن العرض يجعلها تبدو كما لو كانت غير نادمة أو آسفة، والأمر مجرد تصوير غير دقيق.

إنها، كما يقول السيد جينسون، لن تكرر عمل كل ما قامت به. وأوضحت لكم اليوم أنها ستساعد زوجها. ولكنها ستتلمس طُرقاً أخرى. إنها لن تشترك ثانية في نشاط إجرامي.

توقف جيمس هيبي ثانية لالتقاط أنفاسه. كان يتكلم بصوت عالٍ وبتأثر. وفي المقابل لم يبدُ على القاضي كبير اهتمام. قال هيبي: إن ما أعرضه على المحكمة أن المدعى عليها نالت العقاب الكافي. وسيظل سيف العقاب مسلطاً عليها بمجرد انفصالها عن زوجها. نلتمس من المحكمة أخذ كل ذلك بعين الاعتبار وإبداء بعض الرحمة وتعليق العقوبة». ثم جلس هيبي.

ثم تقدم ريتشارد هيبي من مقعد القاضي للدفاع عن يوناثان بولارد. أقر بجرم بولارد. «نحن لا ننكر وجود إضرار. ولكنه ليس ضرراً يستدعي فرض حكم هام وأقصى».

شدد هيبي مرة أخرى على أن الإضرار بالأمن القومي الأميركي لم يكن خطيراً.

هنا قاطعه القاضي روبنسون وسأل: «إن ذلك يتوقف كلياً على ما أبديه من تصديق لما قرأت. أليس كذلك؟»

أجاب هيبي: «هذا صحيح، وهو ما يجب أن أعتمد عليه يا صاحب الفضيلة في التحليل النهائي، ومن الواضح أننا جميعاً، كما هو مفهوم، مقيدون بالقوانين الخاصة ببحث المعلومات المصنفة في محكمة علنية. ولهذا السبب توفر أمام هذه المحكمة قدر لا يستهان به من المعلومات المصنفة».

رفع روبنسون ذراعه لإيقاف هيبي. وقال القاضي: «حسناً، إذن أطلب منك مجرد التفكير وليس التفصيل».

«سمعاً سيدي».

ولكني أطلب منك إمعان النظر في شهادة وزير الدفاع الخطية. إذ إنها تتعلق بأمر واحد. ولست في مجال تسليط الأضواء عليها، إذ إنها تتصل فقط بمنطقة واحدة بالإشارة إلى فئة معينة من المنشورات. ولا أدري كيف تستطيع إجراء تلك المجادلة».

قال هيبي: «لا بد من القول بكل صراحة إنني ـ أن تذكري لشهادة الوزير الخطية ليس مُحكماً بحيث أستطيع إجابتك حتى من باب التعميم».

«هل تتفضل بالاقتراب من مقعدي وسأنبه ذاكرتك لما أقصد.
«سمعاً».
«أريد أن تفهم بجلاء حقيقة ما أعني».
«سمعاً، يا صاحب الفضيلة».
«هل تتفضل يا سيد ليبر؟»

وهنا تقدم هيبي وليبر دي جينوفا نحو القاضي لمحادثتهم السرية. أمضوا نحو دقيقتين مع روبنسون قبل أن يعود كل منهم إلى مكانه. لم يكن ثمة دلالة على القطعة المحددة من الاستخبارات المذكورة في شهادة واينبرغر الخطية والتي استشهد بها روبنسون.

ولكن تبين فيما بعد أن البحث تطرق إلى تسليم بولارد إلى الإسرائيليين كتيباً أميركياً في غاية الحساسية حول استخبارات الاتصالات الواردة في مذكرة واينبرغر السرية. وبدا بوضوح أن القاضي روبنسون كان مقتنعاً ـ مثل واينبرغر ـ بأن نقل هذا الكتاب وحده ضار للغاية بالأمن القومي للولايات المتحدة.

عندما استأنف هيبي بيانه في الجلسة العلنية كان قد أسدل الستار على موضوع الضرر الذي ألحقه بولارد بإذاعة كتاب الاتصالات.

قال هيبي: «لا أعتقد أننا نتجادل هنا حول انتهاك بولارد لقوانين المعلومات المصنفة التي أثرت فينا تأثيراً شديداً خلال فترة إعدادنا لهذا الحكم. ولست أقف الآن لأعرب لكم عن موافقتي أو أنني خلافاً لذلك أُبلغت أو علمت أو وافقت على أية أبحاث أجراها مع الوسطاء لا سيما شخص واحد فقط.

كانت الإشارة لمقابلات بولارد مع صحيفة.
سأل القاضي هيبي: «هل تفترض أن ذلك جرى عملاً بأمري؟»

«لا أعتقد ذلك. لا أعتقد أنه كان مخالفاً لأمرك لأن المعلومات التي بُحثت، نظراً لما تناقشنا حوله أمس في مرافعتنا، هي في الواقع معلومات غير مصنفة».

سأل القاضي: «ولكن قبل بحث أية معلومات، ما الذي أُمر بعمله يا سيد هيبي؟ هذا كل ما في الأمر».

أوه، أفهم ذلك يا صاحب الفضيلة، أفهم ذلك».

«ما الذي أُمِر بعمله، عبر المنصة؟»

قال هيبي: «إنه يجب إشعار الحكومة لمناسبة بحث المعلومات المصنفة».

سارع القاضي للرد بغضب: «لا، لا، لا، ليس هذا ما ورد إطلاقاً. أتريد إخراجها؟ أعطه الملف وأعد النظر إليها. نبّه ذاكرتك».

قال هيبي: «حسناً». ثم أحضر كاتب للمحامي اتفاق المشارطة ـ دفع الدعوى تاريخ ٢٣ أيار/مايو ١٩٨٦. سأل هيبي القاضي: «الفقرة التاسعة؟» نظر القاضي إلى نسخته وأومأ برأسه. وشرع في تلاوة الفقرة لنفسه. وهذا نصها:

«يفهم السيد بولارد ويقر بالتزامه القانوني بالإحجام عن الإفشاء غير المرخص سواء شفوياً أو خطياً لمعلومات مصنفة مستَمَدَّة خلال استخدامه لدى القوات البحرية الأميركية و/أو أثناء النشاطات التي أدت إلى اعتقاله في القضية المذكورة أعلاه. وفي حال قيام السيد بولارد في أي وقت بتأليف أي كتاب أو مؤلَّف آخر أو يزود خلافاً لذلك معلومات لأغراض الإذاعة أو النشر فهو يوافق بموجبه على أن يقدم أولاً الكتاب أو المؤلَّف أو المعلومات المذكورة إلى مدير استخبارات القوات البحرية للمعاينة قبل الإذاعة وشطب المعلومات التي هي في رأي مدير استخبارات القوات البحرية وحدة مصنفة أو تقتضي التصنيف. وعلاوة على ذلك يوافق السيد بولارد، في حال قبوله العرض الفوري لدفع الدعوى، على توقيع تنازل للولايات المتحدة عن أية أرباح أو عائدات قد يحصل عليها السيد بولارد أو تستحق له فيما يتعلق بأية إذاعة أو نشر يعرّف استخدامه من قِبَل القوات البحرية الأميركية ونشاطاته التجسسية لصالح حكومة إسرائيل أو الوقائع والظروف المؤدية لاعتقاله في هذه القضية الإجرامية. إن التنازل مرفق طيه كمستند «أ» مدمج بهذا من قبيل الإشارة»

رفع هيبي بصره إلى القاضي. وسلّم بأن بولارد ارتكب خطأً. كان العمل برمته غير سديد وغير مرخص. ولا جدال في ذلك في مخيلتي. والأمر الذي لا زلت أحاول الإشارة إليه هو أن المعلومات ذاتها كانت في الواقع غير مصنفة.

إلا أن القاضي روبنسون عاد فأوضح أنه لم يكن مفروضاً ببولارد اتخاذ ذلك القرار. إذ إن بولارد لم يعد في أي وضع لتقرير ما يجب تصنيفه وعدمه. وسلّم هيبي بأن بولارد أجاز المقابلات

دون الإجراءات المطلوبة لما قبل الترخيص. إنه لم يسأل ما إذا كانت الحكومة قررت السماح بدخول صحفي إلى السجن في المقام الأول.

بدلاً من ذلك، أعاد النظر إلى مذكرته وبدأ محصّله الأخير. شدد على كيفية تعاون بولارد مع تحقيق الحكومة. وقال إن اتهام سيللا كان على الأكثر نتيجة لشهادة بولارد أمام هيئة المحلفين الكبرى. وقال هيبي: «إذا قدم ذلك الرجل إلى المحاكمة فإن البينة ضده لا بد أن ترتكز على الأكثر إلى شهادة السيد بولارد. وهناك نسمع الحجة بأن السيد بولارد قال الحقيقة.

وختم قائلاً: «وهكذا، في النهاية نطالب بحكم مخفف بالرحمة».

ثم عاد هيبي إلى مقعده. نظر إلى بولارد الذي كان محدقاً في زوجته. وبدا أن آن كانت لا تزال تتألم.

لاحظ القاضي أن آن كانت في غم واضح.
سأل القاضي: «هل أنتم بحاجة إلى عطلة أخرى؟».
قال ريتشارد هيبي: «لا، نحن على استعداد للمتابعة».

نظر روبنسون ثانية إلى آن التي كانت آنئذٍ تبكي. وسأل: «هل هي على ما يرام؟»

أجاب هيبي بسرعة: «أجل، يا سيدي».

صاح بولارد «لا» وهو يهز رأسه، إذ رأى زوجته تمسك معدتها بيديها، كان سخطه على هيبي واضحاً.

نهض هيبي بسرعة وقال: «هل تسمحون باستراحة يا صاحب الفضيلة؟»
«كم من الزمن تحتاجون؟»
«خمس دقائق»
«حسناً، فليكن خمس دقائق».

دامت الاستراحة أكثر من خمس دقائق وقاربت الخمس عشرة دقيقة، كانت آن بحالة شبه هستيرية في الغرفة المجاورة حيث توجهت هي وبولارد ومحاموها والحرس. هناك حاول بولارد مواساتها. طوقها بذراعيه وأشار عليها بعدم القلق. حاول أن يكون شجاعاً رغم اقتناعه بأن حكماً بالسجن المؤبد في انتظاره. كان أمله الوحيد تجنيب آن العودة إلى السجن. سأل القاضي لدى استئناف الجلسة: «هل من مزيد لدى المحامين؟» هز المحامون رؤوسهم.

عندئذٍ بدأ روبنسون حكمه الأصولي. وقد خيم على قاعة المحكمة صمت مطبق. كان في الصف الخلفي الدكتور موريس بولارد وبرنارد هندرسون في حالة من التوتر الواضح. وقد علا وجهيهما أمارات المرارة والاضطراب.

قال روبنسون: «المرجو أن يتقدم المحامون والمدعى عليهما». سار المحامون والزوجان بولارد إلى مقدم قاعة المحكمة. وقفوا تحت القاضي، وقد بلغت الجلسة ذروتها.

«أود أن أذكر تبياناً للواقع أنه خلال كامل ولايتي في هذه المحكمة لم أَرَ قَطُّ مرافعات قضائية فيما يتعلق بالحكم على مدعى عليه أكثر تعداداً مما سمعت في هذه القضية. وبالاضافة إلى تلك المرافعات المتعددة من كل جانب، تلقيت أيضاً عدة اتصالات موجهة للمحكمة، حول هذا الإجراء.

«لقد قرأت كل المواد مرة واثنتين وثلاثاً والحق يقال، وأوليتها الاهتمام الدقيق ليس فقط للمرافعات بل لحجج الدفاع. وأني أنطق بالحكم التالي»:

«بخصوص المدعى عليه يوناثان جاي بولارد الذي حوكم لانتهاكه العنوان الثامن عشر من مجموعة قوانين الولايات المتحدة، القسم ٧٩٤ (سي) أحيل المدعى عليه إلى حجز النائب العام أو وكيله المفوض لسجنه المؤبد».

لدى سماع آن كلمة «مؤبد» أخذت في الصراخ بشكل هستيري صاحت: «لا، لا، لا» وانهارت على الأرض. وقد رفعتها الحارستان، وطلب إليها المحامون الإخلاد إلى الهدوء. وأخذ الحضور في اللهاث. لقد كان حكماً صاعقاً أقسى مما كان يتوقعه أحد. ثم استطرد القاضي بعد توقف قصير.

قال: «أفرض بمقتضى القانون ضريبة قدرها ٥٠ دولاراً. ولن يكون هنالك غرامة».

كانت آن واقفة بمساعدة حرسها وقد استعادت بعض هدوئها. كانت لا تزال تبكي عندما نظر إليها القاضي، أراد أن يعلن حكمها بسرعة.

«بخصوص المدعى عليها آن هندرسون بولارد، أحيل المدعى عليها آن هندرسون بولارد للسجن لدى النائب العام أو ممثله المفوض. بالفقرة الأولى من الاتهام. مدة خمس سنوات».

مرة أخرى ساد اللغط قاعة المحكمة، وعادت آن لتطلق صيحة. كانت فيما سبق تعتقد أنها لن تعود إلى السجن. فحتى اليوم السابق تحدثت إلى مراسل صحفي بالهاتف عن خططها لتنظيم مجموعات تأييد في أرجاء البلاد لمصلحة زوجها. وتكون هي على الأقل طليقة في الخارج لتتمكن من زيارته. ويتسنى لها التحدث إلى الصحافة. إلا أن آمالها سرعان ما خابت.

دقَّ روبنسون مطرقته. كان الهرج والمرج لا يزال قائماً في قاعة المحكمة. ولكنه استطرد: «فيما يتعلق بالفقرة الثانية من الاتهام أحكم على المدعى عليها بالسجن مدة خمس سنوات تسري متزامنة وفقاً للفقرات الاتهامية وبمقتضى القانون الشامل لمراقبة الجريمة أفرض ضريبة قدرها ٥٠ دولاراً على كل فقرة اتهام. وسيكون ثمة تحديد خاص فيما يتعلق بمكان السجن.

هنا انبرى جيمس هيبي، محامي آن، للقول صائحاً: «يا صاحب الفضيلة. هل لي أن ألتمس منكم السماح لها بالبقاء قيد الكفالة خلال ذلك الالتزام والتحديد. والإذن لها بتقديم نفسها مباشرة إلى المؤسسة؟»

قال القاضي: «الطلب مرفوض». وطلب من الكاتب تعطيل المحكمة.

كانت الساعة تمام الخامسة وخمس دقائق بعد الظهر. بعدبدء جلسة الحكم بنحو ثلاث ساعات. وقد سارع مراسلو الصحف للتحدث بالتلفون. وأخرجت الحارستان آن من قاعة المحكمة. كانت آنئذٍ تصرخ. وغلب عليها هستيريا تامة.

في الصف الخلفي هز الوالدان رأسيهما لعدم التصديق.

التقى دي جينوفا بمراسلي الصحف خارج دار القضاء وتباهى قائلاً: «من المحتمل أن لا يرى ضوء النهار ثانية وسلّم بأن بولارد سيكون مؤهلاً للإفراج المشروط بعد عشر سنوات. وقال دي جينوفا: «ولكن نظراً للضرر الذي ألحقه بولارد بالأمن القومي لأميركا فمن الأرجح أن لا يُطلق سراحه أبداً».

الفصل الرابع عشر

عندما تصبح النزوات كوابيس

فور صدور الحكم على بـولارد نُقل من بطـرسبورغ إلى مستشفى السجن الفيـدرالي في سبرنغفيلد، ميسوري. وأُرسلت آن إلى السجن الفيدرالي في لكسنغتون، كنتوكي. وفي الأشهر التالية لم يسمح لهما برؤية أحدهما الآخر. سُمح لهما بالتحدث إلى بعضهما بالهاتف بضع مرات فقط. وكانت الرقابة على بريدهما شديدة.

في ١٩ أيار/مايو ١٩٨٧ وصلني كتاب من السجن يعـرب فيه بـولارد عن دهشته لـوصول المراسلات إليه. كتب: وأنا أيضاً دهشت بسرور أو بالأحرى تنفست الصعداء إذ سمعت أخباركم ثانية.

في ضوء ما كان يحدث لبريدي أظن أنني سعيد لوصول بعضه إلي. وأيًّا كان ذلك الشخص الرجعي المسؤول عن غربلة رسائلي إلى آن فهو يتحمل وحده مسؤولية تخريب المخزون الاحتياطي الاستراتيجي للدولة من العلامات السحرية. لقد اختُصرت رسائلي إليها بشكل فعال بحيث لم يبق منها إلا ما يزيد قليلاً عن كلمات ظرف ونعت وحروف عطف عاطلة ومُطلقة. لم أستطع فهم ما اختاروا مراقبته ولا يسعني إلا الاستنتاج بأن هدفهم الرئيسي هو المضايقة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

من هذا القبيل ظننت من المضحك أن مقطعاً من كتاب يتعلق بمقابلة كاسبار واينبرغر سمعته من الإذاعة القومية الحكومية سُوِّد ظاهراً لأسباب «أمنية». ونظراً لاشتراكي منذ بضع سنوات في هذا النوع من الرقابة المتصلة بالسجون أدرك تماماً أن تلك الجهود يجب أن تنصب أولاً على «درس» البريد أطول مدة ممكنة لتثبيط همة المراسلين وبذا يُقلَّل حافزهم للكتابة، أنه لأمر سادي ولكنه معقول جداً وخاصة إذا لم يكن لدى القوات البحرية شيء أفضل من ذلك لإشغال سلك موظفيها.

في سبرنغفيلد أجري لبولارد سلسلة فحوصات نفسية. ووقاية له وُضع ثانية في زنزانة معزولة،

بعيداً عن غيره من السجناء وكثير منهم كانوا مرضى العقول. كان في الليل يسمع عويلهم وثرثرتهم بشكل لا ينقطع. ربّى لحيته خشية أن تكون شفرات الموسى التي قدمت له استُعملت سابقاً من قِبَل نزلاء آخرين. فلربما كانوا مصابين بالإيدز، ولكن الوضع البدني في سبرنغفيلد كان على العموم أفضل منه في بيترسبورغ.

كتب: «لا بد من التسليم بأن المسؤولين في سبرنغفيلد يحاولون جهدهم جعل الأمور متحضرة ما أمكن، وهذا ما أقدره حق تقدير وخاصة لأني مسجون في حبس انفرادي وسأظل على هذا الوضع أمداً غير محدود. ولا حاجة للقول إن كل يوم يمر يحمل في طياته نضالاً في وجه الثابت المزدوج في حياة السجن: وهما اليأس والملل.

قال: «إن العزلة شبه التامة وانعدام التحكم بحياتي يمكن أن يكونا شاملين في بعض الأحيان». ولكنه كان مصمماً على البقاء. «إنني أحاول اتباع رجيم شخصي صارم لأنه سيكون من السهل بشكل لا يُصدق أن أقع فريسة اليأس ويتبلد تفكيري. تصور كيف تكون الحال فيما لو أوصدت عليك المنافذ ثلاثاً وعشرين ساعة في اليوم. إن ذلك أشبه بالاختناق العاطفي». كانت زنزانة بولارد مكيفة الهواء، وكان يسمع له بالرياضة البدنية ساعة في اليوم في فناء صغير مغطى بالعشب يضم بضع مقاعد منتزه.

استطرد: لحسن الحظ سُمح لي بشراء راديو أتاح لي عودة الاتصال بالعالم الخارجي. قال: «كان هناك إذاعة الراديو القومي الحكومي تبث من جامعة ولاية ميسوري الجنوبية الغربية المجاورة». أستطيع سماع الأخبار العالمية من هيئة الإذاعة البريطانية. وكذلك «دليل البراري الوطني». لغاريسون كيلور ـ الذي أرى أنه يضلل ما غمض من مصادري الغرب أوسطية!

قال أيضاً إنه نزل عند نصيحة آن «بالافادة من هذه الحياة الرهبانية بالإقبال على سائر ألوان المطالعة التي كان يعيقها البرنامج المهني السابق المسعور». وقال بولارد إنه فرغ الآن من قراءة مؤلَّف جورج لي ووكر «أخبار دوداه» وديوان بريموليڤي (فجعت لنبأ وفاته مؤخراً ـ وهكذا يقضي شاهد آخر «للمحرقة»). وقال إنه أوشك على «محاصرة» كتاب «الحياة والموت» لڤاسيلي كروسمان. آمل أن أكون خارج السجن قبل أن أنهي هذا المسخ.

أما بالنسبة لبولارد فإن سبرنغفيلد كانت أسوأ من بطرسبورغ من حيث قساوة المنطقة. ففي فرجينيا كان يرى آن في أواخر الأسبوع عندما كانت قيد الكفالة بانتظار الحكم. ورغم توعك صحتها كانت تقود سيارتها ثلاث ساعات من واشنطون إلى بطرسبورغ كل يوم جمعة، عائدة مساء أيام الأحد بعد ساعات الزيارة وحتى في ذلك الوقت الذي كان يراها فيه بانتظام، فإنه كان يفتقدها بشدة. كانت مشاكلها الطبية تضاعف كربه. وقال إن علاقته مع آن كانت «مثالية. ولا أستطيع تصور حياتي بدونها». وقد شعر بذنب لا يُغتفر لأنه أقحمها في هذا المأزق.

أما في سبرنغفيلد فقد انقطعت زيارات آن في أواخر الأسبوع. كل ما بلغه أنها كانت تعاني

من مشاكلها الصحية في لكسنغتون. وفي كتاب آخر قال إنه في مطلع حزيران/يونيو ١٩٨٧ «نالها ضرب مبرح من نزيلة مخبولة». كما ذكر أنها لم تكن تتلقى العناية الطبية اللازمة. وكان وزنها دون التسعين رطلاً انكليزياً.

وإثر زيارة الدكتور موريس بولارد إلى لكسنغتون قال إن آن كانت على الدوام «محنية» من الألم. وكان يوناثان بولارد يتميز غضباً. وكتب: «أن عدم إجراء فحص المجواف لها طيلة ثلاثة أشهر شيء لا يُحتمل على الإطلاق نظراً لخطورة طبيعة جهازها المعدي والمعوي. وكانت سلطات السجن قد أخبرتها في بادىء الأمر أنه إذا كانت بحاجة لهذه العناية الصحية «الاستثنائية» كان لزاماً عليها التبليغ عني لدى اكتشافها نشاطي الخائن المزعوم. بدلاً من حمايتي. شيء محزن. أليس كذلك؟»

قال إنها تمضي معظم وقتها وهي تتلوى ألماً تلتمس برشامة التيلنول الجِينية. إن المعالجة الموجعة لآن كما تعلم تصبح أجدر بالاعتبار نظراً لأنها لم تتهم بالتجسس، وولاءها «الشائن» لي يختلف عن قضية السيدة (إدوارد) هوارد التي رغم ردة زوجها للاتحاد السوفييتي، لم يوجه إليها حتى الاتهام بإعاقة العدالة. ناهيك عن التآمر. فهل هناك ازدواجية في المقاييس تطبق هنا أو أنني أفتقر إلى أمر ما؟»(*).

في ٢٩ آذار/مارس ١٩٨٧ أعلنت إسرائيل إعفاء سيللا من قيادة تل نوف. كان غضب أميركا على الزعامة الإسرائيلية بالغاً. لقد أدركوا متأخرين ما ارتكبوه من خطأ. وكانوا متلهفين حتى في هذا التاريخ المتأخر لمحاولة حصر الضرر. ولا بد من التضحية بسيللا رغم كونه بطل حرب وطياراً ألمعياً.

للمرة الأخيرة جمع رجاله والدموع تترقرق في مآقي العديد منهم. قال بصوت رقيق: «أود التحدث إليكم حول إذاعة اسمي في وسائط الأخبار. أريد أن تعلموا أن ما حصل كان لصالح الأمن القومي لدولة إسرائيل. فإنقاذ العديد من أرواح اليهود كان على كف عفريت».

في كتاب استقالته الرسمي إلى قائد سلاح الجو آموس لابيدوت شرح سيللا سبب تنحيه كتب: «كنت أتوق منذ أمد بعيد إلى المنصب الذي أُسند لي منذ بضعة أسابيع فقط، وهو المنصب الذي يحلم به أي قائد في سلاح الجو. وإنهاء دوري قبل تحقيق جزء يسير من آرائي وخططي مدعاة لأسفي العميق. بيد أني توصلت إلى نتيجة بدافع الأسباب التي حاربت من أجلها والتي سأواصل النضال من أجلها مع زملائي في سلاح الجو».

استطرد سيللا: «إن تدهور العلاقات الأميركية الإسرائيلية واهتمامي بمستقبل تلك العلاقات

(*) «كان إدوارد ل. هوارد موظفاً سابقاً في وكالة الاستخبارات المركزية عرض خدماته على الاتحاد السوفييتي ثم ارتد إلى الاتحاد السوفييتي قبيل اعتقاله من قِبَل وكالة الاستخبارات الأميركية».

والروابط مع يهود الولايات المتحدة كل ذلك دعاني لمناشدتكم إعفائي من منصبي كقائد لقاعدة تل نوف». وقال: «إنه لم يشأ أن يكون عبئاً سواء على البلاد أو قـوات الدفـاع الإسرائيليـة. . . إن ملابسات قضيتي معروفة لديكم الآن، كما كانت سابقاً، ولسنا الآن في مجال تكرارها».

بعد استقالة سيللا من قيادة تل نوف أُسند إليه رئاسة كلية أركان حرب قوات الدفاع.

أما ياغور، المدير الثاني لبولارد، فلم يفلح في شق طريقه كما يجب منذ هربه إلى إسرائيل. ومن بين كبار الإسرائيليين المتورطين في القضية كان الوحيد الذي أقرّ بالمسؤولية الشخصية عن المأساة لا سيما سجن بولارد. وهو دون عمل رغم استمراره في قبض مرتب حكومي. وقد دخل في خصام مرير مع إيتان وسيللا وغيرهما من الإسرائيليين المتورطين. وهو يشير بهول الذنب لشهادته أمام وفد سوفير. لم يشأ التعاون أبداً. إلا أن الحكومة أمرته بشكل قاطع للقيام بذلك.

لا يزال بولارد، حتى هذا اليوم، واثقاً من «أن ما فعلته سيظل هاماً لدفاع الدولة الإسرائيلية ومصالح الدفاع الأميركية، كما يعتقد أن أعماله أدت إلى انقاذ الأرواح اليهودية. وقال: «إذا لم يكن من شيء آخر غير انقاذ ولد أو بنت إسرائيلية فهذا يكفي. من ناحية ثانية، ها أنا هنا، أنتحر».

ومع ذلك فإن حلم بولارد حول تقوية إسرائيل انقلب إلى كابوس رهيب خصوصاً له ولزوجته والجالية اليهودية الأميركية. وبحكم هوس الاضطهاد الذي يتملكه إزاء اللاسامية في أميركا، نجح في تزويدهم ببعض المواد الحديثة. وبينما أراد تدعيم العلاقات الأميركية الإسرائيلية انتهى إلى الإضرار بها.

لقد أدركت إسرائيل بعد فوات الأوان أن قرارها التعاون جزئياً فقط مع الولايات المتحدة في محاكمة بولارد كان خطأً فاضحاً. كان على إسرائيل إما أن تتعاون كلياً أو لا تتعاون بالمرة؛ آخذة في الحسبان اعتبارات الأمن القومي. وفي عملية تزويد محققي الولايات المتحدة بمعلومات منتقـاة فقط، استخدمت إسرائيل أردأ ما تيسر من البشر عامة. فقد توترت العلاقات الأميركية الإسرائيلية على نحو خطير وحُكم على أحد عملاء إسرائيل ذاتها بالسجن المؤبد ومرد ذلك على الأغلب إلى البيّنة الأولية التي قدمتها إسرائيل ضده. وعلى إسرائيل أن تقرّ بالمسؤولية عن هذه المأساة برمتها. لقد أساءت التعامل مع هذه المسألة منذ البداية.

كان على إسرائيل أن لا تدير بولارد في واشنطون ـ مهما كانت أهمية المعلومات التي حصل عليها. فالمخاطر لا تساوي المنافع حتى ولو كانت هامـة. إن المعلومات عن نشـاطات بـولارد التجسسية التي قدمتها إسرائيل مبدئياً للولايات المتحدة، كانت فيما بعد مرتكزاً لقراره دفع الدعوى المشارط مع الولايات المتحدة والتعاون مع التحقيق. اعترف بولارد ولم يبدأ بإفراغ كل ما في جعبته إلا بعد اكتشافه أن المسؤولين الإسرائيليين الذين وثق بهم والذين عمل معهم قدموا آنئذٍ للولايات المتحدة طائفة لا يستهان بها من البينات ضده. ولما شعر بالغدر به والتخلي عنه بدأ بإعلام المدعين حتى بمزيد من التفاصيل التي لا تصدق والمتضمنة مدى حلقة التجسس ـ وهي تفاصيل أسقطها

المسؤولون الإسرائيليون. فمثلاً لم تُعِد إسرائيل سوى ١٦٣ من ما يزيد على ١٠٠٠ من الوثائق التي أخذها بولارد حسب وثائق المحكمة.

حالما اعترفت إسرائيل ذاتها بالجرم ـ ولو أنها أصرت على أنه عمل متهور من زمرة استخبارات «شريرة»، قرر بولارد أن الاختيار ضئيل ولم يكن أمامه سوى الاقتداء بها. لقد جوبه بالشهادة شديدة الأذى من إيتان وياغور وإيريت إيرب، السكرتيرة في السفارة الإسرائيلية في واشنطون التي كانت تصور بشكل روتيني الوثائق التي حصل عليها بولارد. ومما زاد الطين بلة أنهم وصفوه بالمرتزقة الذي يعمل للحصول على الأسرار الأميركية المغرية لإسرائيل. وبالطبع، أصرّ على أن حافزه كان حبه لإسرائيل وحرصه على أمنها.

أكد المسؤولون الإسرائيليون أنهم شددوا عمداً على الناحية المالية من العملية لاقتناعهم أن ذلك يحد من الإضرار بالجالية اليهودية الأميركية، فإذا كان بولارد يتجسس لمجرد المال يمكن إفحام تهمة «الولاء المزدوج». أما إذا كان بولارد قد عمل بدافع المثالية، يصبح غيره من اليهود الأميركيين أيضاً موضع شبهة. وهذا تعليل معقول. كان ثمة رغبة متعمدة بين المسؤولين الإسرائيليين في الحد من تأثير ذلك على اليهود الأميركيين.

إن المسؤولين الأميركيين لتطبيق القانون اعترفوا بأن التعاون الإسرائيلي حتى لو كان ناقصاً ومضللاً، كان مساعداً في إقناع بولارد بالاعتراف. ولولا الأدلة والبيِّنات التي قدمتها إسرائيل لظل بولارد عند صمته ـ حقه بموجب القانون الأميركي ـ ولتعذر على الحكومة إدانته. ولا شك أن المدى الهائل لنشاطاته التجسسية طيلة مدة الثمانية عشر شهراً ما كان لينكشف أبداً لو قرر بولارد والحكومة الإسرائيلية معاً التعتيم. إن القدر الضئيل من الوثائق المكتشفة في شقته في الليلة الأولى لاعتقاله من أجل الاستجواب لم يكن كافياً بحد ذاته ليجعله يستحق حكماً بالسجن الطويل الأمد.

سلّم المسؤولون الإسرائيليون على انفراد أنهم ذعروا لدى اعتقال بولارد خارج السفارة. أما رئيس الوزراء بيريز وحكومة الاتحاد الوطني التي يرئسها فقد أبدوا قلقهم حول تشعبات الفضيحة على العلاقات الأميركية الإسرائيلية. واعتبروا أنهم يعملون على ضبط الضرر. لقد اعتذروا وتعاونوا ـ إنما ليس على الوجه الأكمل. إن القرار بالتستر على دور سيللا في المسألة أغضب الأميركيين بشدة. وبعد اعتقال بولارد كان على إسرائيل القيام بأحد أمرين: إما التشبث بموقف العناد والتزام الصمت المطبق ـ وهو تصرف يفهمه على مضض المسؤولون المتشددون في الاستخبارات الأميركية ـ أو التعاون تعاوناً كاملاً ودقيقاً مع الأميركيين.

باتخاذ موقف وسط ـ تعاون جزئي وحتى مضلل ـ جلبت إسرائيل الأسوأ لنفسها. واعتقد المسؤولون الأميركيون أن إسرائيل كانت تخدعهم. إن ترقية إيتان وسيللا زادت الطين بلة. وقال الدكتور لوتواك خبير الدفاع الأميركي إن رفض إسرائيل معاقبة ذينك المسؤولين المتورطين كان مجرد

«عمل من الانغماس الذاتي» وهو تجاهل طائش لمصالحها الأعم بالحفاظ على روابط وثيقة مع الولايات المتحدة.

ثمة استنتاج لا مفر منه لمسألة بولارد هو أن ضربة إسرائيل الخاطفة والمدويّة قد تكون مصدر ضعف كما هي مصدر قوة. لقد مكنت إسرائيل من البقاء في جزء جد خطِر من العالم. ومع ذلك ولّدت أيضاً وجهة نظر تبناها كثير من المسؤولين الإسرائيليين بأن إسرائيل تستطيع الإفلات بأشد الأمور شيناً. وثمة رأي بين كثير من الإسرائيليين أن نظائرهم الأميركيين ليسوا شديدي الذكاء وأنه يمكن استغفالهم. وبعض الفضل يعود لنفوذ اللوبي الموالي لإسرائيل في الكونغرس. وتبدي الزعامة السياسية في إسرائيل ازدراء حتى للجالية اليهودية الأميركية رغم الدعم الهائل الذي تلقته على مر السنين معنوياً ومالياً وسياسياً. وغالباً ما أقنع الإسرائيليون أنفسهم أن الزعامة اليهودية المؤثرة سياسياً في الولايات المتحدة لن تتخذ في نهاية المطاف موقفاً مناهضاً للسياسة الإسرائيلية. إلا أن إسرائيل ليست الملومة للوصول إلى هذا الحال. فحكومة الولايات المتحدة والزعامة اليهودية الأميركية كثيراً ما عززا وجهة نظرها المتغطرسة.

كان إيتان متأكداً ولا بد من أنه في حال انكشاف عملية بولارد سيتمكن من معالجة التأثير. فالحادثة يمكن لفلفتها. وإسرائيل كانت تتعامل مع بيت أبيض ودود، وكان كيسي في وكالة الاستخبارات المركزية أبرز مسؤول موالٍ لإسرائيل هناك منذ القصّاص جيمس يسوع أنكلتون. وأكد بولارد أن إيتان طمأنه مراراً بحمايته في المستقبل.

على العموم فإن الولايات المتحدة أفادت من علاقتها الوثيقة مع إسرائيل التي أصبحت مصدر قوة استراتيجي شرقي البحر الأبيض المتوسط. وفي مجال تقاسم المخابرات تلقت الولايات المتحدة على الأرجح أكثر مما قدمت. فمثلاً وفرت إسرائيل للولايات المتحدة قدراً كبيراً من المعدات العسكرية السوفييتية التي استولت عليها. لقد شاركت واشنطون في الدروس التي تعلمتها في مقاومة الأسلحة السوفييتية الصنع. وكان ثمة تعاون شامل في مجال الارهاب المضاد. والواقع أن رئيس الاستخبارات السابق في سلاح الجو الأميركي، اللواء جورج ف. كيغان قال: «في الوقت الحاضر، إن قدرة سلاح الجو الأميركي بوجه خاص، والجيش بوجه عام، على حماية أي مركز يحتله في حلف الأطلسي مدينة لزاد الاستخبارات الإسرائيلية سواء استطلاع الأقمار الاصطناعية أو الاعتراض التقني أو غير ذلك».

ومع ذلك، أظهرت إسرائيل في قضية بولارد تجاهلاً طائشاً للحكومة الأميركية، وفوق ذلك لا تزال إسرائيل الشريك الأصغر في العلاقات الأميركية الإسرائيلية. وذكر فيما بعد زيف شيف، المحرر الرئيسي لدفاع إسرائيل للواشنطون بوست أن قضية بولارد كانت «أسوأ غلطة أذكرها منذ بدء عملي هنا».

لماذا استخدم إيتان بولارد في واشنطون؟ يقول بعض مسؤولي الولايات المتحدة إن العملية

لم تكن ضرورية نظراً لأن إسرائيل تحصل على قدر كبير من المعلومات بواسطة طرق رسمية. إلا أن المسؤولين الإسرائيليين غير مقتنعين على ما يبدو وبهذا المنطق، لقد خشوا من أن الولايات المتحدة لا تزود إسرائيل بكل شيء. وقد أثبت لهم بولارد فيما بعد أن ما لم تقدمه الولايات المتحدة قد يكون رئيسياً لا سيما في مجال التصوير الاستكشافي المعقد والاعتراضات الالكترونية حيث قدرات إسرائيل ذاتها محدودة.

كان ثمة بعض الانعكاسات المحسوسة جداً لقضية بولارد. وفي العلاقة بين إسرائيل والجالية اليهودية الأميركية كانت خطأً فاصلاً حقيقياً، فإلى جانب قرارات وأعمال أخرى اتخذتها إسرائيل في السنوات الأخيرة، أكدت القضية أن يهود أميركا أكثر استعداداً الآن لانتقاد إسرائيل. إنهم ما زالوا يؤيدون ذلك البلد تأييداً ساحقاً ولكن ليس بالشكل الذي درجوا عليه سابقاً، وقد تأكد ذلك في مقابلات أجرتها مع الزعماء اليهود. يقول فيل باوم، مساعد المدير التنفيذي للمؤتمر اليهودي الأميركي «هذا واضح جداً في مخيلتي، كان ذلك ضار جداً». وذكر أن أعداداً متزايدة من اليهود الأميركيين يرفضون حتى فكرة مركزية إسرائيل ليهود العالم. وبدلاً من ذلك، هناك اتجاه نحو «الإبقاء على التشتت». ويرى باوم أنه كان من غير المحتمل أن تعارض الزعامة اليهودية الأميركية - قبل بولارد - الحكومة الإسرائيلية بالصراحة التي كانت عليها في قضايا مبيعات الأسلحة إلى جنوبي أفريقيا وهجرة اليهود السوفييت. وبالتالي كان لليهود الأميركيين في أذار/مارس ١٩٨٧ أهميتهم الكبيرة في حث الحكومة الإسرائيلية على اقتضاب علاقتهم العسكرية المتبادلة مع نظام بريتوريا، وقد استجابت إسرائيل بالفعل بإعلانها أنها لن تبرم اتفاقات لأية مبيعات أسلحة جديدة مع جنوبي أفريقيا، أما في موضوع اليهود السوفييت فقد أخبر اليهود الأميركيون الإسرائيليين بأنه يجب أن يكون لليهود السوفييت حق الهجرة إلى إسرائيل أو الولايات المتحدة أو أي مكان آخر قد يرومونه. وقد شددت إسرائيل على وجوب هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل فقط. وكان ثمة تصدع سافر بين قسم كبير من اليهود الأميركيين وإسرائيل حول هذا الموضوع. ويعتقد باوم أنه كان لقضية بولارد أثر كبير في هذه العلاقة المتبدِّلة. ويؤكدّ أنه بسبب تلك الغلطة الإسرائيلية أصبح لدى اليهود الأميركيين الجرأة لتحدي القرارات الإسرائيلية بصراحة وقوة.

هذا الاتجاه صوّره موريس أبرام وهو رئيس مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأميركية الكبيرة عندما قال: إنه أصبح لزاماً على الإسرائيليين التسليم بحيوية التشتت. يقول: كان للتشتت أهميته على الدوام. لا يجب نبذ التشتت. وليس في ذلك إنكار لمركزية الدولة (الإسرائيلية)... إن كل قوة الشعب تتمركز في تلك الدولة الصغيرة. إلا أن مسؤوليات الشعب أكبر بكثير مما يحدث في القدس.

يوجد اليوم إجماع في الجالية اليهودية الأميركية على أن إسرائيل كانت متهورة في تشغيل جاسوس في جهاز الاستخبارات الأميركية - بغض النظر عن المكاسب المحتملة. يقول توم دين، المدير التنفيذي للجنة الشؤون الأميركية الإسرائيلية العامة، منظمة اللوبي الموالي لإسرائيل في

واشنطون: «إنني قلق لأن الإسرائيليين لم يتوصلوا إلى تفهم لما تعنيه هنا. من ذا الذي احتاجها؟ ولماذا كانوا على هذا القدر من الحماقة؟ إذا أرادوا هذه الأشياء لماذا لم يطلبوها؟ أليست العلاقة الأميركية الإسرائيلية على قدر كافٍ من المتانة؟ كان بالإمكان الحصول عليها». كذلك أغضبت قضية بولارد دين شخصياً كغيره من الزعماء اليهود الأميركيين الكثيرين. يقول: «لقد ارتُكب عمل إجرامي ـ خيانة ضد دولتي بالذات. على يد يهودي في هذه الحالة». إلا أنه أعرب عن الثقة بأن الضرر سيكون قصير العمر. «أعتقد أنه سبب تردداً كما سبب خشية. ولكني لا أعتبره هزة للعلاقة الأميركية الإسرائيلية».

السناتور الديمقراطي فرانك لاوتنبرغ عن نيوجرسي، وهو يهودي، يوافق على أن إسرائيل تصرفت «بحماقة وعلى نحو رديء». ومنذ تفجر قضية بولارد لاحظ تغيراً من جانب اليهود الأميركيين. لقد انطووا على أنفسهم لإظهار أنهم أميركيون قبل كل شيء.

بيد أن الضرر لمجمل العلاقات الأميركية الإسرائيلية أمكن احتواؤه. وهذا دليل، وفقاً لهايمن بوك بايندر، كان سابقاً من اللجنة اليهودية الأميركية، على متانة العلاقة الخاصة بين واشنطون والقدس. ويضيف أن قضية بولارد اعتبرت بوجه عام «انحرافاً». لقد وضع الأميركيون القضية في المنظور الصحيح. ويقول «لا بد أن يُنظر إليها من ناحية أوسع. فإسرائيل لا زالت حليفاً مخلصاً». ويؤكد بوك بايندر باعتباره مهتماً مهنياً بالسعي لتوثيق الروابط الأميركية الإسرائيلية، على أنه مقتنع بوجه خاص باحتواء الضرر المحتمل من قضية بولارد: «أقول دون تردد إننا قمنا بواجبنا خير قيام من الناحيتين الشخصية والمهنية. فإذا كانت الرابطة الأساسية من المتانة بحيث سمحت بأن يمر هذا الحدث ـ لغاية الآن على الأقل ـ دون تأثير نسبي على إسرائيل أو العلاقات الأميركية الإسرائيلية، فذلك في اعتقادي مدعاة للارتياح».

مع ذلك تعتقد الجالية اليهودية في أغلب الأحوال أن إسرائيل كانت سخيفة ومتبلدة بشكل لا يصدق عندما رفضت معاقبة أولئك المسؤولين الإسرائيليين المتورطين مباشرة. كان ثمة سخط أميركي عميق ومفهوم لتصرف إسرائيل. ويقول آرثر غولدبرغ قاضي المحكمة العليا الأميركية السابق أنها عولجت على ما أعتقد بشكل رديء. في بادىء الأمر وصفوها كعملية «أشرار». ثم حسنوا تلك النعوت. وهذا أمر ليس بالمعقول إنما يدل على انعدام الشعور.

إن وزير التجارة السابق خلال إدارة كارتر، فيليب كلوتزنيك، يوافق على «أن الطريقة التي عولجت بها أمر يُرثى له». وهو يعرض بعض النصيحة لإسرائيل: «أعتقد أنهم نمّوا شعوراً بالتفوق حول هذه الأنواع من الأمور ـ بعضها. لا أريد التعميم. لا أظن أن هناك خلافاً، ولكن ذلك سيُلقي ظلاً على عدة أمور. هناك عدد كافٍ من الناس في دولتنا ليسوا يهوداً يستفيدون من ذلك. وسيكون التعامل معهم أكثر صعوبة. من ناحية أخرى، ثمة عدد كافٍ من الناس في دولتنا وهم من اليهود، يمانعون كثيراً في القيام ببعض الأمور التي هي منطقية تماماً خشية إساءة فهمهم». وهكذا سيكون ثمة تصادم دائم.

يستطرد كلوتزنيك: «إنك لا تجرف أشياء كهذه تحت البساط. لنبدأ بتلك المقدمة. لا أعتقد أنها ستكون مدمرة كما يقول بعض الغُلاة. ولكن سيكون لذلك أثره. إن الحكومات لاتتعامل مع حكومات، ولكن الناس يتعاملون بعضهم مع بعض، وسيكون في دولتنا أناس قد يستخدمون ذلك. ضع نفسك مكان شخص ذي مسؤولية».

النائب الديمقراطي هنري واكسمان عن كاليفورنيا، وهو يهودي، وواحد من أفضل أصدقاء إسرائيل في تلة الكابيتول، يعتقد أن قضية بولارد أساءت أيضاً لصورة إسرائيل في الكونغرس. «سمعت انتقاداً لإسرائيل بعد بولارد وأكثر من ذي قبل. لقد طُرحت عدة أسئلة أخرى حول استقلال إسرائيل الاقتصادي ـ حاجتها الدائمة لمساعدة الولايات المتحدة. متى ستحصل إسرائيل على الاكتفاء الذاتي؟»

يعلّق ستيوارت آيزنشتات، وهو مسؤول سابق في البيت الأبيض في إدارة كارتر بأن فضيحة بولارد لم تكن حدثاً داهماً بمعنى أنها أحدثت خِضماً من الخلافات المتباينة. إلا أنها كانت واحدة من سلسلة أمور حصلت لمجموعة صور محطمة لإسرائيل. ونحن أقل رغبة للتسليم ظاهرياً بالأمور التي تحدث هناك. وبهذا الخصوص، ليس من الضروري أن تسوء الأمور إلى هذا الحد، لأنني أعتقد أن بوجود مقولب زائف لبلد ما حتى لو كانت علاقتنا ودية، يكون الأمر غير سليم. فمن الأفضل النظر إلى البلد مع كافة انحرافاته.

نتيجة لفضيحة بولارد أصبح زعماء اليهود الأميركيين راغبين في انتقاد إسرائيل علناً ـ وهو الشيء الذي أحجموا تاريخياً عن القيام به خشية تقويض مواقف إسرائيل المشارطة. ويقول هايمن بوك بايندر إن كثيراً من أعضاء الجالية اليهودية، بتعبيري، تحرروا من القيود التي كانت تكبلهم حتى ذلك الحين. والقيود هي عدم انتقاد إسرائيل علانية، ولكن حتى كبار زعماء اليهود أدركوا أن باستطاعتهم انتقاد إسرائيل، فلا يعني ذلك نهاية العالم. إنه في الواقع لا يخفف حبنا بعضنا لبعض وآمالنا المتبادلة، فالعلاقة اليوم أفضل مما كانت عليه.

حاولت حكومتا الولايات المتحدة وإسرائيل حصر الضرر البعيد المدى لمجمل علاقتهما، إلا أن اندِمال الجراح التام سيستغرق وقتاً طويلاً، وليس من المعقول الاستخفاف بهول الكارثة. فقد كان ثمة إحساس حقيقي بالفزع في أوساط واشنطون الرسمية. ولكن رغم المشاكل فإن العلاقة الرسمية اليومية عادت إلى نشاطها بشكل فعال وملحوظ. وكِلا البلدين يدرك أن اشتراكهما في مصالح عسكرية واقتصادية واستراتيجية وسياسية لا يفسح المجال لفضيحة بولارد ـ مهما كانت كريهة ـ كي تقلب تحالفهما الواقعي رأساً على عقب.

بيد أن الأثر بعيد الأمد قد يكون أكثر خطورة واستمراراً. ويقول هاري وول، ممثل عصبة مكافحة المهاترة المقيم في القدس «إن أكثر أضرار فضيحة بولارد ديمومة سيكون بين اليهود الأميركيين وإسرائيل».

هذا الشعور دعم استطلاعات حديثة للرأي العام.ففي نيسان/أبريل ١٩٨٧ أظهر استفتاء نشرته أخبار شبكة إذاعة كولومبيا والنيويورك تايمس أن معظم الأميركيين لم يتوقعوا أن تُلحق فضيحة بولارد أي ضرر دائم في العلاقات الأميركية الإسرائيلية. وبالطبع إن فضيحة بولارد لم تكن قضية بالنسبة لكثير من الأميركيين. حتى أن ١٨٪ فقط من غير اليهود كانوا مدركين أن بولارد تجسس لإسرائيل. وخلافاً لذلك استطاع ٦٢٪ من اليهود تسمية البلد الذي تجسس له بولارد. واعتقد اليهود وغير اليهود على حدٍ سواء أنه يجب أن لا تتخذ حكومة الولايات المتحدة أي إجراء ضد الحكومة الإسرائيلية بسبب بولارد. ثم هل يضع معظم اليهود الأميركيين مصالح إسرائيل فوق مصالح الولايات المتحدة؟ بنسبة ٢ إلى ١ أجاب الشعب لا. وبين اليهود كان مقدار الفرق سبعة إلى واحد.

فيما يلي بعض الأسئلة الأخرى ونتائج الاستفتاء:

مواطن أميركي يدعى يوناثان بولارد
مُدان بالتجسس لدولة أجنبية. هل
تعلم البلد الذي كان يتجسس له؟

	المجموع	يهود	غير يهود
إسرائيل	١٩٪	٦٢٪	١٨٪
الاتحاد السوفياتي	١٣	٥	١٣
امتناع	٦٨	٣٣	٦٩

أُدِين بولارد بالتجسس لإسرائيل. هل تشعر بالغضب؟ أو هل تشعر بالارتباك؟ أو هل أنت متعاطف؟ آخرون، امتناع.

	المجموع	يهود	غير يهود
غاضب	٤٨٪	٣٤٪	٤٨٪
إرباك	١٢	٢٧	١١
تعاطف	٧	١٣	٧
آخرون	٧	٩	٧
امتناع	٢٦	١٧	٢٧

حُكم على بولارد بالسجن المؤبد.
هـل تعتقد أن. ذلـك الحكم كان قـاسياً جـداً أو متسـاهـلاً جـداً أو عادلاً؟

	المجموع	يهود	غير يهود
قاسياً جداً	٪١٦	٪٤٠	٪١٥
متساهلاً جداً	٩	٢	٩
عادلاً	٥٧	٤٣	٥٨
امتناع	١٨	١٥	١٨

هل تعتقد أن قضية تجسس بولارد ستسبب ضرراً بالغاً بالعلاقات بين الـولايـات المتحـدة وإسـرائيـل أو سـوف تطوى صفحتهـا على نحـو ملائم عما قريب؟

	المجموع	يهود	غير يهود
بالغ	٪١٩	٪٨	٪١٩
ستطوى صفحتها عما قريب	٦٥	٧٦	٦٥
امتناع	١٦	١٦	١٦

لا شك أن معظم التشعبات الأليمة أصـابت يهود يعملون في سـائر المجـالات الحكوميـة الأميركية في مناصب حساسة في السياسة الخارجية والدفاع، فبالنسبة إليهم تجدد الاتهام القديم بالولاء المزدوج. وبدأت مطاردة أمثال «بولارد» آخرين. وحدث توتر حقيقي بين الأوساط اليهودية في واشنطون. لم يكن مرد ذلك إلى أن زملاءهـم من غير اليهود وجهوا إليهم أقوالاً شريرة أو نابية. إنما كان شعوراً بالقلق في أعماقهم. كثيرون منهم أحسّوا بأن رفقاءهم كانوا ينظرون إليهم بطريقة مختلفة، وأخذ اليهود يشعرون بالحرج والارتباك.

يعتقد الدكتور لوتواك أن فضيحة بولارد كان لها «تأثير مشؤوم» على أصدقـاء إسرائيـل في مؤسسة الدفاع الأميركية. وقال إن موظفي الأمن الأميركيين يقلقون حول منح ترخيص أمن سري للغاية لأفراد ذوي اتصالات مشبوهة تتعلق بالشيوعية وغيرها من الأقطار المعادية. والآن أصبحوا يحققون بدقة في كل ما يمت لإسرائيل بصلة. هل ذلك الشخص يُكثر من زيارة إسرائيل؟ هل يقدم مساعدات مالية لقضايا إسرائيلية؟ هل لذلك الشخص أقارب في إسرائيل؟ يقول لوتـواك: «هذه

الأسئلة أصبحت الآن جزءاً من إجراءات العمل القياسية». ويضيف أن إسرائيل أثبتت أنها كانت على استعداد للتغلغل في الأقداس الداخلية لجهاز الاستخبارات الأميركي.

مسؤول يهودي في وزارة العدل لم يشأ ذكر اسمه قال: «ما زال الوقت مبكراً للقول ما إذا كانت فضيحة بولارد ستؤثر كل هذا التأثير المدمر البعيد المدى على وضع اليهود في إدارة الولايات المتحدة. ومع ذلك تنبأ بأن اليهود المطالبين بمراكز إدارية حساسة تتعلق بترخيصات أمنية، «سيخضعون لفحوصات» خلفية أدق من قِبَل وكالة الاستخبارات الأميركية.

والواقع أنه في ٩ كانون الثاني/يناير ١٩٨٩ أضاع موظف مدني في وزارة الدفاع الأميركية ترخيصاته الأمنية السرية للغاية لأن ثلاثة من أبنائه كانوا يقطنون في إسرائيل. وهذا الموظف، الذي طلب عدم كشف اسمه، أخبره رؤساؤه أن يضيع ترخيصاته نظراً لفرض إجراءات أمنية أشد منذ اعتقال بولارد. وقال الموظف الذي عمل لوزارة الدفاع في قاعدة جوية حساسة في الغرب الأوسط مدة خمسة وعشرين عاماً، إنهم لا يريدون الآن أن يفسحوا المجال لأية احتمالات.

أكدت مصادر البنتاغون أنه كان ثمة تشديد دراماتيكي في إجراءات الترخيص الأمني منذ اعتقال بولارد والعديد من الجواسيس المشهورين الآخرين في السنوات الأخيرة. ولكنه نفى أن تكون إسرائيل الدولة الوحيدة التي استُهدِفت. وقالت على سبيل المثال إنه في الأغلب ليس باستطاعة أحد ذي أنسباء يعيشون في الخارج أو متزوجون من مواطنات أجنبيات العمل في برامج استخبارات مغفلة ومصنفة للغاية أو في قاذفة القنابل الخفية وعدد محدود من منظومات السلاح الأخرى ذات التقنية العالية. («مغفلة» تعبير ميزاني يستخدم للإشارة إلى عمليات الاستخبارات غير المذكورة على وجه التحديد في الميزانية الاتحادية السنوية للولايات المتحدة ولكن جرى تمويلها من تلك الميزانية). وخلال قسم من السنوات الست التي أمضاها بولارد في القوات البحرية عمل في شتى البرامج المغفلة.

كذلك نفت مصادر البنتاغون بشدة أن يضيّع اليهود الأميركيون تلقائياً ـ أو يُحرموا من ـ الترخيصات. وأوضحوا أنه كان ثمة العديد من المسؤولين اليهود رفيعي المستوى الذين يعملون في مراكز أمن قومي حساسة جداً. ومع ذلك أقرت المصادر بأن موظفي أمن أميركيين كباراً يقومون اليوم فعلاً بإشراف أدق على علاقات سائر الموظفين مع إسرائيل، وبالتالي فإن خبراء الاستخبارات المضادة كانوا يطرحون على الموظفين أسئلة حول إسرائيل أكثر تحديداً من ذي قبل.

وهكذا، في قضية مستقلة استرعت انتباهي، ظل مسؤول أميركي متزوج من امرأة إسرائيلية، منتظراً ما يزيد على العام لاستلام إجازات أمن روتينية. قال المسؤول: «كان المفروض إنجازها منذ أمد طويل، مشتبهاً في أن جنسية زوجته كانت العقبة الرئيسية القائمة في الطريق».

وفي مقابلة قال موظف من الغرب الأوسط في وزارة الدفاع أنه عبأ نماذج روتينية حديثة لتصاريح أمنية منذ ما يزيد على العام. وذكر في تلك النماذج أن ثلاثة من أبنائه تتراوح أعمارهم بين

٢٦ و٣٠ ـ يعيشون حالياً في إسرائيل. والأبناء يهود متدنيون ومحافظون بخلاف والدهم. اثنان من الأبناء متزوجان امرأتين أميركيتين بينما الثالث متزوج إسرائيلية. وقد عمل الابن الأكبر مظلياً في الجيش الإسرائيلي. وقد وُلد الأب والأبناء جميعاً في الولايات المتحدة.

في ٩ كانون الثاني/يناير قال الموظف: «قبل ساعة فقط من وقت الانصراف دُعيت إلى مكتب رئيس دائرتي.

نسب إلى رئيسه قوله: «لقد أُلغيت إجازاتك ليس على يدنا بل من قِبَل واشنطون».

قال الموظف إنه لم يرتكب أي خطأ وإن عمله كان ممتازاً على مر السنين.

سرعان ما عاد به الحرس إلى مكتبه حيث طلبوا منه «تنظيف» الوثائق المصنفة. «لقد أرادوا إشارتي على الفور».

أُعيد تعيينه في دائرة أخرى تتضمن معلومات غير مصنفة. ونظراً لاستمرار عمله هناك، طلب عدم كشف اسمه ومجموعته وطبيعة عمله الحقيقية علانية.

قال الموظف إن مسؤولين آخرين أخبروه لاحقاً أنه حُرم ترخيصاته نتيجة لاعتقال بولارد. قال: أخبروني أن «فضيحة بولارد قلبت كل الموازين. وقالوا إنني أخضع للقوانين الجديدة».

ولكنه قال إنه علم أيضاً أن زميلين آخرين حُرما من ترخيصاتهما الأمنية، أحدهما لأن الزوجة كانت من فرنسا والآخر لأن للمسؤول أقارب يقيمون في كندا.

وقال الموظف: إنه يحب عمله الجديد غير المصنف ويريد الاستمرار في العمل هناك. وقال مشيراً إلى أنه قبل قرار وزارة الدفاع «لا رغبة لي في ترك العمل. لست أفضل حالاً. وكالقول المأثور: «الله يتحرك في الطرق الخفية». كذلك الأمن يتحرك في طرق خفية، ولا يهمنا أن نعرف السبب. . . ».

قال مسؤول يهودي آخر في وزارة الدفاع «لقد كان لها تأثير فظيع على معنويات اليهود. كانت حديث كبار الشخصيات. . . أخبرني العديد من أصدقائي اليهود في الحكومة أن شعوراً جد غريب يتملكهم. لقد وجدوا أنفسهم في موقف دفاعي». وهذا المسؤول الذي لم يشأ أيضاً تعريف نفسه. كان ساخطاً جداً على إسرائيل. وأوضح قائلاً: «ثمة إحساس بالخيانة. ربما لم يهتم الإسرائيليون بهذه الناحية، وما تجمّع لدي من مختلف اليهود الذين تحدثت إليهم هو أن الإسرائيليين لم يأخذوا في الحسبان تأثير ذلك على الجالية اليهودية الأميركية والموقف الصعب الذي وضعنا فيه. كثير من الناس ينعتون اليهود بالغطرسة. إنهم لا يأبهون بالجالية اليهودية الأميركية. إنهم يريدون فقط أخذ مالنا. دون أن يعطوا النزر اليسير».

أحس مسؤول البنتاغون أن غير اليهود ينظرون الآن إلى اليهود «بشكل مزرٍ. وثمة شعور بغيض

بأن الناس على ما يبدو يجدون أنفسهم في مأزق. لم أطلق العنان لمشاعري الشخصية. ولكنها حديث الساعة بين اليهود في الحكومة. ورد الفعل هو أنها نوع من الخيانة. فكيف يجرؤون على القيام بذلك تجاهنا باعتبارهم يهوداً أميركيين؟»

كذلك تمخضت فضيحة بولارد عن تضاؤل الرغبة لدى اليهود في الدولة للتعامل مع إسرائيل. حتى أن بعضهم أحجم عن الظهور في السفارة الإسرائيلية في واشنطون في الاستقبالات الدبلوماسية. إنهم يحاذرون الظهور مع الإسرائيليين بل إن غير اليهود الذين قد يتعاطفون مع إسرائيل قلصوا تعاونهم.

كان مسؤول يهودي في وزارة الخارجية قلقاً جداً حول تأثير الفضيحة ـ «لا حاجة للقول بأن هذا الموضوع مُغِم جداً لقلبي. لقد اعتراني الذعر عندما قرأت عنه للمرة الأولى. وقال إنه سمع «اشاعات بأن وكالة الاستخبارات الأميركية كانت تعيد النظر في جميع ملفاتنا. ليس لدي دليل على ذلك. في الحقيقة لا أملك شيئاً». ولكنه أضاف بمنتهى الصراحة: «لو كنت في وكالة الاستخبارات الأميركية لاتبعت ذات الأسلوب في التفكير ـ لا لدوافع مناوئه للسامية أو أي تعصب أعمى، ولكن ألقِ نظرة على الصورة الجانبية لهذا الفتى (بولارد) وقل: «ربما سيكون من الأفضل، من قبيل الاحتياط، أن ننظر إلى أناس ذوي صور جانبية مماثلة ـ يهود تعاملوا مع إسرائيل بصفة حسية». ثمة على الأرجح مائة أو نحو ذلك من الناس الذين ينطبق عليهم هذا الوصف ـ أناس عملوا في السفارة في تل أبيب، أناس عملوا في شؤون الشرق الأوسط. ولكن على حد علمي، لم أسمع تعليقاً موجهاً لي أو لأي كان غيري يُشتم منه أدنى شك أو تساؤل حول اليهود بحد ذاتهم من حيث ولاؤهم أو غير ذلك وباستطاعتي القول، رغم ذلك، إن هذا الأمر أقلقني.

كانت وزارة العدل أحياناً تراقب على مر السنين نشاطات بعض الجماعات اليهودية مثل لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك) وعصبة بني بريت لمكافحة المهاترة إلا أنها لم تخرج بدليل واقعي للتجسس لصالح إسرائيل. ورغم علم رؤساء إيباك وعصبة مكافحة المهاترة بأن نشاطاتهم تعرضت أحياناً للاستقصاء إلا أنهم نفوا بشدة تورطهم إطلاقاً في أي تجسس لمصلحة إسرائيل.

وفي بيان أُعِد بعناية للمحكمة كتب النائب العام الأول دي جينوفا أنه فهم من كبار مسؤولي قسم الأمن الداخلي أنهم كانوا لا يعلمون بوجود حالات رُفض فيها الادعاء وأمكن فيها الحصول على بيّنة موثوقة ومقبولة من قبل موظفي تطبيق القانون بحق مواطن أميركي لقيامه بتزويد معلومات مصنفة أميركية إلى إسرائيل بصورة نظامية وسرية. والأهم من ذلك، إن كثيراً من هؤلاء المسؤولين لا يعلمون بأية حالة تجسس سابقة ارتكبها مواطن أميركي لصالح إسرائيل مقابل المال.

في ١٨ آذار/مارس ١٩٨٧ خاطب اسحق شامير رئيس الوزراء وفداً من زعماء اليهود الأميركيين في القدس. وقال إن فضيحة بولارد كانت «حدثاً يؤسف له كثيراً» كما أنه «مأساة

إنسانية». ولكنه حث الحضور على إبقاء المسألة في منظورها الصحيح. «إننا عازمون على الحفاظ على صلاتنا الوثيقة مع الولايات المتحدة وتنميتها. وقد أبلغتنا الحكومة الأميركية بأنها تشاركنا هذا الشعور تماماً».

بيد أن العديد من المسؤولين الأميركيين يظلون في ريبة من نفي إسرائيل المتكرر. والنتائج التي توصلت إليها لجنتا التحقيق الرسميتان في إسرائيل (لجنة روتنشترايخ ـ تسور المعينة من قبل مجلس الوزراء ولجنة الكنيست الفرعية برئاسة آبا إيبان) لم تعتبر القول النهائي. ويقول الأميركيون إن مجموعة وزارة الدفاع التي «وجهت» بولارد (لاكام) عُيّنت منذ سنوات لجمع معلومات علمية. كما يؤكدون أن خبراء الاستخبارات الإسرائيلية يجب أن يدركوا أن ليس باستطاعة أحد، سوى رجل مباحث أميركي داخلي، تزويد الكمية الضخمة والنوعية من صور الأقمار الاصطناعية وغيرها من المعلومات الالكترونية التي حصل عليها: إن إسرائيل تفتقر إلى تلك المقدرة وقد علم الخبراء الإسرائيليون أن الولايات المتحدة لم تكن تزود إسرائيل رسمياً بالمعلومات. وفي ١٩ آب/أغسطس ١٩٨٧ قال إيتان في مقابلة مع الإذاعة الإسرائيلية إنه تلقى ترخيصاً بكل أعماله، ورفض ذكر الأسماء.

والواقع أن بولارد أورد النقطة ذاتها في الوثيقة المؤلفة من إحدى وستين صفحة والمقدمة إلى المحكمة. لقد رفض تأكيد إسرائيل بأنه كان طرفاً في عملية «شريرة»، وأفاد: «ربما تتمكن في المستقبل حكومة إسرائيلية ذات سياسة أكثر استقراراً من تقويم صفحتها مع وزارة العدل الأميركية. ولكن إلى أن يأتي ذلك اليوم سيكون من الأنسب للزعامة الإسرائيلية المجزأة عرقلة وإنكار أي تورط رسمي في نشاطاتي. وفي ثلاث مناسبات مستقلة، أُخبرت أن كبار المسؤولين في الحكومة الإسرائيلية أبدو شكرهم الجماعي للمساعدة التي قدمتها للدولة، وشددوا على أنه كان لا بد من اتخاذ قرار على مستوى مجلس الوزراء بموافقة الأركان العامة بأن المكاسب التي رافقت نشاطاتي تفوق بكثير أية مخاطر محتملة قد تنجم في حال افتضاح أمري. وقال بولارد إن الحكومة الإسرائيلية تصرفت كما هو متوقع بمحاولة حصر الضرر بالنسبة إليها وذلك بالتراجع خلف ستار من النفي المقبول ظاهرياً أقيم حول الفضيحة على يد جماعة من موظفي الاستخبارات المرتدين الذين يعملون دون تفويض. ولكن بينما رفض بولارد هذا النفي أوضح أن عدد ونوع الإسرائيليين الذين اشتركوا في هذه الفضيحة ينمّ عن اطلاع الحكومة التام إنْ لم نقل إشرافها الأساسي على تصرفهم، وقال إن من غير المعقول الاعتقاد بأن هذه العملية كانت غير مرخصة.

استطرد بولارد: «علاوة على ذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار كلا النوعية وأداء الموظفين الكبار ذوي الخبرة والاختصاص الذين اشتركوا في هذه الفضيحة، يبدو من غير المحتمل أن يكون تعاونهم نتيجة اختيار عشوائي؛ مساعد سابق مشهور ووثيق الصلة لرئيس عمليات الموساد عين حينئذٍ مستشاراً خاصاً لرئيس الوزراء، وعضو في سلاح الجو حامل لأوسمة رفيعة؛ وملحقان علميان؛

ووسيط أسلحة قيادي دولي(*). لايتآلفون بجرة قلم.

كتب بولارد في وصفه نوع المعلومات التي وفّرها لإسرائيل، قائلاً: إن شكل التوجيه الذي تلقيت تضمن جهداً شديد التناسق بين أجهزة مخابرات القوات البحرية والجيش وسلاح الجو. وفي آخر كل شهر كنت أُعطَى قائمة بالمواد التي يحتاجها شتى الهيئات. شملت شرخاً للسبب في أن المعلومات المنقولة رسمياً لم تفِ بمتطلباتهم. ومع أن قوائم الحيازة قُدمت على ما يبدو من قِبَل كل جهاز على حدة، نظراً لأن كلا من الهيئات الثلاث قدم أوراقاً وأشكالاً متباينة، ألا كان هناك على الدوام قائمة مميزة اتُفِق عليها على ما يبدو (من قبل) رؤساء المخابرات العسكريين المختصين وحملت ختمهم المشترك. ربما اعتبر الموساد هذه المسألة «غير مرخصة» لأنهم لم يكونوا على ما يبدو طرفاً فيها، إلا أن هذا القول لا ينطبق على الأركان العامة التي كانت مشتركة بشكل خاص بتعريف نوع المعلومات العلمية والتقنية التي ستكون موضع نشاطي.

تابع بولارد القول بأنه كان يزوَّد بشكل روتيني بتقييمات تقنية منجزَة للمواد التي كانت تنقل إلى إسرائيل، وهذه التقييمات كانت تتم بسرعة فائقة. وعندما استفسرت عن كيفية إنجازها أُخبِرت أن فريقاً خاصاً من المحللين كان يتمركز في إسرائيل لمجرد «تقدير» الملاءمة العملية لكافة المعلومات المجموعة التالية. وقال إن معظم المعلومات جاءت من صور الأقمار الاصطناعية ودراسات الاستخبارات الأشرية. وكان الخبراء الإسرائيليون يعلمون أن هذه المعلومات كانت ترد من مصادر «رسمية». ولم يُخبَر بولارد ألبتة عن عدد جماعة الخبراء الذين يحللون المعلومات ولكنه أكد أنه كان ثمة كثير من العلماء ذوي الكفاءة العالية في ضوء حجم المواد التي جمعتها وتنوعها.

أما شمعون بيريز واسحق شامير ـ رئيسا الوزراء اللذان كانا في الحكم خلال تجسس بولارد ـ وكذلك وزيرا الدفاع اللذان عملا خلال العملية ـ موشي أرينز واسحق رابين ـ فقد نفوا بشدة معرفتهم به. ووفقاً لمحققي الكنيست أطلع إيتان رابين على بعض الوثائق الأصلية التي حصل عليها بولارد. إلا أن وزير الدفاع خلال الاستجواب أمام هيئة محلفي التحقيق الإسرائيلية أكدّ أن إيتان لم يخبره عن بولارد أبداً. وافترض أنه كان لدى إيتان مصادر أخرى لتلك الوثائق. تُرى من أي مكان آخر استطاع إيتان الحصول عليها؟ وخَطر لرابين أن يكون للاكام مصادر في بريطانيا أو بلد آخر من حلف الأطلسي كانت في وضع يُمَكِّنُها من تلقي هذا النوع من الوثائق الأميركية.

منذ المحاكمة وصدور الحكم تغيرت الحالة النفسية العامة في إسرائيل نحو بولارد وخاصة نتيجة لحكم السجن المؤبد الذي اعتبر قاسياً جداً. من الناحية الرسمية كان بولارد لا يزال يتيماً أما من الناحية غير الرسمية فقد تطور إلى بطل إسرائيلي. وأصبح لزاماً على كبار مسؤولي الحكومة ـ من ساسة وعسكريين واستخبارات ـ محاولة مساعدته للخروج من السجن وإعادته إلى إسرائيل.

(*) هذا الشخص الأخير الذي أورده بولارد يشير إلى إسرائيلي عُرف في وثائق المحكمة باسم «أوزي» فقط. أما اسمه الكامل فلم يُكشف.

كان بولارد عميلاً مخلصاً. لقد أُقحِم في حلقة التجسس على يد رافي إيتان أحد أفضل جواسيس إسرائيل. في ذلك الوقت كان إيتان موظفاً لدى كل من وزارة الدفاع ورئاسة الوزراء. وحتى إذا كان بولارد تجاوز سلطته، لا تزال إسرائيل مسؤولة عن إخراجه.

إلا أن الحكومة الإسرائيلية واجهت معضلة متواصلة. وكان لزاماً على الزعماء الإسرائيليين التشبث بروايتهم أن العملية كانت غير مرخصة. كانوا يخشون تأثر العلاقات الأميركية الإسرائيلية إذا أعلنوا أي تبدل في موقفهم تجاه بولارد. لما في ذلك من إرباك سياسي.

في الوقت ذاته ضوعف مرتب بولارد الشهري وقدره ٢,٥٠٠ دولار. وكان التقليد في جهاز الاستخبارات الإسرائيلية على الدوام أن يستمر العملاء المعتقلون والذين يُمضون عقوبة السجن في قبض رواتبهم. والاقتصار على مضاعفتها. وعندما يستقر بولارد نهائياً في إسرائيل يجد لديه مبلغاً لا بأس به من المال المدخر(*).

ومما يدعو إلى السخرية، أن بولارد سوف لا يحصل على ترخيصات أمنية، وجهاز الاستخبارات الإسرائيلية ـ كغيره ـ يمانع إلى حد بعيد في ائتمان شخص ثبت أنه غير جدير بالثقة. وعلاوة على ذلك يمكن أن يتشدد الإسرائيليون حول مصالح أمنهم القومي كالولايات المتحدة أو أي بلد آخر(**).

في صيف ١٩٨٧ بدأ مسؤولون كبار في إسرائيل التأكيد بشكل أشد على التزامهم الثابت إزاء بولارد. وأكدوا أن الحكومة الإسرائيلية كانت مسؤولة عن جمع ما يقارب ٢٠٠,٠٠٠ دولار كرسوم قضائية لمحامي بولارد. صحيح أن بعض التشكيلات الخاصة والعامة لدعم بولارد كانت تجمع المال في زوايا شوارع المدينة، إلا أن ذلك كان على الأكثر من قبيل العرض. فلم يُجمع سوى مبلغ متواضع، وأُرسل جزء ضئيل من المال إلى المحامين والأهم من ذلك أن الهيئات استُخدمت كغطاء للتورية على دور الحكومة الإسرائيلية المستتر والبالغ النشاط.

لقد عرف مسؤولو الاستخبارات الإسرائيلية أن بولارد كان يعمل أصلاً بدافع حبه لإسرائيل. كان المال على الأكثر فكرة إسرائيلية استهدفت رشوة بولارد للتثبت من عدم تركه العملية. كما أدرك

(*) من المحتمل أن تنفي الحكومة الإسرائيلية ذلك، ولكن مصادر مسؤولة في إسرائيل أكدت لي صحته.

(**) لقد تأكد ذلك خلال معالجة إسرائيل لقضية مردخاي ڤانونو، الفني الذري السابق في مفاعل ديمونا النووي الذي زود الصنداي تايمس اللندنية بتفاصيل حول برنامج التطوير النووي البالغ السرية. ادعى ڤانونو، وهو إسرائيلي أنه تصرف بوازع من ضمير. وقال واصفاً نفسه بأنه فعّال سلام وأنه أراد الحيلولة دون انفجار حرب نووية في الشرق الأوسط. لقد أغرى جهاز الاستخبارات الإسرائيلية ڤانونو باستخدام عميلة شقراء تدعى «سندي» اجتذبته من بريطانيا إلى إيطاليا ثم عادت به إلى إسرائيل حيث مَثُل للمحاكمة خلف أبواب موصدة. وفي ربيع سنة ١٩٨٨ أُدين وحكم عليه بالسجن ثمانية عشر عاماً.

الإسرائيليون أنهم لفقوا عملية إنقاذه. كان لا بد من وجود خطة عملية لإنقاذ الزوجين بولارد قبل اعتقالهما.

فضلاً عن ذلك، أحسّ الإسرائيليون بالذنب الكبير لأنهم أُرغِموا بفعالية على تعليق بولارد بالتعاون في الاستقصاء الأميركي. لقد قاموا بأمر لم يسبق له مثيل حقاً في حوليات عمليات الاستقصاء الخفية - إذ قدموا الدليل لاتهام عميلهم بالذات. وما هو تأثير ذلك على الجواسيس الإسرائيليين الآخرين؟

وهكذا، رغم أن بولارد قد لا يكون طرفاً في عملية موساد، إلا أنه كان للموساد أيضاً مصلحة جلية في تحريره. وكان العملاء الإسرائيليون الآخرون المنتشرون في بقاع خطرة حول العالم في انتظار وترقب لرؤية ما إذا كانت إسرائيل ستنقذ بولارد. وكانوا بالطبع يتساءلون عما يمكن أن تفعله إسرائيل في حال افتضاح أمرهم.

إلا أن هنالك قضية أخرى كانت لا تزال عالقة. فقد ظل محققو وزارة العدل الأميركية على اقتناع بأن بولارد لم يكن حادثة منعزلة، وارتابوا بشكل جدي بأن ثمة على الأقل مواطناً أميركياً آخر يعمل داخل حكومة الولايات المتحدة متجسساً لصالح إسرائيل.

استندت مخاوفهم إلى أكثر من مجرد حس باطني. وخلال الساعات العديدة التي أمضوها في استجواب بولارد تبين لهم لشدة فزعهم أن الإسرائيليين كانوا بالأحرى صريحين «بتكليفه» للحصول على وثائق معينة بالغة السرية. والواقع أن بولارد كثيراً ما كان يطالَب بالحصول على وثائق مصنفة بأرقامها وعناوينها الشفرية. وسرعان ما استنتج مخبرو الاستخبارات المضادة الأميركية أنه لا بد من وجود عميل آخر على الأقل لإسرائيل في الداخل يزود أرقام الوثائق. وربما لم يكن لذلك العميل «بطاقة جاسوس» مثل بولارد.

لقد أثار هذا الاحتمال علانية دي جينوفا، النائب العام الأول في القضية، في مقابلة مع الصحفي لالي ويموث في الواشنطون بوست في ١٥ آذار/مارس ١٩٨٧، وقال: «يبين الدليل المباشر والمادي أنه يجب أن نهتم كحكومة بكيفية تكليف يوناثان بولارد أصلاً قبل تقديمه أية معلومات. ما الذي عرضوه عليه عندما عهدوا إليه بالمهمة؟»

كان بولارد يُسأل دوماً عن أميركيين آخرين متورطين في حلقة التجسس. والواقع أنه اتهم بأن مستنطقي الحكومة هددوا «بتشويه سمعته» أيما تشويه بسبب «رفضي توريط يهود آخرين فيما اعتُبر مؤامرة تتناول أعلى مراتب المؤسسة الصهيونية الأميركية». أضاف: «لقد رمتني مصلحة الاستخبارات البحرية بكثير من «الاعترافات» بهذا الخصوص تبين فيما بعد أنها من قبيل المزاح».

أكدّ وزير الدفاع رابين أن الولايات المتحدة كانت تحث إسرائيل على تسمية آخرين متورطين في العملية. وأخبر رابين جَمعاً من اليهود الأميركيين في القدس في ١٦ آذار/مارس ١٩٨٧ «أن

ليس هنالك أميركيون أو غير أميركيين يعملون جواسيس لإسرائيل ضد الولايات المتحدة». واتهم بأن المدعين الأميركيين حاولوا إغراء سيللا لتجنب الإدانة بتسمية أميركيين آخرين يتجسسون لصالح إسرائيل. وأكدّ رابين أن شخصية رئيسية في مقاضاة بولارد فاتحت المحامي الأميركي لسيللا قائلة: «من وجهة نظري، إن سيللا يمكن أن يصبح رئيساً لسلاح الجو الإسرائيلي إذا قدمتَ لي اسماً أو أسماء أخرى».

بدا بولارد مسروراً لتبدل الموقف تجاهه في إسرائيل والجالية اليهودية الأميركية، وعندما ألقي القبض عليه في أول الأمر انتابه حزن ومرارة شديدان لأنه لم يلقَ في الواقع أي تعاطف لقاء أعماله. كان منبوذاً. إلا أن الأمور تبدلت منذ ذلك الحين. «أعتقد أن الناس يصحُون شيئاً فشيئاً على الحقيقة بأنه كان أمام عناصر معينة ضمن الإدارة، برنامج خاص لإصدار الحكم. فأنا لم أكن سوى وسيلة ملائمة من أجل غاية».

والواقع أنه أصبح من المستحسن في الحالة اليهودية الأميركية. إبداء بعض التعاطف نحو بولارد وزوجته. لقد بذلت أُسَرها جهداً متواصلاً لإنشاء لجان «العدالة للزوجين بولارد». وكات تلاقي نجاحاً مطرداً. كان هدفها المباشر تحقيق الإفراج عن آن معربةً عن المخاوف الإنسانية إزاء حالتها الصحية المتدهورة. إلا أنها كانت ترغب أيضاً في إخراج بولارد من السجن.

لم يرَ كثير من اليهود الأميركيين حاجة للابتعاد عن بولارد ابتغاء التدليل على ولائهم للولايات المتحدة. وقال بولارد إنه كان مسروراً بوجه خاص لمقال ورد في «تيكون»، وهي مجلة يهودية صدرت في سان فرنسيسكو. كان المقال بعنوان «إنني أتهم: اليهود الأميركيون وفضيحة بولارد». وقد أثر في نفسه رد الفعل الثاني نحوه في إسرائيل نتيجة الحكم عليه بالسجن المؤبد. قال: «إذا أخذنا بعين الاعتبار حجم البريد الذي تلقيت من إسرائيل، أستغرب كيف ترضى أية حكومة أن أذوِي في السجن بقية حياتي».

كذلك أحسّ بولارد بعد قراءة نسخة من حديث صحفي مع روبرت داسا في تلفزيون إسرائيل: «إنه قد يخفف من شكواي من التخلي عني». وكان داسا وهو يهودي مصري قد أمضى عدة سنين في سجن مصري لدوره في تفجيرات فضيحة لاڤون المشؤومة في القاهرة سنة ١٩٥٤. لقد سمع له المصريون أخيراً بالذهاب إلى إسرائيل. قال بولارد: «إذا كان لكلمة «تعاطف» من معنى، فهي بلا شك تصف مشاعري نحو هذا الرجل».

الفرد فراون كنجنت، المهندس السويسري الذي تجسس لإسرائيل في الستينات، أخبر صحيفة إسرائيلية أنه يتماثل شخصياً مع بولارد. لأنه أيضاً عرض تقديم معلومات إلى إسرائيل، فقط بدافع اهتمامه بأمن إسرائيل، وقال فراون: «إنني أفهم ضرورة معاقبتي ردعاً للجواسيس الآخرين ولكنه أهاب بإسرائيل أن لا يلقى ببولارد للكلاب».

بعد قليل من فرض الحكم بالسجن المؤبد كتب آلان درشووتز أستاذ القانون في جامعة

هارڤارد، مقالاً في عدد ٢٨ نيسان/أبريل من مجلة الواشنطون بوست. متهماً بأن العقاب كان متجاوزاً الحد بشكل فاضح. وصرح: «في مجتمع ديمقراطي إنها لعبة قذرة أن تقوم الحكومة بتوجيه التهم ثم تتوارى خلف ستار الأمن القومي عندما تطالَب بإثباتها. فإذا كان من المتعذر إثباتها علناً وجب عدم توجيهها علناً. ولا تستطيع وزارة العدل أن تنتظر من الشعب الأميركي التسليم بمبالغاتها الفاضحة على علاتها. وخاصة عندما تتعدى حدود المنطق».

اتصل والد بولارد فوراً بدرشووتز. وكان تعليقه الأول للدكتور بولارد: «ولماذا انتظرت كل هذه المدة؟» وفي ذلك الوقت صار بولارد يكثر علناً من انتقاد هيبي. واتهم بأن مستجوبيه كانوا يحاولون دوماً دفعه لتوريط آخرين في شبكة التجسسية: «لقد أبلغت ذلك مراراً لمحاميّ ولكنه اعتبره غير ذي بال».

رحب بولارد باشتراك درشووتز في القضية إلا أن الأخوين هيبي ظلا في الوقت مسؤولين مؤقتاً عن التماسات الزوجين بولارد الفاشلة لتخفيض الحكمين. قال بولارد: إنني أثق بدرشووتز كل الثقة. وأنا أعلم بوجوب الذهاب إليه قبل سبعة عشر شهراً. ومع أنني لم أتحدث إليه سوى بضع مرات، إلا أنني أشعر بأنه رجل شريف يفهم الطبيعة السياسية الأساسية لهذه القضية.

في آب/أغسطس ١٩٨٧ كتب بولارد. الذي أُطلق عليه ذات مرة «الشاعر الأنديـاني»، القصيدة التالية التي سماها «عودة إلى زيارة جلبُوَع»:

عرفت أن المعركة قد خُسرت
حتى والعدو يحتشد في السهول السفلى ـ
إن حكمي أكيد كالكراهية خلفه.
ومع ذلك صمدت، وقابلت ولاءً لأب مجنون،
ساقني إلى ذلك الجبل المقفر
وتركني ضحية غطرسته وخطأ تقديره.
وهكذا وقفت هناك في آخر النهار ـ

متحدياً أمام أعدائي، أناشد الملك الطريح:

ألا تقاتل؟
ألا تنهض؟
وتبرهن على عدالة قضيتنا؟
ألا تدرأ عن هذا الابن
الذي استخففتَ بولائه؟

ولكنك لم تنبس ببنت شفة
يا أبي العجوز والبالي.

إنك تضطجع هناك متدثراً بصرامتك،
ومنكراً أية مسؤولية حين صَدَر الحكم.
وقد ارتميتُ على قدميك
لا تعرفني عيناك الباردتان وغير المباليتين.

ولكن لم يكن جسدك هذه المرة هو الذي
علّق فوق بوابة المدينة
سخرية وازدراء ـ
إنه جسَدي

إذن أخبرني يا أبتِ
كم من الوقت سأقضي رمزاً لقوة الفلسطيني
قبل أن يتاح لداود إنهاء هذا المشهد المُذِل
لهذا العجز العبري.

في صيف ١٩٨٨ نقل بولارد من سبرنغفيلد إلى السجن الفيدرالي في ماريون، إيلنويز، أعلى مرفق أمني وهو مخصص لأسوأ وأخطر المجرمين في البلاد. بقي في عزلة. من ناحية، أضرب عن الطعام احتجاجاً على تأخر وصول البريد إليه، ومن ناحية أخرى احتج على سوء العناية الطبية المزعومة بزوجته في السجن. وظل طوال الوقت يحدوه أمل الاستيطان آخر الأمر في إسرائيل. وكما كتب لي: «لا أعرف كم من الوقت سيتأخر ذلك، ولكني آمل أن نستقر في المستقبل غير البعيد في إسرائيل في محاولة للخلاص من هذا الكابوس».

الخاتمة

مراجعة العملية

في مقدمة هذا الكتاب طرحت عدة أسئلة حول بولارد وقضيته الغامضة. وأوضحت أنني كنت جد مبلبل إثر اجتماعي الأول به في بطرسبـورغ، فرجينيا، السجن الفيدرالي سنة ١٩٨٦. وهكذا بقي العديد من الأسئلة دون جواب.

وفي «أرض الأكاذيب» حاولت سرد قصة ما حدث بالضبط ـ كيف انتهي هذا الشاب، من ساوث بند، إلى التجسس لمصلحة إسرائيل وكيف غدروا به. حاولت رواية التفاصيل دون تحيز وبكل ما في الكلمة من معنى قدر الإمكان دون إقحام الكثير من آرائي الخاصة ـ للقارىء الحق في الحصول على رواية دقيقة تضع هذه القضية التجسسية الغربية في منظورها الصحيح.

ومع ذلك، عندما قرأت المخطوطة وأعدت قراءتها، استنتجت وجوب ملء بعض الفراغات ولربما ضاعت بعض الأجوبة للأسئلة الرئيسية خلال الرواية الشاملة لهذا الكتاب ـ والواقع أن بعض الأسئلة قد لا تجد الردود الكاملة لها ألبتة. وعلاوة على ذلك، كان ثمة قدر كبير من المعلومات الخاطئة حول القضية منذ البداية. الأمر الذي لا يزال قائماً والقضية لم يُسدل عليها الستار من بعض النواحي حتى الآن. لذا سأحاول الإجابة في هذه الخاتمة عن الأسئلة المتبقية.

سؤال:

ما سبب إقدام إسرائيل على هذه العملية؟ ألم تكن تحصل على معلومات كافية من الولايات المتحدة بصورة رسمية؟ ولِمَ المجازفة بمجمل العلاقات الأميركية ـ الإسرائيلية؟

جواب:

في العالم الواقعي، كما سبق وأشرت، كل تتجسس ـ لسي فقط على أخصامها، بل أيضاً على أصدقائها. وهذا ما سُميّ «بالتجسس الودي». وفوق ذلك، يمكن أن يقوم الأصدقاء بأعمال قد تكون ذات عواقب جد خطرة وضارة. لذا، فبالرغم من كون الولايات المتحدة وإسرائيل حليفتين إلا

أن مصالحهما تتشابك دائماً ـ ما من بلدين مهما كان تقاربهما يتفقان اتفاقاً تاماً في وجهات النظر. إن الولايات المتحدة على خلاف أحياناً مع بريطانيا وكندا واليابان والمكسيك وإسرائيل وغيرها من البلدان، وهكذا فإن الولايات المتحدة بحكم المنطق والقانون تريد معرفة ما يجري في إسرائيل ـ والعكس بالعكس.

أراد رجال المباحث الخصوصيون بقيادة رافي إيتان معرفة المعلومات التي لم تكن الولايات لمتحدة تتقاسمها رسمياً مع إسرائيل. وحتى لو استطاعت إسرائيل جمع المعلومات التي تحجبها عنها الولايات المتحدة من مصادر أخرى فإن تثبيتاً موثوقاً ـ مصدراً إخر ـ ذو أهمية كبرى. وكثيراً ما تحجم بلدان عن العمل في الاستخبارات من مصدر واحد فقط.

إن الولايات المتحدة وإسرائيل ترتاب كلتاهما بأن الأخرى تقدم أحياناً معلومات خاطئة لتحسين بعض الأهداف الخاصة في السياسة الخارجية، وتعتقدان بوجود تلاعب في تقارير الاستخبارات. لقد يمكن استخدام «التجسس الودي» للحصول على إثبات لدقة معلومات الاستخبارات المقدمة رسمياً، كل ذلك جانب من قواعد اللعبة.

إن جهازي استخبارات كلا البلدين يعتبر الأسرار جواهر ـ لا بد من حمايتها بأي ثمن. وبينما الولايات المتحدة وإسرائيل صديقتان. إلا أنهما لا تتقاسمان كل أسرارهما. والواقع أن كلا منهما تعتقد بأن الأخرى تحاول الحصول سراً على أسرار الأخرى. ولا ريب أن هذه الشكوك ازدادت نتيجة لفضيحة بولارد.

خلال عملية بولارد اكتشف الإسرائيليون أن للولايات المتحدة ثروة من المعلومات ذات التقنية الواسعة والتي لم تكن راغبة في تزويد إسرائيل بها، تضمنت بعض المعلومات القدرات العسكرية للدول العربية الصديقة مثل مصر والأردن والعربية السعودية. إن الولايات المتحدة لا تتقاسم عادة المعلومات عن هذه الأقطار مع إسرائيل. كذلك لا تتقاسم إسرائيل مع الولايات المتحدة بالتأكيد كل المعلومات التي تجمعها بسبب الخطر الناجم عن اطلاع العرب على بعضها من المعارف الأميركيين.

أراد الإسرائيليون أيضاً معرفة مدى جاسوسية الولايات المتحدة في إسرائيل. وكما رويت، فإن رافي إيتان كان في الواقع قلقاً لهذا الموضوع. وكان بولارد متردداً في تزويد إسرائيل بهذا النوع من المعلومات، إلا أنه سلّم صوراً للمنشآت العسكرية الإسرائيلية التي التقطتها الأقمار الاصطناعية الأميركية للاستكشاف ـ مظهرة للإسرائيليين حقيقة قدرات الاستطلاع التي لدى الأميركيين «واحتمالاً السوڤييت). هذه المعلومات جعلت إسرائيل في وضع أفضل لاستنباط إجراءات مضادة ملائمة، بما في ذلك أساليب التمويه الفنية التي تزيد بدورها من صعوبة تجسس الولايات المتحدة على إسرائيل.

إن الولايات المتحدة وإسرائيل مهتمتان جداً حول النفاذ المعادي من قبل الاتحاد السوڤييتي أو

أي بلد آخر إلى أجهزة استخبارات بعضهما بعضاً ـ وعدلاً. وقد تعرضت كلتاهما للافتضاح على مر السنين، لقد عمل جمع حاشد من الجواسيس السوفييت في الولايات المتحدة. أحدثه حلقة تجسس عائلة ووكر المثيرة. وقد ألقي القبض على جواسيس سوڤييت في إسرائيل أيضاً. واثنان على الأقل ـ شابتاي كالما نوڤيتش وماركوس كلنفبرغ ـ يمضيان حالياً مدتي سجنهما هناك.

وكما أكدت في مواضع عدة من «أرض الأكاذيب» فإن أجهزة استخبارات كافة الأقطار تهتم بشكل رئيسي بحماية مصادرها وأساليبها في جمع المعلومات الحيوية. فأحياناً يتطلب الأمر عاماً لتثبيت عميل. وأحياناً أخرى يمكن أن يستغرق حل رموز شيفرة عدداً من السنين. وتطوير الوسائل التقنية الملائمة لجمع الاستخبارات قد يكلف مبالغ طائلة من المال وكثيراً ما تُحجِم أقطار صديقة عن مقايضة معلومات معينة خوفاً من افتضاح هذه المصادر والأساليب الحساسة للغاية. فقد يبدأ البلد الآخر بسذاجة عملاً من شأنه تزويد قوة معادية بمعلومات سرية بأنها قد اكتُشِفَت.

مثلاً، خلال الحرب العالمية الثانية، قرر رئيس الوزراء ونستون تشرشل عدم التحذير المسبق للمدن والقرى البريطانية التي هي على وشك القصف من قبل النازي، لأن ذلك قد يشير للألمان أن شيفراتهم السرية قد حُلت. فإذا حذر المواطنون البريطانيون من هجوم وشيك سيقومون بالطبع بعمل دفاعي إذ سيهرعون إلى الملاجىء. ولا شك أن الجواسيس الألمان سيدركون ذلك وستتغير شيفراتهم فوراً الأمر الذي يعيق المجهود الحربي الشامل لبريطانيا. وقد اضطر تشرشل وغيره من الزعماء البريطانيين للسكوت على مضض وقبول كارثة غارات القصف، نظراً لأن البديل سيكون أكثر شؤماً.

هذا المنطق بالذات هو الذي منع الولايات المتحدة من إطلاع إسرائيل على هجمات الفلسطينيين الإرهابين المخططة وبعض التهديدات الأخرى التي تواجه إسرائيل. وبالطبع فإن إسرائيل تخشى بالمثل إعلام الولايات المتحدة عن أية عمليات إرهابية ضد الأهداف الأميركية إذا كان سيعرض للخطر بعض المراكز الإسرائيلية الهامة. وجميع مسؤولي الاستخبارات يسلّمون غصباً بهذا المنطق بدون جدال.

إن معظم الوثائق العالية التصنيف والتي قدمها بولارد لإسرائيل ـ وقد تضمنت واقعياً آلاف أجزاء المقالات ـ ختمت بكلمة «نوفورن»، وتعني أن المعلومات كانت «غير قابلة للنشر لمواطنين أجانب». وبعض تلك الوثائق يمكن تزويدها لبلدان أجنبية صديقة معينة، إنما **فقط** بعد تدقيق أخصائيي الحكومة الأميركية في كل صفحة فتسوّد أية معلومات يمكن أن يستخدمها خبير استخبارات أجنبية مدرَّب لتقرير كيفية جمع الولايات المتحدة أصلاً لتلك المعلومات.

مما قوّض قضية بولارد مع القاضي روبنسون على نحو خطير أنه في الواقع لم يسود أو «ينقح» المعلومات على أي من تلك الصفحات. وحتى لو فعل ذلك، فلن يكون له أهمية تُذكر لأن بولارد لم يكن مؤهلاً لاتخاذ القرارات المناسبة. لم يكن في وضع يمكنه من تقدير ما هو مرخص للنشر

لإسرائيل وما هو غير مرخص، وعندما تزود إسرائيل الولايات المتحدة بوثائق استخبارات مماثلة فهي أيضاً تحذف بعض المعلومات التي يمكن أن تفضح وسائلها الخاصة للجمع، وتزيل على الدوام كلمات الشيفرة الخاصة بها.

سؤال:

هل من مبرر لتجسس بولارد لصالح إسرائيل؟ وهل كانت الولايات المتحدة تُمسك عن إسرائيل معلومات حيوية ضرورية لبقاء إسرائيل بالذات؟

جواب:

كانت المعلومات التي قدمها بولارد ـ كما هي مدعمة بالوثائق في هذا الكتاب ـ على جانب كبير من الأهمية. وكان مسؤولو الاستخبارات الإسرائيلية حازمين في الإشارة إلى أن إسرائيل كانت ستعيش حرباً أخرى مع العرب لو لم يقم بولارد ألبتة بمهمته. ولكنهم يضيفون أن جهود إسرائيل أصبحت أيسر نتيجة تجسس بولارد. وفي حال حدوث حرب شاملة أخرى مع سوريا في المستقبل القريب، فإن بعض الجنود الإسرائيليين الذين كانوا سيقضون خلافاً لذلك، سيعيشون بسبب ما فعله بولارد، ومدى الخسائر في المعدات العسكرية الإسرائيلية الباهظة التكاليف تغدو أقل. لذا أفهم بلا ريب السبب الذي حدا ببعض الإسرائيليين للاستنتاج أن العملية كانت تستحق المخاطرة. إن بقاء إسرائيل في الشرق الأوسط يعتمد على الاستخبارات المفيدة. حتى في هذه الحالة، وبإدراك مؤخر، فإن المنافع لإسرائيل لم تَفُق التكاليف ـ حتى في حال بقاء التأثير الكامل لتلك التكاليف أحياناً غير واضح المعالم للجمهور. وكما استنتجت لجنة روتنشترايخ ـ تسور: «لم يكن ثمة مجال لتجنيد بولارد وتوجيهه».

أكدّ بولارد ومؤيدوه أن المعلومات التي قدمها لإسرائيل كانت فعلاً مُرخصة للنشر كجزء من ملحق سري للاتفاق الأميركي ـ الإسرائيلي لتعزيز تعاون البلدين الاستراتيجي. وقد اتهموا واينبرغر بنقض ذلك الاتفاق. وقال بولارد في ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٨ في مقابلة مع مايك ولاس في البرنامج الإذاعي «ستون دقيقة»: «كان السبب الثابت لقيامي بما فعلت هو اطلاعي على برنامج واينبرغر في واشنطون فيما يتعلق بإسرائيل، لقد استهدف ذلك البرنامج في الأساس جعل إسرائيل في وضع يرغمها على الخيار غير المرغوب فيه من حرب مدمرة وسلام مشين».

لم يكن واينبرغر أفضل صديق لإسرائيل في إدارة ريغان بأية طريقة ممكنة. لقد كان شديد الغضب لغزو إسرائيل لبنان سنة ١٩٨٢. وكثيراً ما اصطدم مع نظيريه الإسرائيليين، وزير الدفاع آرييل شارون وبعده موشيه أرينز. وضمن التشكيلات العليا لإدارة ريغان كان واينبرغر عادة أشد منتقدي إسرائيل. ولكن الصحيح أيضاً أنه في الفترة التي قضاها في البنتاغون بلغت العلاقات العسكرية الأميركية الإسرائيلية الشاملة ذرى جديدة. ولم تبدأ الشوائب في العلاقات في الظهور بشكل غير مسموع إلا منذ بضع سنوات. كانت آفاق التعاون العسكري بين البلدين قد اتسعت بشكل دراماتيكي، وكان واينبرغر هو الذي وقع الاتفاقات مع أرينز ثم مع رابين لتنظيم هذا التعاون.

إلا أن شعور بولارد بالمرارة نحو واينبرغر ازداد في رأيي بسبب المذكرة المصنفة لتقييم الأضرار التي أرسلها وزير الدفاع آنئذٍ إلى القاضي روبنسون. وكما رويت في الفصل الثالث عشر فإن هذه المذكرة أقنعت القاضي بأن بولارد ألحق ضرراً فادحاً بمصالح الأمن القومي للولايات المتحدة.

خلال مقابلتي الأولى مع بولارد في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٦ قلّما أتى على ذكر اسم واينبرغر. كان بولارد حانقاً بالتأكيد إنما ليس على واينبرغر بالتحديد. والواقع أنه أمضى معظم الوقت خلال تلك المقابلة الأولى ملقياً اللوم على مدرائه الإسرائيليين للتخلي عنه. وعلى الحكومة الإسرائيلية للتبرؤ منه. وخلال مقابلتي التالية معه في أواخر كانون الثاني/يناير ١٩٨٧ كرر التعبير عن مقته الشديد لواينبرغر. والفرق في رأيي، هو أن مذكرة واينبرغر للقاضي سبق أن قُدِمت في كانون الثاني/يناير وقد سُمِح لبولارد بقراءتها. لقد استثير. أحس بأن القاضي سيحكم عليه، لدى قراءتها، بالسجن المؤبد، رغم أن اتفاق دفع التهمة نص على أن الحكومة ستلجأ فقط إلى حكم «مهم». كان حدسه صحيحاً. وقد لام واينبرغر شخصياً لما اعتبره خيانة لاتفاق دفع الدعوى المذكور.

في جميع القضايا المتعلقة بالجاسوسية يتوجب على البنتاغون ـ غالباً باسم وزير الدفاع ـ أن يقدم بشكل روتيني وثائق مطولة إلى المحكمة. ونظراً لأنها تتضمن أسرار أمن قومي، فهي تُقدم «في مكتب القاضي». وعليه فإن مذكرة واينبرغر لم تكن بأية طريقة فريدة إلى هذا الحد.

استعمل واينبرغر لهجة شديدة للغاية في تفصيله مدى الضرر الذي سببته نشاطات بولارد. ورأى أنها فظيعة بكل ما في الكلمة من معنى ـ بين أشد قضايا التجسس إضراراً في التاريخ الأميركي، وفي سياق الكلام أوضح واينبرغر أسوأ المظاهر التي تتكشف عنها من حيث الضرر الذي تلحقه بالأمن القومي الأميركي، ما الذي سيحصل افتراضاً، إذا وقعت المعلومات في أيدي الاتحاد السوڤييتي؟ وهذا أمر شديد الاحتمال، إذا سلّمنا بأن الجواسيس اكتُشِفوا داخل الاستخبارات الإسرائيلية ومؤسسة الدفاع. وقد يكون هناك آخرون لم يُكتَشَفوا بعد.

كذلك أثار واينبرغر احتمال إقدام إسرائيل لأي سبب كان، على المتاجرة ببعض هذه المعلومات الحساسة مع فرقاء آخرين بما في ذلك بعض المعادين للولايات المتحدة. وحالما تخرج المعلومات من تحت رقابة أميركا، لن يصبح بالإمكان تقرير ما جرى لها.

وفي الأحاديث الخاصة التي جرت بيني وبين كبار المسؤولين الآخرين في الاستخبارات الأميركية، أعربوا عن قلقهم لأن إسرائيل يمكنها نظرياً تقديم بعض المعلومات إلى جنوبي أفريقيا مقابل شيء ما تحتاجه إسرائيل. ومهما يكن فقد أقروا بعدم وجود دليل على حدوث ذلك. كما أن مسؤولي الاستخبارات يتساءلون عما إذا كانت إسرائيل ستقدم المعلومات التي حصلت عليها من بولارد إلى الاتحاد السوڤييتي بغية زيادة تسهيل هجرة اليهود السوڤييت أو تحسين العلاقة العامة لإسرائيل مع الاتحاد السوڤييتي. وهم يسلّمون بعدم وجود دليل لديهم على حصول صفقة كهذه.

بيد أن خشية الأميركيين من أسوأ المظاهر ـ وإمكانيتها ـ تظل قائمة. وفوق ذلك هنالك سوق عالمية للمخابرات حيثما تباع المعلومات أو يُعاد بيعها. إنها مكان إنجاز غريب يجري فيه مقايضة المعلومات أحياناً حتى بين الدول المتصارعة، وهذه السوق يَفد إليها ممثلون عن وكالة الاستخبارات المركزية وم أي ٥ وك.ج.ب والموساد وسائر وكالات الاستخبارات الأوروبية والآسيوية والأميركية الجنوبية والعربية والأفريقية والشيوعية بغية شراء وبيع والمتاجرة بالمعلومات المصنفة «سرية». وهي مهتمة بوجه خاص بمعرفة المصادر والأساليب المستخدمة لجمع هذا النوع من الاستخبارات ـ يريدون معرفة ما إذا كانوا قد اخترقوا من قِبَل «شخص يعمل في الظلام».

وهكذا تمعن خبراء الاستخبارات المضادة الأميركيون بهذا السؤال: إذا كان بولارد قد أطلق أسرار الولايات المتحدة في هذه السوق ماذا سيكون تأثير ذلك على مصالح وأمن الولايات المتحدة؟

منذ اعتقال بولارد شرع المسؤولون في عملية مراجعة مستفيضة لتقرير ما إذا كان قد افتُضِح أمر أي عملاء أميركيين أو غيرهم من المصادر والأساليب التقنية لجمع الاستخبارات بفعل المعلومات التي زودها بولارد لإسرائيل. وما زال هذا التحقيق جارياً.

هذه الإمكانيات الأشد سوءاً قد تكون بعيدة الاحتمال وربما غير واقعية، إلا أن خبراء الاستخبارات الأميركيين قلقون بجلاء بشأنها. وهذا القلق نقلته بوضوح مذكرة واينبرغر إلى القاضي. ولم يرد في المذكرة تأكيد صريح بأن هذه الإمكانيات قد حصلت فعلاً. لقد اكتُفي بإثارة الإمكانيات ولا ريب أنها قد أثارت ذعر القاضي، وقرار القاضي روبنسون بالحكم بالسجن المؤبد على بولارد قُصِد به أيضاً أن يكون نذيراً للمسؤولين الأميركيين الآخرين بأن لا يتجسسوا لأصدقاء أو أعداء على حد سواء.

سؤال:

هل كانت المعلومات المحجوبة عن إسرائيل مما يقتضي تقديمه بموجب اتفاقياتهما لتبادل الاستخبارات؟

جواب:

ليس بين المعلومات التي قدمها بولارد ـ ولا صفحة واحدة ـ ما هو مرخص لإسرائيل في صيغتها غير المنقحة. والكثير من تلك الصفحات يمكن (وربما لا بد) أن تكون على وجه التأكيد قد أُذِن بنشرها مع بعض المقاطع المراقبة ـ وجرى ذلك عند إعلانها للجمهور بموجب قانون حرية المعلومات. ويعترف مسؤولو الولايات المتحدة بذلك سراً. ولكن كجزء من عملية المشارطة الجارية مع نظائرهم الإسرائيليين شددوا على أن حجب المعلومات ضروري في محاولة للضغط على إسرائيل لتقديم معلومات مماثلة. إن عملية العطاء والأخذ لكافة مقايضات الاستخبارات الدولية، هي جزء من المناورات السياسية للسوق. وإسرائيل، كأي بلد آخر، لا تعطي ما لم تأخذ.

وهكذا فإن التوقيت الذي يتوجب فيه توفير المعلومات لإسرائيل إنما هو قرار يتوجب اتخاذه

من قِبَل رئيس الجمهورية ووزير الخارجية ووزير الدفاع ومدير وكالة الاستخبارات المركزية وغيرهم من كبار مخططي السياسة. يجب أن يقرروا حجم المعلومات الواجب إعطاؤها ـ وبأية صورة ـ وكما اعترف بولارد في المحكمة في جلسة الحكم عليه لم يكن يحق له اتخاذ تلك القرارات من تلقاء ذاته.

بعض المعلومات التي زود بولارد بها إسرائيل ـ لا سيما في مجال استخبارات الاتصالات الحساسة للغاية ـ كانت حساسة لدرجة لا يمكن الترخيص بنشرها لإسرائيل أو لأي بلد آخر في أي ظرف كان. وهذا ما وُضِّح في مذكرة واينبرغر. وحصول بولارد، وهو محلل وضيع المستوى نسبياً، على هذا النوع من المعلومات أمر لا يصدق ويؤكد الحالة البالية التي يتسم بها جهاز استخبارات الولايات المتحدة.

سؤال:

هل كان بولارد يعمل وحيداً داخل جهاز استخبارات الولايات المتحدة، أو كان هناك رجل خفي «مجهول»، جاسوس أسرائيلي آخر لا يزال طليقاً؟

جواب:

منذ اليوم الأول على وجه التقريب لاعتقال بولارد كان المحققون الأميركيون يبحثـون عن شخص «مجهول». وكما رويت في هذا الكتاب، فقد انتاب المحققين الرعب للمهمات العديدة المُسنَدة إلى بولارد الذي طُلِب إليه جمع وثائق معينة كثيراً ما كان مديروه الإسرائيليون يُوردونها بأسماء شيفرية. وقد ارتاب الأميركيون بأنه ما كان باستطاعة أحد تزويد إسرائيل بهـذا النوع من المعلومات إلا مصدر داخلي رفيع المكانة.

قال دي جينوڤا: «لقد كان مديرو السيد بولارد يهوجهون إليه تعليمـات لأداء مهام محـددة للغاية. ولم يقتصر الأمر على مجالات المعلومات المطلوبة منه. في حالات كثيرة كان يعطى أسماء وثائق محددة وأرقامها لاستعادتها بالذاكرة. ووفقاً لدي جينوڤا فإن كثيرين في جهاز الاستخبارات الأميركية يعتقدون بأن شخصاً ما غيره في جهاز الاستخبارات الأميركية أو المؤسسة العسكرية كان يعطي (الإسرائيليين) تلك المعلومات لتسليمها إلى (بولارد).

خلال مئات الساعات من الاستجواب المصحوب بمكشاف الكذب ذكر بولارد تلك الوثائق المحددة. وقد أذهل المستجوبين بذاكرته الخارقة. إلا أنه أكد طيلة الوقت أنه لم يكن عالماً بأي أميركيين آخرين مشتركين في حلقة التجسس. إن الأميركيين يصدقونه بيد أنهم لم يهملوا المسألة لأنه حتى لو كان ثمة أميركيون آخرون فمن المحتمل أن لا يكون بولارد قد أُخْبِر بهوياتهم. وفوق ذلك لا حاجة له بمعرفتهم.

عشرات من خبراء الاستخبارات المضادة من القوات البحرية ووكالة الاستخبارات الأميركية ووكالة الاستخبارات المركزية ووكالة استخبارات الدفاع ووزارة العدل ووكالة الأمن القومي وفروع

أخرى من الحكومة الأميركية كانوا يبحثون عن الشخص المجهول. وقد أُعطي الاهتداء إليه الأولوية القصوى. وكان لدى خبراء الدولة أكثر القدرات الالكترونية تعقيداً للرقابة واعتراض الاتصالات، وقاموا بفحص ملفات عشرات المشتبه بهم، ولكن دون جدوى حتى الآن.

لا غرابة إذن إذا كنت أنا أيضاً، غير قادر، بمصادري المحدودة جداً، من معرفة هوية الشخص المجهول، إذا كان مثل هذا الشخص أو الأشخاص موجودين في الواقع.

لقد دأب المسؤولون الإسرائيليون على نفي وجود شخص مجهول. وادعوا أنه كان ثمة طرق أخرى أمام إسرائيل لمعرفة الأسماء الشيفرية. ربما كان لديهم مصادر في بلدان أخرى في حلف الأطلسي حيث يمكن أن يكون هذا النوع من الوثائق قيد التداول رسمياً أو في أقطار غير صديقة ربما حصلت على الوثائق بصورة سرية. ربما عرفوا الأسماء الشيفرية من بعض الوثائق الأصلية التي قدمها بولارد أو تلك المقدمة رسمياً من قبل الحكومة الأميركية والتي حوت على ما يُظن إسنادات ترافقية لوثائق أخرى.

ولكن في حال وجود شخص مجهول حقاً، فشعوري الخاص أنه توارى منذ أمد بعيد ولدى اعتقاد شبه مؤكد بأنه نُقِل من الحكومة الأميركية. ويدرك المسؤولون الإسرائيليون أن اكتشاف بولارد آخر سيكون بمثابة كارثة كبرى للعلاقات الأميركية الإسرائيلية. وفي ذلك إثارة مُبَرَّرة للجالية اليهودية الأميركية. وبالتالي. فمنذ اعتقال بولارد أكد لي كبار المسؤولين في إسرائيل أن جهاز الاستخبارات الإسرائيلية سَوَّى عمله في الولايات المتحدة، واستنتج الإسرائيليون متأخرين أن مخاطر إدارة جاسوس آخر في واشنطون تفُوق الآن أية منافع يمكن تصورها. ويعتقد معظم المسؤولين الأميركيين ـ لا كلهم ـ أن الإسرائيليين كفّوا عن التجسس ضد الولايات المتحدة.

خلال البحث عن الشخص المجهول ادعى بولارد أنه أُطلِع على ما سماه «قائمة عامة ليهود أميركيين» اشتُبِه في كونهم أيضاً جواسيس إسرائيليين ـ وهي تهمة نفاها دي جينوڤا. «إنه لا ينفك يختلق الانطباعة بأن أحداً قد أطلعه، أو أيًّا كان غيره، على قائمة أسماء يهود أميركيين بارزين أو غير ذلك، إنه كذب مثير، وهو مثلٌ للمستوى والمهاوي التي انحط إليها في محاولة لانتشال نفسه من وضع هو وحده المسؤول عنه».

إن اتهامات بولارد بأن اللاسامية لعبت دوراً في إدانته والحكم عليه أثارت مسؤولي الولايات المتحدة. ولاحظ دي جينوڤا أن خمسة من كبار أعضاء الفريق الحكومي المعني بالقضية ـ مارك ريتشارد، نائب مساعد النائب العام، والقاضي إبراهام سوفاير، مستشار الشؤون القانونية في وزارة الخارجية، ومساعدو المحامين الأميركيين ستيفن ر. شيڤاك وداڤيد جينسون وتشارلز رويستاشر ـ هم من اليهود. وقد أجاب بولارد عن ذلك: «وكان هناك أيضاً ديوك مخصية (Capo) خلال معسكرات الاعتقال».

هنالك أسباب أخرى، غير استمرار الغموض المحيط بالشخص المجهول، تُبقي على

فضيحة بولارد في المقدمة. فالحكومتان الأميركية والإسرائيلية تمضيان في البحث عن شبه صيغة دبلوماسية لربط الأطراف السائبة التي أدت إلى توتير العلاقات الأميركية الإسرائيلية. ولا تزال وزارة العدل تهدد رسمياً بمقاضاة إيتان وياغور رغم أنه قد سبق منحهما الحصانة مقابل «التعاون الكامل». وبالطبع ليس ثمة احتمال لأن تسلم إسرائيل الرجلين للمحاكمة ـ لقد رفضا تسليم سيللا الذي أُدِين رسمياً. إلا أن أية اتهامات رسمية ضد إيتان وياغور ستزيد من الضغط السياسي على إسرائيل.

تستمر المحادثات بين كبار المسؤولين الأميركيين والإسرائيليين في موضوع إيتان وياغور وكذلك مستقبل سيللا الذي يُكمل دراسته دكتور في الفلسفة في جامعة تل أبيب. وجرى بحث مستفيض في كلا الجانبين حول اتفاق سري لتوسيع معاهدتها الراهنة لتسليم المجرمين مع الولايات المتحدة. ويريد الأميركيون إلقاء الحجز القضائي على المجرمين اليهود الأميركيين الذين يفرون إلى إسرائيل حيث يحصلون تلقائياً على الجنسية بموجب قانون العودة الإسرائيلي. حتى الآن توقفت إسرائيل فجأة عن تغيير المعاهدة.

كبادرة حسن نية، وافقت وزارة العدل على أن باستطاعة الميجور جنرال المتقاعد في سلاح الجو آموس لابيدوت ورئيس الأركان المتقاعد في قوة الدفاع الإسرائيلي، موشي ليڤي، دخول الولايات المتحدة دون خوف من الاعتقال.

كان هنالك تقارير متواصلة في وسائل الأخبار حول احتمال وجود مقايضات جواسيس دوليين قيد الإبرام تشمل بولارد. كما يفترض أن يكون بينهم الجاسوسان السوڤييتيان في سجون إسرائيل ـ كالما نوڤيتش وكلنبرغ.

كتب محررا العمود النقابيان جاك أندرسون وديل ڤان آتا في ٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٨ في «الواشنطون بوست» اقتراحاً بأن تجري المقايضة المعقدة على الشكل التالي: «ترسل الولايات المتحدة بولارد وزوجته آن هندرسون بولارد إلى إسرائيل. وتطلق إسرائيل سراح جاسوس سوڤييتي معتقل إلى الاتحاد السوڤييتي. والحلقة الأخيرة في السلسلة تكون بسعي الاتحاد السوڤييتي لدى سوريا وإيران للتفاوض حول الإفراج عن واحد وأكثر من الرهائن الأميركيين المحتجزين من قبل الإرهابيين».

ومع أني لا أشك في أن المسؤولين الإسرائيليين سيرحبون بصفقة كهذه، إلا أن ثمة معارضة جديرة بالاعتبار داخل الحكومة الأميركية لا سيما في وزارة العدل. فكبار المسؤولين الأميركيين لا يريدون إطلاق سراح بولارد. ومع أنه محكوم بالسجن المؤبد إلا أنه سيحق له الإفراج المشروط بعد قضاء عشر سنوات، ويريدون أن يمضي هذه المدة على الأقل في السجن.

سؤال:

هل كان بولارد طرفاً في عملية شريرة أو كان لديه ترخيص رفيع المستوى؟ وإلى أي درجة من الرفعة بلغ ذلك المستوى؟ هل كان ثمة تغطية إسرائيلية رسمية؟

جواب:

استنتجت لجنتا التحقيق الإسرائيليتان الرسميتان أن رافي إيتان قرر إدارة بولارد على مسؤوليته. وذكر تقدير روتنشترايخ ـ تسور: «رغم أنه بدأ في الواقع اجتماعات على المستوى السياسي إلا أنه لم يتشاور مع الوزراء المختصين حول تجنيد بولارد وإدارته». وأضافت هيئة مستشاري إيبان: «إن رافي إيتان يتحمل كامل المسؤولية المباشرة لقرار استخدام وإدارة بولارد. إنه لم يخبر رؤساءه بذلك ولذا فهو لم يتلق مصادقةً عليه».

أبلغني بعض أعضاء اللجنتين بصورة خاصة أنهم شعروا بانزعاج شديد لإلقاء كل اللوم على إيتان. والواقع أن عضواً في الهيئة قال: «لقد وافقنا على هذا الأسلوب بدافع وطني». ورأى احتمال أن يكون مسؤولون رفيعو المنزلة بمن فيهم بعض الوزراء، قد ارتابوا بوجود جاسوس أو جواسيس لإيتان في واشنطون. ولكنهم آثروا الإغْضاء عنه. إنهم لم يطرحوا أسئلة ولم يرغبوا في معرفة القضية بكاملها. وإيتان المتلهف لضمان استمرار عمليته لم يرَ ضرورة لإعلامهم. وفي دنيا العمليات الخفية من الأفضل عدم الإتيان على ذكر بعض الأمور.

شبّه أحد مستجوبي الكنيست قرار إيتان التعمد بإخفاء الأمر عن الزعامة العليا بقرار المستشار السابق للأمن القومي الأميركي جون بويند كستر عدم إعلام الرئيس رونالد ريغان حول تحويل الأرباح من الأسحلة الأميركية لإيران إلى ثوار الكونترا في نيكاراغوا.

في أي حالة، لم أستطع الخروج بدليل ملموس على أن بيريز أو شامير أو رابين أو أرينز عرف بعملية بولارد رغم أنني أشك أيضاً في أن واحداً أو اثنين منهم على الأقل ربما عرفا بأن إيتان كان يدير جاسوساً في واشنطون. إذ إنهم جد متمرسين بمثل هذه الأمور من حيث عدم معرفتهم أو ارتيابهم. وحتى لو ارتابوا بتمركز جاسوس في واشنطون فمن شبه المؤكد جهلهم أن اسمه بولارد أو أنه كان مأجوراً أو أية تفصيلات أخرى عن العملية. ولتأكيد إنكارهم المعقول آثروا البقاء في جهل لمثل هذه التفاصيل.

من ناحيته قال إيتان على رؤوس الأشهاد إنه كان مفوضاً بتجنيد بولارد وإدارته. لقد رفض القول من زوده بذلك التفويض، رغم أن خبرة عمر في التجسس (بما فيه إقامته في الولايات المتحدة)، كما أوردت في هذا المؤلَّف، غرست في ذهنه دون شك أنه اكتسب ذلك التفويض من لاكام. لقد كان جاسوساً مدرباً، وكان يعمل حسبما هو مفروض منه. وتسليماً مني بأهمية المعلومات التي قدمها بولارد، أدرك مبررات إيتان لهذا التفكير.

لنلقِ نظرة على قصة افتراضية تنعكس فيها الصورة. ماذا كان سيفعل مسؤول استخبارات أميركي يعمل خارج السفارة الأميركية في تل أبيب لو أن محلل استخبارات عسكرية ذا مركز مرموق تقدم إليه عارضاً تزويده بمعلومات حيوية تؤثر على أهم مصالح الأمن القومي للولايات المتحدة بما في ذلك مصير المواطنين الأميركيين؟ ولنفترض أن الحكومة الإسرائيلية، لأي سبب كان، لم تكن

راغبة في تزويد الولايات المتحدة بهذه المعلومات رسمياً ـ ربما كانت المعلومات تفضح مصادر وأساليب استخبارات إسرائيل ذاتها. كيف سيكون رد فعل الأميركيين؟

لا شك أنهم سينفعلون ـ كما انفعل الإسرائيليون عندما برز لهم بولارد. إنهم سيقلقون حول استثارتهم أو افتضاحهم سياسياً. ولكني لا أشك في أن بعد تفكير عميق وحذر متناهٍ سيكون الأميركيون أيضاً على استعداد لمعرفة نوع المعلومات التي يريد الإسرائيلي تقديمها.

وإذا كان المواطن الإسرائيلي فعلاً ينقل الكميات الضخمة من الوثائق الإسرائيلية العالية التصنيف إلى مديريه الإسرائيليين ـ مقابل المال طوال مدة ثمانية عشر شهراً وإذا كان قد افتضح أمره وانتهى به المطاف إلى الاعتقال، فإنني أشك كثيراً فيما إذا كان الجسم القضائي سيعامل الجاسوس بكثير من التساهل. لا بد أن الأمر سينتهي به إلى قضاء عدة سنوات في السجن حتى لو كانت المعلومات قد ذهبت إلى دولة حليفة لإسرائيل.

سيكون ثمة فارق رئيسي. بين الأسلوبين اللذين سيتبعهما كل من إسرائيل والولايات المتحدة إزاء هذا النوع من «التجسس الودي». ويكاد يكون في حكم المؤكد أن الإسرائيليين سيبقون الحدث بقدر الإمكان في منأى عن الرأي العام. ستجرى محاكمة سرية ويكون هنالك علنية ضئيلة جداً. وسيسمح القانون الإسرائيلي بذلك. وفوق ذلك فإن المصالح الأساسية لإسرائيل في الحفاظ على علاقاتها الوطيدة مع الولايات المتحدة ستطغى على أية اعتبارات أخرى.

لو لم يكن ثمة فيض من قضايا التجسس في الولايات المتحدة قبل ذلك سنة ١٩٨٥ لاختلفت دون ريب الطريقة التي تناولت الولايات المتحدة فيها اعتقال بولارد. فمن ناحية، ربما لم تكن لتحدث ما أحدثته من وقع هائل في الأوساط الإعلامية ولحاول الأميركيون التقليل من أهمية الفضيحة ـ رغبة منهم في عدم تعريض العلاقات الأميركية الإسرائيلية للخطر أو تقويضها على نحو غير ضروري. ويدرك الأميركيون أنه في خِضم الجاسوسية الدولية المتلاطم. كل الأقطار في الحقيقة تتجسس.

قال دي جينوفا: «لا أظن أنه كان باستطاعة بولارد اختيار وقت أكثر وضوحاً لارتكاب الجاسوسية ضد الولايات المتحدة. إن سحبه على المائدة ذلك المساء كان شيئاً إلى حد ما».

إن إيقاف حنفية بولارد ـ رغم كافة إشارات التحذير ـ أثبت أنه صعب ومؤلم جداً لإيتان وزملائه. لقد افترضوا بغطرسة وطيش أنه لن يلقى القبض عليهم. ولا بد أنهم اقتنعوا بأنه حتى لو أُلقي القبض عليهم فبإمكانهم احتواء الضرر. لم يكن ثمة إشراف سياسي مستقل على العملية ـ والحكومة الإسرائيلية هي الملومة على ذلك. فمن غير الواقعي دوماً الافتراض أن الجواسيس يستطيعون ممارسة الضغط السياسي الضروري في أية عملية.

كان القرار رفيع المستوى لتغطية دور سيللا مفهوماً ولكنه ينم عن الحماقة. لقد أراد

الإسرائيليون بإخلاص إنقاذ سيرة سيللا الممتازة والتي ستتقوض في حال انكشاف تورطه. كما خافوا عدم تسليم الأميركيين أبداً بفكرة أن العملية لم تكن مرخصة إذا اشترك فيها طيار من سلاح الجو. غير أنه كان لا بد أن يعرف محترفو الاستخبارات المضادة الإسرائيليون أن الأميركيين سيعلمون في آخر الأمر بتورط سيللا. وكان يتوجب على الإسرائيليين منذ البداية الافتراض بأن بولارد ـ الذي كان ، فضلاً عن ذلك، هاوياً دون تدريب مهني كجاسوس ـ سيتعاون مع الأميركيين لا سيما بعد غدر إسرائيل. وكان على الإسرائيليين أن لا يفترضوا أبداً بأن بولارد سيلتزم جانب الصمت وخاصة لأن باستطاعة الأميركيين استخدام آن كرافعة. وقد فعلوا ذلك. لقد قوضت تغطية سيللا مصداقية إسرائيل لدى الأميركيين وعادت على إسرائيل بأوخم العواقب.

كان الأولى ببولارد أن لا يفزع إلى هذا الحد من الغدر الإسرائيلي به. لقد أضحى مؤقتاً فريسة الضياع لأن مجمل العلاقات الأميركية الإسرائيلية كان على كف عفريب. وبالتالي، كان متوقعاً ادعاء حكومة إسرائيل بأن بولارد كان طرفاً في عملية إجرامية. فلو كان ولاء بولارد لإسرائيل راسخاً كما أكد، كان لزاماً احتواء غمه وغضبه ـ المفهومين دون ريب ـ حتى إزاء تسليم إسرائيل الدليل للأميركيين لاعتقاله.

يؤكد المسؤولون الإسرائيليون أنه كان يجدر ببولارد ـ حتى في هذه الظروف الصعبة ـ أن يفترض بأن إسرائيل عرفت ما كان يفعله، وأنها ستتخذ الخطوات في النهاية للإفراج عنه. وقال جاسوس إسرائيلي معلقاً: «كان أولى به التزام الصمت». وذكر أنه في المسلسل التلفزيوني القديم «مهمة مستحيلة» كان جيم فيلبس (تمثيل بيتر غريفز) يحذر دائماً بشكل روتيني «إن الوزير سينفي أية معرفة بنشاطاتك إذا ما اعتُقِلت أو قُتِلت».

ومهما يكن، كانت مشكلة بولارد أن إسرائيل لم تدرب بولارد مهنيًّا أبداً على التجسس. وفي الدور الذي قام به لم يسبق أن أجرى مقرراً تعليمياً أساسياً في الجاسوسية. وبعد أن عرف أن إيتان وياغور ومسؤولين إسرائيليين آخرين كانوا يتعاونون مع تحقيق الولايات المتحدة افترض فقط بأن إسرائيل أرادت منه أن يحذو حذوهم. كما دأب قبل ذلك على ارتكاب عدة أخطاء فاحشة. ممثلاً قراره بجمع وثائق مصنفة عن الصين لأن كان طائشاً بكل ما في الكلمة من معنى. نظرياً، لقد خاطر بفضح كامل العملية كي يساعد آن في الحصول على عمل. كما أنه جمع بغباء أكثر مما ينبغي من الوثائق. فلم تكن كلها رئيسية لأمن إسرائيل. ولو كان بولارد ومديروه أقل جشعاً لربما ظلت العملية سنوات دون انكشاف. وبالطبع كان لزاماً على مديري بولارد اكتشاف هذه الأخطار وتصليحها. إلا أن كامل العملية تصدع من الأساس. كما أن تصرف إيتان كان دون الحِرفي.

سؤال:

هل كان حكم السجن المؤبد على بولارد منصفاً أو صارماً جداً؟

جواب:

في برنامج «ستون دقيقة» أشار بولارد الذي كان يتميز غيظاً بعد ثلاث سنوات من الحبس الانفرادي في السجن، إلى مسؤولي الاستخبارات البحرية الذين رافقوا مايك ولاسن كفأرين «خرجت من المنجور». وأكد بولارد أن الحكم عليه «لم يعكس عدالة نسبية، بل عكس انتقاماً سياسياً، واضحاً وصرفاً». وأعاد توجيه اللوم لواينبرغر ـ وهي تهمة رددها في البرنامج ألان درشويتز، محامي بولارد.

سلّم درشويتز «بأن إدانة بولارد والحكم بسجنه اتّسما بالعدل. وهذا ما استحقه. أما القول بوجوب معاملته كما لو كان جاسوساً باع أسراراً نووية للاتحاد السوفييتي ـ ما الذي فعله؟ لقد اعتذر عن ذنبه. وكان تعاونه تاماً. وساعد الحكومة في تقييمها للضرر، لقد تجسس لدولة كانت حليفة للولايات المتحدة، وبذل أقصى المستطاع كي لا يعطي إسرائيل سوى المعلومات التي اعتقد بضرورتها لبقاء إسرائيل ولا تعرّض مصالح الولايات المتحدة للخطر. لا نقول ذلك دفاعاً، بل تنديداً بأقصى عقاب ممكن نزل به».

وسلّم دي جينوڤا بأن الحكومة كفريق في اتفاق مشارطة دفع الدعوى، لم تطالب بالسجن المؤبد. وقال: «ومع ذلك فقد أحيط القاضي علماً بتقييم الضرر الذي أعده وزير الدفاع. . . واعتقد أنه لو أمكننا نكشف للشعب الأميركي نوع الضرر الذي أُلحِق، فإن الحكم لن يكون موضوع خلاف».

أجاب درشويتز: «هذا هراء، أعتقد أنه تنكرٌ للأميركيين أن ينبري وزير دفاع إلى المغالاة أمام الشعب الأميركي، وعندما يطالب الشعب بإثبات ذلك يختفي خلف وقاء من السرية، يحوله إلى سيف، ويقول للشعب الأميركي: «ثقوا بي، صدقوني، ما قلته للقاضي صحيح». «أنا لا أصدقه، وأعتقد أن كثيراً من الأميركيين لا يصدقونه».

استشهدت رواية «الستون دقيقة» بأقوال مسؤولين حكوميين دون ذكر أسمائهم، بأن بولارد كذب عندما قال: «إنه لم يتضمن أي من المعلومات التي قدمها (هو) إلى إسرائيل. . . شيفرات أميركية أو عملاء أو هوياتهم أو مراكزهم أو عتاداً عسكرياً أو خرائط حربية أو أجهزة جمع استخبارات أو شهادات قسرية. وإنهم المسؤولون عن أنه فضح في الواقع مصادر بشرية وتقنية حساسة لجمع الاستخبارات، إلا أن «الستون دقيقة» لم يقدم أية تفصيلات محددة».

استناداً لما أعرفه وما أوردته في الكتاب، فإن بولارد ألحق فعلاً ضرراً بمصالح الأمن القومي للولايات المتحدة بالتجسس لإسرائيل، ودي جينوڤا مُحِق إذ يقول إنه حتى مؤيدو بولارد سَيُدركون هذا الضرر لو أن المذكرة نُشِرَت بكاملها. ومن جهة أخرى فإن كثيراً من الضرر جرى احتواؤه نتيجة انكشاف العملية. ومنذ اعتقال بولارد تعاون مسؤولو الاستخبارات الأميركية والإسرائيلية ـ ولو بشكل غير كلي ـ لإصلاح الضرر. رغم استمرار شعور الأميركيين المفهوم بالمرارة حول الفضيحة برمتها.

ربما لم يُبدِ بولارد كثيراً من الندم في تعليقاته لي ولآخرين منذ اعتقاله والحكم عليه. إلا أنه تعاون مع التحقيق، واعتذر عن ذنبه. وعليه، في رأيي أنه كان من المتوجب عدم الحكم عليه بالسجن المؤبد. كان على القاضي روبنسون أن يوافق على توصية الحكومة بأن ينال بولارد عوضاً عن ذلك حكماً مقرراً.

على كلٍ، فشعوري الخاص هو أن الولايات المتحدة سوف تتوصل في النهاية إلى نوع من الصفقة السياسية يتسنى معها إبعاد بولارد إلى إسرائيل. ولكن ذلك يتطلب وقتاً.

لقد أحسست على الدوام أن الحكم بسجن آن خمس سنوات كان صارماً جداً. ولست أعتقد بأنه كان يجب إرغامها على العودة إلى السجن. فمن ناحية أنها مريضة جداً. ومن ناحية أخرى لقد اعتذرت عن ذنبها، وتعاونت مع التحقيق. وأخيراً حاولت مساعدة زوجها (وبدون قصد آڤي سيللا) على الفرار. وبينما كانت تدرك نشاطات زوجها، إلا أنها لم تكن متورطة عملياً بحلقة التجسس. كان اشتراكها هامشياً؛ كانت مدفوعة بحبها الأعمى لزوجها. إن بقاء آن ثلاثة أشهر في سجن مقاطعة كولومبيا كاد أن يقتلها. وهكذا كان من المتوجب أن تنال حكماً مُرجأً مع فترة تعليق محددة. وهذا ما كنت أفترضه. لقد قاست ما فيه الكفاية حتى الآن لجريمتها. وإعادتها إلى السجن كانت في رأيي نتيجة مقابلتها المشؤومة قبل الحكم في برنامج «ستون دقيقة» والذي أبدت فيه قليلاً من الندم، لقد أثار موقفها الغضب الشديد في نفس القاضي روبنسون، الذي شاهد البرنامج.

سؤال:

لماذا سمحت الحكومة لي بدخول السجن لمقابلة بولارد؟ هل استُخدِمت كي ينال بولارد حكماً أشد صرامة؟

جواب:

كما كتبت في المقدمة، لم يكن لدي فكرة عمّ حفز الحكومة للسماح لي بالوصول إلى بولارد. كنت سعيداً لأحظى بأولى مقابلاته. وأنا أظل عند اعتقادي بأنني تصرفت مهنيًّا وبمسؤولية حتى رغم استعدادي للتسليم بأن الحكومة ـ في البحث عن حكم أقسى لبولارد ـ استخدمتني.

بعد تفكير دقيق خلصتُ إلى أن الحكومة كانت توّاقة لمعرفة ما سيقوله بولارد لصحفي. فالمراقب في بيترسبورغ لم يأذن لي بدخول السجن من تلقاء ذاته. لقد حصل على ترخيص من واشنطون. كان من السهل حرماني من الإذن. ولكن الحكومة أدركت أن أية مقابلة يمنحها بولارد ـ دون تفويض من الاستخبارات البحرية ـ ستشكل خرقاً لاتفاق المشارطة ـ دفع الدعوى. كان مما يسر المُدعين وغيرهم من المسؤولين الأميركيين عن تطبيق القانون أن يفسحوا المجال لبولارد ليحفر قبره بيده.

مع ذلك قد تكون الكلمات والآراء شديدة الوقع. وفي نظامنا لا تستطيع الحكومة التحكم تماماً بأثرها. وبإذاعة بولارد وجهة نظره من القصة لأول مرة بدأ تغيير الرأي العام في إسرائيل وفي

الجالية اليهودية الأميركية. أما قبل المقابلات فقد كان التعاطف ضئيلاً جداً ـ إذا وُجد ـ معه. لقد تبدل ذلك الآن.

سؤال:

وأخيراً، ماذا عن بولارد نفسه؟ هل كان جاسوساً مخرباً خطيراً ـ مرتزقاً ـ أو شاباً ألمعياً عاش حياة حافلة بالخيال تركز حول أن يغدو بطلاً أسطورياً للبلد الذي أحب لدرجة العبادة؟ هل كان مهتماً بإخلاص برفاهية إسرائيل، أو كان مجرد متلهف للحصول على مزيد من المال؟

جواب:

بما أنني قابلت بولارد وعائلته وأصدقاءه وعشرات من المتورطين غيرهم في القضية، لست أشك في أن الدافع الأصلي لبولارد كان مساعدة إسرائيل. كان ولاؤه الأساسي لذلك البلد. رأى معلومات شعر أن إسرائيل بحاجة إليها فقرر الحصول عليها ـ كان ذلك خطأً مفزعاً ومفجعاً. وكما قلت سابقاً في هذا الكتاب، كان لزاماً على بولارد ترك عمله والانتقال إلى إسرائيل في اللحظة التي أغري فيها على أن يصبح جاسوساً. ولكنه كان دون شك قد خُدع أيضاً بإثارة أن يغدو جاسوساً ـ وهو ما داعب فعلاً مخيلته. سنوات عديدة. لقد كان شديد الإعجاب بآفي سيللا كبطل إسرائيلي واقعي، أراد أن يصبح مثله. وكما اعترف بنفسه، فإن المال الذي قدمه الإسرائيليون عمل فعلاً على إفساده ـ إذ كانوا واثقين من تأثيره. تاق إلى مستوى أعلى من المعيشة. وعرف الإسرائيليون أنه سيقع في الفخ وفي النتيجة سيستمر في العمل لهم. ومع ذلك لم يكن المال همه الأول. كانت إفادته المالية نتيجة ثانوية لحافزه الأصيل.

ونتيجة لجريمته يستمر بولارد في الاسترخاء في السجن. لقد خرق القانون وانتهك الثقة التي وضعتها به حكومة الولايات المتحدة. فدخل أرض الأكاذيب دون جواز سفر للعودة.

حاشية

منذ نشر الطبعة الأصلية ذات الغلاف الصلد من هذا الكتاب في آيار/مايـو ١٩٨٩ استمر يوناثان جي بولارد في تمضية مدة السجن المحكوم بها في ماريون. ويبقى في عزلته في قسم خاص تحت الأرض من منشآت تحت الحراسة القصوى. وفي ذلك القسم ذاته يقبع في زنزانتين مستقلتين جون ووكر الذي تجسس لصالح السوڤييت وأُدِين ويلسون جاسوس وكالة الاستخبارات الأميركية المرتد والذي باع أسلحة لليبيا.

كتب بولارد من السجن: «تمضي الحياة بالنسبة لي على ذات الوتيرة التي كانت عليها خلال السنوات الأربع الماضية. ومع أن المحيط الطبيعي في ماريون أفضل مما كنت أتوقع، إلا أنني لا أرى في الواقع شيئاً ملائماً يمكنني قوله عن حبس انفرادي. ومع ذلك، أنا أحيا وأرفس كما يقولون، وليس لي أية نية على الإطلاق لاستباق الأمور التي هي مرهونة بأوقاتها ولكني على ثقة من الاهتداء في النهاية إلى حل عادلٍ».

أما آن التي لا تزال بحالة صحية غير مستقرة، فقد أطلق سراحها ونقلت إلى بيت في منتصف الطريق في مدينة نيويورك في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٩. لقد أمضت ما يقارب الثلاث سنوات من أصل الخمس سنوات المحكومة بها. وأخبرني مسؤولون في وزارة العدل الأميركية أن مقالاً كتبته لصفحة «أدب ـ أد» في النيويورك تايمس في ١ كانون الأول/ديسمبـر ١٩٨٩ بعنوان «المحنة غير الضرورية للسيدة بولارد» لعب دوراً هاماً بإقناع سلطات السجن أخيراً للإفراج عنها. وحين نُشِر مقالي كانت مؤهلة لإطلاق سراح مشروط يزيد عن السنة. ومن ناحية أخرى كان قد رُفِض التماساها الأولان.

في إسرائيل ظل زخم الحركة المؤيدة لبولارد في ازدياد مطرد. وأكدّ ذلك الدعم الاستثنائي للزوجين بولارد الذي أعرب عنه مقتطف نموذجي من الكنيست. وهم يشعرون بجلاء بأن حكومتهم

أُرغمت ليس فقط على التخلي عن بولارد بل أيضاً الغدر به. والواقع أنه في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٩ طار إلى ماريون عضوا الكنيست. جيئولا كوهين من حزب تخيا اليميني المتطرف وأدنا سولودار من حزب تجمع العمل اليساري للاجتماع ببولارد لبرنامج ٩٠ دقيقة العاطفي. وقد عادا فيما بعد إلى واشنطون لكسب تأييد أعضاء مجلس الكونغرس والشيوخ لمصلحته.

لقد أثنى البرلمانيان على بولارد كيهودي مدرك وغيور يحب إسرائيل ولا يزال يأمل في العيش هناك وقد تأثرا بما سمعاه من بولارد وتعهدا بعمل كل ما في استطاعتهما لمساعدته وزوجته. وقالا إنهما ناشدا المشرّعين الأميركيين بالحث على أن ينال بولارد عفواً فورياً يمكّنه من الاستيطان في إسرائيل.

كذلك حدث تبدل بسيط في الاتجاه السائد في المنظمات اليهودية الأميركية. وأثار سيموررايخ، رئيس مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأميركية الكبرى علانية تساؤلات حول صرامة الأحكام على الزوجين بولارد وأبدى زعماء يهود آخرون اهتماماً وقلقاً إنسانياً في المناشدة لصالح آن. إلا أن غالبية الجماعات اليهودية، بما فيها عصبة مكافحة المهاترة التابعة لبني بريت، لا تزال ترفض الاتهامات بأن اللاسامية بذاتها لعبت دوراً ضد الزوجين بولارد.

مع أن العديد من القراء اتهموني بتعاطفي الصريح مع الزوجين بولارد، إلا أن يوناثان وآن تضايقا كثيراً من الكتاب. وقد نعته يوناثان «بالفشل الحقيقي». وأضاف أنه زخر بكثير من الأخطاء الواقعية والمعلومات المغلوطة التي هي «خيال مصنف». وقد أغضبه بوجه خاص إعلاني أن الحكومة الإسرائيلية كانت توفر له بلا ضوضاء ٥,٠٠٠ دولار شهرياً تكون بمثابة مال مدخر مليح لدى وصوله إلى إسرائيل والواقع أن يوناثان أصدر البيان التالي بواسطة أحد محاميه:

«لقد أزعجتنا المزاعم الواردة في مؤلَّف وولف بليتزر من أن الحكومة الإسرائيلية توفر ٥,٠٠٠ دولار كل شهر كمكافأة لي. بالنسبة لنا، نعتبر ذلك اختلاقاً كلياً. إننا لم نسمع من أحد بمثل هذه المكافأة. علاوة على ذلك أستنكر بشدة محاولة وولف بليتزر وآخرين استخدام هذه القصة في الواقع لتصويري كمرتزق، وهذا غير صحيح، إن تعلقي بإسرائيل قائم فقط على أسس أيديولوجية صرفة ولا يمكن قياسه بمعايير مالية، إن «الحساب المصرفي» الوحيد الذي أتمنى إحرازه هو إدراكي أنه بجهودي يمكن إنقاذ أرواح الإسرائيليين والأميركيين على حد سواء. لا أعتقد بادخار أي مبلغ من المال. ولكن إذا صح ذلك، نصرُّ آن وأنا على إعطائه إلى أتقى يهود، خاصةً إعادة تأهيل الجنود الجرحى في المعركة».

كان يتقاضى إبان اعتقاله ٢,٥٠٠ دولار شهرياً من مديريه الإسرائيليين، كما اعترف بنفسه. وما كتبته في المؤلَّف ـ وما أعاد تأكيده لي منذ ذلك الحين مسؤولون إسرائيليون رفيعو الرتبة ـ أن «التقليد في جهاز الاستخبارات الإسرائيلية كان يقضي على الدوام بأن يستمر المعتقلون المسجونون في تقاضي مرتباتهم. مضاعفة فقط». ولكن بولارد لا يتقاضى شيئاً من هذا القبيل في ماريون، فهو

لم يرَ فلساً واحداً منه. بل إن الإسرائيليين على النقيض من ذلك يمسكون عنه. لقد سرّبوا لي تلك المعلومات ليقنعوا الجمهور القلق والمرتبك بأن الحكومة لم تتخلَ في الواقع عن بولارد.

كما أوضحت في هذا الكتاب، لم يدر في خلدي قط أن بولارد كان مدفوعاً بعامل الجشع. لقد خلصتُ إلى القول بأنه كان متعصباً أيديولوجياً تجسس لمصلحة إسرائيل حتى لو لم تتضمن العملية أي مال.

ظل الزعماء الإسرائيليون طوال العام الماضي على العهد لبولارد حتى رغم عدم الإقرار علانية بذلك، وكما رويت في هذا الكتاب لقد كان من وجهة النظر الإسرائيلية عميلاً مخلصاً. ولأسباب سياسية يستمر الإسرائيليون في الاعتقاد بوجوب التمسك بروايتهم الأصلية القاتلة بأنه طرف في عملية شريرة غير مرخصة لجمع الاستخبارات.

ومع ذلك، عندما أذيع لأول مرة ما كشفته من معلومات عن الحساب السري لبولارد قال ناطقون بلسان الحكومة الإسرائيلية بعدم رغبتهم في التعليق على المسألة. وقد أدهشني هذا الصمت الرسمي، لأنني افترضت قبل ذلك احتمال لجوئهم إلى نفيها. وفضلاً عن ذلك، واصلوا بهدوء حملتهم لجمع مبلغ لا يستهان به لدفع بعض الرسوم القضائية الجسيمة عن الزوجين بولارد بيد أن الحكومة كانت تخشى إعلان كل ذلك.

كان ثمة شكاوى أخرى حول الكتاب. فالدكتور موريس بولارد الذي أكن له أسمى تقدير شخصي، نفى أن يكون قد طار إلى جامعة ستانفور لمساعدة ابنه لاجتياز أزمة خطيرة بعد تدخين قَدر وافر من القنب الهندي، كما رويت. وقال الدكتور بولارد إن ابنه كان يشكو حينئذٍ من كثرة أحاديات النواة. وانتقدني غيره من مؤيدي بولارد للزعم المفترض بأن بولارد كان مسرفاً في تعاطي المخدر أو الكحول. ورغم تقدم العديد من معارف بولارد بتلك المزاعم لم أتمكن من تأكيدها كما أرغب. وما كتبته هو ما جاء على لسان بولارد نفسه: «إنني أقر بتدخيني البوتقة في الكلية ومعهد التخرج ولم أحاول قط إخفاء هذه الحقيقة. بل ذكرتها في طلبي لأول منصب في الاستخبارات البحرية. ومن الواضح أنها لم تُستَغَل ضدي».

منذ نشر الكتاب ناشدني العديد من رفقاء بولارد في الاستخبارات البحرية وغيرهم من المسؤولين الحكوميين الأميركيين المعنيين بالقضية لإضافة آرائهم. وقد سررت إذ تبين لي أن معظم المعلومات اللاحقة التي قدموها أكدت قوة ريبورتاجي الأصلي. ومع ذلك، في مرحلة رئيسية أكد المحققون والمدعون الأميركيون أن بولارد كان في الواقع قد زودهم بمعلومات سرية حول الدور الرئيسي لأڤييم سيللا في الفضيحة بعد أن حاولت إسرائيل إخفاءه. واستشهد أحد المسؤولين الأميركيين لتطبيق القانون بقول بولارد وهو يتباهى في بدء مفاوضات المشارطة ودفع الدعوى «أستطيع أن أقدم لكم القابض على الزمام في إسرائيل». وكما رويت في الكتاب فقد نفى بولارد بشدة ذلك، وشدد على أنه حاول على الدوام حماية سيللا.

من ناحيته تابع سيللا، ليظل في الأعراف طيلة العام الماضي، مسيرة المتثاقل والمتفوق ذات مرة في سلاح الجو. والواقع أنه نتيجة للاجتماعات الأميركية العنيفة أضاع فرصة تعيينه في منصب رفيع لدى شركة دفاع أميركية كبرى. أخذ إجازة غياب من سلاح الجو للعمل كمستشار لشركة الصناعات الكهربائية البصرية المحدودة المعروفة باسم أل ـ أوب. لقد نددت الولايات المتحدة بشدة بالتعيين. وقال الناطق باسم البنتاغون دان هوارد في ١٦ آذار/مارس ١٩٨٩ «إن المسؤولين الأميركيين في الخارج أو المقاولين في العمل الرسمي الأميركي» لن يديروا عملاً حكومياً مع أفراد قيد الإدانة من قبل حكومة الولايات المتحدة، وقال إن الولايات المتحدة ستقيد دون ريب الاتصال مع أل ـ أوب إذا تم تعيين سيللا، ووفقاً لنشرة «أخبار الدفاع» في واشنطون فإن قسماً كبيراً من مبيعات أل ـ أوب السنوية والبالغة ١٠٠ مليون دولار يتضمن صادرات إلى الولايات المتحدة. واشتراك سيللا مع الشركة سيعرض تلك المبيعات للخطر. ومنذ أن أضاع سيللا العمل لدى أل ـ أوب تابع دراسته الدكتوراه في الفلسفة في جامعة تل أبيب ـ غير قادر بالطبع على إتمام برنامجه في جامعة نيويورك.

في كانون الثاني/يناير ١٩٩٠ تقاعد رافي إيتان كرئيس للمواد الكيميائية الإسرائيلية التي كانت تتبعها الحكومة الإسرائيلية كجزء من برنامجها التخصصي. ويوسف ياغور ما زال يتلمس طريقه في الحياة ويشعر بالمرارة العميقة لما حدث لبولارد. إيريت إيرب حصلت على عمل في تل أبيب. ولا تزال حكومة الولايات المتحدة تهدد بسحب الحصانة من المقاضاة التي مُنحت لهؤلاء المشاركين في المؤامرة وغير المدانين لقاء شهادتهم ضد بولارد. والواقع أنه من حين لآخر عاد إلى واشنطون أمين سر مجلس الوزراء الإسرائيلي الياكيم روبنشاتين لمقابلة مسؤولي وزارة العدل في محاولة لاتخاذ قرار حول القضية. ولكن لم يجرِ تحرك جدي حتى الآن. وفي تناقض ظاهر أن إمكانية مقايضة الجواسيس المتعددة الدول والمتضمنة بولارد تضاءلت على ما يبدو بسبب الاضطراب السياسي في أوروبا الشرقية والاتحاد السوڤييتي.

لا يزال محامو بولارد ذاته يدرسون استراتيجية لسحب دفعة الفرعي لاتهامه. بيد أنهم يدركون أن هذا الإجراء القانوني محاولة مطولة. حتى أنهم يشكون في أن موكلهم سيطلق سراحه ذات يوم إنما كجزء من صفقة سياسية ثنائية بين الولايات المتحدة وإسرائيل تشتمل على حشد كامل من القضايا الأخرى. ومما يسترعي الانتباه أنه بينما يتميز المسؤولون الأميركيون غيظاً حول مجمل الفضيحة، فهم يميلون إلى الموافقة. إلا أنهم يشددون على أن ذلك سيستغرق وقتاً ويتطلب جَلَداً. وقد دأبوا على أن ينفوا بشدة أي خطأ في مبادلة اتفاقات دفع الدعوى مع الزوجين بولارد. كما يؤكدون أنه لم يكن ثمة شيء خاطىء في تقييم الضرر المصنف الذي قدمه وزير الدفاع واينبرغر إلى القاضي روبنسون.

وهكذا أوضح جون ل. مارتن رئيس دائرة الأمن الداخلي في القسم الجنائي بوزارة العدل أن كلا الزوجين بولارد أبرما اتفاقات دفع الدعوى «بمشورة محاميهما الذي وكلته أُسرته بولارد». كما

شدد مارتن على أن الأحكام الصادرة بحق الزوجين بولارد كانت ضمن الاختيار المطلق لقاضي المحاكمة لا يحددها سوى الأحكام الدنيا والقصوى التي سنها الكونغرس. ولا يميز قانون الجاسوسية بين دول صديقة وغير صديقة. إنه يحظر نقل المعلومات المتعلقة بأمننا القومي إلى أية دولة أجنبية.

في حين يظل الزوجان بولارد ساخطين طبعاً عليّ، إلا أن معظم المؤيدين الغيورين أخبروني بصورة شخصية أنه ليس لديهم مشاكل جدية مع المؤلف. وذكروا أنهم كانوا بلا ريب سيكتبون بشكل مختلف، غير أنهم سلّموا بأن قصدي لم يكن كتابة خلاصة قانونية لصالح الزوجين بولارد بل شرح الحقائق دون تحيز قدر الإمكان.

يستطيع محرر يتناول هذا الموضوع البالغ الحساسية الحصول على جانب من القصة من الزوجين بولارد، وآخر من مسؤولي الولايات المتحدة وثالث من الإسرائيليين الذين كانوا معنيين بالفضيحة. لقد لجأت لسائر الجوانب الثلاثة، وحاولت أن أكون موضوعياً ما استطعت.

أخيراً، إنني شاكر لأكثر من ٢٠٠ ناقد أدبي في الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وإسرائيل وأستراليا وفي بقاع أخرى حول العالم ممن أثنوا على الكتاب. وقد شرفني أن محرري مراجعة الكتاب في النيويورك تايمس وصفوه بأنه «أبرز» مؤلفات سنة ١٩٨٩.

لقد سرني بوجه خاص الكتب العديدة التي تلقيتها من القراء الذين وافقوا على أنني عالجت موضوعاً متفجراً بحساسية ومسؤولية، وقد اكتسبت من آرائهم.

وعلى فكرة، كتب لي قارىء لبيب أن علامة اقتباس بولارد حول «أرض الأكاذيب» الواردة في بداية هذا الكتاب ـ اختيرت فعلاً من رواية غراهام غرين «لب الموضوع». في ذلك المؤلف كتب غرين، الذي هو موضع إعجاب بولارد الشديد، عن جاسوس خيالي: «بعيونه المفتحة ومعرفته العواقب ولج أرض الأكاذيب دون جواز سفر للعودة».

وولف بليتزر
واشنطون دي. سي.

الفهرس



دار المؤلف
للنشر والطباعة والتوزيع ش.م.م

المركز الرئيسي: بيروت - شارع مار الياس - بناية القصر، ط ٥ - هاتف ٣٠٨٠٤٢ - ٢١٣٦٨١ - ص.ب ١١ـ٥٤٦٠ بيروت
التوزيع في بيروت: مكتبة الحكيم - الحمراء - شارع المقدسي بناية بحعاري مقابل مستشفى خالدي هاتف ٣٥٤٨٤٦
مكتبة الحكيم الجديدة - المصيطبة - شارع بربر بناية نويهض